ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

رواية فى اربعة مجلدات

المجلد الثانى

دار «رادوغا». موسكو

ترجمة : علي الشوك
أمجد حسين
غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان

М. Шолохов
ТИХИЙ ДОН
Роман в четырех книгах
Книга 2
на арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار «رادوغا» ، ١٩٩٠
طبع فى الاتحاد السوفيتى

ISBN 5-05-002868-X
ISBN 5-05-002870-1

الجزء الرابع

١

١٩١٦ . تشرين أول . مساء ، مطر ورياح ، غابات ، خنادق على مشارف مستنقع تظلله أشجار الحور . شبكات من الأسلاك الشائكة في المقدمة . وحل متجمد في الخنادق . صفيحة برج المراقبة الندية تسطع بحديدها الكامد . أضواء هنا وهناك في الحفائر .

في مدخل إحدى حفائر الضباط توقّف هنيهة ضابط قصير القامة ، وانزلقت أصابعه المبتلّة فوق أزرار معطفه . ثم حلّها بعجالة ، ونفض الماء عن ياقته ، ومسح حذاءه بكومة من القش المداس فوق الوحل في المدخل ، وعندئذ فقط دفع الباب ، وانحنى ، ثم دخل الحفيرة .

والتمع على وجهه شريط زيتي من الضوء الأصفر ينساب من مصباح كيروسين صغير . فنهض ضابط يرتدى سترة مفتوحة من على سرير خشبي ، ومسّد على شعره الأشيب الأشعث وتساءل متثائباً :

— تمطر ؟

فأجابه الزائر :

— نعم ، — وخلع معطفه ، وعلّقه مع قبعته المبتلة على مسمار عند مدخل الباب . وأضاف :

— أنتم في دفء هنا . تدفئون الهواء بأنفسكم .

— أشعلنا الموقد قبل قليل . ولكن المشكلة هي أن الماء

ينزّ من القاع . وسوف يكتسحنا المطر ، عليه اللعنة . ما رأيك يا بونتشوك ؟

انحنى بونتشوك ، ثم قرفص أمام الموقد وقال وهو يفرك يديه :

— ضعوا بعض الألواح على الأرض . إن حفيرتنا جافة مريحة ، حتى ليسعنا أن نسير حفاة الأقدام . أين هو لستتسكي ؟

— نائم .

— هل نام طويلاً ؟

— لقد عاد من جولة حول مراكز الحراسة ورقد في الحال .

— هل هناك بأس في إيقاظه ؟

— لا بأس ، فسوف نلعب شوطاً من الشطرنج .

ونضا بونتشوك المطر عن حاجبيه الكثّين بسبابته ، دون أن يرفع رأسه ، وطفق ينادي بصوت هادئ :

— يفغيني نيقولايفتش !

قال الضابط أشيب الشعر متنهّداً : «يبدو أنه مستغرق في النوم» .

ثم أردف بونتشوك منادياً من جديد : «يفغيني نيقولايفتش !»

فنهض لستتسكي مستنداً على مرفقه وقال :

— حسناً ؟

— أتلعب شوطاً من الشطرنج ؟

أنزل يفغيني ساقيه من على السرير وراح يدلك صدره السمين بشدة براحة يده الناعمة البيضاء .

وعند اقتراب الشوط الأول من نهايته ، دخل ضابطان من السرّية الخامسة ، هما الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف . هتف كالميكوف وهو يجتاز العتبة :

— عندي خبر لكم ! الكتيبة قد تُسحب .

فندت عن الضابط الأشيب الشعر الرئيس ميركولوف ابتسامة شك وقال :

— أين سمعت بذلك ؟

— ألا تصدقني أيها العم بيوتر ؟

— إذا أردت الحقيقة ، لا .

— أخبرنا آمر البطّارية لتوه هاتفياً . أمّا كيف يدري ؟ بسيط ! لم يمضِ على عودته من قيادة الفرقة إلاّ يوم واحد .

وقال تشوبوف وفي صوته رنة طرب :

— الاستحمام شيء رائع ، — وطبطب على ردفيه كمن يفرك جلده بأغصان من شجر البتولا .

فعقّب ميركولوف مبتسماً :

— لم يبقَ علينا الا ان نضع المرجل هنا ، فلدينا ماء وافر .

وهمهم كالميكوف وهو ينظر إلى الجدران الخشبية والأرض الموحلة :

— مكانكم رطب ، أيها السادة ، رطب جداً .

— ذلك إننا إلى جوار المستنقع تماماً .

فتدخل بونتشوك :

— احمدوا الرب لوجودكم عند المستنقع تنعمون بالراحة كما لو كنتم في حضن المسيح . في المناطق الأخرى يخوضون المعارك ، أمّا هنا فلا نطلق النار سوى مرة في الأسبوع .

— القتال خير من التعفّن هنا في هذا الجحر .

— إنهم لا يحتفظون بالقوزاق ليبيدوهم في المعارك . لماذا تحاول أن تبدو ساذجاً أيها المنافق ؟

— إذاً ، فيم يحتفظون بنا ، في رأيك ؟

— ستلعب الحكومة في اللحظة المناسبة لعبتها القديمة لتصون نفسها على حساب القوزاق .

فلوّح كالميكوف بيده :

— لا تتكلمُ إلّا هرطقة .

— هرطقة ؟ لماذا ؟

— لأنها كذلك .

— هذا هراء يا كالميكوف . لا تستطيع أن تنكر الحقيقة .

— أى ضرب من الحقيقة . . .

— ماذا ، الجميع يعرفون أنها الحقيقة . فلِمَ تتجاهل أنت ؟ !

فهتف تشوبوف :

— انتبهوا أيها السادة الضباط !

وانحنى على الطريقة المسرحية ، وأشار إلى بونتشوك قائلاً :

— سيبدأ الآن نائب الضابط بونتشوك بتفسير أحلام الاشتراكيين الديمقراطيين !

فندت عن بونتشوك ابتسامة ساخرة ، وقال وهو يقابل عيني تشوبوف بنظراته الصارمة :

— أتراك تحاول تمثيل دور المهرِّج ؟ حسناً ، كما تشاء . كلٌّ وسجيته . ولكني أقول إننا لم نشهد حرباً منذ منتصف السنة الماضية . فمذ بدأت حرب الخنادق ، وُزِّعت الكتائب القوزاقية في مناطق منزوية ، وأبقوهم في الحفظ والايداع الى أن تحين الفرصة .

فسأله لستنتسكي فيما هو يجمع بيادق الشطرنج :

— وماذا بعد ذلك ؟

— ومن ثم ، حينما يشيع التذمّر في الجبهة — وذلك أمر لا مفر منه ، لأن الجنود بدأوا يسأمون الحرب ، كما يظهر ذلك من تزايد فرارهم من الجيش — سوف تستعين الحكومة بالقوزاق لاخماد حركات التمرّد . فهي تمسك بالقوزاق كحجر في يدها . وفي اللحظة المناسبة ستحاول القضاء على بوادر الثورة بذلك الحجر .

فاعترضه لستنتسكي :

— ألا ترى أنك تسرح في خيالك يا صاحبي العزيز ؟ إن افتراضاتك مهزوزة نوعاً ما . . . فقبل كل شيء ، يستحيل التكهن بسير الحوادث . كيف يتسنى لك أن تنبأ بهذه الاضطرابات وما إليها ؟ ولكن لنفترض شيئاً آخر : الحلفاء سيسحقون الألمان وتنتهي الحرب نهاية رائعة ، فأى دور ستنسبه للقوزاق ؟

فارتسمت على فم بونتشوك ابتسامة جافة وقال :

— لا يبدو أنها ستنتهي في الوقت الحالي ، ناهيك عن نهاية رائعة .

— أطالوها . . .

وأكد بونتشوك :

— ولن نرى نهايتها ، ان صحّ التعبير .

ثم سأله كالميكوف :

— متى عدت من إجازتك ؟

— يوم أمس الأول .

وفغر بونتشوك فاه ، ونفث كرة من الدخان ثم رمى عقب سيكارته .

— أين قضيتها ؟

— في بتروغراد * .

— حسناً ، ما هي أخبار العاصمة ؟ العاصمة تهدر ؟ آه ، يا للشيطان ، إني لأهب أى شيء مقابل أسبوع واحد أقضيه ، على قصره ، في بتروغراد !

فقال بونتشوك وهو يزن كلماته بعناية :

— ولكنك لن تجد سوى القليل مما يسرك . ثمة عوز في الخبز . وفي أحياء العمال يخيم الجوع ، والتذمّر ، ويتعالى الهياج .

فجال ميركولوف ببصره وقال متسائلاً :

— لن نخرج من الحرب سعداء . ماذا ترون أيها السادة ؟

أجاب بونتشوك :

— لقد تمخّضت الحرب الروسية-اليابانية عن ثورة ١٩٠٥ ، وسوف تتمخّض هذه الحرب عن ثورة جديدة ، وليس ذلك وحسب ، بل وعن حرب أهلية .

فأتى لستتسكي بحركة غير واضحة كأنه يوشك أن يقاطعه ، ثم نهض وجعل يتخطّى ذهاباً وإياباً وهو بادى التجهم . وقال بصوت تنمّ نبرته عن غيظ مكتوم :

— إنني أستغرب وجود شخص كهذا الرجل بيننا نحن الضباط .

ثم أشار إلى بونتشوك المقوّس الظهر وأضاف :

— إنني أستغرب ، لأنني حتى هذا اليوم لم أستطع معرفة موقفه من وطنه ومن الحرب . . . فذات مرة كان يتكلم بصورة غامضة جداً ، ومع هذا فقد كان جلياً من كلامه أنه

---

* اسم بيتربورغ فى أعوام ١٩١٤ — ١٩٢٤ (لينينغراد حالياً) . المعرب .

يريد أن تلحق بنا الهزيمة . أتراني على صواب يا بونتشوك ؟

— أفضل أن تلحق بنا الهزيمة .

— ولكن لماذا ؟ في رأيي ، رغبتك في اندحار وطنك خيانة عظمى بغضّ النظر عن آرائك السياسية . إنها لا تشرّف أى رجل ذي كرامة .

فتدخل ميركولوف :

— هل تذكر كيف كانت الكتلة البلشفية للحزب الاشتراكي الديمقراطي في مجلس الدوما * تحرّض ضد الحكومة ، بالشكل الذى يساعد على هزيمة البلاد ؟

فسأله لستتسكي :

— هل تشاركهم آراءهم يا بونشوك ؟

— لئن قلت إنني إلى جانب اندحارنا فمن الواضح أنني أعني ذلك بالضبط . ومن الخطل بالنسبة لي كعضو في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي أن لا أشارك رفاقي أعضاء الحزب في مجلس الدوما آراءهم . ويدهشني جداً يا يفغيني نيقولايفتش أن تكون جاهلاً بالسياسة إلى هذه الدرجة رغم ثقافتك .

— أنا قبل كل شيء جندى وهبت حياتي للملكية . إن مجرد منظر «الرفاق الاشتراكيين» يثير فيّ النفور .

فقال بونتشوك في دخيلة نفسه : «أولاً وقبل كل شيء أنت بليد ، ثم انك حيوان عسكرى مغرور» ، ثم كتم ابتسامته .

— لا اله الّا الله . . .

وقال ميركولوف كمن يعتذر :

---

* مجلس النواب الروسى القيصرى . المترجمون .

— في الجيش ، يجد المرء نفسه في وضع شاذ . وقد وضعنا أنفسنا جميعاً بمنأى عن السياسة ، لا علاقة لنا بهذا الأمر .

جلس الرئيس كالميكوف وراح يمسّد عذاريه المتدليين ، وقد تألقت عيناه المغوليتان الصارمتان . واستلقى تشوبوف على سرير ، وراح يحدّق في لوحة مثبتة في الحائط كان قد رسمها ميركولوف . وهي صورة امرأة شبه عارية لها وجه مريم المجدلية ، افتر ثغرها عن ابتسامة ساجية شهوانية وهي تنظر إلى ثدييها العاريين . وقد أزاحت إحدى الحلمتين السمراوين بإصبعين من كفّها الأيسر ، وافترق خنصرها إلى الوراء بحذر . وتحت جفنيها نصف المسبلين ظل يلطّفه وهج عينيها الدافئ . وقد حمل كتف ارتفع قليلاً إلى الأعلى قميصها المنزلق ، وارتمى ظل باهت في المنخفضين تحت الترقوتين . وكان ثمة رقة طبيعية فياضة وصدق لا كلفة فيه في وضعيتها ، وكانت ملامحها ذات جمال غريب جعل تشوبوف يبتسم رغماً عنه ، مأخوذاً بمهارة التخطيط ، وكان يشرد بذهنه عن سياق الحديث كلياً .

هتف وهو ينتزع عينيه عن الرسم :

— جميل !

ولكن ملاحظته جاءت في لحظة غير مناسبة ، ذلك أن بونتشوك كان يقول :

— أستطيع أن أؤكد لكم أن القيصرية سوف يقضى عليها .

فخزر لستتسكي بونتشوك ، ثم التفت إلى تشوبوف ، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة لاذعة ، وهو يلفّ سيكارة .

وهتف كالميكوف :

— بونتشوك ! لحظة يا لستتسكي ! إسمع يا بونتشوك !

لنفترض أن هذه الحرب ستؤول إلى حرب أهلية . وماذا بعد ذلك ؟ سوف تطيحون بالملكية . ولكن أى نوع من الحكومات تنوون تشكيلها بديلاً ؟

— حكومة الطبقة العاملة .

— برلماناً تعني ؟

فابتسم بونتشوك :

— أكثر من ذلك .

— حسناً ، وماذا أيضاً ؟

— دكتاتورية العمال .

— الآن أدركنا الحقيقة ! ولكن المثقفين ، والفلاحين ؟ أى دور سيلعبون ؟

— سيتبعنا الفلاحون ، وكذلك جزء من المثقفين العاقلين . أمّا الآخرون . . . أما سنفعله مع الآخرين . . . فهكذا !

وبحركة خفيفة برم ورقة بيده ، ثم هزّها في الهواء وقال وهو يخرج كلماته من بين أسنانه :

— هذا ما سوف نفعله !

فقال لستتسكي ساخراً :

— إنكم تحلّقون عالياً .

فردّ عليه بونتشوك قائلاً :

— ونحطّ عالياً .

— خير لكم أن تنشروا القش مسبقاً .

فقال كالميكوف :

— لماذا بحق الشيطان تطوعت في الجبهة ، وشققت طريقك إلى رتبة ضابط ؟ كيف يتماشى ذلك مع معتقداتك ؟ عجيب ! هاك رجلاً ضد الحرب ، ضد تقتيل ، ماذا تسميهم ،

إخوانه الطبقيين ، ومع ذلك فهو . . . ضابط .

وصفق رقبتي جزمته وراح يضحك من صميم قلبه .

وتساءل لستنسكي :

— كم عاملاً ألمانياً أفنيت برشاشاتك ؟

فأخرج بونتشوك إضمامة كبيرة من الورق من جيب معطفه وجعل يفتش فيها ، وكان واقفاً وظهره إلى لستنسكي . ثم تقدّم نحو الطاولة ونشر جريدة صفراء من أثر القدم وسوىّ تجعّداتها بيده الضليعة الكبيرة ، وقال :

— كم عاملاً ألمانياً أفنيت ؟ سؤال . . . يُسأل . لقد تطوعت لأنني كنت سأجند بأية حال من الأحوال . وأحسب أن الخبرة التي تعلمتها هنا في الخنادق ستكون ذات نفع فيما بعد . . . فيما بعد . إصغ إلى هذا .

ثم جعل يقرأ كلمات لينين :

«لنأخذ الجيش العصرى . إنه أحد الأمثلة الحسنة للتنظيم . إن هذا التنظيم جيد لأنه **مرن** ، وقابل في الوقت ذاته على منح ملايين الناس **إرادة واحدة** . واليوم تعيش هذه الملايين في بيوتها في مختلف أرجاء البلاد ، ولكن ما إن يصدر أمر بالتعبئة ، حتى يتجمعوا في المراكز المعينة . وفيما هم اليوم يرقدون في الخنادق ، وقد يقضون فيها الشهور بطولها ، تراهم غداً يُساقون لشن هجوم في وضعية أخرى . وإذ يحققون في يوم ما معجزات وهم بمأمن من الرصاص والقنابل ، تراهم في يوم آخر يحققون المعجزات في قتال مكشوف . وفيما تنزع اليوم قطعاتهم الأمامية الألغام تحت الأرض ، تراهم غداً يتقدّمون عشرات الفراسخ وفق إرشادات الطيارين المحلّقين فوق الأرض . وعندما تسعى الملايين وراء هدف ما ، تُغذّيه إرادة واحدة ، فإنها تغيّر أشكال علاقاتها

الاجتماعية وفعالياتها وتُغيّر مواضع وأساليب نشاطاتها ، وتغيّر أدواتها وأسلحتها بتغيّر الظروف ووفق متطلبات النضال — ذلكم هو التنظيم .

إن الشيء ذاته ، ينطبق على صراع الطبقة العاملة مع البرجوازية . ولكن اليوم لا يوجد وضع ثورى . . .» .

فقاطعه تشوبوف :

— ولكن ماذا تعني بـ «الوضع» ؟

فتطلع إليه بونتشوك وكأنه قد أوقظ لتوّه ، وجعل يحك جبينه الناتئ ، بعقلة إبهامه ، محاولاً استيعاب السؤال :

— قلت ، ماذا تعني بـ «الوضع» ؟

فقال بونتشوك وقد افترّ ثغره عن ابتسامة طفولية ساذجة :

— أما معني الكلمة فأفهمه ، ولكن يصعب عليّ تفسيره . . .

وكان غريباً أن يندّ وجهه الكبير العبوس عن هذه البسمة . إذ كانت أشبه بأرنب صغير فضي مرق عبر حقل خريفي كئيب غسلته الأمطار ، فهو يلعب وينطّ ويقفز .

— الوضع هو الحالة ، هو اجتماع ظروف معينة . هل أنا على صواب ؟

فأتى لستنسكي بحركة غامضة من رأسه وقال : «واصل قراءتك» .

«ولكن اليوم لا يوجد وضع ثورى ، لأن الظروف التي تحرّك الجماهير أو ترفع من مستوى كفاحها ليست موجودة . أنتم اليوم تعطون ورقة انتخابية — خذوها . تعلّموا التنظيم كي تستطيعوا أن تستعملوه كسلاح ضد أعدائكم لا كوسيلة للحصول على وظائف برلمانية هانئة لمن يتشبثون بمقاعدهم خشية الذهاب إلى السجن . وغداً ستؤخذ منكم الورقة الانتخابية ، وسوف

تُعطون بندقية ومدفعاً مذهلاً سريع الاطلاق صنع وفق آخر ما توصّل إليه الفن الهندسي — خذوا هذا السلاح الذى أُعدّ للموت والدمار ، ولا تكترثوا بالعاطفيين المتباكين الذين يخافون الحرب ، فهناك في العالم بقايا كثيرة **يجب** أن يأتي عليها الحديد والنار كيما يتم تحرير الطبقة العاملة ، وإذا ما تنامى الحقد واليأس عند الجماهير وعندما يحل وضع ثورى ، استعدوا لايجاد تنظيم جديد **واستعملوا** هذه الأسلحة الصالحة للموت والدمار **ضد حكومتكم وبرجوازيتكم** . . . » .

وقوطع بونتشوك بطرق على الباب ودخول رئيس عرفاء السرية الخامسة :

— يا صاحب السعادة ، — والتفت إلى كالميكوف وأردف :

— هناك مراسل من قيادة الكتيبة .

فارتدى كالميكوف وتشوبوف معطفيهما وخرجا . وجلس ميركولوف يرسم وهو يصفر . وواصل لستنتسكي سيره ذهاباً وإياباً في الحفيرة ، وهو يعبث بشاربه بأصابعه ، مستغرقاً في تفكير عميق . وبعد قليل خرج بونتشوك مودّعاً هو الآخر وشق طريقه خلل وحل الخنادق الزلق ، وقد أمسكت يسراه بطرفي ياقته سوية ويمناه تشد المعطف إلى أسفل . وكانت الريح تعصف خلل الخندق الضيق عابثة بالرفوف ، عازفة مدوّية . وفي ظلام دامس اكتسى وجهه بابتسامة غامضة . وعندما بلغ حفيرته كان قد تبلل بالمطر ثانية ، وتشبّع برائحة أوراق الحور المتفسّخة . كان آمر مفرزة الرشاشات نائماً ، ولما يزل وجهه الأسمر ذو الشوارب السوداء يحمل آثار ثلاث ليال قضاها بلا نوم يلعب الورق . فراح بونتشوك يفتش في حقيبته التي احتفظ بها منذ كان جندياً ، وجمع كومة من الأوراق قرب الباب ، ثم أضرم فيها النار . ووضع عليها

لحم مقدد وبضع حفنات من طلقات المسدس في جيبه ، ثم خرج ثانية . وتسللت الريح من الباب الذى يُفتح بين لحظة وأخرى ، فنثرت رماد الأوراق المحترقة ، وأطفأت المصباح المدخّن .

بعد رحيل بونتشوك ظلّ لستنتسكي يتخطى ذهاباً وإياباً بعض الوقت صامتاً لا يرين ، ثم مضى صوب الطاولة . كان ميركولوف لما يزل يرسم محنياً رأسه إلى جانب ، ومن تحت رأس قلمه المبرىّ الذى رسم ظلالاً خفيفة كان وجه بونتشوك يبدو محدّقاً من على الورقة المربّعة البيضاء ، وهو يكتسي ابتسامته الجافّة المعهودة .

فعلّق ميركولوف مبعداً عنه يده الممسكة بالرسم وهو يلتفت إلى لستنتسكي :

— لديه وجه شخصية قوية !

فسأله يفغيني :

— حسناً ، ما رأيك ؟

فأجاب ميركولوف وقد فطن إلى دلالة السؤال :

— الشيطان يدرى ! إنه شاب غريب . لقد أفصح الآن عن خبيثته كلياً ، في حين لم أكن أعرف قبل ذلك كيف استجلى كُنه لغزه . انه ليتمتع بشعبية واسعة بين القوزاق ، ولا سيما بين رماة الرشاشات . هل لاحظت ذلك ؟

فأجابه لستنتسكي بصورة مبهة بعض الشيء :

— نـ . . . نعم .

— إن رماة الرشاشات بلاشفة عن بكرة أبيهم . لقد أفلح في كسبهم . ما في ذلك شك . وقد دهشتُ لأنه كشف عن أوراقه اليوم . ترى فيم فعل ذلك ؟ والله ، قال هذا الكلام

عمداً ! فهو يدرى أنه ليس بيننا من يشاطره أفكاره ، ولكنه مع هذا أوقع نفسه بلسانه بمثل هذه السهولة ، ليس هو من سريعي التهيج ، ومع ذلك فإنه رجل خطر .

وأبعد ميركولوف عنه صورة بونتشوك ، وطفق ينزع ملابسه وهو ما يزال يفكّر في تصرّف بونتشوك الغريب . وعلّق جوربيه الرطبين فوق الموقد ، وملأ ساعته ، ثم استلقى بعد أن دخن سيكارة . وسرعان ما أخذته سنة من النوم . وجلس لستنتسكي على المقعد الذى أخلاه ميركولوف قبل ربع ساعة ، وعلى الصفحة الأخرى من صورة بونتشوك كتب بخط واسع وهو يحطّم رأس قلمه المبرىّ :

«يا صاحب السعادة ،

لقد ثبتت الآن تماماً الشكوك التي أبلغتها إليكم من قبل . ففي حديث جرى اليوم مع ضباط كتيبتنا (كان حاضراً فيما عداي ، الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف من الفصيل الخامس ، والرئيس ميركولوف من الفصيل الثالث) أفصح نائب الضابط بونتشوك ، لأسباب ينبغي أن أعترف أني لا أدركها تماماً ، عن مهماته التي ينفّذها وفق معتقداته السياسية ، وحسب تعليمات حزبه على ما يبدو . وقد كان معه عدد من المنشورات الممنوعة . وتلا علينا ، على سبيل المثال ، اقتباساً من صحيفة «الشيوعي» الممنوعة والتي تُطبع في جنيف . يتضح من ذلك أن نائب الضابط بونتشوك يمارس نشاطاً سرياً في كتيبتنا (الأمر الذى يجعلنا نعتقد أنه التحق بكتيبتنا متطوعاً لهذا السبب) وقد كان رماة الرشاشات أول هدف له . لقد أثبطت عزائمهم . وصار نفوذه الخطر على معنوية الكتيبة واضحاً للعيان . فقد حصلت

حالات من التمرّد على الأوامر ، كما سبق وأخبرت الشعبة الخاصة بذلك .

وقد عاد فوراً من إجازته (في بتروغراد) حاملاً معه كمية كبيرة من النشرات الهدامة . وهو الآن يثابر من أجل أن يواصل عمله بنشاط مضاعف .

وعلى ضوء ما أوردته آنفاً فقد توصلت إلى ما يأتي :

١ — إن جرم نائب الضابط بونتشوك قد ثبت كلياً (وسوف يدعم الضباط ، الذين حضروا النقاش ، كلامي مقسمين) ؛ ٢ — بغية وقف نشاطه الثورى ، لا بد من إلقاء القبض عليه في الحال وإحالته إلى محكمة الميدان العسكرية ؛ ٣ — يجب حل مفرزة رماة الرشاشات في الحال ، فيُطرد الخطرون ويُرسل الآخرون إلى المؤخرة أو يوزعون على الكتائب الأخرى .

«اسمحوا لي أن أؤكد لكم رغبتي المخلصة في خدمة بلادي والملكية . لقد أرسلت نسخة من هذه الرسالة إلى س . كوب» .

الرئيس يفغيني لستنتسكي

قطاع رقم ٧ ، ٢٠ تشرين الأول ، ١٩١٦

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أرسل لستنتسكي تقريره بواسطة أحد المراسلين إلى قيادة الفرقة ، وخرج بعد الفطور من الحفيرة . وخلف متراس الخندق الزلق خيّم ضباب خفيف فوق المستنقع ، وقد تدلّى كالخرق العالقة بالأسلاك الشائكة . وكانت

قاع الخندق تعلوها طبقة من الوحل يبلغ سمكها زهاء البوصة . وكان ثمة مسارب بنية تقطر من فتح المتراس . وكان القوزاق بمعاطفهم المبللة والملطّخة بالطين يغلون قدور الشاى على صفيحة مقتطعة من المدافع ، وقد قرفصوا على أعقابهم يدخّنون ، وأسندوا بنادقهم إلى جدران الخندق .

وصرخ لستتسكي بحقد فيما هو يقترب من أول مجموعة من القوزاق الجالسين حول النار الخانقة :

— كم مرة أبلغتم بعدم إشعال النار على الصفيحة ؟ ألا تفهمون ، أيها الخنازير ؟

فنهض اثنان منهم كُرْهاً ، وبقي الآخرون جالسين يدخنون ، وقد التأمت أذيال معاطفهم تحتهم . وأجاب قوزاقي أسمر ملتح تدلّى قرط فضي من أذنه ، فيما هو يلقي بقبضة من الحطب القشاش تحت القدر :

— يسرّنا أن نستغني عن الصفيحة . ولكن كيف يتسنّى لنا أن نشعل النار بدونها ، يا صاحب السعادة ؟ أنظر كم من الماء والوحل هنا !

— إسحب تلك الصفيحة حالاً !

فتساءل قوزاقي ذو وجه عريض مجدور ، متجهماً دون أن ينظر إلى الضابط :

— ماذا ، هل علينا أن نبقى هنا جائعين ؟ أهكذا يكون الأمر ؟

— قلت لكم اسحبوا تلك الصفيحة ! — وركل يفغيني بمقدمة حذائه الحطب القشاش المشتعل من تحت القدر .

فسكب القوزاقي الملتحي ذو قرط فضي الماء الحار من القدر ودمدم وهو يبتسم بغضب وارتباك :

— لقد تناولنا شاينا أيها الأولاد . .

وحملق القوزاق بصمت في ظهر الرئيس بعد أن ابتعد عنهم . وتقادح الشرر في عيني القوزاقي الملتحي :

— أساءنا ، ابن الكلبة !

وأطلق قوزاقي آخر آهة طويلة ثم علّق بندقيته على كتفه .

ولحق ميركولوف بلستتسكي في القطاع الذى يشغله الرعيل الرابع . جاء يلهث بشدة ، وسترته الجديدة المصنوعة من الجلد تخشخش ، وكان نفسه يفوح برائحة التبغ المحلى . انتحى يفغيني جانباً وقال على عجل :

— هل بلغك الخبر ؟ لقد قرّ بونتشوك الليلة الماضية .

— بونتشوك ؟ ما . . . ذا ؟

— قرّ . . . هل فهمت ؟ لقد أخبرني قائد مفرزة رماة الرشاشات الذى يشاركه حفيرته بأنه لم يعد منذ غادرنا . لا بد أنه ذهب في سبيله حالما غادر حفيرتنا . هذا هو الأمر .

وقف لستتسكي يمسح نظارتيه طويلاً وهو يضيّق عينيه .

فقال ميركولوف وهو يحدّق في وجهه مستفهماً :

— يبدو أنك مضطرب بعض الشيء ؟

— أنا ؟ هل فقدت صوابك ؟ علام أضطرب ؟ لقد فوجئت بالنبأ ليس إلّا .

٢

في صباح اليوم التالي جاء رئيس العرفاء إلى ملجأ لستتسكي وقد بدا على محياه قلق وارتباك ، وأخبره بعد كثير من الهمهمة والهأهأة :

— يا صاحب السعادة ، لقد وجد القوزاق ، صباح اليوم ،

هذه الأوراق في الخنادق . إنه لأمر محرج بعض الشيء . . . فرأيت من الأفضل أن أرفع الأمر إليك . . . والا فقد نقع في ورطة . . .

فسأله لستنتسكي وهو ينهض من على سريره :

— أية أوراق ؟

فأعطاه رئيس العرفاء بضعة مناشير مدعوكة مطبوعة على ورقة رخيصة بالآلة الطابعة بأحرف مقروءة واضحة . وقرأ لستنتسكي دفعةً واحدةً :

يا عمال العالم ، اتحدوا !

أيها الرفاق الجنود ،

عامان مرّا على هذه الحرب اللعينة . عامان مرّا والعفن يتآكلكم دفاعاً عن مصالح الآخرين . عامان مرّا ودماء عمال وفلاحي جميع البلدان تُراق . مئات الألوف من القتلى والجرحى ، مئات الالوف من الأرامل واليتامى — تلك هي حصيلة هذه المجزرة . من أجل من تحاربون ؟ عن أية مصالح تدافعون ؟ لقد أرسلت الحكومة القيصرية ملايين الجنود إلى خط النار لكي تستولي على بلاد جديدة ، وتضطهد شعوب تلك البلاد كما يُضطهد فعلاً البولنديون المضطهدون وأبناء القوميات الأخرى . إن صناعيي العالم لا يستطيعون أن يتقاسموا الأسواق التي يصرفون فيها إنتاج معاملهم ومصانعهم بصورة سلمية ، أن يتقاسموا الأرباح ، إنما يفعلون ذلك عن طريق الحروب ، أمّا أنتم ، معشر القوم الجهلة فتلاقون حتفكم في الصراع من أجل مصالحهم ، وتقتلون الكادحين أمثالكم .

كفى سفكاً لدماء إخوانكم ! استيقظوا أيها الكادحون ! ليس عدوكم الجندى الألماني أو النمساوى الذى أعموا بصيرته مثلكم ، إنه قيصركم ، والصناعيون والملاكون في بلادكم . أديروا بنادقكم إليهم . تآخوا مع الجنود الألمان والنمساويين . مُدّوا أيديكم إلى بعضكم البعض

عبر الأسلاك الشائكة التي تفصل فيما بينكم كالسوائم . أنتم أخوة في العمل ، ولما تزل آثار الكدح الدامية فى أيديكم ، ليس لديكم ما تتقاسمونه . تسقط الأوتوقراطية ! تسقط الحرب الاستعمارية ! تحيا وحدة الكادحين فى العالم أجمع !

قرأ لستنتسكي السطور الأخيرة لاهثاً . وقال في دخيلته وقد استبد به حقد أعمى وانثالت عليه الهواجس : «لقد بدأت الآن !» . وأبلغ آمر الكتيبة بالخبر في الحال بواسطة التلفون ، قائلاً له :

— بماذا تأمرون في هذا الخصوص يا صاحب السعادة ؟

— اصطحب معك رئيس العرفاء وضباط الرعائل واجر تفتيشاً واسعاً في الحال . فتش كل واحد ، ولا تستثنِ الضباط . وسوف أسأل قيادة الفرقة اليوم عن موعد سحب الكتيبة . اتصل بي في الحال عندما تعثر على شيء أثناء التفتيش .

— أعتقد أن رماة الرشاشات هم الذين قاموا بذلك .

— هل ترى ذلك ؟ سآمر القائد في الحال ليقوم بتفتيش القوزاق . مع السلامة !

وجمع لستنتسكي ضباط الرعائل في حفيرته ، وأخبرهم بأمر قائد الكتيبة . فهتف ميركولوف مغتاظاً :

— يا للفظاعة ! هل يتعين علينا أن يفتش بعضنا بعضاً ؟

وبادر ملازم شاب قائلاً :

— دورك أولاً يا لستنتسكي .

— كلا ، سنختار برمي النرد .

— بل حسب الحروف الأبجدية .

فقاطعهم لستنتسكي :

— دعوا المزاح جانباً أيها السادة . لا شك أن العجوز

قد تجاوز الحد ، إن ضباط كتيبتنا هم بمثل إخلاص زوجة يوليوس قيصر . ولم يكن بيننا سوى نائب الضابط بونتشوك ، وقد فرّ . ولكن يجب أن نفتش القوزاق ، فليُحضر أحدكم رئيس العرفاء .

ودخل رئيس العرفاء ، وهو قوزاقي كهل يحمل ثلاثة من أوسمة القديس غيورغي . وتنحنح وراح يجيل بصره بين الضباط . فسأله يفغيني :

— من هي العناصر المشبوهة في السريّة ؟ من تعتقد يمكن أن يوزّع هذه المناشير ؟

فأجاب الرجل بثقة :

— لا أحد في سريّتنا ، يا صاحب السعادة .

— ولكن المناشير وجدت في قطاعنا . هل كان أحد رجال السرايا الأخرى في خنادقنا ؟

— كلا ، يا سيدى .

فقال ميركولوف وهو يلوّح بيده ويستدير نحو الباب :

— سنذهب ونفتش الجميع دون استثناء .

وبدأ التفتيش . كانت وجوه القوزاق تفصح عن كل ألوان الهواجس . فقد كان بعضهم مقطّباً من شدة دهشتهم ، ونظر الآخرون بتوجّس إلى الضباط ، في حين ضحك الآخرون عندما كان الضباط ينقّبون في حاجياتهم البائسة .

وعلّق عريف بادى الذكاء :

— عمّ تبحثون ؟ هل نُشل شيء ما ؟ ربما رأيناه في مكان ما .

وكاد التفتيش ان لا يسفر عن نتيجة ، لو لا أنها عثروا على نسخة مدعوكة من المنشور فى جيب واحد من القوزاق للسريّة

الأولى ، فسأله ميركولوف وفي عينيه خوف ساخر :

— هل قرأته ؟

فابتسم القوزاقي دون أن يرفع عينيه المسبلتين وقال :

— التقطه للف السكاير .

فصرخ لستتسكي بهياج :

— علام تكشّر عن أسنانك ؟ — وخطا نحو الرجل وقد استحال لونه أزرق . وطرفت أهدابه الذهبية القصيرة بعصبية تحت نظارتيه .

ولاح الجد على وجه القوزاقي ، وتلاشت البسمة وكأن ريحاً قد بددتها . وتكلم الرجل بلهجة عالية أليمة ، غضوب بعض الشيء :

— اسمح لي ، يا صاحب السعادة . فأنا لا أكاد أعرف القراءة . لقد التقطته لأنني لا أملك ورقاً للسكاير . التبغ موجود ، ولكن الورقة انتهت . وقد وجدت هذا ملقى ، ولهذا التقطته .

فبصق لستتسكي ومضى لسبيله ، وتبعه بقية الضباط .

وفي اليوم التالي سُحبت الكتيبة وعسكرت على بعد عشرة فراسخ خلف خط الجبهة . وأوقف اثنان من مفرزة رماة الرشاشات وأُحيلا إلى المحكمة العسكرية ، ونُقل آخرون إلى الكتائب الاحتياطية ، وأرسل البعض إلى الكتائب الأخرى التابعة للفرقة القوزاقية الثانية . وبعد استراحة دامت بضعة أيام أخذت الكتيبة تمارس حياة منظمة نسبياً . فاغتسل القوزاق ونظّفوا أنفسهم جيداً ، بل طفقوا يحلقون ، دون أن يلجأوا الى الطريقة التي دأبوا عليها في الخنادق . وهي أن يحرقوا لحاهم بالنار ، وعندما يبدأ اللهب يحرق وجوههم ، يضعون عليها منشفة مبللة ويمسحون الشعر المحترق . وقد سُميت هذه الطريقة بطريقة «كي الخنازير» منذ

أن سأل حلاق الجيش أحد زبائنه : «هل أكويك كي الخنزير ، أم بطريقة أخرى ؟»

وأخلدت الكتيبة إلى الراحة ، ولاح على القوزاق مرح وانشراح ظاهريان . غير أن لستتسكي والضباط الآخرين كانوا يعلمون أن هذا المزاج لم يكن سوى نزوة سطحية زائلة ، كيوم صحو في تشرين الثاني . فما إن كانت تسرى أية شائعة حول العودة إلى الجبهة حتى تتغير الملامح ، ويبلغ التذمّر والتوتر ، والمشاكسة أقصاها . وقد تسرّب إليهم السأم والتوتر الممیتان فخلّفا لديهم حالة من التبلّد والتحلّل . ولكن لستتسكي أدرك جيداً كيف يكون المرء فظيعاً عندما يسعى من أجل غاية وقد استبد به مثل هذا الشعور .

ففي عام ١٩١٥ شاهد سريّة من الجنود تُرسل خمس مرات إلى القتال ، وبالرغم من أنهم تكبّدوا خسائر مريعة ، فقد كانوا يتلقّون المرة تلو الأخرى الأوامر لاستئناف الهجوم . وأخيراً انسحبت فلول السرية من القطاع اعتباطاً ومضت شطر المؤخرة . وقد أُمرت سرية لستتسكي بإيقافها ، ولكن عندما انتشر القوزاق في سلسلة بغية إيقاف الحركة ، أطلق هؤلاء الجنود النار . ولم يكن قد تبقّى منهم سوى ستين شخصاً . وقد لاحظ لستتسكي الشجاعة اليائسة الطائشة التي أبداها هؤلاء الستون في الذود عن أنفسهم ، عندما أسقط في يدهم ووقعوا تحت طائلة سيوف القوزاق ، وهم يواجهون الموت ، والفناء ، آخذين في الحسبان أن الموت واحد مهما تعدّدت أسبابه .

وإذ جالت بذهن لستتسكي ذكرى هذا الحادث المريع ، راح يدرس بلهفة وجوه القوزاق من جديد ، متفكّراً فيما إذا كانوا سينقلبون هم أيضاً ، على أعقابهم ، ويتراجعون ، خشية

الموت ليس إلّا ، وعندما رأى إلى نظراتهم النكدة التعبى أقرّ في دخيلته أنهم لا ريب فاعلون .

ولقد تغيّر القوزاق بصورة جذرية منذ الأيام الأولى للحرب . حتى أغانيهم تغيّرت وباتت من نمط جديد ، لقد ولدت مع الحرب ، لتعبّر عن أسى قاتم .

وكان إذا مرّ في الأماسى بسقيفة المصنع الفسيحة التي كانت سريته تعسكر فيها ، فما أكثر مما يستمع إلى أغنية حزينة لهفى إلى حد لا يوصف . كانت تغنّيها ثلاثة أو أربعة أصوات . وفوق هذه الأصوات العميقة كان يرتفع تينور جميل وهو يتزايد قوةً ويرتعش ويرنّ بنبرته الصافية والنادرة .

ويقف لستتسكي ليرهف السمع ، فلشد ما يهزه حزن الأغنية البسيط ، لكأن في قلبه وتراً يتجاوب مع ضرباته المتزايدة ، وكانت نبرة الصوت الخفيضة تجس الوتر ، فترسل فيه ذبذبة أليمة . ويقف لستتسكي على مبعدة قليلة ، يرنو إلى وهج المساء الخريفي ، ويحس بالدموع تندى عينيه .

ولم يسمع لستتسكي طوال الوقت الذى استراحت فيه الكتيبة كلمات قوية منفعلة لأغنية قوزاقية قديمة سوى مرة واحدة . كان عائداً فيها من نزهته المسائية المعتادة ، وفيما كان ماراً بالسقيفة بلغ سمعه ضحك صخّاب وأصوات أنصاف سكارى . فقدّر أن عريف الاعاشة الذى أرسل إلى القرية لإحضار الأرزاق ، جاء ببعض العرق المصنوع في البيت وأولم القوزاق . ها هم الآن يتشاجرون ويصخبون لأمر أو لآخر . وسمع صفيرهم الحاد الوحشي ولحن الأغنية القوى وهو ما يزال بعيداً عنهم بعض الشيء .

ثم دوّى إلى الأعلى صفير راعش مديد ، وسرعان ما طمسه هدير ما لا يقل عن ثلاثين صوتاً .

ولا بد أن أحد الشبان كان يرقص على الألواح الخشبية ويطلق صفيراً متقطعاً يصم الآذان ، وقد طغى الغناء على إيقاع كعبيه .

وابتسم لستتسكي رغماً عنه ، وحاول أن يتجاوب بخطوه مع إيقاع الأغنية . «لا أظن أن المشاة يحنّون إلى بيوتهم مثل حنين القوزاق» ، ولكن المنطق أكد له أن المشاة لا يختلفون عنهم في شيء . ومع هذا فإن الإقامة الإجبارية في الخنادق كانت أكثر إيلاماً للقوزاق ، لأن طبيعة عملهم في الخدمة عوّدتهم على الحركة الدائبة . ولكنهم زُجّوا طوال عامين في ترقّب الوقت في محاولات عقيمة من أجل الزحف . وكان الجيش أضعف من أى وقت مضى . إن ما يحتاج إليه هو يد قوية ، ونجاح مدوّ ، وخطوة كبيرة إلى الأمام من شأنها أن تبعث فيه الحركة . ولا شك ، أن ثمة مراحل في التاريخ ، مراحل من الحرب الطويلة الأمد ، تتخاذل فيها معنوية أكثر الجيوش نظاماً وولاءً . وحتى سوفوروف مرّ بالتجربة . . . بيد أن القوزاق يثبتون ، وحتى لو أصابهم الوهن ، فسيكونون آخر من يفعل ذلك . . إنهم أمة صغيرة بحد ذاتها ، هواة حرب بحكم العادة ، وليسوا من رعاع العمال أو الفلاحين .

وكأنما كان المقصود عدم خداعه ، فقد بدأ الصوت المجهد ينشد أغنية ثانية . فتلقفها القوزاق الآخرون ، ومرة أخرى سمع لستتسكي حنين القوزاق ينصبّ غناء :

الضابط الشاب يبتهل إلى الله .
والقوزاقى الشاب يرجوه العودة الى أهله :
«أوه ، أيها الضابط الشاب ،
دعنى أذهب إلى أهلي ،

دعنى أذهب إلى أهلي ،
إلى أبـي ،
إلى أبـي وأمي ،
إلى أبـي وأمي ،
وإلى زوجتى الفتيّة» .

* * *

بلغ بونتشوك مدينة تجارية كبيرة تقع في منطقة خط الجبهة ، في مساء اليوم الرابع بعد فراره من الجبهة . كانت الأضواء تسطع من النوافذ . وكان الزمهرير قد كسا البرك بطبقة رقيقة من الجليد ، وبين حين وآخر يسمع خطو السابلة من بعيد . وكان بونتشوك ينصت بانتباه وهو يتلمّس طريقه خلال الشوارع الخلفية ، متحاشياً الشوارع العامة المضاءة . وعند دخوله المدينة كاد أن يلتقي دورية ، ولذلك مضى في سبيله بحذر الذئب ، يمشى لصق الأسيجة ، وقد وضع يده اليمنى في جيب معطفه المتسخ إلى درجة لا تصدق — ذلك أنه أمضى النهار دافناً نفسه في كومة من القش .

وكانت ثمة قاعدة عسكرية مرابطة في المدينة ، قد عسكرت هناك عدة وحدات ، ولذلك لم يرفع بونتشوك قبضته عن العقب المدبب لمسدسه الذى كان يحمله في جيب معطفه ، لعلمه أنه معرّض على الدوام لخطر مصادفة دورية .

وفي الطرف الآخر من المدينة أخذ بونتشوك يتخطى جيئة وذهاباً في شارع جانبـي مهجور ، ويتفحص المداخل ويدرس معالم كل الدور الحقيرة . وبعد حوالي العشرين دقيقة دنا من بيت صغير وضيع في أحد الأركان ، وعاين من خصـاص الصفّاقتين ، ثم فتح البوابة بعزم وهو يبتسم مع نفسه . وكانت قد أجابت على طرقته امرأة كهلة تلتفع بشال :

— هل يسكن بوريس إيفانوفيتش هنا ؟

— نعم ، تفضّل بالدخول .

فدخل بونتشوك إلى المجاز ماراً بها . وصرّ المزلاج خلفه بهدوء . كان ثمة رجل كهل يرتدي ملابس عسكرية جالساً أمام طاولة في غرفة خفيضة السقف ينيرها مصباح زيتي صغير . قلّص العسكري عينيه ، وهو يمعن النظر في بونتشوك . فنهض وبسط ذراعيه له بسرور مكتوم :

— من أين جئت ؟

— من الجبهة .

— بالله ؟

وتردد بونتشوك ، ثم ابتسم ، وقال برقة وهو يجس بطرف إصبعه النطاق العسكري للرجل :

— هل لديك غرفة ؟

— أجل ، بكل تأكيد . تعالَ هنا .

وقاد بونتشوك إلى غرفة أصغر من غرفته ، وقدم له كرسياً في العتمة ، وأسدل الستارة على النافذة بعد أن أغلق الباب المؤدّي إلى الغرفة الأخرى وقال :

— هل انتهيت ؟

— نعم .

— كيف الأمور هناك ؟

— كل شيء جاهز .

— جماعة يعتمد عليهم ؟

— جداً .

— الأفضل أن تخلع عنك أشياءك ، ثم نواصل حديثنا . أعطني معطفك . وسآتي لك بشيء لتغتسل به .

وبينما كان بونتشوك يغتسل فوق طست نحاسي مخضوضر ، مشّد الرجل ذو البزة الرسمية على شعره القصير وراح يتكلم بصوت هادئ مكدود :

— إنهم أقوى منا بكثير في الوقت الحالي . ينبغي لقوانا أن تنمو ، ونبسط نفوذنا ، ونعمل دونما توقّف موضحين الأسباب الحقيقية للحرب . إن قوانا تنمو والحق يقال . إن كل ما يخسرونه ينتقل إلينا حتماً . فبديهي أن الرجل الراشد أقوى من الصبي ، بيد أنه عندما يشيخ ويترهّل جسمه يستطيع الفتى أن يتغلب عليه بسهولة . ولكننا لا نجابه ترهّل الشيخوخة فحسب ، بل الشلل المنتشر في الجسم بكامله .

ولما فرغ بونتشوك من الاغتسال ، قال وهو يمسح وجهه بمنشفة خشنة :

— قبل أن أترك الجيش ، كشفت النقاب عن معتقداتي للضباط . كان ذلك أدعى إلى الهزل كما ترى . . . ولكنهم سيهزّون رماة الرشاشات بكل تأكيد ، ولعل واحداً أو اثنين من الأولاد سيُحالان إلى المحكمة العسكرية ، بيد أنه ليس هناك دليل ، فماذا عساهم أن يقولوا ؟ آمل أن يفرقوهم بين وحدات مختلفة ، فلسوف يكون ذلك في مصلحتنا ، دعهم يبذروا البذرة لنا . إن لنا أصحاباً طيبين بينهم ، أشداء مثل حجر الصوان !

— لقد تسلّمت رسالة من ستيبان . يطلب فيها من له إلمام بالقضايا العسكرية . ستذهب أنت ، ولكن ماذا عن الأوراق الشخصية ؟ هل ستتدبر أمرها ؟

فسأله بونتشوك : — في أية مهمة ؟ — ووقف على طرف أصابعه ليعلّق المنشفة على المسمار .

— تدرب فتياننا ، — ابتسم مضيفه وأردف — ألا تكبر إطلاقا ؟

فأجابه بونتشوك :

— لا حاجة . ولا سيما بالنسبة لرجل في وضعي . يجب علي أن أكون بحجم السنفة * كيلا يراني أحد .

ولبثا يتحدثان حتى انبلج الصبح في المشرق . وفي اليوم التالي ، ترك بونتشوك المدينة صوب المحطة ، وكانت ملامحه قد تغيّرت بحيث لم يعد التعرّف عليه يسيراً بفضل الملابس الجديدة والتنكّر ، وقد تزوّد بمجموعة من الوثائق تحمل اسم الجندى نيقولاى أوخفاتوف من كتيبة أورشانسكي رقم ٤٤١ ، الذى سرّح من الجيش بعد أن أصيب بجرح في صدره .

٣

كان «الجيش الخاص» يسيطر على المنطقة الواقعة بين فلاديمير — فولينسكي وكوفل . (كان «الجيش الخاص» يحمل في الواقع رقم ١٣ ، ولكن حتى الجنرالات ذوي الرتب العالية كانوا يتطيّرون من هذا الرقم ، ولهذا سمى بـ«الجيش الخاص») . وفي أواخر أيلول ، عام ١٩١٦ ، أعدت الخطط والموقعة المناسبة للزحف في هذه المنطقة بالقربة من قرية سفينوخي ، ومهد الطريق بعمليات المدفعية .

وقد حشدت قوى كبيرة لا تعدّ ولا تحصى من المدفعية في هذه المنطقة . وطوال تسعة أيام ظلت مئات الآلاف من القنابل من مختلف العيارات تدك المنطقة التى يحميها خطان

* السنفة : قشر وعاء بعض النباتات كالبزيلاء والفول وغير ذلك .

من الخنادق الألمانية . وعندما اشتد رمي القنابل منذ اليوم الأول للقصف ، انسحب الألمان من خطهم الأول ، دون أن يتركوا أحداً وراءهم خلا الراصدين . وبعد بضعة أيام تخلّوا عن خطهم الثاني وتراجعوا إلى خط ثالث .

وفي اليوم العاشر بدأت وحدات من فيلق رماة البنادق التركستاني بالتقدّم . كانوا يطبّقون الطريقة الفرنسية في الهجوم على شكل موجات . لقد انطلقت ست عشرة موجة من الخنادق الروسية . كان المد الرمادى للجموع البشرية يتدفّق إلى الأمام مدوماً متقلّصاً ، يموج حول تلال شاحبة من حطام الأسلاك الشائكة الفظيعة . ومن الجانب الألماني ، خلف جذوع أشجار الحور المتفحمة وكثبان الرمال المحدودبة ، كان زئير النار المستمر ينطلق مدوياً لهاباً . وبين حين وآخر يسمع هدير مدافع بطّارية خلل الطنين ، ثم يغرق كل شيء في موجة عارمة من الضجيج ، ترافقها لعلعة طامسة ، إنّما عنيفة ، من نيران الرشاشات الألمانية .

— غوغوغو — و — و — . . . غوك ! غاك ! بو — و — و — م !

— ترا — ا — ا — رررا — تا — تا — تا ! — انطلقت أصوات الرشاشات الألمانية الرهيبة المجنونة .

وفي منطقة عرضها فرسخ ، جُلدت الأرض الرملية الشوهاء بزوابع سود من الانفجارات ، واندفعت الأمواج المغيرة ، مزبدة ، منطلقة من حفائر القنابل ، زاحفة إلى الامام .

وأسرع فأسرع كانت تتدفق داكنة شظايا القنابل المتفجّرة ، وكان المشار الأسود للقنابل المتفجّرة يتطاير باستمرار على شكل دفقات ، وتلفح نيران الرشاشات الأرض لفحاً متعاظماً . وكانت الرعائل المغيرة تحصد حتى قبل أن تبلغ الأسلاك . ولم تصل إلى الموانع سوى الموجات الثلاث الأخيرة من مجموع ست

عشرة ، ولم يكادوا يبلغوا الحواجز المقامة من الأسلاك الملفوفة والأعمدة المسفوعة حتى اصطدموا بها وانكفأوا إلى الوراء زرافات ووحداناً .

لقد أزهقت أرواح ما ينيف على التسعة آلاف نسمة في ذلك اليوم على التربة الرملية الكالحة قرب قرية سفينوخي .

ثم استؤنف الهجوم بعد ساعتين . وتقدّمت وحدات من الفرقتين الثانية والثالثة من صنف رماة البنادق التركستاني . وفي الجناح الأيسر اصطفّت وحدات من فرقة المشاة الثالثة والخمسين ولواء رماة البنادق السيبيري ٣٠٧ على طول امتداد خنـــادق المواصلات . ومن الجناح الأيمن تحركت سرايا من فرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

تسلم آمر الفيلق الثلاثين التابع للجيش الخاص ، الفريق غافريلوف ، أوامر من مقر القيادة تقضي بتحويل فرقتين أخريين إلى منطقة سفينوخا . وفي المساء سُحبت الكتائب التابعة للفرقة الثمانين وهي : تشيمبارسكي ٣٢٠ ، وبوغولما ٣١٩ ، وتشيرنوبارسك ٣١٨ ، من مواقعها واستعيض عنها بالمشاة اللاتفيين ووحدات جديدة من المتطوعين المحليين . ومع أن العملية جرت في الليل ، فإن إحدى الكتائب كانت قد تحركت بصورة تظاهرية في الليلة الفائتة في الاتجاه المعاكس ، ولم تتسلم الأمر بالرجوع إلّا بعد أن قطعت مسافة اثني عشر فرسخاً طوال خط الجبهة . ومن ثم سارت الكتائب في الاتجاه ذاته إنّما اتبعت مسالك مختلفة .

وكانت كتيبة تشيرنوبارسك الثامنة عشرة بعد الثلاثمئة قد عسكرت في مدينة صغيرة تقع على نهر ستوخود قبل أن يتم نقلها . وفي الصباح ، بعد المسيرة الأولى ، انتشرت الكتيبة

في غابة في حفائر مهجورة ، ولبثت هنا أربعة أيام تتلقى دروساً في الهجوم على الطريقة الفرنسية ، التي تقضي بالتقدم بأنصاف سرايا بدلاً من الأفواج . وطُلب من رماة القنابل اليدوية قطع الأسلاك الشائكة بأقصى ما يستطاع من السرعة وقاموا بتمرينات إضافية في رمي القنابل اليدوية من جديد . ثم استأنفوا مسيرتهم ثانية . وظلوا يسيرون ثلاثة أيام في الغابات ، خلال ممراتها ، في مسالك الأحراش غير الممهدة التي تحمل آثار عجلات المدافع . وكان ثمة ندف من ضباب خفيف تدفعه الرياح ، يحيط بقمم أشجار الصنوبر ، وينساب خلل الفجوات محوماً كالحدأة فوق خضرة المستنقعات الضاربة إلى الزرقة والمتصاعد منها البخار . وكان المطر يتساقط رذاذاً بلا انقطاع ، فتبلل الرجال كلياً وبرموا . وبعد ثلاثة أيام بلغوا منطقة الهجوم غير البعيدة عن قريتيْ بوريك الكبيرة والصغيرة ، واستراحوا يوماً ، استعداداً لرحلة الموت .

وفي الوقت ذاته كانت سريّة قوزاقية خاصة ترافق أركان حرب الفرقة الثمانين تمضي شطر ساحة المعركة القريبة . وكان من بين جنود هذه السريّة قوزاق الاحتياط الثالث من قريـة تاتارسكي ، وكان الرعيل الثاني مؤلفاً منهم بصورة كلية ، وكان بينهم أخوا اليكسي شامل ذى الذراع الواحدة ، مارتين وبروخور ، ومأمور الماكنة السابق إيفان اليكسييفتش ، وأفونكا أوزيروف الأفلج ، والأتمان السابق مانيتسكوف ، وغافريلا ليخوفيدوف ، الذى كان حياةَ السريّة وروحها ، وكثيرون غيرهم . وكان ليخوفيدوف قوزاقياً ذا مظهر فظ اشتهر بتحمله الضربات التي طالما يتلقاها دونما احتجاج من أمه البالغة السبعين من عمرها وزوجته ، وهي امرأة لا تلين لها قناة رغم أنها لا تتمتع بجمال عظيم .

وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث من تشرين الأول دخلت السريّة قرية بوريك الصغيرة في الوقت الذى كانت السريّة الأولى التابعة لكتيبة تشيرنوبارسك ٣١٨ على أهبة مغادرتها . كان الجنود يخرجون من الأكواخ المهجورة المتداعية مهرولين الواحد إثر الآخر في الشارع .

وكان ثمة نائب عريف شاب أدكن البشرة واقفاً قرب الفصيل الرئيسي . كان يُخرج قطعة حلوى من حافظة الخريطة ويزيل عنها الغلاف وسرعان ما تلطخت زوايا شفتيه الورديتين النضرتين بالشكولاته . وحينما سار بمحاذاة الطابور أخذ معطفه الملطّخ بالطين يتأرجح بين ساقيه مثل ألية الخروف . وتقدّم القوزاق من الجانب الأيسر من الشارع . وكان إيفان اليكسيفتش ، مأمور الماكنة ، في الصف الجانبي من صفوف الرعيل الثاني . كان يسير وعيناه مسمرتان إلى الأرض ، محاولاً تجنب البرك . فناداه أحدهم من صفوف المشاة ، فأدار رأسه وجال ببصره بين الجنود .

— إيفان اليكسيفتش ! صديقي القديم . . .

وتخلّف جندى قميء عن فصيله وأخذ يركض ركض البطة ، تجاهه ، ملقياً بندقيته من الخلف على كتفه . غير أن الحمالة انزلقت فراح العقب يحتك بصفيحة طعامه .

— ألا تعرفني ؟ أتراك نسيتني بمثل هذه السرعة ؟

وبعد لأيٍ عرف إيفان اليكسيفتش الجندى القميء ، الذى غطت حلقه وذقنه لحية خشنة رمادية بلون الدخان ، إنه الولد .

— من أين نبعت ؟

— هكذا . . . أنا في الخدمة . . .

— في أى كتيبة ؟

— في هذه الكتيبة ، تشيرنوبارسك ٣١٨ . ولم يدر في خلدى أن ألتقي بأحد من أصدقائي القدامى هنا .

وابتسم إيفان اليكسيفتش بسرور ولهفة ، وهو ما يزال يمسك يد الولد الصغيرة القذرة بقبضته الناتئة . وأسرع الولد ليلحق بخطوه السريع ، مشرئباً بنظراته إلى عيني إيفان ، بينما كانت نظرات عينيه الصغيرتين الحانقتين المتقاربتين ندية حنواً غير متوقعة .

— نحن مقبلون على الهجوم .

— ونحن كذلك .

— حسناً ، كيف تسير معك الأمور يا إيفان اليكسيفتش ؟

— ليس ثمة ما يستحق الذكر .

— وكذلك بالنسبة لي . فلم أخرج من الخندق منذ عام ١٩١٤ . ولم يكن لديّ بيت أو عائلة . ولكن علي أن أقاتل لمصلحة الغير . . . ولا يعلم الا الله كيف ولماذا . . .

— هل تذكر شتوكمان ؟ لقد كان رجلاً طيباً ، صاحبنا أوسب دافيدوفيتش ! لو كان معنا لكشف لنا عن جلية الأمر . لقد كان رجلاً بحق ، رجلاً عليماً . . .

وهتف الولد وهو يلوح بقبضته الصغيرة ويجعد وجهه الأهلب الصغير بابتسامة :

— هل أتذكره ! إني لأذكره أكثر من أبي نفسه . إذ لم أكن لأبالي بأبي . . . أتعلم عن مصيره شيئاً ؟

فتأوه إيفان اليكسيفتش وقال :

— إنه في سيبيريا . . . أرسلوه للسجن هناك .

فتساءل الولد وهو يتواثب إلى جانب صديقه الطويل تواثب

الطائر الصغير ، وقد انتصبت أذنه الثعلبية :

— ماذا ؟

— هو في السجن . وأغلب ظني أنه في عداد الأموات الآن .

وواصل الولد سيره برهة دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو ينظر حيناً إلى الخلف حيث تتجمع سريته ، وحيناً يحدق إلى الأعلى في ذقن إيفان والغمازة المستديرة تحت شفته السفلى تماماً . وقال وهو يخلص يده من يديّ إيفان الباردتين :

— وداعاً ! لا أعتقد أننا سنلتقي مرة ثانية .

ورفع القوزاقي قبعته بيده اليسرى ، وانحنى ، وأحاط كتفي الولد الهزيلين بذراعه . وقبّل أحدهما الآخر بحرارة ، وكأنما يفترقان إلى الأبد ، ثم انسحب الولد . وسرعان ما غاص رأسه في صدره ، ولم يظهر سوى أعلى أذنيه الورديتين فوق معطفه الرمادي . وعاد وهو يتعثر بخطاه مطأطئ الهامة .

خرج إيفان أليكسييفتش من الصف ، وجعل ينادي بصوت راعش :

— أيها الأخ ! يا عزيزي ! كنتَ حانقاً . . . كنتَ صلباً ، أليس كذلك ! هل تذكر ؟ كنت رجلاً قوياً . . . إيه ؟

فأدار الولد وجهه المبلل بالدموع الذي شاخ بسببها في الحال ، وضرب بقبضته على صدره الأسمر الهزيل الناتئ من خلال معطفه المفتوح وياقة قميصه الممزقة ، وصاح :

— كنتُ كذلك ! كنت شديد البأس ! بيد أنهم سحقوني . . . لقد ساقوا الحصان العجوز إلى الموت !

وهتف بشيء آخر ، بيد أن سرية القوزاق انعطفت إلى شارع جانبي ، ولم يعد إيفان أليكسييفتش يراه .

وسأله بروخور شامل الذي كان يسير خلفه :

— كان ذلك الولد ، أليس كذلك ؟

فأجابه إيفان اليكسييفتش باكتئاب وقد ارتعشت شفتاه فيما هو يمد يده إلى حمّالة بندقيته .

— إنه رجل بحق .

عندما خرج القوزاق من القرية بدأوا يصادفون جرحى ، فرادى وأزواجاً في بادئ الأمر ، فمجاميع ، فحشوداً كاملة . كانت عدة عربات تزحف ببطء ملأى إلى حد الطفح بمصابين في حالات خطيرة . وكانت الخيل التي تسحب العربات هزيلة هزالاً مريعاً . وكانت ظهورها العجفاء تحمل آثار السياط التي تلفحها باستمرار ، وفي بعض المواضع كانت العظام تلوح خلل الجراح ببقايا الوبر الملتصق بها هنا وهناك . كانت تجر العربات بصعوبة ، وهي تترنح وتنفخ ، وخطومها المزبدة تكاد تلامس الوحل . وبين آونة وأخرى تتوقف إحداها ، فتخفق خاصرتاها الغائرتان في وهن ، ويتدلى رأسها في قنوط . ولكن ضربة السوط كانت تحركها من مكانها ، فتجرجر أقدامها ثانية ، متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال . وكان الجرحى متعلقين بالعربات من جميع جهاتها ، يجرجرون أنفسهم طوال الطريق .

سأل آمر السرية جندياً كان يبدو أكثر لُطفاً من الآخرين :

— من أي كتيبة أنت ؟

— من فيلق تركستان ، الفرقة الثالثة .

— هل جرحت اليوم ؟

فأشاح الجندي عنه دون أن يجيبه .

وانعطفت السرية القوزاقية عن الطريق ودلفت إلى الغابة القريبة . وكانت سرايا المشاة التابعة لتشرنوياركسك ٣١٨ قد تركت

القرية ودرجت في أثرها . ومن بعيد ، في السماء الشاحبة العتماء تدلت نقطة رمادية ضاربة إلى الصفرة لمنطاد ألماني .

— أنظروا ، أيها الأولاد ، ثمة معجزة لكم !

— كأنه سجق .

— إذا فمن هناك يراقب هذا النغل حركات قطعاتنا .

— هل تعتقدون أنه ارتفع إلى هذا العلو لغير ما هدف ؟

— واه ، ما أعلاه !

— حتى القذيفة لا تبلغه !

ولحقت سرية المشاة الأولى التابعة لتشيرنوبارسك بالقوزاق في الغابة . ولبثوا سوية تحت الصنوبر المدرار حتى المساء . وكان المطر ينفذ إلى ما تحت ياقاتهم ويسيل على ظهورهم ، وقد مُنعوا من إضرام النار ، وعلى أية حال كان من المتعذر إشعالها في المطر . وإذ كان الغسق يسدل أستاره اقتيدوا إلى خندق مواصلات يكاد لا يعلو هامة الرجل ، وقد غمرته المياه ، وانبعثت منه رائحة الوحل ومخاريط الصنوبر الندية ورائحة المطر الطرية كالمخمل .

وجلس القوزاق على أعقابهم وقد رفعوا أسافل معاطفهم إلى الأعلى ، وطفقوا يدخنون ويتجاذبون أطراف حديث فاتر كئيب . وتقاسم جنود الرعيل الثاني جعالتهم من التبغ التي تسلموها قبل المسيرة وتجمّعوا سوية حول عريف رعيلهم . وكان هذا جالساً على بكرة أسلاك مهجورة ، يتحدث عن الجنرال كوبيلوفسكي ، الذى قتل يوم الاثنين الأسبق ، حيث كان يخدم في لوائه أيام السلم . ولم يتسن له أن يتم قصته فقد أصدر آمر الرعيل أمراً فهب القوزاق وهم يجرون بشَرَهٍ من سكائرهم نفساً اخيراً حتى ولو أدّى ذلك إلى احتراق أصابعهم . واقتيدت السرية من الخندق

ثانية خلل غابة الصنوبر المعتمة . وواصلوا مسيرتهم محاولين تشجيع بعضهم البعض بحمية . وراح أحدهم يصفر .

ثم بلغوا صفاً طويلاً من الجثث في مسلك صغير . كانت الجثث ممدة كتفاً لكتف ، في أوضاع مختلفة ، معظمها رهيبة ومعيبة . وكان يقف في حراستها جندى متسلح ببندقية وقد تدلى من نطاقه قناع الغاز . وقد هُرست الأرض الرطبة بمئات الأحذية وعجلات العربات . وإذ اقترب القوزاق من الجثث ، بلغتهم رائحة الجيفة المقرفة الثقيلة المنبعثة منها . وأمر القائد السرية بالتوقف ، وذهب مع ضباط الرعيل إلى الجندى ، ووقف يكلمه بعض الوقت . أمّا القوزاق فقد خرجوا عن الصف وتقدموا نحو الجثث ، رافعين قبعاتهم وهم ينظرون إلى القتلى وقد انتابهم ذلك الشعور الخفي من الرهبة والفضول ، الذى ينتاب كل الأحياء إزاء سر الموت . كانت تلك جثث ضباط ، وقد أحصى القوزاق سبعة وأربعين منهم . كان معظمهم شباناً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين ، كما تدل عليه سيماؤهم . ولم يكن بينهم سوى كهل واحد في أقصى اليمين ، وقد كان يحمل شارة النقيب . وكان فمه فاغراً ينم في أعماقه عن أصداء مكبوتة لصرخته الأخيرة ، وقد تهدل فوق فمه عذاران أسودان كثان ، وتجهم حاجباه العريضان على وجهه الشاحب الذى علاه شحوب الموتى . وكان بعض الموتى يرتدون سترات جلدية ملطخة بالوحل ، في حين كان الآخرون يرتدون المعاطف . وكان اثنان منهم أو ثلاثة حاسرى الرأس . أمعن القوزاق النظر في جثة أحد الملازمين ، وقد بدا وسيماً حتى بعد موته . كان مستلقياً على ظهره ، وقد ضمّ يده اليسرى الى صدره بشدة ، وانبسطت يمناه إلى الخارج وقد أمسكت مسدساً بقبضة أبدية . ويبدو أن أحداً قد حاول

انتزاع السلاح من يده — فثمة خدش في معصمه الباهت المتين — غير أن الحديد كان قد التحم بيده ، وما كان بالوسع فصلهما . وكانت قبعته قد انداحت إلى الوراء على شعره الكتاني الأجعد . وكان خده لصيقاً بالأرض وكأنه يداعبها ، وشفتاه البرتقاليتان الضاربتان إلى الزرقة مزمومتين بذهول وكآبة . أمّا الذى كان إلى يمينه فقد انكفأ على وجهه ، وتكور معطفه على ظهره وقد تمزّقت سيوره الخلفية تكشف عن ساقين قويتين متوترتي العضلات ترتديان سروالاً خاكياً وجزمتين قصيرتين من جلد كروم ، وقد مال الكعبان إلى جهة واحدة . كان بلا قبعة ، وقد فقد قحف جمجمته ، فلقد طوّحت به شظية قذيفة وكان ثمة ماء من آثار المطر وردى اللون يسطع في قحف دماغه الفارغ الذى تؤطره بقايا شعر ندى . والى جواره يرقد ضابط بدون وجه ، قصير مكتنز يرتدى سترة جلدية مفتوحة وقمصلة ممزقة . وكان شدقه الأسفل يستقر بشكل شائه على صدره العارى ، وتحت شعر رأسه التمعت بقايا جبينه الضيقة البيضاء وقد احترق جلدها والتف حتى استحال إلى ما يشبه الأنابيب الصغيرة . وبين الجبهة والحنك لم يكن ثمة سوى قطع من العظام وهريس ثخين قرمزى حائل إلى السواد . وخلف هذه تجمعت بلا عناية أوصال أطراف ، وآثار معطف . وساق مهشمة حيث يكون الرأس . ثم يليه شاب فتي ممتلئ الشفتين ذو وجه بيضوى طفولي . اكتسح صدره وابل من رصاص الرشاش ، وكان معطفه مثقوباً من أربعة مواضع ، وقد لاحت آثار القطن المحترق خلل الثقوب . وهمهم إيفان اليكسيفتش بأسنانه المصطكة :

— «من . . . من تراه كان ينادى ساعة احتضاره ؟ أمه ؟» — وابتعد بقوة يتعثر كالأعمى .

عاد القوزاق مسرعين إلى أماكنهم ، وهم يرسمون شارات الصليب ، دون أن يلتفتوا إلى الوراء ، ولاذوا بصمت طويل وهم يتابعون مسيرهم خلال المسالك الضيقة ، متعجلين الابتعاد عن ذكرى ما شاهدوه . وبعد فترة توقفت السرية قرب شبكة كثيفة من الحفائر المهجورة . ودخل الضباط إحدى الحفائر مع رسول رافقهم من كتيبة تشيرنوبارسك .

أمسك أفونكا أوزيروف الأفلج بذراع إيفان أليكسيفتش وهمس :

— ذلك الولد . . . الأخير . . . أحسب أنه لم يقبّل فتاة في حياته . . . ولكنهم قتلوه . هل هذا معقول ؟

فقاطعه زاخار كورولیف :

— ترى أين لاقوا هذا المصير ؟

فقال بورشيف بعد وقفة :

— حدث ذلك أثناء الهجوم . أخبرني بذلك الجندى الذى كان بحراسة هذه الجثث .

ووقف الرجال للاستراحة . وخيّم الظلام على الغابة . وكانت الريح تسوق الغيوم ، وتمزقها ندفاً فتظهر نجوم تلتمع في البعيد مثل الليلاك .

وأثناء ذلك جمع الآمر الضباط في الحفيرة ، وصرف الرسول ، وفتح الإضمامة على ضوء عقب شمعة ، وقرأ مضمونها :

في فجر الثالث من تشرين الأول استعمل الألمان الغازات الخانقة ضد الفوج الثالث التابع لكتيبة ٢٥٦ واستولوا على الخط الأول من خنادقنا . آمركم بالانتقال إلى الخط الثاني من الخنادق ، وبعد الاتصال بالفوج الأول التابع لكتيبة تشيرنوبارسك ٣١٨ ، خذوا مواضعكم في الخط واستعدوا لشن هجوم مضاد على العدو واكتساحه من الخط الأول في هذه الليلة

بالذات . وستكون في جناحكم الأيمن سريتان من الفوج الثاني وفوج من كتيبة فاناغوريسك التابعة لفرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

وراح الضباط يناقشون الموقف ويدخنون . ثم تحركت السرية .

وفيما كان القوزاق يستريحون قرب الحفائر ، سار الفوج الأول من كتيبة تشيرنوبارسك في المقدمة . وبلغوا الجسر القائم فوق نهر ستوخود . وكانت تحرسه خفيرة قوية من رماة الرشاشات لاحدى كتائب رماة القنابل اليدوية . وشرح رئيس العرفاء الموقف لآمر الفوج وانقسم الفوج الى عدة سرايا بعد عبور الجسر : ذهبت سريتان شطر اليمين ، وواحدة شطر اليسار ، وبقيت الرابعة احتياطاً . ثم تقدمت السرايا في خط عريض . وكانت أرض الغابة الخفيفة مخددة بالانفجارات . وراح الرجال يطأون الأرض حذرين ، ويتحسسونها بأقدامهم ، وبين حين وآخر يسقط أحدهم فيهمس ببعض الشتائم . وكان الولد في أقصى ميمنة السرية ، كان السادس من آخر الطابور الطويل .

واجتازه ضابطان يتحدثان بلهجة خافتة . كان صوت آمر السرية الجهير الرخيم يتشكى قائلاً :

— لقد انفتح جرحي القديم من جديد . اللعنة على ذلك النتوء . لقد تعثرت به في الظلام ، فانفجر الجرح ولم أعد أقوى على المسير . أخشى أن أضطر الى الرجوع .

وتوقف الصوت الجهير لحظة ليعود فيسمع ثانية أكثر خفوتاً من بعيد : «خذ أنت قيادة نصف السرية الأول . وسيأخذ بوغدانوف النصف الثاني ، أمّا أنا . . . فوالله لا أستطيع المضي . سأضطر الى الرجوع . . .» .

فتصدى له الملازم الثاني بيليكوف بصوته الصادح الأجش :

— من المدهش أن جراحك القديمة تعاود الانفتاح في يده كل معركة !

فرفع آمر السرية صوته قائلاً :

— كيف تجرؤ على قول ذلك يا ملازم ثاني !

— أوه ، دعك من هذا . بوسعك الذهاب اذا شئت .

وفيما كان الولد يصغي الى وقع أقدامه وأقدام الآخرين ، تناهت اليه خشخشة الدغل من خلفه فأدرك أن آمر السرية كان قد اندفع الى المؤخرة . وبعد دقيقة بلغت سمعه همهمة بيليكوف فيما كان يذهب الى جناح السرية الأيسر مع رئيس العرفاء :

— لقد تنسموا رائحة الخطر ، أولئك الخنازير ! وكلما استجدّ القتال ، انتابهم المرض أو هاجت عليهم جروحهم . أمّا أنت ، أيها الملازم الغر فينبغي عليك أن تقوم بمهمة القيادة . . يا لهم من أوباش ! ليتني أستطيع . . . — ويسمّون أنفسهم جنوداً ! . .

وتوقفت الأصوات فجأة ولم يسمع الولد سوى بقبقة قدميه وصرخة ترن في أذنيه . وهمس شخص فجأة الى يساره :

— ايه ! أيها الجار !

— ماذا ؟

— هل أنت على ما يرام ؟

فقال الولد :

— الحمد لله . . .

وما لبث أن تعثر وراح يتزحلق الى الخلف في حفرة قنبلة مليئة بالمياه .

وسمع مَنْ في يساره يقول :

— الدنيا مظلمة ، عليها اللعنة !

وواصلا السير بعض الوقت ، لا يرى أحدهما الآخر ، ثم همس بغتة نفس الصوت ذى الفحيح في أذن الولد تماماً :

— فلنذهب سوية . وحينذاك لن يكون الأمر مخيفاً . . .

وواصلا السير في صمت ، وهما يطآن بجزمتيهما المثقلتين بالماء الأرض الزلقة بحذر . وفجأة بزغ قمر أقرن مبقع من وراء السحب ، يقاوم أمواج الضباب كالقارب ، ثم ظهر في سماء صافية ، فصب سيلاً من الضياء الخافت . والتمعت على ضوئه أبر الصنوبر الندية وأومضت ، وبدا وكأن عبير الزهور المخروطية قد زاد شذاه وأنفاس التربة الندية قد ازدادت برودةً .

ألقى الولد نظرة على جاره ، الذى توقف فجأة وجعل يهز رأسه كما لو كان أصيب بضربة . وتنفس وقال :

— أنظر !

كان ثمة رجل يقف تحت شجرة صنوبر على بعد ثلاث خطوات منهما ، وقد باعد بين ساقيه .

— رجل ! — كان الولد هو الذى همس بهذه الكلمة ، أو هكذا خيل اليه على الأقل .

وصرخ رفيقه وهو يتناول بندقيته من على كتفه في الحال :

— من هناك ؟ من هناك؟ سوف أطلق النار !

كان الشبح الواقف تحت الصنوبرة لاثذاً بصمت لا يرين ، وقد تدلى رأسه جانباً كما تتدلى زهرة عباد الشمس على ساقها .

فقال الولد متنفضاً : — انه نائم !

وتقدم الى الأمام مجبراً نفسه على الضحك ، وسرت القشعريرة في جسمه .

ومضيا شطر الشبح القائم . وشد الولد قامته وجعل يحملق ، ثم وخز زميله الشبح الرمادى الجامد بأخمص بندقيته . وقال مازحاً :

— «أنت ، يا صبي ! أخذتك سنة من النوم ، يا صاحبي ؟ يا حُشاش !

وتوقف ثم صرخ وقد تراجع الى الوراء : — انها جثة !

واصطكت أسنان الولد ، وقفز الى الوراء ، وتهاوى الشبح كالشجرة حيث كان يقف . وعندما أدارا وجه الجثة الى الأعلى تبينا أن الصنوبرة كانت بمثابة ملجأ أخير لهذا الجندى المتسمم بالغاز ، وهو من الكتيبة ٢٥٦ ، حين كان يحاول النجاة بلا جدوى من الموت الذى حل في رئتيه . فتى طويل عريض المنكبين ، رقد وقد ارتمى رأسه الى الوراء ، وتلطخ وجهه بالطين عند سقوطه ، وكانت عيناه جاحظتين أحرقهما الغاز ، وبرز لسانه لحيماً منتفخاً من بين أسنانه مثل قطعة من الخشب المصقول الأسود .

همس رفيق الولد وهو يمسك بيده :

— تعال ، تعال بربك ! دعه يرقد هناك !

وبعد بضع خطوات شهدا جثة أخرى ، ثم أخرى فأخرى . كان الجنود المسممون متكدسين في بعض الأماكن أكداساً ، وقد مات بعضهم وهم جالسون على مؤخراتهم ، وكان آخرون على الأربع ، أشبه بحيوانات ترعى ، وفي مدخل خندق المواصلات المؤدى الى الخط الثاني من الخنادق رقد رجل ملتثماً مثل الكرة ، وقد دس قبضته المقضومة بين أسنانه من شدة الألم .

أسرع الولد ورفيقه ليلحقا بطابورهما ، ولكنهما فقدا أثره في الظلام ، ثم لم يلبثا أن وجدا نفسيهما في المقدمة . وبعد أن تجولا بعض الوقت قفزا في أخدود مظلم لخنادق تتوغل في الظلام .

واقترح رفيق الولد متردداً :

— لنفتش الحفائر ، فلعلنا نجد شيئاً نأكله .

— حسناً .

— اذهب أنت الى اليمين ، وسأتجه الى اليسار ، سنبحث ريثما يأتي الآخرون .

وأشعل الولد ثقاباً وخطا خلال مدخل أول حفيرة واجهها . ولكنه انطلق خارجاً من جديد كما لو أن عتلة قذفت به ، فقد كانت في الداخل جثتان متقاطعتان ترقد احداهما فوق الأخرى . فتش ثلاث حفائر دون أن يحظى بنتيجة ، ودفع باباً رابعاً ، وما ان سمع صوتاً رناناً يتحدث بالألمانية قائلا : *Wer ist das? حتى كاد يتهاوى .

فقفز الولد الى الوراء في سكون ، وبدنه يرتجف .

وتساءل الألماني وهو يخطو خارج الحفيرة ويصلح وضع معطفه على كتفيه بلا اكتراث :

— Das bist du, Otto? Weshalb bist du so spät gekommen?**

فصرخ الولد بخشونة وقد أمسك ببندقيته استعداداً .

— ارفع يديك ! ارفعهما الى الأعلى ! استسلم !

فرفع الألماني يديه ببطء ، وقد صعقه الذهول ، والتفت جانباً ، وثبت نظره في نصل الحربة اللامع المصوب اليه . وسقط معطفه من على كتفيه ، كاشفاً عن قمصلته العسكرية الرمادية المخضوضرة ، والمتجعدة من تحت ابطيه ، وارتجفت فوق رأسه يداه الكبيرتان وهما يدا عامل كادح ، وارتعشت أصابعه

---

* من هذا ؟ — بالألمانية فى الأصل .

** أهذا أنت يا أوتو ؟ لِمَ تأخرتَ طوال هذا الوقت ؟ — بالألمانية فى الأصل .

كأنها تلامس أوتاراً غير مرئية . وقف الولد دون أن يغير وضعه ، محدقاً في قامة الألماني الطويلة القوية ، والأزرار المعدنية لقمصلته ، وجزمته الصغيرة ، وقبعته التي لا قمة لها والمائلة قليلاً الى أحد الجانبين . واهتز كأنه قد جُرِّد من معطفه ، وهو يغير وضعه فجأة ، وندّ عنه صوت محشرج مقتضب ، لا هو بالسعال وهو لا بالنشيج ، وخطا نحو الألماني . ثم قال بصوت أجوف متكسر :

— أهرب ! أهرب ، أيها الألماني ! لست أضمر لك حقداً ! لن أطلق النار !

وأسند بندقيته على جدار الخندق ، ومد يده الى يد الألماني اليمنى وهو يقف على أطراف أصابعه . فطمأنت حركته الواثقة الرجل الذى أنزل يديه وأصغى بانتباه الى اللهجة غير المعهودة في صوت الروسي .

وبلا تردد مد الولد له يده الصلبة التي أرهقها العمل الشاق وشد على أصابع الألماني الباردة الرخوة . ثم رفع الكف . وسقط ضوء القمر عليها فأظهر تقرنات الجلد القديمة السمراء .

وقال الولد وهو يرتجف كأنه محموم :

— أنا عامل . لماذا أقتلك ؟ أهرب !

ودفع كتف الألماني بيده اليمنى برفق ، وأشار الى الغابة السوداء وقال :

— أهرب ، أيها الأحمق ! سيصل رجالنا عما قريب . . .

وقف الألماني يحدق في يد الولد الممتدة ، وجسده مائل الى الأمام قليلاً ، وأذناه مرهفتان لادراك معنى الكلمات البعيدة عن فهمه . وظل واقفاً على هذا النحو برهة من الوقت ، وقد التقت عيناه بعيني الولد ، ثم ارتعشت شفتاه عن ابتسامة فرحة على حين غرة ، وتراجع خطوة الى الوراء ومد ذراعيه ، وشد

على يدى الولد وهزهما ، وهو يبتسم باضطراب ويحدق في عيني الروسي :

— Du entlässt mich?.. O, jetzt hab ich verstanden! Du bist ein russischer Arbeiter? Sozial-Demokrat, wie ich? So? O! O! Das ist wie im Traum... Mein Bruder, wie kann ich vergessen? Ich finde keine Worte. Nur du bist ein wunderbarer wagender Junge... Ich... *

التقط الولد من غمار السيل الذى يغلي بالكلمات كلمتي «سوشال ديموكرات» المألوفتين :

— أجل ، انني سوشال ديموكرات . لقد صدق ظنك . والآن ، أهرب . . . ! وداعاً ، أيها الأخ . هاتِ يدك .

وقفا ينظران في عيني بعضهما ، وكل منهما يفهم الآخر بالبديهة ، البافاري حسن الهندام والجندى الروسي القصير . ومن الغابة جاءت أصوات الطوابير الروسية المقتربة . وهمس الألماني :

— In den zukünftigen Klassenkämpfen werden wir in denselben Schützengräben sein, nicht wahr, Genosse? **

ثم وثب الى المتراس وكأنه حيوان رمادي كبير .

وبعد قليل أقبل طابور الجنود الروس ، وفي مقدمتهم فرقة استكشاف تشيكية مع ضابطها . وكادوا جميعاً أن يطلقوا النار على الجندى ، وهو يزحف خارجاً من الحفيرة . فصاح بهلع

---

* — هل ستدعنى أذهب ؟ أوه ، اننى أفهم الآن . . . أنت عامل روسي ؟ سوشال-ديموكرات مثلي ؟ نعم . . . يا له من حلم ! كيف أستطيع أن أنسى ، يا أخى ؟ ان الكلمات تخونني . . . ولكنك فتى طيب شجاع . . . — بالالمانية فى الأصل .

** «في الصراع الطبقى المقبل سوف نكون فى خندق واحد ، أليس كذلك أيها الرفيق ؟» — بالألمانية فى الأصل .

وهو يضم رغيفاً من الخبز الأسود الى صدره ، اذ رأى ماسورة بندقية مصوبة اليه :

— انني روسي ، ألا ترون ؟

وقفز نائب الضابط فوق الخندق بعد أن تبين الولد ، وضربه بخشونة على ظهره بعقب بندقيته :

— سأحطمك ، سأجدع لك أنفك ! أين كنت ؟

فانتفض الولد وهو يعرج ، وكأن الضربة لم تعط مفعولها المقصود منه . فقد أذهل نائب الضابط ، وهو يترنح الى الأمام اذ أجابه بلهجة سموح على غير عادته :

— لقد سبقناكم . لا تكن فظاً بهذا الشكل .

— كفاك تسكعاً ! تارة في المؤخرة ، وتارة في المقدمة . ألا تفهم الأوامر ؟ لستَ مستجداً ، أليس كذلك ؟

وسأله بعد وقفة :

— هل لديك شيء من التبغ ؟

— انه رطب .

— هاتِ بعض الشيء .

وأولع نائب الضابط سيكارة ومضى الى مؤخرة الفصيل .

وقبل الفجر تماماً التقت فرقة الاستكشاف التشيكية بمركز مراقبة ألماني . فمزق الألمان السكون بوابل من الرصاص . وأطلقوا دفعتين أخريين في فترتين متساويتين . وحلق كشاف قرمزى فوق الخنادق ، فدوت الأصوات ، ولم يكد بريق الكشاف الأرجواني يخبو حتى فتحت المدفعية الألمانية نيرانها . وتناهى صوت القنابل المتفجرة على مبعدة كبيرة من القوات الروسية ، من مكان ما بجوار نهر ستوخود .

وما ان أطلقت أول رصاصة حتى انبطحت السرية التي

كانت تسير وراء التشيكيين بما يقرب من مائة خطوة . كان ضوء الكشاف قد سكب وميضاً أحمر فوق الأرض . وعلى ضوئه رأى الولد الجنود يزحفون كالنمل بين الأجمات والأشجار ، وما عادوا يحاذرون من الطين ، بل التصقوا به يلتمسون الحماية . وزحف الرجال نحو كل أخدود ، واختفوا وراء كل أكمة صغيرة من التراب ، ودسوا رؤوسهم في كل حفرة صغيرة . ومع ذلك ، فعندما أغرقتهم نار الرشاش المنطلقة من الغابة بضراوة ، كسيل شهر أيار ، أذعنوا ، وزحفوا عائدين ، وقد دفنوا رؤوسهم بين أكتافهم ، وهم ملتصقون بالأرض مثل الزواحف ، يتحركون دون أن يثنوا ذراعاً أو ساقاً ، ويزحفون كالحيات تاركين وراءهم آثاراً في الوحل . وقفز بعضهم على أقدامهم وأخذوا يركضون . ومزقت رصاصات دم ــ دم واخترقت الغابة لاطمة الزهور المخروطية مفتتة أشجار الصنوبر الى شظايا ، ممزقة الأرض وهي تفحّ كالأفاعي .

فُقِد سبعة عشر رجلاً من نصف السرية الأول التابع لكتيبة تشيرنوبارسك عندما وصلت الخط الثاني من الخنادق للمرة الثانية . وعلى مبعدة قليلة من ذلك كان قوزاق السرية الخاصة محتشدين أيضا . كانوا قد تقدموا الى يمين نصف سرية تشيرنوبارسك ، وتحركوا بحذر ، وكان بوسعهم أن يباغتوا الألمان ويجتاحوا نقاطهم الأمامية . ولكن عندما فتحت هذه النقاط الأمامية النار على التشيكيين ، استعد الألمان على امتداد القطاع . فأطلقوا النار كيفما اتفق ، وقتلوا قوزاقيين وجرحوا آخر .

فعاد القوزاق بالجريح والقتيلين . وأخذوا يتحدثون فيما هم يصطفون :

ــ يجب دفنهما .

ــ غيرنا سيفعل ذلك .

ــ ان الأحياء أحق بالاهتمام . أمّا الموتى فليسوا بحاجة الى شيء .

وفي غضون نصف ساعة هبط أمر آخر من أركان الكتيبة : «بعد التمهيد بالمدفعية ، آمر كتيبة تشيرنوبارسك وسرية القوزاق الخاصة باستئناف الهجوم على العدو وطرده من خط الخنادق الأول» .

دام التمهيد الخفيف بالمدفعية حتى الظهر . واستراح القوزاق والمشاة في حفائرهم ، بعد أن أقاموا الحراسة . وفي الظهيرة شرعوا يتقدمون . وأعلن هدير المدفعية عن هجوم جديد من القطاع الرئيسي على يسارهم . كان الروس يزحفون على طول الجبهة بكاملها .

تقدم القوزاق في خط متقطع ما لبث أن اتصل من اليسار بكتيبة تشيرنوبارسك ، ولم تكد تلوح قمم المتاريس حتى أطلق الألمان عاصفة من النار . وهرعت السرية الى الأمام دونما صياح ، وانبطح رجالها على الأرض ، وأفرغوا بنادقهم وهرولوا من جديد . وعلى بعد خمسين خطوة من خنادق العدو ، استلقوا على الأرض ، ولبثوا . وبدأوا الآن يطلقون النار دون أن يرفعوا رؤوسهم . كان الألمان قد وضعوا شبكة من الأسلاك على طول الخنادق . ورمى أفونكا أوزيروف قنبلتين يدويتين فوقعتا وراء الأسلاك . ولما رفع نفسه ليرمي الأخرى أصابته طلقة في جانبه الأيسر وخرجت أسفل عموده الفكرى . وشاهد ايفان اليكسييفتش الذى كان مستلقياً الى جانبه ، أوفنكا يخبط برجليه بوهن ، ثم ما لبث أن رقد بلا حراك . وقُتل بروخور شامل أخو أليكسي ذي الذراع الواحدة ، وكان الأتمان السابق مانتسكوف ثالث القتلى ، وبعد لحظة قتل يفلانتي كالينين ذو الساق المقوسة ، وقد كان راقداً الى جوار شامل .

في غضون نصف ساعة فقد الرعيل الثاني ثمانية رجال . لقد قُتل الرئيس الذى كان يقود السرية ، كما سقط ضابطا الرعيل ، وزحف القوزاق عائدين بعد أن فقدوا قيادتهم . وعندما خرجوا من منطقة النار ، تجمعوا في مكان واحد فوجدوا أنهم فقدوا نصف عددهم . ثم انسحب رجال تشيرنوياوسك هم الآخرون . أمّا خسائر الفوج الأول فقد كانت أكبر ، ومع هذا فقد جاء أمر جديد من قيادة الكتيبة : «استأنفوا الهجوم في الحال ، يجب أن تطردوا العدو من خط الخنادق الأول بأى ثمن . وان نجاح العملية بكاملها يتوقف على استعادتنا مواقعنا السابقة» .

وانتشرت السرية في خط دقيق وتقدمت من جديد . وتحت نار الألمان المبيدة انبطحوا على الأرض على بعد مئة خطوة من الخنادق . ومن جديد أخذ عدد الجنود يتضاءل ، ويلتصق الرجال المذعورون بالأرض لا يجرأون على تحريك رؤوسهم أو رفعها ، وقد تبلدوا رعباً من الموت .

ووشيك المساء جفل جنود نصف السرية الثاني التابع لكتيبة تشيرنوياوسك وراحوا يهرولون . وبلغ أسماع القوزاق صوت يصيح «قُطع علينا خط الرجعة !» ، فنهضوا ورجعوا القهقرى متعثرين ، شاقين طريقهم خلال الأجمات ، وكانوا يتساقطون ، ويلقون بأسلحتهم . وسقط ايفان أليكسييفتش تحت صنوبرة اقتلعتها احدى القنابل ، بعد أن بلغ مكانا أمينا ، وراح يستعيد أنفاسه ، وما لبث أن شاهد غافريلا ليخوفيدوف قادماً نحوه . كان يترنح كالسكران ، وعيناه مسمرتان الى الأرض ، وكانت احدى ذراعيه تخبط في الهواء ، في حين بدت الأخرى وكأنها منشغلة بإزاحة خيط عنكبوت غير مرئي عن وجهه . ولم يكن يحمل بندقية

ولا سيفاً ، وقد اخضل شعر رأسه البني الغامق السبط بالعرق والتصق على جبهته . وقفز متعثراً شطر إيفان أليكسييفتش متدوّراً فسحة صغيرة فى الغابة . وتوقف وهو ينظر إلى الأرض بحوَل . كانت ركبتاه ترتجفان وقد انحنتا قليلاً ، ولاح لايفان أليكسييفتش وكأنه على أهبة الوثوب في الهواء .

— هكذا ، اذاً . . . — بدأ ايفان ألكسييفتش محاولاً أن يقول شيئاً ، بيد أن قشعريرة ما قد خطفت وجه ليخوفيدوف .

مهلاً ! — صرخ ليخوفيدوف على حين غرة ، وجلس القرفصاء وهو ينشر أصابعه وينظر حواليه بحذر وأضاف : — إسمع ، سأغني لك أغنية . لقد حلّق طير الله ولحق ببوم وقال لها :

خبرينى ، خبرينى ، يا سيدتى البوم ،
من هو أكبر الطيور ، وأحسنها مقاماً ؟
النسر هو القيصر ،
والحداة مقدم ،
وصقر القرّان رئيس ،
وذوو المناقير الطويلة هم رجال الأوال ،
والحمام هم جنود الحرس ،
والزرازير هم الكالميكيون ،
والعقاعق هم الغجر ،
والشقاريق * هم الحرس الخاص ،
وأمّا البط الرمادى فهم المشاة .

فقال ايفان أليكسييفتش وقد غشيه الشحوب :

— إسمعني ! ماذا بك يا ليخوفيدوف ؟ هل أنت مريض ؟

* الشقاريق : جمع طير الشقرق . المترجمون .

فقال ليخوفيدوف وقد استحال وجهه أرجوانياً :

— صه !

وعاد إلى أغنيته الغريبة ، وهو يزم شفتيه الزرقاوين فتفتران عن ابتسامة فارغة .

ووثب ايفان أليكسيفتش على قدميه وقال :

— هنا ، دعنا نعود إلى السرية ، وإلّا فسوف يختطفنا الألمان ! ألا تسمعني ؟

فانتزع ليخوفيدوف يده بعيداً ، وراح يغني ، ولعاب حار يسيل من فمه .

ثم غيّر صوته فجأة ، وطفق يغني غناءً أجش . لم يكن غناء ، بل عواء متعالياً أشبه بعواء الذئب ينبعث من فمه المكشر عن أسنانه . والتمع اللعاب على أسنانه الحادة الطويلة . فحدق ايفان ألكسيفيتش مرعوباً في عيني الرجل الشاردتين في جنون ، وفي رأسه ذى الشعر المتلبد وأذنيه الشبيهتين بالشمع ، ذلك الرجل الذى كان صديقه قبل بضع ساعات . وعوى ليخوفيدوف بأغنية قوزاقية قديمة بشيء من المرارة والأسى :

عاليا تقرع طبول المجد ،
وعبر الدانوب يذهب القوزاق ،
قد لحقوا الهزيمة بأتراك السلطان
وحرّروا كل المسيحيين من سطوته .

فهتف ايفان أليكسيفتش وقد رأى مارتن شامل يعرج عن مسافة قصيرة منه .

— مارتن ! مارتن ، تعال هنا !

فاقترب مارتن متكئا على بندقيته .

وأشار ايفان أليكسيفتش الى المجنون بعينيه :

— أعني في ارجاعه . أنظر ماذا حدث ؟ لقد كان ذلك أكثر مما يحتمل . فقد صعد الدم الى رأسه .

وضمد شامل ساقه الجريحة بكم قميصه الداخلي . ثم أمسك بذراع ليخوفيدوف دون ان ينظر اليه ، وأمسك ايفان أليكسيفتش بالأخرى ومضيا . وما لبث صراخ ليخوفيدوف أن وهن . فتجهم شامل متألماً لذلك وتوسّل اليه بالكف عن الصراخ . وقال متضرعاً :

— لا تحدث ضجيجاً كهذا ! كف ، بحق المسيح . لقد روحت عن نفسك . كف الآن !

ولكن المجنون استمر على غنائه وحاول أن يفلت من القوزاقيين . وكان بين لحظة وأخرى يضغط على صدغيه بيديه ، ويطحن أسنانه ، ويلقي برأسه وقد ارتعش شدقه الى أحد الجانبين وهو في سورة من الجنون .

٤

كان هناك قتال عنيف على بعد أربعين فرسخاً أسفل نهر الستوخود . فقد استمر هدير المدفعية أسبوعين بلا انقطاع . وفي الليل كانت السماء البنفسجية القصية تمزقها أشعة الكشافات التي تنثر أضواء قزحية ، فتبعث قلقاً مبهماً في هؤلاء الذين كانوا يرقبون عن بعد لهب الحرب وانفجاراتها .

في هذه الأثناء كانت الكتيبة القوزاقية ١٢ تحتل قطاعاً ضحلاً مقفراً . وفي النهار كانوا يطلقون النار بين آن وآخر على النمساويين المتحصنين في الخنادق الضحلة قبالتهم . وفي الليل ، ينامون أو يلعبون الورق وقد لاذوا بالمستنقع عن أعين الأعداء . وكان الحراس فقط هم الذين يرقبون انفجارات الضوء البرتقالية

الباهتة حيث كان القتال تدور رحاه أسفل النهر .

في احدى هذه الليالي الشديدة القر الباعثة على الخدر حينما كانت الومضات البعيدة تخفق بوضوح أكثر من المعتاد على صفحة السماء ، غادر غريغورى ميليخوف حفيرته ، واتخذ طريقه في خندق مواصلات الى الغابة التي تقع خلف الخنادق وكأنها فرشاة رمادية فوق الجمجمة السوداء لهضبة منخفضة ، وألقى بنفسه على الأرض الرحيبة العبقة . كان الهواء خانقاً صعب الاحتمال في الحفيرة ، وخيم دخان تبغ بني كبطانية خَلِقَة فوق المنضدة التي كان ثمانية من القوزاق متحلّقين حولها يلعبون الورق . في حين كان النسيم في الغابة على قمة الهضبة يهب عليلاً كأن أجنحة طيور عابرة خفية تذروه . وهبت من الحشائش التي قرصها الزمهرير رائحة تبعث على الحزن . وخيم الظلام فوق الغابة التي اجتثتها القنابل ، وكانت نيران نجم الثريا الداخنة تلتهب في السماء ، ووقد الدب الأكبر على أحد أجنحة المجرة كعربة مقلوبة عريشها مرفوع ، وفي الشمال تلألأ النجم القطبي بنور ثابت باهت .

رفع غريغورى بصره يتأمل النجمة ، فوخز ضوؤها الثلجي ، المعتم ، عينيه مما جعل الدمع البارد يطفر من تحت أهدابه .

وانثالت على ذهنه ذكريات الماضي كله حية أمامه . فتذكر الليلة التي ذهب فيها الى أكسينيا في ياغودنويه . تذكرها بألم حاد ، وظهرت أمامه ملامح وجهها العزيزة والبعيدة في الوقت ذاته ، غير واضحة المعالم . وازداد وجيب قلبه عندما حاول أن يتذكر ذلك الوجه كما رآه آخر مرة ، وقد شوهه الألم ، وعلامة السوط الزرقاء على خدها . غير أن ذاكرته أصرت على أن تطالعه بوجه آخر ، يميل قليلاً الى أحد الجانبين ، ويبتسم

بنشوة . ومرة أخرى أدارت أكسينيا وجهها بخبث وهيام ، وهي تنظر اليه بعينين سوداوين ناريتين ، وشفتاها القرمزيتان تهمسان بشيء عاطفي يعز وصفه ، ثم حولت عينيها ورأسها ببطء بعيداً عنه ، ورأى الخصلتين المخمليتين على جيدها الأسمر . . . ولشد ما كان يحب تقبيلهما حينذاك !

وسرت في جسم غريغورى رعدة ، فقد خُيل اليه لحظة أنه يستطيع حتى أن يستاف شذى شعر أكسينيا المسكر الجميل ، واتسع منخراه . ولكن لا ! انه شذى الأوراق المتساقطة المثير . وتلاشى طيف وجه أكسينيا وزال . وأغمض عينيه ، ووضع كفه على سطح الأرض الخشن ، ووقد وراح يحدق دون أن يطرف ، فيما وراء الصنوبر المتكسر ، في النجم القطبي المعلق كفراشة زرقاء في طيران ساكن .

وضببت ذكريات أخرى ملامح أكسينيا . وتذكر الأسابيع التي قضاها في تاتارسكويه مع عائلته بعد انفصاله عن أكسينيا ، وعناق ناتاليا الشره العاتي ، خلال الليالي ، كأنها كانت تحاول التعويض عن تثلجها الخفر السابق ، وأثناء النهار ، عناية عائلته به التي قاربت العبادة ، والتبجيل الذى لاقى به القرويون فارسهم الأول من فرسان القدّيس غيورغي . وكان غريغورى يلاقي في كل مكان ، حتى في منزله ، نظرات جانبية مندهشة مفعمة بالاحترام . كانوا يحدقون فيه كأنهم لا يستطيعون أن يصدقوا أن هذا هو غريغورى نفسه الذى كان فتى ممراحاً عنيداً . وكان الرجال المتقدمون في السن يتحدثون اليه كندّ لهم ، ويرفعون قبعاتهم حينما كانوا يصادفونه ، وكانت الفتيات والنسوة يتطلعن باعجاب صريح الى قامته الجميلة المحدودبة قليلاً والوسام ذي الشريط المخطّط المعلق على صدره . ولاحظ مبلغ زهو أبيه

به حينما كانا يسيران معاً في طريقهما الى الكنيسة أو الى الساحة . وغمره تدريجياً هذا السم الخبيث من الملق والاحترام والاعجاب ، وأزال من وعيه الحقيقة التي غرسها فيه كارانجا . لقد عاد غريغورى الى تاتارسكويه رجلاً ، ورجع الى الجبهة رجلاً آخر . لقد طغت تقاليده القوزاقية ، التي رضعها مع حليب أمه وأخلص لها طوال حياته ، على الحقيقة الانسانية العظمى .

— كنت أعلم أنك ستكون قوزاقياً جيداً يا غريغورى . — هكذا قال له العجوز بانتلاى ، وقد كان ثملاً بعض الشيء ، وهو يمسد لحيته التي يختلط فيها اللون الأسود بالفضي ، حينما كانا يفترقان ، وأضاف : — لقد حملتك وأنت في الشهر الثاني عشر من عمرك الى الفناء ، وأجلستك على جواد حاسر الظهر ، كما هي العادة القوزاقية القديمة الطيبة . هل تذكرين أيتها الوالدة ؟ وأنت ، وأنت أيها الشيطان الصغير ، أمسكت بالجواد من عرفه بيديك الصغيرتين ، فقلت بيني وبين نفسي حينذاك أنك ستغدو قوزاقياً بحق ، وهكذا كنت .

وعاد غريغورى الى الجبهة قوزاقياً حقاً . ورغم أن ذهنه لم يزل ينفر من سخافة الحرب وعقمها ، فقد ظل أميناً لتقاليده القوزاقية .

وفي أيار ١٩١٥ كانت الكتيبة الألمانية الحديدية الثالثة عشرة قد تقدمت على مرج بهيج الخضرة بالقرب من قرية أولخوفتشيك . وكانت المدافع الرشاشة تتنادى مثل الجنادب . بينما ظل مدفع رشاش ثقيل من السرية الروسية المعسكرة ازاء الجدول يلعلع بقوة . وكانت الكتيبة القوزاقية الثانية عشرة قد تحملت وطأة الهجوم الألماني . وفيما كان غريغورى يركض الى الأمام وهو في خط القوزاق ، التفت الى الوراء فرأى جرم

الشمس المنصهر في سماء الظهيرة ، وشمساً أخرى في الجدول الذى تعلوه شجيرات الصفصاف بزهورها الزغباء الصفراء . ووراء الجدول ، وراء أشجار الحور ، اختبأ ماسكو الجياد القوزاقية ، والى الأمام كان الخط الألماني ، والبريق الأصفر المنبعث من نسور الخوذ النحاسية المنقوشة . وتلاعبت الريح بدخان الطلقات الذى يشبه دخان خشب الشيح .

كان غريغورى يطلق ناره على مهله ، وهو يسدد بعناية ، ويصغي بين فترات الاطلاق الى آمر الرعيل وهو يعلن عن مدى الرمي . وبحذر أزاح يعسوباً استقر على كمه . ثم جاء الهجوم . . . فضرب غريغورى بأخمص بندقيته ملازماً ألمانياً طويلاً وأطاح به ، وأسر ثلاثة ، وأجبرهم على الجرى صوب الجدول باطلاقه النار فوق رؤوسهم .

وفي تموز ١٩١٥ قرب رافا-روسكايا ، استعاد مع رعيل قوزاقي بطارية كان النمساويون قد استولوا عليها . وكان اثناء تلك المعركة قد شق طريقه الى مؤخرة العدو وفتح النار عليهم من مدفع رشاش خفيف ، فأجبر النمساويين المتقدمين على الفرار . ثم ، عندما مرّوا ببيانيتس أسر ضابطاً بديناً ، وألقاه على قربوس سرجه كما لو كان خروفاً ، وكان يتحسس طوال الطريق الرائحة الكريهة لجسد أسيره السمين الذى ظل يرشح عرقاً ويرتجف هلعاً .

وفيما كان غريغورى يرقد على سفح التل ، تذكّر بوجه خاص حادثاً واحداً كان قد قابل فيه عدوه اللدود ستيبان أستاخوف . كانت الكتيبة الثانية عشرة قد انسحبت من الجبهة وتقهقرت الى بروسيا الشرقية . وكانت الجياد القوزاقية قد وطأت الحقول الألمانية المتسقة ، وأضرم القوزاق النار في بيوت الألمان . وارتفع دخان

أحمر طوال الطريق الذى قطعوه ، وقد استحالت الجدران المحترقة والسقوف القرميدية الى رماد . وبالقرب من بلدة ستوليبين انضمت الكتيبة في هجوم كانت تشنه كتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون . فألقى غريغورى نظرة عابرة لأخيه النحيف ، ولستيبان الحليق ، وقوزاق آخرين من قريته . وفي أثناء المعركة حاقت الهزيمة بالكتيبتين وأحاط بهما الألمان . وحينما كانت السرايا الاثنتا عشرة تلقي بنفسها واحدة بعد الأخرى في الهجوم لتشق طوق العدو ، رأى غريغورى ستيبان يقفز عن الحصان الذى قتل تحته ويدور حوله كالمصروع . فأمسك غريغورى بعنان جواده ، وقد ألهبه عزم مفرح مفاجئ ، وحينما مرقت آخر سرية هذباً تكاد خيلها أن تدوس ستيبان ، اندفع صوبه وهتف :

— إمسك بركاب سرجي !

فأمسك ستيبان بسير الركاب ، وجرى مسافة نصف فرسخ الى جانب جواد غريغورى ، وهو يتضرع اليه لاهثاً فاغراً فاه : «لا تجر سريعاً ، ليس بمثل هذه السرعة ، من أجل المسيح !» .

وأفلحا في المرور من الثغرة التي فُتحت خلال الطوق الألماني . ولم يكن يفصلهما أكثر من مئة متر عن الغابة التي تراجعت اليها سراياهم عندما اخترقت رصاصة ساق ستيبان وانكفأ على رأسه . ونزعت الريح القبعة من رأس غريغورى فانثال شعره على عينيه . ونظر حواليه وهو يرفعه الى الوراء ، فرأى ستيبان يعرج نحو شجيرة ، ويخلع قبعته القوزاقية ، ويجلس ، وبعجالة يفك أزرار سرواله بأشرطته القوزاقية القرمزية . ولكن الألمان جاءوا من وراء التل مسرعين . فأدرك غريغورى أن ستيبان كان يريد الحياة بكل جوارحه ، ولهذا أخذ يخلع سرواله ، فهو يعلم أن الألمان لن يرحموا القوزاق إن ظفروا بهم . واستدار غريغورى

بحصانه مستجيباً لنداء وجدانه وعدا راجعاً صوب الشجيرة ، وقفز والحصان يجرى .

— اعتلِ حصاني !

ما كان غريغورى لينسى النظرة الصارمة لعيني ستيبان وهو يعينه على الركوب ، ثم جرى بجانبه ، ممسكاً بركاب سرج الحصان الذى كان يتصبّب عرقاً . وعلى صفير وابل من الرصاص فوق رأسيهما ، ومن خلفهما انطلق صوت الطلقات مثل انفلاع كؤوس الأكاسيا الناضجة .

وحينما بلغا الغابة هبط ستيبان من فوق السرج ، وقد بدا وجهه أبيض متغضنا من الألم ، وراح يعرج مبتعداً . كان الدم يسح داخل جزمته اليمنى ، ومع كل خطوة يطفر من كعبه المقطوع سيل دقيق بلون الكرز الأحمر . واستند الى جذع بلوطة وارفة ، وأومأ الى غريغورى .

وقال وغريغورى يتقدم منه :

— ان جزمتي ملأى بالدم .

ولاذ غريغورى بصمت ، وهو يشيح النظر .

— غريشا ! حينما قمنا بالهجوم اليوم . . . أتسمع ، يا غريغورى ؟ — قال ستيبان وهو يحاول النظر في عينيه . — حينما قمنا بالهجوم اليوم أطلقت عليك النار ثلاث مرات من الخلف . . . ولكن لم يكتب لي أن أقتلك .

والتقت عيونهما . وتألق بؤبؤا ستيبان الثاقبان في محجريهما الغائرين بشكل لا يحتمل . وراح يتكلم وهو لا يكاد يحرك شفتيه :

— لقد أنقذتَ حياتي . . . شكراً . . . ولكني لا أستطيع أن أغفر لك ما فعلت بأكسينيا . . لا أستطيع أن أحمل نفسي

على . . . لا تجبرني يا غريغوري . . .

فأجاب غريغوري :

— لن أجبرك .

وافترقا عدوين كما كانا .

وبعد . . . في أيار اخترقت الكتيبة مع القطعات الأخرى لجيش بروسيلوف ، الجبهة في لوتسك ، وجالت في مؤخرة العدو تسدد الضربات وتتلقى أمثالها . وقرب لفوف تولّى غريغوري قيادة سريته من تلقاء نفسه وأسر مدفع حصار نمساوي وجنوده . وذات ليلة ، بعد ذلك بما يقرب من الشهر سبح عبر نهر البوغ ليحتل «موضع قدم» في الجانب الآخر . وقد أخذ حارساً على حين غرة ، فتصارع الألماني البدين المتين وغريغوري وهو نصف عارٍ في الظلام مدة طويلة قبل أن يستطيع غريغوري أن يوثقه .

وابتسم غريغوري لما تذكر الواقعة .

ما أكثر الوقائع كهذه التي حدثت خلال المعارك القريبة والقديمة !

كان غريغوري يدافع عن شرفه القوزاقي بثبات ، منتهزاً كل فرصة لاظهار بطولات طائشة ، مجازفاً بحياته في مغامرات متهورة ، كان يغير ملابسه ويتوغل في مؤخرة العدو ، ويستولي على مراكزه الأمامية دون أن يسفح دماً ، ويشعر أن التوجع على الآخرين الذى كان قد أمضّه في الأيام الأولى من الحرب ولّى الى الأبد . وأصبح قلبه فظاً غليظاً كمستنقع ملح أيام الجفاف ، وكما لا يمتص المستنقع المالح الماء ، كذلك هو قلب غريغوري فانه لم يكن ليتشرب الرحمة . فلقد عبث بحياته وحياة الآخرين باستخفاف وعدم اكتراث ، وغمر نفسه بالمجد . فنال أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغي ، وأربع ميداليات . وفي

الاستعراضات الطارئة كان يقف الى جانب بيرق السرية المفعمة بدخان البارود من معارك لا تحصى . ولكنه أدرك أنه لم يعد يعرف الضحك كما كان في الأيام السالفة ، وأدرك أن عينيه قد غارتا وأن عظام وجنتيه قد برزت بحدة ، وأدرك أنه لو قبّل طفلاً فلن يستطيع أن ينظر طويلاً في عينيه البريئتين الصافيتين . وأدرك فداحة الثمن الذى دفعه مقابل أوسمته وميدالياته .

رقد على سفح التل ، وقد طويت أطراف معطفه تحته ، مستنداً على مرفقه الأيسر ، وقد أطلق العنان لذاكرته لتستعيد الماضي ، ومن بين الأفكار المتزاحمة انضفر حادث بعيد يعود الى أيام طفولته مثل خيط ناعم أزرق . ولبرهة ركّز وعيه عليه بحزن وشغف . ثم ما لبث أن عاد الى حاضره . وفي الخنادق النمساوية كان شخص ما يعزف على الماندولين بمهارة . وانسابت الألحان الرقيقة التي حملتها الريح عبر النهر ستوخود ، منتشرة بخفة فوق الأرض التي كثيراً ما غسلتها دماء البشر . وفي السماء توهجت النجوم ، ولكن الظلام كان يزداد عمقاً ، وكان ضباب منتصف الليل مخيما فوق المستنقع . دخن سيكارتين على التتابع ، وأمرّ أصابعه بشيء من الاعزاز فوق حمالة بندقيته ، ثم نهض من الأرض المعطاء وعاد الى الخنادق .

حينما دخل غريغوري حفيرته وجد الرجال ما يزالون يلعبون الورق ، فألقى بنفسه على فراشه ، وجرّب مرة أخرى أن يطوف في مسالك الذكريات التي تقادم عليها الزمن ، الّا أن النوم غشيه حتى قبل أن ينقلب . وفي نومه حلم بالسهب الجاف المترامي ، وبزهرات الخلد الوردية ، وبآثار حوافر الخيل العارية من النعال بين السعتر البنفسجي الأشعث . . . وكان السهب خالياً يلفه سكون رهيب ، وكان هو يمشي فوق الأرض الرملية الصلبة ،

ولكنه لم يكن يسمع وقع خطواته ، فأرعبه ذلك . . . واستيقظ لحظة ورفع رأسه وهو مبعوج الخدّين بسبب وضعيته غير المريحة ، يلوك بشفتيه كجواد فاجأه عبير عشب غير مألوف . ثم لفه النوم ثانية ، دون أن تكدره الأحلام .

واستيقظ في النهار التالي وبين جوانحه حنين مبهم يتآكله . وسأله تشوباتي :

ـــ لماذا تبدو شكساً اليوم ؟ هل حلمت بأهلك في الليلة السابقة ؟

ـــ لقد حزرت . حلمت بالسهب . . . ان روحي ممزقة شر ممزق . . . بودي أن أعود الى أهلي . فلقد ضقت ذرعاً بخدمة القيصر .

فابتسم تشوباتي متلطفاً . لقد عاش دائماً في حفيرة واحدة مع غريغوري ، وأولاه الاحترام الذي يشعر به حيوان قوي تجاه آخر . ولم يقع بينهما أي عراك منذ شجارهما عام ١٩١٤ ، وكان تأثير تشوباتي يبدو واضحاً في طباع غريغوري ونفسيته التي تغيرت . وقد خففت الحرب كثيراً من نظرة تشوباتي . لقد تحول ببطء ولكن بلا حدة ضد الحرب ، وجعل يتكلم كثيراً عن الجنرالات والألمان القابعين في قصر القيصر . وقد قال ذات مرة مدمدماً : ـــ لا تأمل خيراً من هذه الحرب ما دامت القيصرة نفسها تسري في عروقها الدماء الألمانية . ولو وجدت الفرصة سانحة ، لربما باعتنا الى العدو . . .

وذات يوم حاول غريغوري أن يشرح له تعاليم كارانجا ، بيد أن تشوباتي لم يكن ليتقبل شيئاً منها .

وقال بابتسامة ماكرة وهو يربت على صلعته :

ـــ الأغنية لا بأس بها ، غير أن الصوت مبحوح بعض

الشيء . ولطالما يردد ميشا كوشيفوي مثل هذا القول ، هو الآخر ، كديك على حائط . لا جدوى من هذه الثورات ، لا شيء سوى الضرر . أنت تذكر أن ما نحتاجه نحن القوزاق هو قيصر قوي ، واحد مثل نيقولاي نيقولاييفتش * . ليس بيننا وبين الفلاحين شيء مشترك . فلا تصلح الاوزة رفيقة للخنزير . الفلاحون يريدون الاستيلاء على الأرض ، ويريد العمال أجوراً أعلى . ولكن ماذا سيقدمون لنا ؟ الأرض ، وعندنا منها شيء كثير . ماذا عسانا نريد أكثر من ذلك ؟ ان قيصرنا لا نفع فيه ، ولا فائدة من انكار هذه الحقيقة ! لقد كان أبوه أقوى منه ، بيد أن هذا سينتظر حتى تدق الثورة الباب كما فعلت في عام ١٩٠٥ ، وحينئذ ستندحرج الى الجحيم جميعاً . ولن نربح شيئاً من ذلك ، واذا أطاحوا بالقيصر ، سددوا ضرباتهم الينا . سيعمدون في البدء الى اثارة الحزازات القديمة ، ثم يبدأون بعد ذلك بانتزاع أراضينا واعطائها للفلاحين . علينا أن نظل على حذر .

فقطّب غريغوري :

ـــ ان أفكارك تسير على نمط واحد لا يتغير .

ـــ هذا هراء يا ولد . فأنت ما تزال غراً ، ولم ترَ الدنيا بعد . ولكن انتظر قليلاً حتى ترى من منا على صواب .

وكان النقاش ينتهي عند ذلك عادة ، ويلوذ غريغوري بالصمت ، ويحاول تشوباتي تغيير الحديث الى موضوع آخر .

---

* نيقولاي نيقولاييفتش (١٨٥٦ ـــ ١٩٢٩) كبير الأمراء ، عمّ القيصر نيقولاي الثاني (القيصر الروسي الأخير) وقائد القوات الروسية المسلحة في الحرب العالمية الأولى . هرب الى الخارج عام ١٩١٩ ، ثم أصبح بمعونة رانكل وأغلبية الملكيين ، أحد المطالبين بالعرش الروسي . توفي في باريس .

في ذلك اليوم تورط غريغورى بحادث مزعج . ففي الظهيرة توقف مطبخ الميدان في الجانب الأقصى من التل كالعادة . وتزاحم القوزاق في خندق المواصلات وهم في طريقهم الى المطبخ . وذهب ميشا كوشيفوى لتسلم طعام الرعيل الثالث ، وعاد يحمل الأواني المعدنية التي يتصاعد منها البخار على عصا طويلة . ولم يكد يدخل الحفيرة حتى صاح :

— هذا مستحيل ، أيها الأخوة ! هل نحن كلاب ، أم ماذا ؟

فتساءل تشوباتي :

— ما الأمر ؟

فقال كوشيفوى ساخطاً :

— انهم يطعموننا من لحم متعفن ، — ووضع الأواني المعدنية على فراش ، وهو يلقي برأسه ذى الشعر الذهبي الى الوراء ، واقترح وهو ينظر جانباً الى تشوباتي :

— شمَّ بنفسك مدى نتانة الحساء !

وانحنى تشوباتي فوق صحنه فاتسع منخراه . وأجفل وقطب وجهه . وتجهم كوشيفوى هو الآخر ، وارتعش منخراه في محاكاة لا ارادية لتشوباتي ، وأكد الأخير :

— اللحم فاسد .

ودفع الصحن في نفور ، ونظر الى غريغورى . فنهض غريغورى من على سريره ، وانحنى بأنفه المعقوف فوق الحساء ، ثم انتزع نفسه بعيداً . وبحركة متكاسلة ركل أقرب صحن برجله وألقى به على الأرض . فسأله تشوباتي بتردد :

— لماذا فعلت ذلك ؟

فأشار غريغورى الى السائل الموحل المراق على الأرض وقال :

— ألا ترى لماذا ؟ أنظر ! هل أنت أعمى ؟ ما هذا ؟

— اليكم ! ديدان ! يا أمي العجوز ! ولم أرها ! ذاك غداء لذيذ لك . ليس هو بحساء كرنب ، بل شعرية . ديدان بدلاً من حواصل الطيور !

كانت ثمة ديدان مسلوقة بيضاء ترقد ملتوية على قطعة لحم أشبه بالقرميدة على الأرض المبقعة بالدسم . وجعل كوشيفوى يعد . . . وهو يهمس لأمر ما :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . .

وساد الصمت لحظة . وبصق غريغورى من بين أسنانه . ثم استلَّ كوشيفوى سيفه وقال :

— سنلقي القبض على هذا الحساء ونبلغ عنه آمر السرية .

فوافق تشوباتي وهو يفصل الحربة من بندقيته :

— نعم الرأى ! سوف نأخذ الحساء ، وأنت يا غريغورى ، إحم المؤخرة وأعد التقرير .

وحمل تشوباتي وكوشيفوى قدر الحساء على حربة ، واستلاَّ سيفيهما . وتبعهما غريغورى ، وفيما هم يسيرون خلال الخنادق تجمع صف من القوزاق الفضوليين في موجة رمادية خضراء وتبعوهم .

— ماذا هناك ؟

— إنذار ؟

— لعله شيء يتعلق بالسلم ؟

— هه ، سلم ! خير لك أن تحظى بشيء تأكله أولاً .

— لقد ألقوا القبض على حسائهم . فيه ديدان .

وتوقف كوشيفوى وتشوباتي خارج حفيرة الضباط . وانحنى غريغورى ودخل «مغارة الثعلب» ، وهو يمسك قبعته بيده اليسرى .

وزجر تشوباتي قوزاقياً كان يدفعه من الخلف :

ـــ لا تزحمني !

وبعد لحظة خرج آمر السرية ، وهو يزرر معطفه وينظر بدهشة الى غريغورى ، الذي كان آخر من خرج من الحفيرة ، وجال الضابط بعينه في القوزاق المتجمعين :

ـــ ما الخبر أيها الأولاد ؟

فتقدم غريغورى نحوه وأجاب :

ـــ لقد أحضرنا أسيراً .

ـــ أى أسير ؟

فأشار إلى وعاء الحساء عند قدمي تشوباتي وقال :

ـــ ذاك . . . ذاك هو الأسير . . . شم ما يُقدم لقوزاقك من طعام .

فارتفع حاجباه بحدة ، ورفّا وانبسطا إلى الجانبين . وتفحص آمر السرية التعابير البادية على وجه غريغورى بانتباه ، ثم نظر مقطباً إلى الوعاء . وصاح ميشا كوشيفوى بعنف :

ـــ لقد بدأوا يطعموننا خيلاً ميتة .

ـــ لنغيّر عريف الاعاشة !

ـــ أفعى ! . .

ـــ عليه اللعنة !

وتعالت صيحات أخرى :

ـــ إنه يحشو بطنه بحساء الكلى . . . في حين يعج حساؤنا بالديدان !

وانتظر الضابط حتى خفت هدير الأصوات ، ثم قال بتجهم :

ـــ كفى ! لقد قلتم ما فيه الكفاية ! سأغير عريف الاعاشة

اليوم . وسأعين لجنة للتحقيق في أعماله . إذا لم يكن اللحم صالحاً . . .

ـــ قدمه لمحكمة عسكرية ! ـــ جاءت الصيحة من الخلف ، وغرق صوت الضابط في عاصفة جديدة من الصيحات .

كان لا بد من تغيير عريف الاعاشة أثناء مسيرة الكتيبة . وبعد أن ألقى القوزاق المتمرّدون القبض على الحساء وأحضروه أمام آمر السرية بساعات قليلة ، وصل الأمر بالانسحاب من الجبهة والزحف بمسيرة اضطرارية إلى رومانيا . وفي المساء استبدل القوزاق بقناصة سيبيريين . وما ان حل اليوم التالي حتى امتطى رجال الكتيبة خيلهم في قرية رينفيتشي ومضوا إلى سبيلهم .

لقد أرسلت تشكيلات عسكرية فورية لدعم الرومانيين الذين كانوا يعانون الهزيمة تلو الهزيمة . وأدرك القوزاق ذلك في اليوم الأول ، عندما كان ضباط الاسكان الذين أرسلوا في المقدمة مساء إلى القرية التي كان من المقرر أن تقضي فيها الكتيبة الليلة ، قد عادوا بأنباء تفيد بأنهم لم يجدوا أماكن يأوون إليها . فقد كانت القرية مكتظة بالمشاة ورجال المدفعية الذين كانوا هم الآخرون يزحفون إلى الحدود الرومانية ، لذلك اضطرت الكتيبة إلى قطع ثمانية فراسخ أخرى لايجاد مأوى .

استغرقت المسيرة سبعة عشر يوماً . وكانت الخيل قد أنهكها نقص العلف . ولم يعثروا على طعام في تلك الأرض الخراب الواقعة خلف الجبهة مباشرة ، وكان السكان قد لاذوا بالفرار إلى داخل البلاد أو اختبأوا في الغابات . وكشف أبواب الأكواخ المفتوحة عن جدران كئيبة عارية . ومن حين لآخر كان القوزاق يصادفون قروياً بائساً مذعوراً في شارع مهجور ، ولكنه ما إن يرى الجنود حتى يسارع إلى إخفاء نفسه . واذ أجهدهم المسير

المتواصل ، وتجمدت أوصالهم ، واحتد طبعهم بسبب كل ما كان عليهم هم وعلى جيادهم أن يعانوه ، أخذوا ينزعون سقوف القش من المباني . وفي القرى التي سلمت من النهب ، لم يترددوا في سرقة كل ما عثروا عليه من طعام حقير ، دون أن يردعهم وعيد ضباطهم .

وغير بعيد من الحدود الرومانية أفلح تشوباتي في سرقة شيء من الشعير من مخزن في إحدى القرى الميسورة الحال . فضبطه المالك أثناء الحادث ، غير أنه طرح البيسارابي الكهل المسالم أرضاً ، وحمل الشعير إلى حصانه . فوجده ضابط الرعيل يملأ مخلاة جواده ويربت بأصابع مرتجفة على خاصرتي الحيوان الغائرتين .

— أوريوبين ! سلم ذلك الشعير ، أيها الخنزير ! هل تريد أن تعدم رمياً بالرصاص ؟

فرمق تشوباتي * الضابط بنظرة جانبية مكظومة وألقى بقبعته على الأرض . ولأول مرة طوال حياته في الكتيبة أطلق صرخة تمزق الفؤاد :

— قدمني إلى محكمة عسكرية ! اطلق النار عليَّ ! اقتلني في الحال ، ولكني لن أتخلى عن الشعير . . . هل ينبغي لحصاني أن يموت جوعاً ، ها ؟ لن أسلم الشعير ، ولا حبة واحدة !

وتمسك بعصبية تارة برأسه ، وطوراً بعرف حصانه الذي كان يمضغ الشعير بنَهَم ، ثم بسيفه . . .

وقف الضابط دون أن يجيب ، وهو ينظر إلى خاصرتي

---

* تشوباتي هو لقب القوزاقي أوريوبين . **المعرب** .

الحصان البالغتي الهزال ، ويهز رأسه . وأخيراً قال وفي صوته نبرة من الحيرة :

— لماذا تعطي حصانك الحب وهو ما يزال تعباً ؟

— كلا ، لقد استراح الآن ، — أجابه تشوباتي بما يقرب من الهمس وهو يلتقط الحبات التي سقطت على الأرض ويعيدها إلى المخلاة .

* * *

وصلت الكتيبة إلى موقعها الجديد في أوائل تشرين الثاني . كانت الرياح تعوى فوق جبال ترانسلفانيا ، وقد تجمع في الوديان ضباب شديد البرودة ، وكانت تنبعث من الغابات التي لفحها الصقيع المبكر رائحة أبر الصنوبر ، وكثيراً ما كانت ترى آثار الحيوانات على الثلج الهش المبكر . وكانت الذئاب والأيائل والماعز ، وقد أرعبتها الحرب ، تهجر كهوفها الموحشة وتتجه إلى داخل البلاد .

وفي السابع من تشرين الأول حاولت الكتيبة أن تقتحم المرتفع رقم ٣٢٠ . وكان النمساويون قد استولوا في الليلة السابقة على الخنادق ، وفي صباح يوم الهجوم استبدلوا بسكسونيين جيء بهم توّاً من الجبهة الفرنسية . وتقدم القوزاق مترجلين يتسلقون المرتفعات الصخرية التي تكسوها طبقة رقيقة من الثلج ، فكانت الأحجار الصغيرة تتدحرج إلى أسفل ، وكانوا يثيرون غباراً جليدياً رقيقاً . وابتسم غريغوري ابتسامة بلهاء محتشمة فيما كان يحث خطوه ، وقال محدثاً أوريوبين :

— أشعر بشيء من القلق هذا الصباح . . . كما لو كنت أذهب إلى المعركة للمرة الأولى .

— غريب أمرك . . . — أجاب أريوبين حاملاً بندقيته القديمة وهو يمصّ الثلج من على شاربيه .

وتقدم القوزاق صعداً بتشكيلة غير منتظمة . لم تطلق أية طلقة . كانت خنادق الأعداء يكتنفها سكون ينذر بالشر .

وخلف المتاريس كان ثمة ملازم سكسوني له وجه أحمر لفحه الطقس وقد انسلخ جلد أنفه يقف منتصباً ويطلق صيحات مرحة :

— Kameraden! Wir haben die Blaumäntel oft genug gedroschen! Da wollen wir's auch diesen einpfeffern, was es heißt mit uns'n Hühnchen zu rupfen! Ausharren! Schießt noch nicht. *

وحث القوزاق خطوهم . كانت الأرض الحجرية غير المتراصة تتفتت تحت أقدامهم . وكان غريغوري يبتسم باضطراب ، وهو يثني أطراف قلنسوته المائلة . وبدا أنفه المقوس وخداه الغائران وعذاراه الأسودان شيئاً أزرق مُصفراً والتمعت عيناه بكلال تحت حاجبيه المعفرين بالثلج مثل كسرتين من فحم الأنثراسيت . تركته الطمأنينة المعتادة . وحاول أن يجنب نفسه هاجس الخوف اللعين الذى عاوده على غير انتظار . فقال لأوريوبين وهو يضيق عينيه ويحول نظرته القلقة إلى حوافي الخنادق التي يعلوها الثلج :

— إنهم محافظون على هدوئهم . فهم يريدون منا أن نقترب منهم . ولكني خائف ولست أخجل من البوح بذلك . ماذا لو درنا على أعقابنا — وهربنا ؟

فسأله تشوباتي مغتاظاً :

* — أيها الأصدقاء ! كنّا نقتل ذوي المعاطف الزرقاء هؤلاء مرات عديدة ! ولنريهم نجوم الضحى مرة أخرى ! كونوا صامدين ! لا تطلقوا النار قبل صدور الأمر ! بالألمانية فى الأصل .

— فيم نواحك هذا اليوم ؟ الأمر أشبه بلعب الورق . فمتى ما فقدت الثقة بنفسك انتهى أمرك . إن وجهك شاحب يا غريشا . فاما أن تكون مريضاً أو . . . سوف تصاب اليوم . أنظر ! هل شاهدت ذلك ؟

وكان قد استوى ألماني يرتدى سترة قصيرة وخوذة مدببة فجأة بكامل قامته فوق الخنادق ، ثم ما لبث أن اختفى ثانية .

وعلى يسار غريغورى كان قوزاقي أشقر وسيم ما ينفك يلبس ويخلع قفازيه فيما هو يسير . كان يكرر هذه الحركة باستمرار ، ماداً ساقيه باستقامة ومتكلفاً التنحنح بصوت عال . «أشبه بشخص يسير بمفرده في الليل ويتنحنح ليبعث الثقة في نفسه» ، — قال غريغورى ذلك في سريرته . والى أبعد من ذلك استطاع أن يرى وجنة العريف ماكساييف النمشاء ، يتلوه يميليان غروشيف ، ممسكاً ببندقيته وقد ثبت فيها الحربة في حالة الاستعداد . وتذكر غريغورى أن يميليان كان قد سرق قبل بضعة أيام كيس ذرة من روماني ، واستعمل هذه الحربة في فتح قفل غرفة المخزن . وكان ميشا كوشيفوى يسير الى جانب ماكساييف تقريباً . كان يدخن بشدة ويتمخط من حين لآخر ، ويمسح أصابعه بمعطفه . فقال ماكساييف :

— بودي أن أشرب شيئاً .

وقال كوشيفوى متشكياً :

— إن جزمتي تؤلمني ، يا يميليان .

ولكن غروشيف قاطعه بصرامة :

— دعنا من جزمتك . فبعد لحظة سينهال علينا الألمان بوابل من رصاص المدافع الرشاشة .

وناشت أول دفقة من طلقات العدو غريغورى ، فسقط

على الأرض وهو يئن . وحاول أن يتناول حافظة الاسعافات الأولية من حقيبته ، الا أن الدم الحار المتدفق من مرفقه داخل كمه قد هدّ من قواه . ورقد على الأرض ولاذ برأسه وراء صخرة كبيرة ، ولعق زغب الثلج بلسانه الملتهب ، وتلقف ملهوفاً من شدة العطش الغبار الثلجي الهشّ بشفتيه المرتجفتين . وأصغى بخوف ورعدة غير اعتياديين ، إلى قعقعة البنادق الحادة الجافة ورعد المدافع المتواصل . ورفع رأسه فرأى قوزاق سريته يهرولون عائدين أسفل المنحدر ، وهم يتزحلقون ويتساقطون ، ويطلقون النار على غير هدى . ولكنه بدافع من خوف غريب لا يوصف استوى على قدميه ، واندفع راكضاً إلى الأسفل شطر سياج غابة الصنوبر المتثلم الذى كانت الكتيبة قد انطلقت منه في هجومها . وأدرك غريغورى غروشيف الذى كان يجرجر خلفه ضابط رعيل جريحاً أسفل المنحدر الحاد ، وكان الضابط يترنح مثل السكران مستنداً إلى كتف غروشيف ، وهو يتفل بقعاً سوداء من الدم . وتدفقت السرية نحو الغابة كالسيول . وعلى المنحدرات الرمادية خلفها رقدت أكوام رمادية صغيرة من الموتى ، وزحف الجرحى إلى أسفل دون مساعدة ، تلفحهم نيران المدافع الرشاشة العنيفة .

وولج غريغورى الغابة متكئاً على ذراع ميشا كوشيفوى . كان الرصاص يتقافز على الأرض المنحدرة ومن ميسرة الألمان كان مدفع رشاش ينثر برداً دقيقاً يرسل رنيناً أشبه بأصوات أحجار تلقي بها يد قوية على سطح جليدى خفيف لنهر متجمد .

وصاح تشوباتي بما يشبه الجذل :

— إنهم . يسلقوننا سلقاً !

واتكأ على جذع صنوبرة أحمر ، وراح يطلق النار بفتور على الألمان المتدفقين فوق حافة الخنادق .

وصاح كوشيفوى منتزعاً ذراعه من غريغورى :

— يجب أن نعلّم الحمقي . الناس خنازير ، بل لُسوأ ! حين ينزفون كل دمائهم ، يدركون لأى سبب قتلوا !

فتجهّم تشوباتي :

— فيم تهذي ؟

— لو كنت ذكياً لكان بوسعك أن تفهم بنفسك . ولكن ماذا عسى أن يفهم الأحمق ؟ لا شيء يجعله . . .

فسأله تشوباتي :

— هل تذكر قسمك ؟ هل أقسمت أم لا ؟

وجثا كوشيفوى على ركبتيه ، بدلاً من أن يجيب ، وجرف بعض الثلج بيدين مرتعشتين ، وابتلعه بشراهة ، وهو يرتجف ويسعل .

٥

دارت شمس الخريف فوق تاتارسكي عبر سماء حرثتها غيوم رمادية متموجة . وفي الأعالي كان نسيم رقيق يسوق السحب ببطء نحو الغرب ، وفوق القرية ، فوق سهل وادي الدون الحالك الخضرة ، فوق الغابات العارية ، كانت الريح تهب بقوة تحني هامات الصفصاف والحور ، وتعبث بصفحة الدون ، وتطارد أسراباً من الأوراق القرمزية في الشوارع . وفي ساحة درس الحبوب العائدة لخريستونيا نثرت الريح حزمة من قش القمح لم يحسن شدها ، وانتزعت أعلاها ، وأطارت حافتها الخفيفة . واختطفت فجأة حملاً ذهبياً من القش كما لو كان على مذراة ، وحملته إلى الفناء في الخارج ، فتطاير دوامات عبر الشارع ، ونثرته بأريحية فوق الطريق الخالي ، ثم ألقت بالحزمة المنتشرة آخر

الأمر فوق سطح بيت ستيبان أستاخوف . وخرجت زوجة خريستونيا تعدو إلى الباحة دون أن تضع عليها شالها ، ووقفت برهة من الوقت ترقب الريح التي كانت تصول وتجول في ساحة الدرس ، ثم عادت من حيث أتت .

لقد خلّفت سنوات الحرب الثلاث آثاراً بينة على القرية . فإذ حرمت البيوت من أذرع رجالها ، غارت أسقف الحظائر ، وعم الإهمال باحات الدور ، وترك الخراب التدريجي آثاره في كل مكان . ولم يكن لدى زوجة خريستونيا من يعينها سوى ابنها البالغ تسع سنوات من العمر . ولم تكن زوجة أنيكوشكا تصلح لشأن من شؤون الحقل أبداً ، وبسبب وحدتها راحت تولي مظهرها اهتماماً مضاعفاً ، وتزين نفسها ، ولما لم يكن عدد القوزاق اليافعين كافياً ، فقد رضيت بصبيان من سن الرابعة عشرة ونحو ذلك . وكانت بوابتها الخشبية التي لطخها أحدهم بالقطران بسخاء ذات مرة ، ما تزال تحمل آثار ذلك مصداقاً لتلك الأقاويل . وكان بيت ستيبان استاخوف قد هجر كلياً ، وغطى صاحبه النوافذ بالألواح ، وتهاوى السقف ونما عليه نبات الأرقطيون ، وتراكم الصدأ على قفل الباب ، وكانت الماشية الضالة تتسكع خلال البوابة المفتوحة ، باحثة عن مأوى يحميها من غائلة الحر والمطر في الفناء الذى غطته الأعشاب والأدغال . وكاد جدار بيت إيفان توميلين أن يتهاوى على الشارع ، لو لا أن عموداً متشعباً كالشوكة قام على إسناده . ويبدو أن القدر كان يأخذ ثأره منه لما هدم من بيوت روسية وألمانية حين كان مصوب مدفع .

كذلك كان الحال في شوارع وأزقة القرية كلها . وفي طرفها الأدنى لم يحتفظ سوى بيت وساحة بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف

بمظهرهما العادى ، وقد بدا كل شيء هناك سالماً ومتسقاً ، على أن واقع الحال لم يكن كذلك . فلقد سقط الديكان الحديديان من سطح مخزن الحبوب ، وقد تآكلهما الزمن ، ومال مخزن الحبوب إلى أحد الجانبين ، وبوسع العين المتفحصة أن تكتشف علامات أخرى للاهمال . إذ لم يكن بإمكان الرجل العجوز أن يتدبر كل شيء . وكان بذاره يقل شيئاً فشيئاً . أما الخسائر الأخرى فهي لا تعد ولا تُحصى . وبقيت عائلة ميليخوف وحدها دون أن تفقد من أفرادها أحداً . فلكي تعوض ناتاليا عن غياب بيوتر وغريغورى ، أنجبت تؤامين في خريف السنة الماضية . وقد أظهرت براعة كافية في إرضاء كل من بانتلاي وايلينشنا بإنجابها بنتاً وولداً . على أن حمل ناتاليا لم يكن يسيراً ، فقد أمضت أياماً كاملة لم تستطع فيها المشي الا بمشقة ، بسبب آلام ساقيها الشديدة ، وكانت تترنح مجرجرة قدميها الواحدة وراء الأخرى . ولكنها تحملت الألم برباطة جأش ، فلم ينعكس أبداً على وجهها النحيل الأسمر ، إنّما السعيد . ولم تكن إيلينشنا لتفطن إلى آلامها الا عندما يطفح صدغاها بحبات العرق ساعة يشتد بها الألم ، فتطلب منها أن تستلقي لتستريح .

وذات يوم لطيف من أيام أيلول شعرت ناتاليا بدنو ساعة الوضع ، فتأهبت للخروج من البيت . فسألتها إيلينشنا :

— إلى أين تذهبين ؟

— إلى المرج . سأسرح البقر .

وسارت مسرعة إلى ما وراء القرية ، وهي تئن وتضع يديها تحت بطنها ، وشقت طريقها إلى أجمة من الشوك البرى ، ورقدت . كان الغسق قد أرخى سدوله عندما عادت إلى البيت من الطرق الجانبية ، تحمل تؤامين في ستار من الجنفاص .

فصاحت إيلينشنا عندما استطاعت أن تنطق بشيء :

— يا عزيزتي ! أيتها البائسة الصغيرة ! ما كل هذا ! وأين كنتِ ؟

فأجابتها ناتاليا الشاحبة الوجه :

— لقد شعرت بالخجل ، ولهذا خرجت . . . لم أكن أحب أن . . . أمام أبسي . . . إنني نظيفة يا أمي ، وقد غسلتهما . خذيهما .

وهرعت دونيا لاحضار قابلة ، وشغلت داريا نفسها بتبطين غربال بالقماش . فصاحت بها إيلينشنا وهي تضحك وتبكي من الفرح :

— داريا ، القي بذلك الغربال جانباً ، هل هما قطتان حتى تريدي وضعهما في غربال ؟ يا الهي ، انهما اثنان ! يا الهي ، احدهما ولد ! ناتاليا ، عزيزتي . . . أعدوا لها الفراش !

وحينما سمع بانتلاي أن كنته قد أنجبت توأمين فتح ذراعيه على اتساعهما في دهشة ، ثم بكى جذلاً وجعل يمسد على لحيته . ولغير ما سبب ظاهر صاح في القابلة وهي تقترب :

— كلا ، أيتها المهذارة العجوز ! — ولوح بقبضته أمام أنف العجوز : — أنتِ كاذبة ! ان سلالة ميليخوف لن تنقرض بمثل هذه السرعة ! لقد أنجبت كنتي قوزاقياً وبنتاً . أنعم بها من كنة ! أيها الرب ، يا الهى ! كيف يمكنني أن أردَّ لها مثل هذا الجميل ؟»

وشد ما كان ذلك العام معطاء ، فلقد أنجبت البقرة توأمين ، وفي عيد القديس ميخائيل أنجبت النعاج بوائم ، والماعز . . . وأخذ بانتلاي يعلل ذلك مع نفسه وقد أدهشته المصادفات :

«هذا عام بشائر ، وعطاء أيضاً ! فكل شيء ينجب توائم !

يا لها من محاصيل تدر علينا . بخ ! بخ !»

وظلت ناتاليا ترضع طفليها اثني عشر شهراً . ثم فطمتهما في أيلول ، ولكنها لم تسترد صحتها إلّا في نهاية الخريف . والتمعت أسنانها مثل الحليب في وجهها المضنى ، وكانت عيناها اللتان لاحتا واسعتين بصورة غير طبيعية بسبب هزالها ، تتألقان ببريق دافئ . وكرست حياتها كلها للطفلين . وأصبحت تهمل نفسها وتقضي كل وقت فراغها معهما ، تغسلهما ، وتقمطهما ، وتخيط لهما الثياب ، وكثيراً ما كانت ترفعهما من المهد ، وهي جالسة على السرير مدلية احدى ساقيها ، وبحركة من كتفيها تخرج ثدييها الممتلئين الكبيرين وكأنهما شمامتان صفراوان ، وترضعهما كليهما في وقت واحد .

فكانت ايلينشنا تقول وهي تربت على سيقان حفيديها الصغيرة الممتلئة :

— لقد امتصا منكِ ما فيه الكفاية . انك تطعمينهما كثيراً جداً .

وكان بانتلاي يتدخل بغيرة فظة :

— ارضعيهما ! ولا تحتفظي بالحليب ! فنحن لا نريده لعمل الزبدة !

وكانت الحياة خلال هذه السنوات تعاني انحساراً بطيئاً كمياه الدون غب الفيضان . كانت الأيام كئيبة مضنية ، تمضي في لغط متواصل ، في عمل ، في أشياء صغيرة ، في أفراح صغيرة وقلق متواصل على أولئك الذين ذهبوا الى الحرب . وكانت تصل من بيوتر وغريغورى رسائل نادرة في مظاريف متسخة ملطخة بأختام البريد . وقد وقعت رسالة غريغورى الأخيرة بيد شخص آخر ، وكان نصفها مشطوباً بعناية بحبر بنفسجي ، وقد وضعت

بالحبر علامة غير مفهومة على هامش الورقة الرمادية . وكان بيوتر يكتب أكثر من غريغوري ، وفي رسائله الى داريا كان يهددها ويناشدها أن تكف عن عبثها . فقد بلغت سمعه ، على ما يبدو ، شائعات عن حياة زوجته المعيبة . وكان غريغوري يرسل الى أهله مع خطاباته نقوداً ، رواتبه والمكافآت المالية التي يستلمها مع الأوسمة . وكان يعد بالمجيء الى البيت خلال فترة اجازته ، غير أنه لم يأتِ . سار الأخوان في طريقين مختلفين كل الاختلاف . فقد أثقلت الحرب بكلكلها على غريغوري ، وزال تورد وجهه مخلّفاً يرقاناً أصفر . ولم يكن يتوقع أن يعيش حتى نهاية الحرب . أمّا بيوتر فقد ارتقى سلم المناصب بسرعة وسهولة ، وشق طريقه بما يقع موقع الرضى في نفس آمر سريته ، فقد مُنح وسامين ، وفي خريف عام ١٩١٦ عين رئيس عرفاء ، وأخذ يتحدث الآن في رسائله عن سعيه لدخول مدرسة الضباط . وأرسل في الصيف الى أهله مع انيكوشكا الذى حصل على اجازة خوذة ومعطفاً لضابط ألماني ، وصورته الفوتوغرافية . وكان وجهه الذى يطل بخيلاء من الصورة الرمادية يبدو متقدماً في السن ، وشارباه الكثانيان مبرومان الى الأعلى ، وتحت أنفه الأفطس انفرجت تكشيرته المعهودة بين شفتيه العنيدتين . كانت الحياة تبتسم لبيوتر ، وقد أبهجته الحرب لأنها فتحت أمامه آفاقاً جديدة . ولو لاها لما استطاع ، وهو القوزاقي البسيط ، أن يحلم بمنصب ضابط ، وبحياة أخرى أحلى . ولم يكن ليكدر صفو آمال بيوتر سوى جانب واحد من حياته ، فقد كانت الشائعات القبيحة تحوم في القرية حول زوجته . فبعد أن عاد ستيبان أستاخوف الى الكتيبة من اجازته التى تمتع بها في خريف ١٩١٦ ، تباهى أمام سريته بأكملها ، بالأيام الماتعة التي قضاها مع زوجة بيوتر . ولم يكن

بيوتر ليصدق تلك القصص ، فادلهمّ وجهه وابتسم قائلاً :

ـــ ان ستيبان كذاب ! انه يحاول أن يطعن بـي بسبب ما فعله غريغوري .

بيد أنه ذات يوم ، بينما كان ستيبان خارجاً من حفيرته ، أسقط عمداً أو سهواً منديلاً مطرزاً من الدانتلا . فالتقطه بيوتر ، وقد كان خلفه مباشرة ، وعرف في الحال أنه من عمل زوجته . فشبت العداوة مرة أخرى بينهما . وجعل بيوتر يتربص به الدوائر ، وحام الموت حول ستيبان . ولو كان بمستطاع بيوتر ، لصرع ستيبان على شاطئ الدفنا وقد ترك على رأسه أثراً من رصاصته . ولكن حدث بعد وقت قصير أن خرج ستيبان في دورية للاستيلاء على نقطة أمامية ألمانية . ولم يعد بعدها . وقال القوزاق الذين كانوا معه أن أحد الجنود الألمان سمعهم يقطعون الأسـلاك الشائكة ، فألقى قنبلة يدوية . واستطاع القوزاق ادراكـه وقد أرداه ستيبان على الأرض بقبضته ، بيد أن حارساً مساعداً له أطلق النار ، فسقط ستيبان . وطعن القوزاق الحارس الثاني بالحراب ، وسحبوا الألماني الذى صرعته ضربة ستيبان ، وحاولوا أن يرفعوا ستيبان أيضاً . ولكنه كان ثقيلاً جداً فاضطروا تركه . فأخذ ستيبان يتوسل : «اخواني ، لا تتركوني أموت ! أيها الرفاق ! لماذا تتركونني ؟» ولكن وابلاً من رصاص الرشاش تناثر خلال الأسلاك الشائكة ، فزحف القوزاق مبتعدين . صاح ستيبان في أعقابهم «أيها الاخوان !» ولكن ما جدوى ذلك ؟ ينبغي أن تنجو بجلدك قبل الآخرين . وعندما سمع بيوتر بمصير ستيبان شعر بالراحة ، وكأنه لبخ قرحة مؤلمة بالمرهم ، ولكنه عقد العزم على هدر دم داريا عندما يحصل على اجازة . فليس هو مثل ستيبان ! انه لن يقبل بذلك ! وفكر في قتلها ، ولكنه

رفض الفكرة في الحال . «أقتل العاهرة ، وأدمر كل حياتي بسببها ؟ وأتعفن في السجن ، وأفقد كل ما سعيت من أجله ، أفقد كل شيء ؟» وقرر أن يضربها فقط ، ولكن بشكل يشفيها من كل رغبة في رفع ذيلها ثانية ! «لسوف أقلع عينها ، تلك الأفعى ، حينذاك لن ينظر اليها انسان ما !» هكذا فكر فيما كان جالساً في الخندق غير بعيد عن شاطئ نهر دفينا الطيني المنحدر .

وانقضَّ الخريف على الأشجار والعشب ، وأحالها صقيع الصباح قاتمة ، وبردت الأرض ، وأحلولكت ليالي الخريف واستطالت . وفي الخنادق كان القوزاق يمارسون أعمالهم المرهقة ، ويطلقون النار على الألمان ، ويناقشون رؤساء عرفائهم حول الحصول على ملابس دافئة ، ولم يتيسر لهم طعام كاف ، غير أنه لم يكف أحدهم عن التفكير في أهليهم في الدون بعيداً عن هذه الأرض الغريبة العزوف .

وفي ذلك الخريف عوّضت داريا عن كل حياتها الجائعة المفتقرة الى زوج . وذات صباح استيقظ بانتلاي بروكوفييفيتش قبل بقية أعضاء الأسرة كعادته ، وخرج الى الفناء . فأمسك برأسه وقد أذهله ما رأى . كان مصراعا البوابة قد خلعا ، وألقي بهما في وسط الطريق . كانت هذه اهانة ، عاراً ! فأعاد العجوز البوابة في الحال الى مكانها ، وبعد الفطور استدعى داريا الى الخارج في المطبخ الصيفي . ولم يدرِ الآخرون قط ما تحدثا به ، غير أن دونيا شاهدت داريا بعد بضع دقائق تعدو خارجة من المطبخ شعثاء الشعر منتحبة ، وقد تهدلت عصابتها . واذ مرت بدونيا هزت كتفيها وارتعش قوسا حاجبيها في وجهها الغضوب المبلل بالدموع .

وفحت من بين شفتيها المتورمتين :

ـــ اصطبر ، أيها الشيطان العجوز ! سأرد لك ذلك !

ولاحظت دونيا أن قميصها كان ممزقاً من الخلف ، وقد بدت كدمة زرقاء على كتفيها العاريتين . وجرت صاعدة الدرج ودلفت الى البيت ، بينما أقبل بانتلاي يعرج من المطبخ الصيفي ويبدو عليه الشر كالشيطان ، وهو يجدل عناناً جلدياً جديداً أثناء سيره . وسمعت دونيا أباها يقول :

ـــ كان ينبغي أن أقسو معك أكثر من ذلك ، أيتها الفاجرة ، أيتها العاهرة !

وعاد النظام الى البيت وسارت داريا بضعة أيام أهدأ من الماء ، وأرخى من الحشيش ، فكانت تأوى الى الفراش كل ليلة قبل أي شخص ، وتبتسم ببرود لنظرات ناتاليا العطوف ، وهي تهز كتفيها وترفع حاجبيها كمن تقول : «حسناً ، سوف نرى !» . وفي اليوم الرابع ، وقع حادث لم يعلم به سوى داريا والعجوز بانتلاي . ومضت داريا بعد ذلك تضحك بانتصار ، فيما ظل العجوز مرتبكاً أسبوعاً بكامله ، وزرياً كقط مذنب . ولم يُخبر زوجته بما حدث ، وحتى عند الاعتراف احتفظ بالحادث وبأفكاره الخاطئة سراً عن الأب فيساريون .

وكان هذا ما حدث . كان بانتلاي واثقاً من توبة داريا التامة ، فقال لزوجته إيلينيشنا :

ـــ لا ترحمي داريا ! شددي عليها بالعمل . فلن تخطئ ما دامت تعمل ، فهذه المهرة الجميلة العاهرة لا تبالي بشيء الا بنزواتها الليلية .

وأشغل هو بنفسه داريا في تنظيف ساحة درس الحبوب وجمع الحطب في الفناء الخلفي . وساعدها في اخلاء سقيفة

التبن . وبعد ذلك في أصيل ذلك اليوم فكّر في نقل ماكنة التذرية من مخزن الحبوب الى سقيفة التبن ، واستدعى كنّته لمساعدته .

وخرجت داريا ومرّت من ساحة درس الحبوب الى المخزن وهي تصلح عصابتها وتنفض التبن الذى تسلل الى ما تحت ياقة سترتها . وذهب بانتلاي فى المقدمة ، وكان مرتدياً سترة مبطّنة بالصوف وسروالاً خلقاً لعمل النهار . كانت الساحة خالية . فدونيا منهمكة في مساعدة أمها في غزل صوف الخريف ، وناتاليا تعدّ العجين لخبز الصباح . وكانت شمس الغروب تسطع فيما وراء القرية . والناقوس يقرع لصلاة المساء . وتعلّقت سحابة صغيرة بلون التوت البري بلا حراك في قبة السماء الصافية ، وهبطت الغربان فى عقد سود على الأغصان الرمادية الجرد لأشجار الحور وراء الدون . وفي سكون المساء الأجوف كان كل صوت حاداً ومتميزاً . وجاءت من حظيرة الماشية الرائحة القوية المنبعثة من الروث المتبخّر والتبن . وحمل بانتلاي وداريا ماكنة التذرية ذات اللون الأحمر الباهت الى سقيفة التبن ، ووضعاها في ركن . وجمع بعض التبن المتساقط واستدار ليخرج . فنادت داريا في همسة خفيضة :

— أبـي !

فعاد الى آلة التذرية قائلاً وهو لا يشتبه في كنّته بشيء معيب :

— ما الخبر ؟

وقفت داريا مواجهة اياه وقميصها مفكك الأزرار ، وقد دفعت ذراعيها الى الوراء لتصلح شعرها . وتساقط شعاع قرمزى من شمس المغيب على رقبتها من خصاص الحائط :

— هنا ، يا أبـي ، لديَّ شيء لك . . . تعالَ وانظر .

قالت ذلك وهي تميل جانباً وتسترق النظر متلصّصة الى الباب المفتوح عبر كتف العجوز . فتقدّم نحوها . وفجأة ألقت بذراعيها عليه وطوقت عنقه وشبكت أصابعها ، وخطت الى الخلف وهي تجره وراءها وتهمس :

— هنا ، يا أبـي . . . هنا . . . فالمكان أكثر طراوة .

فتساءل بانتلاي جافلاً :

— ماذا دهاك ؟

وحاول تخليص نفسه من ذراعيها وهو يلوى رأسه من جانب لآخر ، ولكنها سحبت رأسه نحو وجهها بمزيد من القوة ، وهي تتنفس بحرارة في لحيته وتتضاحك وتهمس .

— اليك عني أيتها العاهرة ؟ — وجاهد العجوز وهو يحس ببطن كنته ملتصقة به تماماً . وراحت تشد عليه أكثر فأكثر ، وارتمت الى الخلف وجرّته الى أسفل ، وهو فوقها .

— يا للشيطان ! لقد فقدتِ صوابك ! اليك عني !

فلهثت داريا :

— ألا تريد ؟

وفتحت ذراعيها ، ودفعت العجوز من صدره وقالت :

— أو لعلك لا تستطيع ؟ اذاً ، فلا تحاسبني ! هل تسمع ؟

وانتصبت على قدميها ، وأصلحت تنورتها بسرعة ، ونفضت التبن عن ظهرها وصاحت في وجه العجوز الغضبان :

— لماذا ضربتني ذلك اليوم ؟ هل أنا امرأة عجوز ؟ ألم تكن كذلك عندما كنت فتياً ؟ زوجي ! لم أره منذ عام ! فماذا عساي أفعل . . . أضاجع كلباً ؟ ربما كان ذلك أمراً هينا عليك يا أعرج ! هنا ، خذ هذا !

وأنت بحركة معيبة ، ثم اتجهت شطر الباب وحاجباها يتراقصان . وتفحصت ملابسها عند الباب مرة أخرى بمزيد من العناية ، وأزالت الغبار عن سترتها وعصابتها ، وقالت دون أن تنظر الى الخلف شطر بانتلاي :

— لا يمكنني أن أحيا بغير ذلك ، انني بحاجة الى قوزاقي ، وان لم تكن بك رغبة . . . فسأجد بنفسي واحداً ، وعليك أن تغلق أنت فمك !

وذهبت مسرعة الى باب سقيفة التبن وردفاها يترجرجان ، واختفت دون أن تلقي نظرة الى الوراء ، بينما ظل بانتـــلاي بروكوفيتش واقفاً ازاء التذرية ، وهو يلوك لحيته ويجول ببصره كالمخطئ حول سقيفة التبن . «لعلها كانت مصيبة على كل حال ؟ لعله كان من الأفضل أن أخطئ معها ؟» قال ذلك في دخيلته متحيراً وقد أذهله ما حدث .

٦

في تشرين الثاني أطبق الصقيع ، وسقط ثلج مبكّر . وعند المنحنى ، في الطرف الأعلى من القرية تجمّد الدون . ومن حين لآخر كان شخص يُخاطر فوق الجليد ذى الزرقة التى تحاكي الحمام ويعبر الى الجانب الأقصى . والى أبعد من ذلك ، لم تكن سوى حافتي النهر مغطاتين بطبقة رقيقة من الجليد ، وكان التيار يجرى مدوماً في الوسط ، وتتواثب الأمواج الخضراء بقممها الرمادية . وفي الغدير أسفل «الضفة السوداء» ، كان السمك القرموط قد مضى عليه زمن مذ غطس في سبات شتائي الى عمق يبلغ سبعين قدماً . ورقد الشبوط الزئبقي قريباً . وسمك الكراكي وحده يثابر ضد التيار ويندفع عبر الأماكن الضحلة وهو

يطارد السمك الصغير . ورقد سمك القرش فوق الحصـــباء ، وكان الصيادون ينتظرون صقيعاً شديداً كي يصطادوا الســمك بالخطاطيف .

في تشرين الثاني تلقت عائلة ميليخوف رسالة من غريغورى ، بعث بها من رومانيا يقول فيها انه قد جرح في القتال الأول : فقد هشمت رصاصة عظم ذراعه الأيسر ، لهذا أعيد الى اقليمه ، الى قرية كامينسكايا ريثما يلتئم الجرح . وحلت مصيبة أخرى بعائلة ميليخوف في أعقاب هذا الخبر : فمنذ ثمانية عشر شهراً وبانتلاي بروكوفيتش بحاجة الى النقود ، وكان قد اقترض مئة روبل من سيرغي موخوف ، وأعطاه صك رهن كضمان . وفي الصيف استدعي العجوز الى حانوت موخوف وسئل عما اذا كان في نيّته أن يدفع المبلغ أم لا بينما كان صاحب الحانوت يحدّق في لحية بانتلاي بروكوفيتش من خلال نظارته الذهبية . فجالت نظرة بانتلاي بروكوفيتش مشتتة حول الرفوف نصف الفارغة والمناضد اللامعة ، وقال متردداً :

— انتظر قليلاً ، امهلني كي أبحث قليلاً ، وسأردها لك .

بيد أن العجوز لم يستطع «البحث» . فلقد كان المحصول ضئيلاً ولم تكن الماشية تستحق البيع . وفجأة ، وكما يسقط الثلج في حزيران ، جاء مأمور المحكمة الى مكتب ادارة القرية ، وأرسل في طلب بانتلاي بروكوفيتش وقال له بالحرف الواحد :

— ضع مئة روبل .

ورقد كتاب رسمي مطول على طاولة مفتش البوليس ولم يكن بوسع بانتلاى بروكوفيتش سوى أن يصغي فيما كان المفتش يقرأ :

بأمر من صاحب الجلالة الأمبراطورية ، صدر في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٦ ، استمعت أنا ، الحاكم المدني للدائرة السابعة لاقليم الدونيتس ، الى دعوى التاجر سيرغي موخوف المقامة ضد العريف بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف حول مئة روبل استحقت وفق صك الرهن لأمر التاجر موخوف . واستناداً الى المواد ٨١ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٥ من القانون قضيت بما هو آت :

على العريف بانتلاي ميليخوف أن يدفع للتاجر سيرغي موخوف المئة روبل المثبتة في صك الرهن الموقّع في ٢١ حزيران ١٩١٥ ، مضافاً اليها ثلاثة روبلات عن المصاريف . صدر الحكم غيابياً ، وهو ليس قطعياً .

وبموجب الفقرة الثالثة من المادة ١٥٦ من القانون المدني ، أصبح هذا الأمر ذا مفعول قانوني وسيوضع موضع التنفيذ في الحال .

ان الحاكم المدني للدائرة السابعة لاقليم الدونيتس يأمر بتفويض من صاحب الجلالة الأمبراطورية بما يلي :

على جميع الأفراد والمؤسسات ذات العلاقة تنفيذ الحكم الآنف الذكر طبقاً لأحكام القانون . وينبغي أن ينال الضابط المسؤول عن تنفيذ قرار المحكمة العون من لدن جميع السلطات العسكرية والشرطة المحلية عند أداء واجبه .

وعندما سمع بانتلاي بروكوفيتش بالحكم طلب السماح له بالذهاب الى داره ، واعداً باحضار النقود في اليوم نفسه . ولكنه ذهب مباشرة الى دار كورشونوف . والتقى في الساحة بأليكسي شامل ذي الذراع الواحدة فحياه هذا قائلاً :

— كيف حالك يا بانتلاي ؟

— الحمد لله !

— أذاهبٌ بعيداً ؟

— الى أبسي زوجة الابن ، في مهمة .

— أوه ؟ ستجدهم في مرح . ألا تعرف ؟ سمعت أن ابنهم ميتكا عاد من الجبهة .

— هكذا ؟

فأجابه شامل وهو يطرف بعينه وخده :

— هكذا قيل لي .

وأخرج كيس تبغه وأضاف :

— هاك نفساً ايها العمّ ، من ورقي وتبغك .

وأشعل بانتلاي سيكارة ، ولبث يسائل نفسه أيذهب لرؤية كورشونوف أم لا . وأخيراً قرر أن يذهب ، وسار يعرج . فصاح شامل وراءه :

— لقد نال ميتكا وساماً هو الآخر . انه يحاول أن يلحق بولديك . أصبح لدينا في القرية من الأوسمة مثلما في الأشجار من عصافير .

ومضى بانتلاي بروكوفيتش متأنياً حتى طرف القرية ، ثم نظر من نافذة بيت كورشونوف ، وذهب الى فتحة البوابة . فالتقى بميرون نفسه . كان وجه العجوز الأنمش يشع بهجة .

فسأله كورشونوف وهو يعقد ذراعه بذراع بانتلاي :

— أسمعت بفرحتنا ؟

— لقد أخبرني اليكسي شامل لتوه وأنا في طريقي اليك . ولكني جئت لأمر آخر . . .

— لنرجئه ! هيا ادخل البيت وقابل الفتى . كنا نشرب بعض الشيء ، نخب فرحتنا . ان زوجتي تحتفظ بقنينة لمثل هذه المناسبة المباركة .

فابتسم بانتلاي بروكوفيتش ورفع منخريه :

— لا حاجة بك الى اخباري . فقد شممت الرائحة من بعيد .

ودفع ميرون الباب ، وتنحّى جانباً ليدع بانتلاي يدخل . واجتاز العتبة واستقر نظره في الحال على ميتكا الذى كان يجلس وراء المائدة عند الايقونة . فصاح الجد غريشاكا والدموع تترقرق في عينيه ، وهو يحتضن كتف ميتكا :

— ها هو ، فتانا الجندي !

— أهنئك بعودة سعيدة ، أيها القوزاقي !

وأخذ بانتلاي بروكوفيتش يد ميتكا الطويلة في يده وتراجع خطوة الى الوراء ، وهو يجيل فيه النظر باندهاش . فسأله ميتكا بصوت أجشّ ، وعلى وجهه ابتسامة :

— حسناً ، فيمَ تحدّق ؟

— لا أستطيع أن أقاوم النظر ، انني مندهش للغاية . رأيتك وغريغورى تذهبان في وقت واحد ، وقد كنتما طفلين . والآن حسبك أن تنظر الى نفسك ! قوزاقي أصيل ، وتصلح لكتيبة الأتمان .

ونظرت لوكينشنا الى ميتكا بعينين مغرورقتين بالدموع ، وهي تحاول في الوقت نفسه أن تصب الفودكا في قدح . وتركتها تسيل من فوق الحافة ، دون أن تلحظ ما تفعل . فصاح بها ميرون :

— أنت أيتها الخرقاء ! ماذا أنت فاعلة ، تبددين الخمرة الجيدة !

— نخب صحتكم ، ونخب صحتك يا ميتكا ، بمناسبة عودتك السعيدة !

وأجال بانتلاى عينيه ببياضهما الحائل الى الزرقة واحتسى

قدح الفودكا الكبير وأهدابه تطرف ، دون أن يتوقف لحظة ليجر نفساً . ومسح شفتيه وعذاريه بيده ببطء ، وثبت عينيه في قعر القدح ، وألقى برأسه الى الوراء ، وصب قطرة يتيمة من الفودكا في فمه المفتوح ، وحينذاك فقط أخذ نفساً وقضم قضمة من خيارة مخللة ، وقد طرفت عيناه بغبطة . وصبّت له لوكينشنا قدحا آخر ، وسرعان ما لعبت برأسه الخمرة وراح ميتكا يراقبه وهو يبتسم . وأخذت عيناه الشبيهتان بعيني القط تضيعان تارة حتى تغدوا شقين أخضرين ، وتتسعان داكنتين تارة أخرى . لم يكن هناك شك في أن الفتى قد تغيّر كثيراً خلال سنوات غيابه . فلم يبق في هذا القوزاقي المفتول العضلات ذى العذارين الأسودين ، أي شيء تقريباً من ذلك الشاب الرشيق الذى كان قد رحل لأداء الخدمة قبل ثلاث سنوات . لقد كبر كثيراً ، واتسعت كتفاه ، ولا ريب أن وزنه لم يكن بأقل من خمسة بودات . وقد ازداد وجهه وصوته خشونةً ، وبدا أكبر من سنّه . ولم تبق سوى العينين كما كانتا ، مضطربتين قلقتين كعهدهما .

وكانت أمه تغرق في ضوئهما ، وهي تبكي وتضحك ، وتمسد بيدها المتغضّنة شعر ابنها القصير الخشن وجبينه الأبيض الضيّق .

قال بانتلاي بروكوفيتش وهو يبتسم ثملاً :

— اذاً فقد نلت الوسام ؟

فقطّب ميتكا :

— ومَنْ من القوزاق لم ينل وساماً الآن ؟ لقد نال كروتشكوف ثلاثة أوسمة لمجرد تردّده على مقر القيادة .

فتعجل غريشاكا العجوز التدخل قائلاً :

— انه مزهو . انه يشبهني بالضبط ، ذلك الشيطان .

فهو لن يحني هامته للآخرين .

فأجاب بانتلاي بصرامة :

— انهم لا يمنحونهم الأوسمة من أجل ذلك .

ولكن ميرون جره الى غرفة أخرى ، وأجلسه على صندوق وقال له :

— كيف حال ناتاليا والحفيدين ؟ الكل أحياء ومتعافون ؟ حمداً لله ! لقد قلت انك جئت بمهمة ، أليس كذلك ؟ ما هي ؟ تكلم ، والّا فسوف نشرب ثانية ولن يكون في وسعك الكلام .

فتوسل اليه بانتلاى بلهجة ذليلة ثملة بطيئة :

— أعطني نقوداً ! بحق الاله ! ساعدني ، والّا قضت عليّ تلك . . . مشكلة النقود هذه .

فقاطعه ميرون :

— كم ؟

— مئة .

— مئة ماذا ؟

— مئة روبل .

— حسناً ، قل هكذا ، اذن .

وراح كورشونوف ينبش في الصندوق ، ثم أخرج منديلاً قذراً ، وحل عقدته ، وعدّ عشر ورقات من فئة العشرة روبلات .

— شكراً لك يا ميرون غريغورييفتش ، لقد أنقذتنا من البؤس !

— كلا ، لا تشكرني . حينما يكون الأمر متعلقاً بلحمنا ودمنا . . .

قضى ميتكا خمسة أيام في قريته . كان يقضي لياليه

مع زوجة انيكوشكا ، وهو يرثي لحاجة المرأة المريرة ، وبالأخص لها ، كزوجة بسيطة ومطيعة . وكان يقضي النهار متجولاً بين أقاربه وأصدقائه . كان يترنّح في الطرقات ، لا يرتدي سوى قميصلة خاكية خفيفة فقط ، وقد انداحت قبّعته قليلاً الى الوراء ، مباهياً بقدرته على تحمّل البرد . وذات مساء أطل على عائلة ميليخوف . وحمل معه الى المطبخ الذى يفيض حرارة شذى الصقيع ورائحة الجندى الحريفة التي لا تنسى ، وجلس يتحدث عن الحرب ، وأخبار القرية ، ثم ضيّق عينيه الخضراوين وهو ينظر الى داريا ونهض لينصرف ، فرفت جوارح داريا كلهب شمعة عندما أصفقت الباب خلفه ، وزمت شفتيها ، وكانت على وشك أن ترتدى عصابتها ، غير أن ايلينشنا سألتها :

— الى أين تذهبين يا داريا ؟

— أود أن أخرج .

— سآتي معك .

وجلس بانتلاى دون أن يرفع رأسه ، كأنما لم يسمع السؤال والرد . وذهبت داريا شطر الباب مارّة أمامه ، وجفناها منسدلان فوق الوميض الذئبي في عينيها ، وحماتها تهتز من ثقلها وراءها . كان ميتكا يتنحنح ويعبث بالبوابة بقدميه واستدار على صوت مزلاج الباب ليعود الى درجات العتبة . فصاحت ايلينشنا بخبث :

— أهذا أنت يا ميتكا ؟ لعلك لم تضل طريقك في فنائنا ؟ أحكم سد البوابة خلفك ، والّا فستظل تصفق طوال الليل في هذه الريح .

فأجاب ميتكا بلهجة مغمومة :

— كلا ، لَمْ أضلّ طريقي . سأحكم سد البوابة .

وحث سيره عبر الشارع صوب فناء بيت أنيكوشكا .

عاش ميتكا حياة لاهية كالطير ، فاليوم خمر وغداً أمر . ولم يكن اهتمامه بالجندية كبيراً ، فبالرغم من أن لديه قلباً جسوراً لا يفزع فما كان ليترك عاداته اللاهية ويسعى وراء المجد . كان سجلّ حياته العسكرية بعيداً عن أن يكون سجلاً حسناً . فقد سيق مرتين الى محكمة عسكرية ، مرة لاغتصاب امرأة بولندية الأصل روسية الجنسية ، وأخرى بسبب السرقة . وخلال سنوات الحرب الثلاث تلقّى عقوبات لا تحصى ، وكادت المحكمة العسكرية ذات مرة أن تحكم عليه في احدى المناسبات بالاعدام رمياً بالرصاص . ولكنه استطاع بطريقة ما أن يخلّص نفسه ، ورغم أنه كان من أردأ النماذج في الكتيبة ، الّا أن القوزاق أحبوه لطباعه البشوشة الممراحة ، ولأغانيه الفاسقة ، وللطافة معشره وصراحته ، بينما أحبه الضباط لشقاوته . كان ميتكا يجوس الأرض بقدمين خفيفتين أشبه بأقدام الذئب ، والبسمة لا تفارق محيّاه : كان فيه الكثير من طباع الذئب ، في مشيته ، في النظرة المسبلة لعينيه الخضراوين بالحدقتين الحادتين ، وحتى في الطريقة التي يدير بها رأسه . ولم يكن بمستطاع ميتكا أن يدير رقبته فقد أصيبت بجراح من شظية قذيفة . وكان عليه أن يستدير بكامل جسمه اذا أراد أن ينظر الى الخلف . كانت العضلات منعقدة بصورة متقاربة على عظامه العريضة . وكان خفيفاً ومقتصداً في حركاته ، وكانت صحته وقواه تفوح بالغلظة والخشونة كما تفوح أرض سوداء طيبة في واد غب حرثها . كانت الحياة بالنسبة لميتكا بسيطة ومباشرة ، تمتد بعيداً أمامه مثل أخدود الحرث ، وقد سار عليه كالسيد المطلق . وكذلك كانت أفكاره بدائية ومباشرة . فاذا كنت جائعاً تستطيع بل يتحتم

عليك أن تسرق ، حتى من رفاقك ، وكان ميتكا يسرق عندما يجوع . واذا بلت جزمتك فان أبسط شيء في العالم هو أن تأخذ زوجاً من أسير ألماني . واذا تلقيت عقاباً فيجب أن تكفّر بشكل ما عن جريمتك ، وكان ميتكا يكفّر عن جرائمه ، وذلك بأن يخرج ليعود بحراس ألمان نصف مخنوقين ، وينبرى للتطوع في القيام بأخطر المهام . وفي عام ١٩١٥ أسر وكاد أن يقطع إرباً إرباً ، ولكنه في الليلة ذاتها مزق أظافره في فتح سقف العلية وهرب ، والتقط في طريقه شيئاً من عدة عربة كتذكار . وبمثل هذه الأساليب كان ميتكا يخرج بنتائج طيبة .

في اليوم السادس لبقائه مع أهله رافقه أبوه ميرون الى محطة ميليروفو ، ووقف هذا يرقبه عندما أخذ صف العربات الخضر يقرقع مبتعداً ، وهو يحفر بسوطه الخبث المنثور عند سكة الحديد دون أن يرفع عينيه المغرورقتين بالدموع . وبكت لوكينشنا على ابنها ، وسعل غريشاكا العجوز وتمخط بيده ، ثم مسح كفه بذيل قفطانه القذر . وبكت زوجة أنيكوشكا وهي تذكر جسم ميتكا القوى ، وعناقه المحموم ، وتعاني من السيلان الـــذى أصابها به .

وشابك الزمن الأيام كما تشبك الريح عرف حصان . وقبيل عيد الميلاد بدأ ذوبان ثلج غير متوقع ، وانهمر المطر أياماً بطولها ، وتدفّقت المياه من التلال حدر الشعاب الجافة ، واخضوضر الكلأ وألواح الكلس الطحلبية فوق المرتفعات الجرد ، وازبدت حافتا الدون ، واستحال الجليد أزرق باهتاً وانتفش . وانبعث من الأرض الجرداء ، السوداء شذى حلو يعز عن الوصف . وبقبقت المياه في آثار العجلات على الطريق العام . وتثاءبت الأخاديد الطينية وراء القرية عن مزالق جديدة . وحملت الريح الجنوبية رائحة الأعشاب

المتعفنة الثقيلة ، وفي الظهيرة تلمع في الأفق ظلال رقراقة زرقاء بلون الحمام ، وكأن الموسم ربيع . وفي القرية تكوّنت برك رقراقة حول أكوام من الرماد الملقى أمام الأسوار . وذاب الجليد عن الأرض حول حزم الأعشاب في ساحات درس الحبوب ، وكانت رائحة القش الرطب الحلوة تلذع أنوف المارة . وفي النهار تنساب مياه قطرانية على الأفاريز من سقوف القش التي تتدلى منها ذؤابات الجليد ، وكانت العقاعق تثرثر بلا انقطاع على الأسوار ، ويتمشى ثور القرية في فناء ميرون كورشونوف ويبعث خواراً مستبقاً حياة الربيع الرخوة وراح ينطح السور بقرنيه ، ويحك صدره الأملس بمحراث قديم نخره السوس ، ويحفر الجليد الذائب المتفتت .

وانفجر الدون في اليوم التالي لعيد الميلاد . وتدفق الجليد وسط التيار في هدير وزئير هائلين . وارتطمت الطافيات بالضفتين مثل أسماك ضخمة وسنى . وعلى مهب الريح الجنوبية القوية وراء الدون أحنت أشجار الحور هاماتها وراحت ترفرف كأنها تولي الادبار وهي في مكانها لا تريم .

وشيك حلول المساء بدأت الريح ترسل زئيراً فوق التل ، وكانت طيور الزاغ تحوّم وتنعق فوق ساحة القرية ، وجرى خنزير خريستونيا قرب فناء ميليخوف وبين فكّيه قبضة من الدريس فقرر بانتلاى أن الربيع قد توارى من جديد ، وأن برداً قد يسقط في الغداة . وفي المساء تغير اتجاه الريح الى الشرق ، وغطّى صقيع رقيق البرك التي خربتها مياه الذوبان بطبقة بلورية من الجليد . وفي الصباح كانت الريح تهب من موسكو ، واشتد الزمهرير مرة أخرى . لقد عاد الشتاء من جديد . وفي وسط الدون فقط كانت الطافيات تسبح طبقات بيضاء هائلة ، ودخنت

الأرض الجرداء ببخار الصقيع .

وبعد عيد الميلاد بقليل أخبر كاتب القرية بانتلاى في اجتماع أنه رأى غريغوري في كامنسكايا ، وقد طلب منه أن يخبر والديه أنه سيأتي قريباً لزيارتهما .

٧

خبر سيرغي موخوف بيديه الصغيرتين السمراوين المشعرتين كل مفارقات الحياة . فهي تارة تبتسم له ، وتارة تتسلط عليه كما يتسلط حجر على رقبة غريق . لقد عرك الكثير . ومرت على سيرغي بلاتونوفيتش مصاعب جمة خلال حياته . فقبل زمن طويل ، وهو لما يزل يومئذ يدير مخزن الحبوب ، كان قد اشترى حبوباً من القوزاق بسعر التراب ، ثم اضطر بعد ذلك الى نقل أربعة آلاف بود من الحبوب المحترقة العديمة الجدوى خارج القرية وأغرقها في النهر . وعاودته ذكرى عام ١٩٠٥ أيضاً ، يوم أفرغ واحد من أهالي القرية طلقات بندقية باتجاهه في ليلة خريفية معتمة . ولكن موخوف جمع من حصيلة خساراته وأرباحه ستين ألف روبل وأودعها في مصرف فولغا-كاما ، آخذا في الحسبان أن أيام القلاقل دانية . كان يتوقّع أياماً سوداً ، وقد صدق ظنه .

ففي كانون الثاني عام ١٩١٧ قال له بالاندا المعلم الذى كان يعالج سكرات الموت البطيء لداء السل بلهجة آسفة :

— ان الثورة قاب قوسين منا ، ولكنني أموت بمرض سخيف تافه . انه لمن المؤسف يا سيرغي بلاتونوفيتش ، من المؤسف حقاً أن لا يحيا المرء ليرى حافظة نقودك تقلب على بطانتها ، وأنت تلوذ بالفرار من عشك الرغيد .

— وما الداعي للأسف ؟

— وكيف لا ؟ ان من دواعي سروري ، على كل حال ،

7—1207

هو أن أرى الخراب يحل بكل شيء .

فقال له سيرغي بلاتونوفيتش وهو يكتم غيظه :

— أخشى أن لا يتحقق أملك يا صاحبي . فلسوف تموت قبل أن يحل ذلك اليوم .

وفي كانون الثاني كانت أصداء أحاديث المدينة عن راسبوتين وعائلة القيصر ما تزال تدور في قرى الدون . وفي أوائل آذار انقضّت أنباء الاطاحة بالحكم المطلق على سيرغي بلاتونوفيتش كالصاعقة . أمّا القوزاق فقد استقبلوا الخبر بقلق وترقّب . وفي ذلك اليوم تحلّق القوزاق شيوخاً وشباناً حول حانوت موخوف المغلق . وكان أتمان القرية الجديد سولداتوف وهو قوزاقي ذو شارب أحمر وعين حولاء ، قد زلزله النبأ ، ولم يكد يسهم في الأحاديث التي كانت تدور بحماس خارج الحانوت ، بل جعل ينظر الى القوزاق بعين حولاء مضطربة ويهتف بين حين وآخر بلهجة حائرة :

— حسناً ، لقد وقعنا في حيص بيص ! فماذا ترانا فاعلين بعد ذلك ؟

ولما رأى موخوف الحشد خارج الحانوت ، قرر أن يخرج ويتكلم مع الشيوخ . فارتدى سترته المبطنة بفرو الراكون * وخرج من الباب الأمامي لداره ، متكئا على عصاه التي نقشت عليها حروف اسمه بفضة رخيصة . وكانت الضوضاء تخيم على الحاشدين .

فسأله مانفي كاشولين وهو يبتسم بلهفة بدت على أثرها تجمّدات صغيرة حول أنفه المدرار :

— حسناً يا موخوف ، أنت رجل مثقف ، أخبرنا نحن الجهلة عما سيحدث بعد الآن .

* حيوان لبون يشبه الهر ذو فرو ناعم يكثر وجوده في أميركا الشمالية . المترجمون .

وعندما انحنى موخوف رفع الشيوخ قبّعاتهم تجلةً ، وتنحوا الى الخلف ليفسحوا له الطريق ليتوسط الجمع . وابتدرهم قائلاً :

— سوف نعيش بلا قيصر . . .

فجعل الشيوخ يتكلمون كلهم في آن واحد :

— ولكن كيف ، بلا قيصر ؟

— لقد عاش آباؤنا وأجدادنا تحت ظل القياصرة . والآن ألم يعد القيصر ضرورياً ؟

— لو طاح الرأس ، كفت الأطراف عن الحياة !

— ما شكل الحكومة القادمة ؟

— أفصح يا سيرغي بلاتونوفيتش ! أنطق ، فلا داعي للخوف منا .

وعلّق أفديبتش مبتسماً :

— لعله لا يدرى هو الآخر .

فنظر سيرغي بلاتونوفيتش الى نعاله المطاطية ببلادة ، وقال وكأنه يتفل الكلمات بألم :

— ان مجلس الدوما هو الذى سيحكم . سوف تكون عندنا جمهورية .

— اذا هذا هو ما آل اليه حالنا ، اللعنة عليها !

ومضى أفديبتش يقول :

— اني لأذكر الآن كيف كنا نخدم صاحب الجلالة الراحل الاسكندر الثاني . . .

فقاطعه القوزاقي العجوز بوغاتيريوف الجهم ، بفظاظة :

— لقد حكيت لنا ذلك سابقاً ! لا تخرج عن الموضوع .

— لكأنها نهاية القوزاق ؟

— واذا استمرت الاضرابات ، فلن يمضي وقت طويل

حتى يدخل الألمان سانت بطرسبرغ .

— لو طبّقوا المساواة التي يدعون اليها ، فسيجعلوننا متساوين مع الفلاحين .

— يعنى ينتزعون منا أرضنا ، ها ؟

فجال سيرغي بلاتونوفيتش ببصره بين وجوه الشيوخ القلقة مفتعلاً ابتسامة وقد اعتراه شعور بالهمّ والمرارة . وكعادته قرّق لحيته الرمادية ، وراح يتكلم دون أن يعلم أحد على من هو غاضب :

— ها أنتم ترون الآن ، أيها القوزاق ، الى أين مضوا بروسيا ! انهم سيساوونكم مع الفلاحين ، ويجردونكم من امتيازاتكم ، وسوف ينبشون ما لاقوه من اضطهاد في السابق . ان أياما سوداً ستحل . . . والأمر يتوقف على من تقع بأيديهم الحكومة ، والّا فنحن مقبلون على كارثة مطبقة .

فهز بوغاتيريوف رأسه ، وحدج موخوف خلال حاجبيه الكثين بنظرة غير واثقة وقال :

— ان بقينا أحياء فسنرى ! انك قلق على شؤونك الخاصة يا سيرغي بلاتونوفيتش ، وما أدراك لعل أحوالنا ستتحسن .

فتساءل موخوف مغتاظاً :

— كيف ستتحسن أحوالكم ؟

— لعل الحكومة الجديدة تضع حداً للحرب . ان ذلك ممكن ، أليس كذلك ؟

فلوّح موخوف بيده ودلف الى بيته بمشية رجل شاخ قبل الأوان ، قلقاً على الأمور المالية ، والطاحونة ، وتجارته المتردّية ، ثم تذكر أن يليزافيتا في موسكو الآن وأن فلاديمير على وشك العودة الى القرية من نوفوتشيركاسك . ان لهفته الفاترة على أولاده

لم تشغله عن تفكيره القلق المضطرب . واذ بلغ سقيفة الباب انتابه شعور بأن الحياة ادلهمّت من حوله على حين غرة ، وأخذت تراود روحه وساوس مؤلمة . وأحسّ بطعم الصدأ في فمّه فالتفت الى حيث الشيوخ ، وبصق عبر الدرابزين . ودلف من الشرفة الى غرفته .

التقت آنا ايفانوفا بزوجها في غرفة الطعام . وقالت وهي تحدج وجهه بنظراتها اللامبالية الباردة المعهودة :

— هل تريد شيئاً تأكله قبل الشاى ؟

فأشاح عنها باشمئزاز قائلاً :

— أوه ، كلا ! أي ترابط للطعام هنا ؟

أحس بمثل طعم الصدأ في خلقه ، وبثقل وفراغ في رأسه .

— لقد وصلت رسالة من ليزا .

ودلفت آنا ايفانوفنا تجرجر خطاها الى غرفة النوم ، مثقلة بواجباتها البيتية (تلك هي عادتها منذ اليوم الأول من زواجها ، وجاءت برسالة مفتوحة .

«لا أحسبها الّا فتاة طائشة فارغة الرأس» ، — فكّر سيرغي بلاتونوفيتش في ابنته لأول مرة في حياته ، وقد تجعّد أنفه اذ بلغته رائحة العطر المنبعثة من المظروف السميك ، ثم قرأ الرسالة على عجل ، وتوقّف قليلاً عند لفظة «مزاج» ، متفكراً فيها ، باحثاً عن معانيها الخفية . وفي خاتمة الرسالة طلبت ليزا بعض المال . وعاود ذهن سيرغي بلاتونوفيتش ذلك الشعور الحاد بالفراغ الذى لا يبارح رأسه وهو يأتي على نهاية الرسالة . وعلى حين غرة أحس برغبة في البكاء الخافت . لقد مثلت أمامه حياته بكل عقمها .

وفكّر في نفسه : «انها غريبة عني ، وأنا غريب عنها . فهي لا تتذكر بنوّتها لي الّا عندما تحتاج المال . الفويجرة القذرة ، وعشاقها . . . ومع هذا فعندما كانت طفلة ، فقد كانت شقراء وعزيزة على قلبي . . . يا الهي ! كم تبدلت الأمور ! لقد بقيت أحمق حتى شيخوختي . كان يخيل لي أن حياتي سائرة نحو الأفضل ، ولكني في الواقع وحيد كالمعبد المهجور . لقد كسبت مالي بطرق مشبوهة ، ولكن المرء لا يستطيع الحصول عليه بوسائل نظيفة ، لقد اعتصرت جيوب الآخرين ، وقترت وها هي الثورة على الأبواب ، وغداً قد يطردني خدمي أنفسهم من بيتي فيذهب مالي هباء ! وولداي ؟ ان فلاديمير أحمق . . . وأين هو المغزى في هذه الحياة ؟ عبث كلها ، والله أعلم . . .»

وعلى نحو مبهم اقترنت هذه الأفكار بحادثة وقعت في طاحونته . لقد أحدث زبون قوزاقي ضجة لادعائه أنه أُبخس الكيل ، فرفض دفع الأجرة . فأخرج الهياج سيرغي بلاتونوفيتش من غرفة الماكنة ليرى ماذا حدث . وعندما سمع القصة ، أمر الوزان أن لا يسلمه الطحين . فسحب القوزاقي القميء النحيف كيس الطحين من نهايته ، بينما ظل أحد عمال الطاحونة ، زافار ، وهو شاب مكتنز له صدر كالبرميل ، يجرجر طرفه الآخر . وحين دفعه القوزاقي ، رفع زافار ذراعه وهوى على صدغه بلكمة من قبضته القوية . فوقع القوزاقي القميء ، ثم نهض على قدميه مترنحاً وقد بان على صدغه الأيسر أثر الكدمة . وتقدم خطوة من سيرغي بلاتونوفيتش ، وقال وهو ينشج :

— خذ طحيني عسى أن تغص به !

ومضى لسبيله وكتفاه ترتعشان .

لم يكن هناك من سبب واضح يجعل سيرغي بلاتونوفيتش

يستعيد في ذهنه ذكرى هذا الحادث ومضاعفاته ! كيف قصدته زوجة القوزاقي القميء وطالبته بالطحين ، وكيف اعتصرت الدموع من عينيها لتكسب عطف الزبائن الآخرين .

— ما هذه المعاملة ، أيها المؤمنون ؟ كيف يحق له أن يتصرف هذا التصرف ؟ أرجع لنا طحيننا !

فقال زافار ساخراً :

— اذهبي الى سبيلك أيتها العمة ، اذهبي بهدوء والّا جززت لك شعرك .

وكان مزعجاً وأليماً أن يرى القباني الولد ، وهو واهن ضئيل كالقوزاقي نفسه ، يثب على زافار ليتلقى منه ضربات لا رحمة فيها ، مما حدا به أن يترك عمله في الطاحونة نهائياً .

لقد مر كل ذلك بذهن موخوف فيما كان يطوى الرسالة ويتطلع الى الأمام بعينين شاردتين .

وقضى بقية يومه وهو يعاني ألما وكآبة مريرين .

وكان نومه قلقاً تلك الليلة ، فقد ظل يتقلب تحت وطأة أفكار مشتتة وأحلام غريبة ولم يغرق في النوم الّا بعد منتصف الليل . وعندما سمع في الصباح التالي بأن يفغيني لستنتسكي قد عاد من الجبهة الى أهله ، قرر الشخوص الى ياغودنويه ليقف على حقيقة الوضع ، ويريح فكره من مرارة هواجسه المتعاظمة . فربط يميليان الفرس بالزحافة الصغيرة ، ماصّاً غليونه ، وأقلّ سيده الى ياغودنويه .

كان قرص الشمس يزداد ألقاً فوق القرية كمشمشة صفراء ، والغيوم تتلاشى من فوقها وتحتها مثل خيوط من الدخان . وكان الهواء الزمهرير القارس مشبعاً برائحة فاكهية عبقة . وكان الجليد في الطريق يتكسر تحت حوافر الفرس ، وتذرو الريح البخار الذى

يخرج من منخري الحيوان ، فيستقر على عرفها . فأغفى موخوف في مقعده وقد خدره البرد وهو يترنّح ويتحكّك بمسند الزحافة المفروش بالبساط . ولاح في ساحة القرية جمع من القوزاق متلفّعين بفروات سود ، وأسراب من النساء ، متسربلات بمعاطف مبطّنة محشوّة بفرو القندس .

كان المعلم بالاندا واقفاً وسط الجمع ، ممسكاً بمنديله عند شفتيه الحائلتين الى الخضرة ، وعلى عروة سترته شريط أحمر . وكان في عينيه اضطرام محموم وهو يتكلم :

— . . . لقد قضي على الحكم المطلق اللعين . ولن يرسل أبناؤكم بعد الآن ليخمدوا نضال العمال بالسياط . لقد انتهت خدمتكم المخزية لذلك القيصر مصاص الدماء . ان المجلس التأسيسي سيحكم روسيا الحرة الجديدة . لسوف تبنى حياة جديدة ، حياة مشرقة .

وخلفه كانت خليلته تمسك بذيل معطفه وتهمس متضرعة :

— حسبك ، يا ميتا ! ألست تدرك أن ذلك يؤذيك ؟ سوف تبصق دماً ثانية يا ميتا !

كان القوزاق ينصتون الى بالاندا ويتنحنحون حرجاً ويكتمون ابتساماتهم . ولكنهم لم يدعوه ينهي كلامه . فلقد قاطعه صوت جهير حنون انطلق من بين الجمهور :

— أجل ، انها ستكون حياة سعيدة ، كما يبدو ، ولكنك لن تعيش لتشهدها ، يا صاحبي المسكين ! اذهب الى البيت الآن ، فالطقس شديد البرودة !

فأنهى بالاندا كلامه بسرعة ، ومضى مهموماً .

بلغ موخوف ياغودنويه ظهراً ، وقاد يميليان الفرس من لجامها الى المعالف المصنوعة من الصفصاف في الاسطبل ،

ورفع السرج عنها ورمى على ظهرها مرشحة بعد أن هبط سيده من الزحافة وأخذ يبحث تحت فروته عن منديل . فالتقى في أسفل الدرجات كلباً كبيراً سلوقياً أبلق معترضاً طريق الرجل الغريب ، يتثاءب ماداً قائمتيه الطويلتين ، فيما نهضت في أثره بكل الكلابُ الأخرى المستلقية حول الدرجات كأكوام سوداء .

فتراجع سيرغي بلاتونوفيتش الى الخلف بخوف مرتقياً الدرجات وقد أذهله عددها .

كانت ردهة الانتظار الجيدة الاضاءة تفوح منها رائحة الكلاب والخلّ . وقد علّق على زوج من قرن الأيل موضوع فوق صندوق ، قبعة فراء لضابط قوزاقي ، وقلنسوة عليها شرابة فضية . وبرنس قوزاقي . وعندما وقع بصر سيرغي بلاتونوفيتش عليه ، خيّل اليه لحظة أن شبحاً طويلاً أسود أشعث محدودب الكتفين كان متسلطاً عليه . وقدمت امرأة ممتلئة ذات عينين سوداوين من الغرفة المجاورة ، ورمقت موخوف بنظرة متفحصة وهو يخلع معطف ، وسألته دون أن تغير الملامح الجدية لوجهها الأسمر الجذاب :

— جئت في طلب نيكولاى أليكسييفتش ؟ سوف أخبره .

لقد وجد سيرغي بلاتونوفيتش صعوبة في معرفة أكسينيا من هيئتها الممتلئة الجميلة هذه . ولكنها عرفته في الحال ، فزمت شفتيها اللتين تحاكيان الكرز بحمرتهما ، وبحركة خفيفة من ذراعها الناعمة العارية شدت قوامها بصورة غير طبيعية . ثم دخلت الصالة دونما استئذان وأوصدت الباب خلفها . وبعد دقيقة أو اثنتين خرجت ثانية ، يتبعها لستنتسكي العجوز . وقال متلطفاً وهو يبتسم ابتسامة وقوراً :

— آه ، السيد التاجر ! ما الذى جاء بك الى هنا ؟ تفضّل بالدخول . . .

ووقف جانباً ، ودعا ضيفه الى الصالة باشارة من يده .

وانحنى سيرغي بلاتونوفيتش بالطريقة التي أتقنها منذ زمن طويل في أداء التحية لمن هم أعلى منه مرتبة اجتماعية ، ودخل . فتقدم نحوه يفغيني لستتسكي ليستقبله مخاوصاً عينيه من وراء عويناته .

— انني مسرور يا عزيزى سيرغي بلاتونوفيتش ! كيف حالك ؟ أحق أن الكبر نال منك ؟

— لا ، والله ، يا يفغيني نيقولاييفتش ! أنا لا أزال أتوقع أن أعيش بعدك . ولكن كيف أنت ؟ أسالم معافى ؟

وأخذ يفغيني موخوف بذراعه وقد افترت شفته عن ابتسامة كشفت عن التلبيسات الذهبية لأسنانه ، وسار به نحو كرسي . وجلسا أمام طاولة صغيرة ، يتبادلان المزاح ويبحثان في وجه كل منهما عن امارات التغيّر التي طرأت عليهما منذ لقائهما الأخير . وطلب لستتسكي العجوز من أكسينيا أن تحضر الشاى ، ثم تقدم ووقف ازاء موخوف والغليون المقوّس بين أسنانه ويده الهزيلة مستندة الى الطاولة ، وقال :

— كيف تجرى الأمور معك في القرية ؟ هل سمعت بـ . . . الأخبار السارة ؟

فصعّد موخوف نظره الى طيات في عنق وذقن الجنرال المحلوقة بعناية ، وتنهد قائلاً :

— كيف يفوت المرء سماع ذلك ؟

فسحب الجنرال العجوز نفساً عميقاً من غليونه وارتعشت جوزة عنقه ، وقال :

— الى أى مصير أسود آلت الأمور ! لقد تنبأت بذلك منذ اليوم الأول من الحرب . حسناً . . . لقد كتب على الملكية أن تزول . تذكّرت في هذه اللحظة ميرزكوفسكي . هل تذكر يا يفغيني ؟ روايته «بطرس الأول وأليكسي» . لقد قال ولي العرش أليكسي لأبيه بعد أن عذّب : «ستتحمل ذريتك مغبة اهراق دمي . . .» .

وأردف موخوف بانفعال :

— ليست لدينا أية معلومات حقيقية عما حدث .

وتململ في كرسيه ، وأشعل لفّافة ، ومضى يقول :

— لم نر جريدة منذ أسبوع . وعندما سمعت بأن يفغيني نيكولاييفتش عاد الى أهله في اجازة ، قررت الشخوص اليه لأقف على حقيقة ما حدث وماذا ينتظرنا بعد ذلك .

وتلاشت البسمة من وجه يفغيني الحليق تدريجياً ، وأجاب :

— أحداث مريعة . . . فلقد تفكك الجنود تماماً . انهم لا يريدون المضي في القتال ، لقد تعبوا منه . ولم يكن لدينا هذا العام جنود بمعنى الكلمة ، والحق يقال . لقد أصبحوا زمراً اجرامية ، وحوشاً لا رادع لها . أمّا أبـي . . . فليس بوسعه أن يستوعب ذلك . لا يستطيع أن يدرك الى أية درجة بلغت فوضى الجيش . . . فالجنود يتخلّون عن مواقعهم اعتباطاً ، ويقتلون ضباطهم ، ويسلبون ويفتكون بالمدنيين . . . ان عصيان الأوامر العسكرية بات اليوم من الحوادث اليومية .

ونفث لستتسكي العجوز غمامة من دخان التبغ ، وقال :

— السمكة تجيف من رأسها .

وقطّب يفغيني حاجبيه وارتعش أحد جفنيه باضطراب وقال :

— أنا لا أقول ذلك ، لا أقول . . . فالجيفة تدب في

الجيش من أسفل ، لقد أفسده البلاشفة . وحتى الفرق القوزاقية ، ولا سيما تلك التي على تماس شديد بالمشاة ، لا يعتمد عليها من الناحية المعنوية . ثمة ملل فظيع وحنين جارف يدفعانهم للعودة الى أهليهم . . . وهناك البلاشفة . . .

وانفجر موخوف ، غير قادر أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك :

— ماذا يريدون ؟

فقال لستنتسكي ضاحكاً :

— أوه . . . يريدون . . . ذلك أسوأ من جراثيم الكوليرا . أسوأ من ناحية سهولة الالتصاق والتغلغل في لب الجنود . أعني أفكارهم بالطبع . وليس هناك من محجر صحي يعزل المرء عنها . ولا شك أن هناك رجالاً أذكياء جداً وموهوبين بين البلاشفة . لقد تهيأ لي أن ألتقي ببعضهم . ولكن قسماً منهم مهووسون ، لا أكثر .

ثم أضاف بلهجة مفاجئة بادية الغضب :

— ولكن الأغلبية الساحقة لا تمكن السيطرة عليها ، حيوانات لا أخلاق لها . لا تعنيهم روح التعاليم البلشفية ، بل السعي وراء السلب والخلاص من الجبهة ليس الا . ان دافعهم الرئيسي هو أن يمسكوا بزمام السلطة بأيديهم ، ويضعوا حداً للحرب «الاستعمارية» ، كما يسمونها ، بأى شرط كان ، ولو بصلح منفرد ، ومن ثم يسلّمون الأراضي الى الفلاحين ، والمعامل الى العمال . بالطبع ان هذا حلم طوبائي بقدر ما هو سخيف ، ولكنهم بمثل هذه الأساليب البدائية أفلحوا في كسب الجنود .

كان لستنتسكي يكبح جماح غضبه ويلوى مبسم سيكارته العاجي بأصابعه أثناء كلامه . وكان موخوف يصغي اليه ، وقد

انحنى بكامل جسمه الى الأمام كمن يريد الوثوب من كرسيه . ثم تمشى لستنتسكي العجوز ذهاباً وإياباً في الصالة ، متخطياً بجزمته السوداء اللبادية ، يلوك بعذاريه الأشيبين المائلين الى الخضرة .

ومضى يفغيني يقول كيف أنه اضطر الى الهرب من كتيبته حتى قبل أن تندلع الثورة خوفاً من انتقام القوزاق ، وروى سير الأحداث التي شهدها في بطرسبرغ . ولاذا بالصمت بعض الوقت . وبعد ذلك سأل لستنتسكي العجوز فجأة وهو ينظر الى أنف موخوف :

— حسناً ، هل تشترى المهر الأشهب الذى ضربت عنه صفحاً في الخريف ؟

فقطّب موخوف معبساً ولوح بيده بحركة قانطة وقال :

— كيف تستطيع الكلام عن مثل هذه الأمور في مثل هذا الظرف يا نيكولاى اليكسييفتش ؟

وفي هذه الأثناء كان يميليان سائق موخوف يدفئ نفسه ويشرب الشاى في جناح للخدم ، ويمسح خديه الشبيهين بالشوندر بمنديل أحمر ، ويروى أخبار القرية . وكانت أكسينيا واقفة وصدرها ازاء السرير ذى الخشب المحفور ، وقد التفعت بشال من الوبر .

وقالت متسائلة :

— أحسب أن بيتنا قد تهدّم الآن ؟

فأجاب يميليان متمهلاً :

— كلا ، لماذا يتهدم ؟

— وجيراننا ، آل ميليخوف ، كيف حالهم ؟

— انهم بخير .

— ألم يعد بيوتر الى أهله في اجازة ؟

— لم أسمع بذلك .

— وغريغورى ؟

— غريغورى عاد الى أهله بعد عيد رأس السنة . وقد أنجبت له زوجته توأمين في العام الماضي . غريغورى . . . عاد . . . بسبب جرحه .

— جرح ؟

— نعم ، في ذراعه . لقد ملأت الجروح جسمه في كل مكان مثل كلب غبّ معركة . ولست أدرى فيما اذا نال مزيداً من النياشين أو الجروح .

فسألته أكسينيا :

— وكيف يبدو الآن . . . أعني غريشا ؟

وسعلت لتخفي نشيجاً جافاً ، وحاولت أن تجعل صوتها المرتعش طبيعياً .

— كما كان ، بأنفه المقوس وسحنته السمراء . تركي ابن تركي كما تعرفين .

— لست أعني ذلك . . . ولكن هل يبدو أكبر سناً ؟ هل شاخ ؟

— وكيف لي أن أعرف ؟ ربما شاخ قليلاً . لقد أنجبت زوجته توأمين . لذا فلا يمكن أن يكون قد شاخ كثيراً .

وقالت أكسينيا وهي ترتجف :

— ما أبرد هذا البيت !

ثم خرجت .

وصب يميليان قدحه الثامن من الشاى وعاينها وهي تذهب . وزنخر قائلاً :

— قملة نتنة سامة ليس لها مثيل . لم يمضِ وقت طويل يوم كانت تتسكع في القرية بصندل الفلاحات ، وها هي اليوم تبدو أشبه بسيدة . «ما أبرد هذا البيت !» ياه ، أنت أيتها السيدة السافلة ، لقد ولدت أمك قحبة ، أجل ! أنا لا أحتمل مثلها من النساء . لو كنت كذلك لأطرت صوابهن . . . ! «ما أبرد هذا البيت !» الحية الرقطاء ! ياه !

لقد بلغ استياؤه الى حد أنه لم يستطع الفراغ من احتساء قدحه الثامن من الشاى ، فنهض ، ورسم اشارة الصليب ، ثم خرج وهو ينظر بغطرسة حواليه وينثر تراب الأرض المشمّعة بجزمته عن عمد . وكان طوال طريق العودة عابساً كسيده . وصب جام غضبه على الفرس ، فجعل يلفح فخذيها الخلفيين بنهاية السوط بصورة معيبة ، ويمطرها بألوان السباب . وخلافاً لعادته ، لم يبادل سيده كلمة واحدة . وكذلك خلد سيرغى بلاتونوفيتش الى صمت راعب .

٨

كان اللواء الأول من احدى فرق المشاة الاحتياطية في الجبهة الجنوبية الغربية ، وكتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون الملحقة به قد سحبا من الجبهة قبل اندلاع ثورة شباط ، بغية ارسالهما الى بتروغراد لاخماد حركات العصيان التى انفجرت هناك . ونقل اللواء الى المؤخرة ، وقد جهّز بمعدات شتائية جديدة ، وأطعم جيداً ليوم واحد ، ثم سفّر بالقطار على جناح السرعة . ولكن الحوادث كانت تجرى أسرع من الكتائب المتجهة الى مينسك ، وعشية يوم الرحيل كانت الشائعات المتواترة تفيد أن الأمبراطور وقّع تعهداً بتنازله عن العرش في مقر القائد العام للقوات المسلحة .

واوعز للواء بالعودة في منتصف الطريق . وفي محطة رازغون أمرت كتيبة القوزاق السابعة والعشرون بالنزول من القطار . كانت الخطوط قد سدّت بقطر أخرى . وكان ثمة جنود يتسكعون على الرصيف تزين معاطفهم شرائط حمر ، وعلى أكتافهم بنادق جديدة حسنة الصنع من النمط الروسي ولكنها مصنوعة في انكلترا . وكان كثير منهم ينظرون بقلق ووجل الى القوزاق الذين اصطفوا في سرايا .

وكان النهار الماطر يدنو من نهايته . والماء ينساب من سقوف بناية المحطة . وكانت البرك المغطاة ببقع نفطية والمنتشرة على طول الطريق تعكس ظلال فروة السماء الرمادية . وكانت القاطرات أثناء مناوراتها تبعث هديراً خفيضاً متهدّجاً . وخلف مخزن البضائع قابلت كتيبة الخيّالة آمر اللواء . كان البخار يتصاعد من سيقان الأفراس المبتلة حتى حجولها . وكانت الغربان قابعة دونما وجل وراء الطابور ، تنقر وتنكت كتل الروث البرتقالية اللون .

اتجه آمر اللواء ممتطياً فرساً أدهم يصحبه آمر الكتيبة ، نحو القوزاق ، ثم أوقف حصانه ، وراح يحدّق النظر في السرايا ، ثم ألقى خطاباً وهو يتلكأ ويتلعثم في غمرة انتقائه للكلمات :

— أيها القوزاق ! لقد . . . ها . . . سقط عرش الأمبراطور نيكولاى الثاني بارادة الشعب . وانتقلت الحكومة الى أيدى اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما . لذا يجب على الجيش ، وأنتم من الجيش ، أن يتلقى . . . ها . . . هذه الأخبار بهدوء . . . ان واجب القوزاق هو أن يدافعوا عن وطنهم من الهجمات و . . . ها . . . كما يقال . . . من الأعداء الأجانب وسوف ننأى بأنفسنا عن العصيان الذى حصل الآن ، ونتركه للمدنيين ليختاروا الأسلوب الذى على ضوئه يتم تشكيل حكومة جديدة . يجب أن نقف

بعيداً عن ذلك ! لأن الحرب والسياسة بالنسبة للجيش . . . ها . . . لا يلتقيان . وعندما تهتز . . . ها . . . الأسس ، يجب أن نكون بصلابة . . . — وهنا تلكأ آمر اللواء العجوز الضيق الأفق الذى لم يألف القاء الخطب ، لينتقي كلمات مناسبة ، وحاجباه تتحركان في عجز مؤلم على وجهه الدهني ، فيما كانت الفرقة تنتظر بفارغ الصبر — ها . . . بصلابة الفولاذ . ان من واجبكم العسكرى القوزاقي أن تطيعوا ضبّاطكم . وسوف نقاتل العدو بنفس البسالة السابقة ، بينما هناك في المؤخرة (وأتى بحركة غامضة الى الخلف) نترك لمجلس الدوما أن يقرر مستقبل البلاد . وعندما ننتهي من الحرب سوف نسهم في الحياة الداخلية للبلاد ، ولكننا في الوقت الحاضر . . . يجب أن لا ، ولا يمكن أن نخون الجيش . . . يجب أن لا تدخل السياسة الى الجيش .

وبقي القوزاق بضعة أيام في المحطة ، يقدمون الولاء للحكومة المؤقتة ، ويحضرون الاجتماعات ، ويختلطون في كثير من الأحيان مع رجال من نفس ديرتهم ، ولكنهم ظلوا مبتعدين عن الجنود الذين تعج بهم المحطة . وكانوا يتناقشون فيما بينهم حول الخطب التي يستمعون اليها في الاجتماعات ، ويمحّصون بحذر الكلمات التي يرتابون فيها ، حتى يتوصّلوا جميعهم بهذه الطريقة أو تلك الى النتيجة التالية ، وهي أنه لو توفرت حرية الآن ، لكان معنى ذلك نهاية الحرب . وبات من الصعب على الضباط أن يكافحوا هذا الاعتقاد ، وأن يتمسكوا بالادعاء القائل ان روسيا ملزمة على مواصلة القتال حتى النهاية .

لقد تركت الحيرة التي شاعت في القيادة العليا للجيش بعد الانقلاب ، أثراً خطيراً على المراتب الدنيا . وبدا لقيادة الفرقة وكأنها نسيت كلياً أن اللواء جانح عن السكة في منتصف

طريق بتروغراد . لقد أكل الجنود جراية الأيام الثمانية التي زودوا بها ، ثم انتشروا في القرى المجاورة . وظهرت المشروبات الروحية للبيع بشكل غريب ، وبات منظر الجنود والضباط السكارى مألوفاً .

وتجمع القوزاق في عرباتهم متحللين من أداء واجباتهم اليومية ، ينتظرون الرحيل الى الدون . . . وكانت الشائعة حول تسريح وجبة الاحتياط الثانية قوية . وأهملوا العناية بخيلهم ، وكانوا يقضون سحابة النهار في ساحات الأسواق يتجرون بالبطانيات الألمانية ، والحراب ، والمناشير والأجربة من الجلد والتبغ والمعاطف التى جاؤوا بها من الخنادق .

وعندما بلغ الكتيبة أمر يدعوها بالعودة الى الجبهة قوبل ذلك بتبرم مكشوف . أمّا السريّة الثانية فقد رفضت الذهاب بصورة قاطعة ، ورفض القوزاق شد القاطرة بالشاحنات . ولكن آمر الكتيبة هدد بتجريدهم من السلاح ، فكفوا عن الهياج رويداً رويداً ، وبينما كان الركب يسير ببطء نحو الجبهة ، كان النقاش يجرى بحدّة في كل عربة .

— ماذا تسمّون هذا أيها الاخوان ؟ حرية ؟ لقد نلتم حريتكم ، ولكن حينما يكون الأمر متعلقاً بالحرب فان عليكم أن تهرقوا دماءكم ثانية !

— انه الاضطهاد القديم يعود بكل ما فيه مرة أخرى !

— ترى لماذا تخلصنا من القيصر اذا ؟

— الحال الآن كما كانت أيام القيصر تماما !

— السروال القديم نفسه ، سوى أن الأزرار من الخلف .

— حق ما تقول .

— ترى كم سيطول هذا بنا ؟

— هذه هي السنة الثالثة وليس معنا سوى بنادقنا نضاجعها .

وفي أحد مفارق السكك الحديد تدفق القوزاق من العربات وكأنهم كانوا على اتفاق سابق ، وعقدوا اجتماعاً غير آبهين بوعود الآمر ووعيده . وبذل القومندان ومدير المحطة العجوز جهودهما الباطلة . وركضا ذهاباً وإياباً من بين الصفوف الرمادية المرصوصة من القوزاق وهما يتوسلان اليهم بالعودة الى عرباتهم بغية اخلاء الخط . وأصغى القوزاق بانتباه كبير للكلمتين اللتين ألقاهما عريف ، والجندى مانجولوف القصير والمكتنز من القوزاق . وقد لاقى الأخير صعوبة في ايجاد متنفس لمشاعره الغضبى :

— أيها القوزاق ! لا يمكن أن تجرى الأمور على هذه الحال ! لقد أفسدوا كل شيء من جديد ! وهم يريدون أن يستغفلونا ! فاذا كانت هناك ثورة ، واذا كان الشعب كله قد أعطي حريته ، فعليهم أن يوقفوا الحرب ، لأن الشعب والقوزاق لا يريدون الحرب ! فهل أنا على صواب ؟

— أنت على صواب !

— لقد سئمناها !

— لم تعد سراويلنا تثبت فوق أردافنا ! كيف يمكننا المضي الى الحرب ؟

— فلتسقط الحرب ! ولنعد الى ديارنا .

— افصلوا القاطرة ! هيا ، يا أولاد !

وصاح مانجولوف باذلاً جهده ليعلو صوته فوق آلاف الحناجر :

— أيها القوزاق ! انتظروا لحظة ! أيها القوزاق ! أيها الاخوة ! أنتم أيها الشياطين ! عليكم اللعنة ! . . تمهّلوا ! أيها الأخوة ! اصطبروا ولا تمسوا القاطرة . لسنا في حاجة اليها وانما هنا لأجل أن نضع حداً لهذه المهزلة . ليرينا صاحب

السعادة آمر الكتيبة الكتاب ، لنرى فيما اذا كانوا حقاً يريدوننا في الجبهة ، أم أنها ليست سوى واحدة من حيلهم الصغيرة .

ولم يركب القوزاق العربات الّا بعد أن تلا آمر الكتيبة الذى كانت شفتاه ترتعشان ، وكاد يفقد زمام نفسه ، بصوت عال البرقية الواردة من قيادة الفرقة التي تأمر الكتيبة بالذهاب الى الجبهة .

وكان ستة من تاتارسكي في عربة واحدة وهم من الكتيبة السابعة والعشرين : بيوتر ميليخوف ، ونيكولاى كوشيفوى (وهو عمّ ميشا) ، وأنيكوشكا ، وفيدوت بودوفسكوف ، وميركولوف (وهو قوزاقي يشبه الغجر ، ذو لحية مجعدة سوداء وعينين وهاجتين بلون البندق) ، ومكسيم غريازنوف ، وهو قوزاقي مرح متحلل عرف قبل الحرب في مناطق الدون كسارق خيل لا يهاب أحداً .

وكانت ريح هوجاء تنفذ خلال العربة ، والخيل واقفة أمام معالف صنعت على عجل ، وعلى ظهورها المراشح ، وكانت ثمة حطبة رطبة ترسل دخاناً فوق تلة من التراب المتجمد في قاع العربة . ويجرى الدخان الحريف باتجاه خصاص الباب . والقوزاق جلسوا على سروجهم متحلقين حول النار ، يجففون لفّافات أرجلهم . وكان بودفسكوف يدفئ قدميه العاريتين المعروقتين بالنار ، وقد شعت ابتسامة هانئة من زاوية وجهه الكالميكي الناتئ . وكان غريازنوف يخيط نعل حذائه المفتوق حتى نهايته تقريباً بخيط مشمع . وبصوت جعله الدخان أجشّ قال دون أن يوجه كلامه الى أحد :

— عندما كنت صبياً كنت أتسلق فوق الموقد أيام الشتاء ، وكانت جدتي (عمرها أكثر من مئة عام في ذلك الحين) تفلّي رأسي بأصابعها بحثاً عن القمل ، وتقول لي : «يا صغيرى

مكسيم ، يا حبيبي ! في سالف الأيام لم تكن حياة الناس مثلها اليوم ، كانوا يحيون حياة مرفهة ، حياة طبيعية ولم تكن لديهم هموم . ولكنك يا طفلي الصغير ستعيش لترى زماناً تغطي فيه الأسلاك كل الأرض . وتطير في الهواء طيور لها أنوف من حديد وتنقر الناس كما ينقر الغراب الأسحم البطيخة الحمراء . وسيحل بالناس الجوع والطاعون وسيثور الأخ على أخيه ، والابن على أبيه وسيبقى من البشر ما يبقى من العشب بعد الحريق . — وتوقف غريازنوف لحظة ، ثم أردف : «حسنا ، لقد حصل كل ما حدثني به . فلقد اخترعوا التلغراف ، وتلك هي الأسلاك . والطيور الحديدية هي الطائرة . وسوف تحل مجاعة ، أجل . ولم يزرع أهلي سوى نصف أرضهم خلال هذه السنين ، وكذلك هي الحال في كل مكان . ولم يبق في القرى الا الشيوخ والصغار وان أجدب الموسم مرة عمّت المجاعة» .

وعقّب بيوتر ميليخوف متسائلاً وهو يضع شيئاً من الحطب في النار :

— ولكن ثورة الأخ على أخيه . . حكاية بعيدة نسبياً ، أليس كذلك ؟

— انتظر قليلاً ، وسترى الناس يقبلون على ذلك أيضاً !

وتدخّل بودوفسكوف قائلاً :

— واذا لم يكن هناك من قائد ، فسوف تحل الفوضى ويحارب الأخ أخاه .

— ربما كان علينا أن نقضي عليهم ، أولئك الشياطين .

فقال كوشيفوى ضاحكاً :

— لنفرغ من الألمان أولا .

— لا بأس . سنقاتل فترة أخرى .

وتغضّن وجه أنيكوشكا الأمرد عن سيماء ينّم عن رعب مصطنع ، وهتف :

— والى متى نبقى نحارب بحق قيصرتنا ذات الساقين المشعرتين ؟

وقال كوشيفوى يقلده :

— الى أن تنمو لك لحية يا خصي .

وانفجر القوم ضاحكين ، واضطرب حال أنيكوشكا . ولكن غريازنوف انفجر من بينهم دون أن يتوقّعه أحد :

— كلا ، حسبنا ما نلناه ! لقد نلنا كفايتنا ! فها نحن هنا في أسوأ حال ، والبؤس يلفنا ، والقمل يأكلنا ، وأهلونا في ديارهم يهلكون ، فلو جرحتَ أحدهم لما سالت منهم قطرة دم .

فتساءل بيوتر بلهجة لاذعة ، وهو يلوك عذاريه :

— ولماذ تجأر ؟

فأجاب ميركولوف نيابة عن غريازنوف مخفياً ابتسامته تحت لحيته المجعدة :

— هل لا تدرى لماذا ؟ ألا تدرى ماذا يحتاج القوزاقي ، والى ما يتوق ؟ . . أنت تعرف القضية ، فقد يسوق الراعي القطيع أحياناً الى المرعى ، واذا كانت الشمس قد جففت الندى من العشب فالماشية على خير حال ، ولكن ما ان تتوسط الشمس السماء ، حتى يبدأ ذباب الدواب يطن ويعض . وتلك هي الحال هنا ، — والتفت ليواجه بيوتر ، وأردف وهو ينظر الى القوزاق بعينيه الماكرتين — والآن ، أيها السيد رئيس العرفاء ، لقد بدأت الماشية تجأر وترفس . ولا شك أنك تعرف ذلك ! لا حاجة بك الى التكبر ! لقد سقت الثيران بنفسك . . . أنت تعرف كيف يحصل ذلك . فاذ يرمي أحد العجول بذيله فوق ظهره

ويروح يطارد ، لا يلبث القطيع أن يجرى في أثره ! ويهرع الراعي ليوقفه ، ولكنه يتدفق كالفيضان ، مثلما تدفقنا على الألمان طوفاناً قرب نيزفينسكايا . وحسبك أن تحاول ايقافهم عند حدهم !» .

— وما معنى كل ذلك ؟

ولم يجب ميركولوف في الحال . انّما لفّ خصلة من لحيته حول اصبعه وجرّها بشدة ، ثم قال بجد ودون أية ابتسامة :

— لقد مضى أكثر من عامين ونحن نحارب . . . ذلك صحيح ، أليس كذلك ؟ وها قد مضت ثلاث سنوات تقريباً مذ ساقونا الى الخنادق . لأى غرض ، لماذا ؟ لا أحد يعرف . وهذا هو ما حدا بي الى القول ان أمثال غريازنوف أو ميليخوف سيهربون من الجبهة ان عاجلاً أو آجلاً ، ثم تتبعهم الكتيبة ، وبعد الكتيبة ، الجيش . . . لقد نلنا الكفاية .

— اذاً ذلك ما تريد أن تتوصل اليه !

— أجل ، ذلك ! فما أنا بالأعمى ، انني أرى أن كل شيء معلق بشعرة وما ان يهتف أحدهم «شوه !» حتى يتساقط كل شيء أوصالاً كما يتهاوى معطف متهرئ عن الكتفين .

فقال له بودفسكوف :

— على مهلك . تذكّر أن بيوتر رئيس عرفاء .

فانفجر بيوتر :

— أنا لم أسبب أية متاعب لأى من رفاقي .

— حسناً ، لا تغضب . فأنا أمزح لا غير .

فبدا على بودفسكوف الحرج ، ولوى أصابع قدمه العارية العريضة ، ثم نهض ومضى صوب الخيل .

وكان جمع من القوزاق من القرى الأخرى يتكلمون بصوت

خفيض في ركن من العربة حيث بالات الدريس المضغوط . ثم انطلقوا يغنون في الحال . وبدأ عليموف ، وهو قوزاقي من تشير ، بأغنية مرحة ، غير أن أحدهم قد صفعه على ظهره وجأر بصوت أجش :

— دعك عن هذا !

ودعاهم كوشيفوى الى النار . وراحوا يطعمون اللهب بقطع من الخشب اقتطعت من سياج المحطة ، والتمع وهج أغنية في دفء النار :

ان جواد الحرب لينتظر ، وهو محمّل للمعركة ،
عند باب الكنيسة حيث يصلّى سيده .
وغزيرة هى الدموع التى تذرفها الأم والحفيد
والزوجة الفتية الجميلة .
ولكن عندما يسير القوزاقى الى الأمام
فى عدته الحربية ،
تمسك زوجته بركاب السرج ،
ويمسك ابن أخته بالرمح . . .

ومن العربة المجاورة انفجر أكورديون متحشرج منشج عن رقصة قوزاقية . وراحت جزمات الجنود تدق على القاع الخشبي بلا رحمة ولعلع صوت أجشّ بهذه الكلمات :

يا للحياة الملأى بالهموم
فنير القيصرية ثقيل لا يطاق
يحز رقاب القوزاق الاخيار
فلا يستطيع احد ان يجر نفسا من الهواء
لقد خاطب بوغاتشوف * اهالى الدون :

* يميليان بوغاتشوف : كان قائدا للقوزاق والفلاحين ضد القيصر فى حرب الفلاحين ١٧٧٢ — ١٧٧٥ . المترجمون .

«يا معشر الفقراء اتبعونى ،
هيا ، يا قوزاق ، يا اتمانات القوزاق . . .»

وضج صوت آخر بازاء الأول بلعلعة عالية الدرجة :

خدمنا القيصر بكل اخلاص ،
وها نحن نتوق الى زوجاتنا فى بيوتنا
ولم نعد نتوق الى الصبايا .
ولكننا وجدنا للقيصر . . *

وتوقّف القوزاق عن الغناء وراحوا ينصتون الى الدوى الصخّاب الذى أخذ يتصاعد من العربة المجاورة ، ويطرفون بعيونهم ويكشرون عن أسنانهم معجبين . ولم يستطع بيوتر ميليخوف السيطرة على نفسه فانفجر ضاحكاً :

— يا للشياطين !

والتمعت عينا ميركولوف البنيتان المتألقتان بوميض أصفر ، ووثب على قدميه ، والتقط الايقاع وطفق ينقر بسرعة بطرف جزمته ، ثم ضرب الأرض بقدمه على حين غرة ، وانهمك في رقصة سريعة وثابة ، يقعي ويشمر بساقيه ويدور حول نفسه . ومضى ، كلّ يقوم بدوره ، مشيعاً الدفء في بدنه بهذه الحركات . وكان صوت الأكورديون قد تلاشى منذ فترة طويلة في العربة المجاورة ، وانطلقت أصوات مبحوحة تتقاذف السباب المقذع . ولكن القوزاق استمروا في رقصهم ، الذى أرعب الخيل ، ولم يتوقفوا الّا عندما قام أنيكوشكا المنفعل المضطرب بقفزة مذهلة وقع بعدها على النار ، فرفعوه وهم يضحكون ، وعلى ضوء عقب شمعة أخذوا

* حذفت فى الاصل ، ولكن كلمة — بغايا — تكمل القافية وهو المقصود — المترجمون .

يفحصون سرواله الجديد الذى اخترق كلياً من القفا ، وذيل سترته المبطنة المشعوطة .

ونصحه ميركولوف مشفقاً :

— اخلعه !

— هل أنت مخبول ، أيها الغجرى ؟ ماذا سأرتدى ؟

وراح ميركولوف ينقّب في خرج سرجه . فسحب قميص امرأة داخلياً طويلاً من الكتان . ثم أشعلوا النار ثانية . وأمسك ميركولوف بالقميص من حمالتيه الرفيعتين عند الكتف وقال وهو يغص بالضحك :

— اوه ، اوه ! لقد سرقته من حبل غسيل في احدى المحطات ، ظنا مني بأنه ينفع لفافاً للرجلين . ولكني لم أشأ أن أمزقه . بوسعك أن تأخذها !

واضطر أنيكوشكا الى ارتداء القميص وهو يسب ويلعن ، فتعالت القهقهات صخّابة بشكل جعل الرؤوس تتراءى من أبواب الشاحنات الأخرى وصيحات الغبطة تهتف في الظلام :

— ماذا لديكم أيها الحصن ؟

— علام جئتركم ؟

— لماذا تقهقهون ؟

— هل وجدتم شيئاً ظريفاً ، أيها الأغبياء ؟

وفي المحطة التالية استدعوا لاعب الأوكرديون ، وهرع القوزاق من الشاحنات الأخرى ، وقد حطّموا المعالف ودفعوا الخيل الى الجدار . وراح أنيكوشكا يرقص بقميصه الأبيض ، الذى لا بدّ وأنه كان يعود الى امرأة كبيرة الجرم لأنه كان طويلاً جداً عليه ، ويدور في حلقة صغيرة حتى سقط من الاعياء وصيحات وقهقهات القوزاق تؤجج انفعاله .

ولكن النجوم فوق بيلوروسيا المضرجة بالدماء كانت تنتحب حزينة . والظلام القاتم قد انتشر بسرعة في رحاب الليلة المتثائبة . هبّت الريح خفيضة فوق الأرض ، مشبعة برائحة الأوراق المتساقطة المرة ، وبالطين الندى ، وثلوج آذار .

٩

وفي غضون أربع وعشرين ساعة أصبحت الكتيبة مرة أخرى قريبة من الجبهة . وتوقّف قطار النقل عند مفرق للسكك الحديد . وأصدر رؤساء العرفاء الأوامر بالنزول من القطار . واقتيدت الخيل بسرعة عبر ألواح خشبية الى الأرض واسرجت ، وانهمك القوزاق يروحون ويغدون باحثين عن حوائجهم المنسية ، وألقيت حزم متآكلة من القش فوق الرمل الندى .

ونادى مراسل من قيادة الكتيبة بيوتر ميليخوف وهو ماضٍ في طريقه :

— يريدك الآمر في المحطة .

فأصلح بيوتر من وضع السير على معطفه ومضى متمهلاً شطر المحطة وقال لأنيكوشكا الذى كان يتمشّى قرب الخيل :

— اعتنِ بحصاني يا أنيكوشكا .

وتبعه أنيكوشكا ببصره وهو صامت ، وقد بدا عليه القلق ممتزجاً بأمارات السأم الاعتيادية التي ترتسم على وجهه العابس . وبينما كان بيوتر يمضي في طريقه وينظر الى جزمته الملطخة بالوحل ويتساءل لماذا أرسل في طلبه آمر الكتيبة ، لفت نظره رهط صغير تجمّع في نهاية المحطة عند صهريج الماء الدافئ . واتجه شطرهم وأخذ يصغي الى حديثهم . كان حوالي عشرين جندياً محيطين بقوزاقي طويل ذى شعر أحمر في وقفة مرتبكة

مرتعبة وقد أعطى ظهره للصهريج . وحملق بيوتر في وجهه الملتحي ، وفي الرقم ٥٢ على شريطي العريف الأزرقين وتأكد له أنه سبق أن رأى الرجل في مكان ما .

وانبرى أحد جنود المشاة المتطوعين وهو ذو وجه ذكي أنمش ، يسأله بخبث :

— كيف دبرتها مع أنك عريف أيضاً ؟

فتساءل بيوتر بفضول وقد أمسك بكتف رجل يقف أمامه :

— ما الأمر ؟

فالتفت الجندى نحوه وأجاب بغير اهتمام :

— لقد أمسكوا بهارب من الخدمة . . . واحد من جماعتك القوزاق .

وحاول بيوتر أن يتذكر أين رأى القوزاقي الأصهب الحاجبين والشاربين . ولم يجب الأسير على أسئلة المتطوع الملحاحة ، بل ظل يجرع ماء دافئاً من كوز نحاسي صنع من غلاف قنبلة مدفع ، ويمضغ خبز جودار يابساً مبللاً بالماء . كانت عيناه الواسعتان الجاحظتان تضيقان عندما يمضغ ويزدرد اللقمة ، ويرتعش حاجباه كلما نظر حواليه . وقف الى جانبه جندى كهل بدين يحرسه ببندقية مشرعة الحربة . وانتهى القوزاقي من شرابه ، وألقى بنظره المتعب على الجنود الذين يتفحصونه بلا تكلف . وعلى حين غفلة تصلبت عيناه الطفوليتان الزرقاوان ، وبلع ريقه بسرعة ولحس شفتيه وصرخ بصوت نافر عميق أجش :

— هل أنا حيوان ؟ ألا تدعون رجلاً يأكل ، أيا الخنازير ؟ اللعنة عليكم ، ألم تروا رجلاً من قبل ؟

فانفجر الجنود في هدير من الضحك ، بيد أنه ما ان سمع بيوتر الكلمات الأولى ، كما يحدث غالباً ، حتى تذكر

اسم الرجل ، وكيف اشترى هو وأبوه منه ثوراً عمره ثلاث سنوات في معرض يلانسكايا السنوى قبل الحرب .

وهتف وهو يشق طريقه بين الجمع :

— فومين ! ياكوف !

فوضع الرجل الكوز على الصهريج بحركة بلهاء مرتبكة ، وحدج بيوتر بعينين مرتبكتين باسمتين ، وأجاب وهو يمضغ :

— أنا لا أعرفك يا أخ .

— أنت من روبيجين ، ألبس كذلك ؟

— نعم ، وأنت من يلانسكايا ، هه ؟

— كلا ، من فيشنسكايا . ولكني أعرفك جيداً . لقد بعت لي ولأبي ثوراً في السوق قبل خمس سنوات .

وحاول فومين الذى لم تزايله بسمته الطفولية المرتبكة أن يتذكر . ولكنه قال بأسف ظاهر :

— كلا ، لقد نسيت ذلك . لا أستطيع أن أتذكرك .

— كنت في الكتيبة الثانية والخمسين ؟

— نعم .

— هل هربت ؟ كيف استطعت ، أيها الأخ ؟

وخلع فومين قبعته الفرو ، وراح يبحث في كيس مهترئ . ثم انحنى ووضع قبعته ببطء تحت ابطه ، وقص ورقة من احدى زواياها ، وبعد ذلك حدج بيوتر بنظرة صارمة تتألق بلزوجة . وقال بفظاظة :

— لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي .

وتنحنح بيوتر وقد وخزته نظرة الرجل ، وجعل يعض عذاريه الأصفرين . وتنهد الحارس ورفع بندقيته وقال :

— حسناً ، انته من كلامك والّا فستصيبني المتاعب بسببك . تعال أيها العم .

ودفع فومين الكوز في الحال في خرجه ، وودّع بيوتر بنظرة من عينين مشيحتين ومضى يخط أرجله مثل الدب برفقة حارسه صوب دائرة قومندان المحطة .

ووجد بيوتر آمر الكتيبة مع آمر السريتين منكبين فوق طاولة كانت يوما ما مقصفاً من الدرجة الأولى . فقطب العقيد عينين مغضبتين تعبتين وقال :

— لقد تركتنا ننتظر يا ميليخوف .

ثم أصغى بيوتر الى التعليمات التي تقضي بأن تكون سريّته تحت تصرف هيئة أركان الفرقة ، وأن من الضروري جداً أن يراقب القوزاق جيداً ، ويخبر آمر السرية بأي تبدّل ملحوظ يطرأ على موقفهم . فحدج بيوتر في وجه العقيد دون أن يطرف له جفن وأصغى بانتباه ، بيد أن عيني فومين المتألقتين اللزجتين ، وعبارته الهادئة «لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي» لم تبرح ذاكرته .

وغادر صالة المحطة الدافئة وعاد الى سريته . كانت عربات الفوج من الدرجة الثانية واقفة هنا ، في المحطة . حينما تقدم من شاحنته شاهد رهطاً من القوزاق متجمعين حول حداد السريّة . فنسي في الحال فومين ومحادثته ، وحث خطاه آملا أن يحدّث الحداد ليصنع نعلاً جديداً لحصانه . ومثلت أمام ناظريه المتاعب والهموم اليومية الصغيرة . ولكنها سرعان ما تلاشت . فقد قدمت امرأة من خلف الشاحنة ترتدي شالاً أبيض من وبر المعز وكان لباسها يختلف عن لباس النساء في هذه المنطقة . فلفتت هيئتها الغريبة نظر بيوتر وكأنها مألوفة عنده . والتفتت المرأة بوجهها في الحال نحوه ، وحثّت خطاها باتجاهه ، كانت ثمة حركة مترنحة خفيفة في كتفيها وجسدها الأهيف اليافع . وبالرغم من أنها لم تكن قريبة بحيث يسهل تمييز تقاطيعها ، فقد عرف بيوتر

أنها زوجته من مشيتها التي تتميز بحركة الردفين الخفيفة . فأحس بدغدغة مريحة تنفذ الى قلبه . كان فرحه عظيماً لأنه غير متوقع . ومضى ليقابلها متعمداً التمهل في خطواته كي لا يخاله الآخرون مسروراً على نحو كبير بهذه المناسبة . وعانق داريا بوقار ، وقبّلها القبلات الثلاث التقليدية ، وأراد أن يسألها عن شيء ما . ولكن اضطرابه الداخلي العميق طفح الى الخارج ، فارتعشت شفتاه ، وافتقد صوته . على أنه شرق أخيراً :

— لم أكن أتوقعك . . .

وصفقت داريا بيديها وقالت :

— يا عزيزي ! كم تبدّلت ! تكاد تبدو غريباً ! لقد جئت لزيارتك ، كما ترى . لم يكن الأهل ليسمحوا لي بالمجيء . ولكني قلت لا بد لي من الذهاب لأرى حبيبي .

نطقت بهذه الكلمات متهدجة ، والتصقت بزوجها وأخذت تتملاه بعينين نديتين .

وراحت ثلة القوزاق المتحلقة حول الشاحنات تحملق فيهما ، وتجأر وتغمز :

— ها قد تمت سعادة بيوتر !

— ذئبتي العجوز لن تأتي لزيارتي !

— لا بد أنها قد حظيت بعشرة رجال في غيابك .

— لعله يشفق بنا ، نحن المساكين ، ويعير زوجته الى السريّة ذات ليلة .

— هيا بنا يا فتيتي ، فلست أتحمل النظر اليهما !

ونسي بيوتر في تلك اللحظة أنه عقد العزم على معاقبة زوجته بلا رحمة ، فراح يداعبها أمام الناس وخبط قوسي حاجبيها من شدة فرحه باصبعه الضخم الملطخ بآثار التبغ . ونسيت داريا

هي الأخرى أنها قبل ليلتين فقط نامت في شاحنة مع جراح بيطرى من الفرسان كان في طريقه من خاركوف ليلحق بكتيبته . لقد كان لدى الجراح شاربان أسودان كثان بشكل عجيب ، ولكن ذلك كان قبل ليلتين ، أمّا الآن فقد عانقت زوجها بدموع الفرح الخالص وهي تنظر اليه بعينين صافيتين وفيتين .

١٠

عندما عاد يفغيني لستنتسكي من اجازته لم يتصل بكتيبته القديمة التي اضطر الى الهرب منها بصورة غير مشرفة قبل ثورة شباط ، ولكنه ذهب مباشرة الى قيادة الفرقة . فدبّر رئيس الأركان ، وهو جنرال شاب من نبلاء قوزاق الدون المعروفين ، عن طيب خاطر ، نقله الى كتيبة قوزاق الدون الرابعة عشرة .

وأخبر لستنتسكي بعد أن أخذه الى غرفة خاصة :

— أنا أدرى أنك ستجد صعوبة في العمل في محيطك السابق أيها الرئيس . فالقوزاق يضمرون لك العداء ، واسمك مقيت عندهم ، فمن الحكمة والحالة هذه أن تلتحق بالكتيبة الرابعة عشرة . ان الضباط هناك أناس طيبون جداً ، كما أن القوزاق هناك ممن يعتمد عليهم ، فهم أكثر استكانة . ومعظمهم من القصبات الجنوبية ، ستجد الحال أخف وطأة . أو لست ابن الجنرال لستنتسكي ؟

وتوقّف رئيس هيئة الأركان ثم استأنف كلامه بعد أن رد لستنتسكي بالايجاب .

— أمّا من جهتي ، فأستطيع أن أقول لك اننا نعتز بالضباط من أمثالك . فالنفاق منتشر حتى بين صفوف الضباط هذه الأيام . — واختتم رئيس هيئة الأركان حديثه بمرارة : — وليس

هناك أسهل من أن يغير المرء عقيدته ، أو حتى أن يخدم عقيدتين في وقت معاً .

وسرّ لستنتسكي بالنقل . وسافر في اليوم نفسه الى دفينسك حيث معسكر الكتيبة الرابعة عشرة ، وقدّم نفسه لآمر الكتيبة بيقادوروف . وسرته صحة كلمات رئيس الأركان : فأكثرية الضباط ملكيين ، أمّا القوزاق ، وجلّهم من المؤمنين القدامى ، فلم تكن لديهم نزعات ثورية . لقد أقسموا يمين الولاء للحكومة المؤقتة على مضض كبير منهم ، دون أن يفهموا أو يرغبوا في فهم الحوادث الملتهبة التي تمور من حولهم . وانتخب المداهنون والمسالمون من القوزاق الى لجان الكتائب والسرايا . فتنفس لستنتسكي الصعداء لوضعه الجديد .

ولم يصادف سوى ضابطين كانا يعملان معه سابقاً في كتيبة الحرس وقد أبقيا نفسيهما بمعزل من الحوادث ، أمّا الباقون فقد كانوا متحدين متجانسين على نحو خارق ، ويتكلمون جهاراً حول اعادة الملكية .

وكانت الكتيبة قد عسكرت في دفينسك نحو شهرين ، وغدت وحدة عسكرية متراصة الصفوف ، حسنة التدريب ، قد نالت قسطها من الراحة . وكانت السرايا في السابق قد الحقت بفرق المشاة وجابت مناطق الجبهة من ريغا حتى دفينسك ، بيد أن يداً حريصة جمعتها سوية في نيسان ، وباتت الكتيبة الآن على أهبة الاستعداد لكل طارئ . وتحت رقابة الضباط الدقيقة ، كان القوزاق يمضون أيامهم بالتدريب ، ويطعمون جيادهم جيداً ، ويحيون حياة بليدة زاهدة ، بعيدة عن كل المؤثرات الخارجية . ولم تتردد بينهم سوى بضع شائعات غامضة عن الهدف الحقيقي لكتيبتهم ، أمّا الضباط فقد كانوا يتكلمون

جهاراً عن نواياهم ، تقودهم أيد نقاة ، نحو اعادة عجلة التاريخ الى الوراء في مستقبل ليس ببعيد .

وكانت الجبهة على مقربة منهم . وعلى مبعدة قريبة شطر الغرب كانت الجيوش تلهث في حمّى ممتة ، حيث كان ثمة نقص في المؤن والعتاد . وكانت أيد لا تحصى ترتفع مطالبة بكلمة «السلام» السحرية . وكان موقف الجيش مبهماً تجاه رئيس حكومة الجمهورية المؤقتة كيرنسكي ، وقد تكبّد خسائر فادحة في هجوم حزيران نتيجة لنداءات كيرنسكي الهستيرية الملحاحة . وماجت صفوف الجيش بغضب بلغ أشده وراح يفور كالماء المتدفق في النبع . . . أما في دفينسك فقد كان القوزاق يعيشون بسلام وهدوء ، وقد أتى النسيان على المآسي التي تجرّعوها في جبهة القتال . وأمّا الضباط فقط كانوا يعقدون اجتماعاتهم باستمرار ، ويحيون حياة رافهة ، ويتحدثون عن مستقبل روسيا بحماس .

هكذا كان الحال حتى أوائل تموز . وفي اليوم الثالث منه صدر أمر بالتقدم دون التفريط بأية لحظة . فتحركت الكتيبة نحو بتروغراد . وفي اليوم السابع كانت حوافر خيل القوزاق تقعقع فوق شوارع العاصمة المرصوفة .

وأقامت الكتيبة بمنازل في حي نيفسكي ، وقد خصصت لسرية لستنتسكي عمارة تجارية شاغرة . وكان مدبرو ثورة الردة ينتظرون القوزاق بلهفة ونفاد صبر ، وكانت عناية سلطات المدينة بتنظيم المساكن المعدة لهم شاهداً بليغاً على ذلك . كانت الجدران تلمع بالدهان الحديث ، وتسطع الأرضية النظيفة ، وتنبعث رائحة خشب الصنوبر من الأسرة الجديدة ، وكان المقام في الطابق السفلي الوضيء مريحاً الى حد ما . وتفحّص لستنتسكي المساكن بعناية والتقطيبة بادية عليه من تحت نظارتيه وانتهى

الى أنه ليس بالوسع الحصول على مكان أفضل منه . واذ أحس بالارتياح لما رأى ، استدار نحو الباب المؤدى الى الباحة برفقة ممثل الادارة المحليّة القصير الحسن الهندام الذى أنيطت به مهمة استقبال القوزاق .

ولكن حادثاً مزعجاً قد حصل هنا . فبينما كان يمسك أكرة الباب ، رأى صورة ، محفورة على الجدار بآلة حادة ، لرأس كلب ومكنسة * . ولا شك أن بعض العمال الذين أصلحوا العمارة يعرفون دلالة هذه الصورة . فتساءل لستنتسكي مقطباً حاجبيه :

— ما هذا ؟

فشهق ممثل الادارة المحليّة عندما نظر الى الرسم بعينيه الحادتين الشبيهتين بعيني الفأر . وهجم الدم الى رأسه حتى لاحت ياقة قميصه الصلبة وردية .

— أستسمحك العذر أيها الرئيس ، ان يداً أثيمة . . .

— أرجو أن يكون هذا الشعار قد رسم دون علمك .

— طبعاً ، والاّ فماذا تعتقد ؟ وهل يمكن أن يكون الاّ ذلك ؟ انها دسيسة بلشفية ، دبّرها أحد السفلة . وسوف آمر في الحال بطلاء الجدار ثانية . يا للشيطان ! لشد ما يؤسفني أن يحدث هذا الشيء . صدقني ، انني أشعر بالخجل حينما أرى الناس يصلون الى هذه الدرجة من الدناءة .

وانتاب لستنتسكي شعور صادق بالأسف لهذا المواطن

---

* كانت صورة الكلب والمكنسة تلصق بسروج أوبريشنيكى قوات ايفان الرهيب المسلحة السيئة الصيت التى عرفت بوحشيتها ، كرمز يفيد أن هذه القوات ستنشب أنيابها فى أعداء القيصر وتكنسهم . **المترجمون** .

القلق خائر النفس . وقال بهدوء بعد أن خفف من نظرته الباردة القاسية :

— ان الفنان الذى رسم هذه الصورة لم يصب الهدف . ذلك أن القوزاق لا يعرفون تاريخ روسيا بشكل كاف . ولكن هذا لا يعني أننا ينبغي أن نشجّع مثل هذا الموقف منا . . .

وحاول الممثل أن يكشط الصورة بأظفره المصقول ، فانتثر الغبار الأبيض عندما اشرأب مستوياً على أصابع قدميه ليبلغ الصورة ، فتلطخ معطفه الانكليزى الفاخر . وكان لستتسكي يلمّع نظارتيه ويبتسم ، ولكن شعوراً مريراً كان يتآكله في الداخل .

«هكذا اذاً يستقبلوننا ، ذلك هو الوجه الآخر من المدالية . ولكن هل تنظر الينا روسيا بأجمعها نظرتها الى أوبريشنيكي ؟» قال ذلك في دخيلته فيما كان يعبر الباحة شطر الاسطبل ، ويصغي دونما التفات الى ثرثرة ممثل الادارة المحليّة ، الذى كان يتبعه في عجلة .

كانت أشعة الشمس تسقط مائلة على بئر الباحة العريضة العميقة . واشرأب الناس في نوافذهم يراقبون جمع القوزاق في الأسفل . وتجمّع القوزاق وهم يقفون أو يجلسون القرفصاء في فيء الجدران بعد أن قادوا جيادهم الى الاسطبل .

وسألهم لستتسكي :

— لِمَ لا تذهبون الى أماكنكم يا أولاد ؟

— لم يزل الوقت مبكّرا لذلك ، أيها الرئيس .

— سرعان ما سنشبع منها .

— سنذهب عندما نسوق الخيل الى الاسطبل .

وبعد أن فتش لستتسكي المستودع المخصص للاسطبل ،

استدار نحو ممثل الادارة المحلية وقال بلهجة صارمة محاولاً استعادة خصومته السابقة معه :

— توصّل الى اتفاق مع المسؤولين عن ممثل هذه الأمور وتدبّر الأمر . فاننا بحاجة الى باب آخر لهذا الاسطبل . ان ثلاثة أبواب لمئة وعشرين حصاناً ليست كافية . فاذا ما تلقينا انذاراً فسوف يستغرق منا نصف ساعة لاخراج الجياد . ولا أدرى كيف أن هذا لم يؤخذ بالحسبان من قبل . اضطرّ أن أخبر آمر الكتيبة بذلك .

وبعد أن تلقّى لستتسكي تأكيداً بأن بابين وليس باباً واحداً سوف يقامان حالاً ، شكر الممثل باقتضاب على ما تحمّل من مشقة ، وعيّن مراسلين ، وارتقى السلم الى الغرفات المعدة وقتياً لضباط فرقة المشاة .

ثم ارتقى السلم الخلفي ، وهو يفك أزرار بزّته ويمسح العرق من تحت مقدمة قبعته ، وقد سره ما شعر به من رطوبة الغرفة المريحة . ولم يكن في مأوى الضباط خلا الرئيس أتارشجيكوف . فسأله لستتسكي :

— أين الآخرون ؟

ورمى بنفسه على فراش عسكرى ومد ساقيه بكلال دون أن ينزع جزمته المتربة .

— لقد ذهبوا ليشاهدوا بتروغراد .

— ولِمَ لم تذهب أنت ؟

— أوه ، لست أعتقد أن مشاهدة المدينة حال الوصول أمر يستحق العناء . كنت أقرأ عما حدث هنا قبل بضعة أيام . انه لأمر مائع !

واستلقى لستتسكي صامتاً لا يرين ، وقد أحس برطوبة

العرق الباردة تدغدغ جلده اذ هي تأخذ بالبرود . لقد هدّت الرحلة من قواه ، ولم يجد في نفسه الرغبة لينهض ويستحم ، ولكنه نهض أخيراً مقاوماً كسله ، ونادى مراسله . فخلع ثيابه واستحم استحماماً كاملاً ، وهو يزنخر جذلاً ، ويمسح رقبته اللحمية التي لفحتها الشمس ، بمنشفة وبرية .

وقال ناصحاً أتارشجيكوف :

— اغتسل يا فانيا ، فالاستحمام يأتي بالمعجزات . . . حسناً ، ماذا في الصحف ؟

— أجل ، ربما اغتسلت . لا بأس به ، كما تقول ؟ ماذا في الصحف ؟ وصف لتظاهرات البلاشفة ، واجراءات الحكومة . . . اقرأها !

كان الاستحمام قد أنعش لستنتسكي ، وعندما همّ بتناول الصحيفة دعي لمقابلة آمر الكتيبة . فنهض من سريره دونما حماس وارتدى قمصلة نظيفة انّما مدعوكة ، وتمنطق بسيفة وخرج الى شارع نيفسكي .

اجتاز الشارع ، واستدار الى الوراء لينظر الى العمارة التي تقيم فيها السريّة . لم يكن منظرها من الخارج ليختلف عن الأخريات ، فهي عمارة من خمس طبقات واجهتها من حجر خشن رمادى اللون ، تقع بين صف من العمارات الأخرى المماثلة . وسار في الشارع وهو يشعل لفافة . كان ثمة زحام شديد يطفح بقبعات رجالية من القش ، قبعات أخرى من شتى الأصناف ، وقبعات نسائية بسيطة ولكنها أنيقة . وبين آونة وأخرى تظهر القبعة الديمقراطية الخضراء لواحد من العسكريين غارقة في طوفان الألوان .

وكان النسيم المنعش العليل يهب من البحر ، فتصدّه

العمارات فينتشر أنفاساً واهنة . والغيوم تمخر الى الجنوب في السماء البنفسجية الحائلة الى زرقة بلون الفولاذ ، وقد كانت كتلها الحليبية البيضاء مسننة الأطراف حادتها . وكان ثمة احتباس هواء يخيم على المدينة حاملاً تباشير الغيث . وقد خالط الهواء رائحة الاسفلت الدافئ ، ودخان البترول ، والبحر القريب ، وشميم العطور الخفيف ، وكل ما تعبق به المدن الكبرى من روائح .

ولاحظ لستنتسكي وهو يمشي وئيداً في الشارع ويدخن ، نظرات الاحترام التي يطالعه بها السابلة . وكان في بادئ الأمر قد أحسّ بالحرج بسبب قمصلته المدعوكة وقبعته المتسخة ، ولكنه أيقن أن رجلاً قادماً من الجبهة لا ينبغي أن يشعر بالخجل من مظهره ، ولا سيما اذا كان قد بارح القطار لتوّه .

وعكست مظلات الحوانيت والمقاهي على الرصيف ظلالاً زيتونية صفراء متثائبة . وكانت الريح تنفخ المظلات الحائلة اللون وتعبث بها ، فتتراقص الظلال وتزوغ من أرجل السابلة . وقد كان شارع نيفسكي مزدحماً بالناس رغم أن الوقت كان ظهراً . ولكن لستنتسكي ، وقد غدا خلال الحرب لا يألف المدن ، راح يعب بسرور وارتياح ضجيج الأصوات يخالطها الضحك وأبواق السيارات ، ونداءات باعة الصحف . واذ ألف هذا الزحام من الناس المتنعمين ، حسني الهندام وهو يشعر بأنه احد منهم ، لم يسعه الّا أن يقول في ذات نفسه : وكم أنتم هانئون ، كم أنتم سعداء مرحون الآن ! كلكم : يا معشر التجار والصيارفة ، والموظفين ، والملاكين ، وذوى الدم الأزرق ! ولكن كيف كان شعوركم قبل ثلاثة أيام فقط ، عندما تدفق الغوغاء والجند في تيّار منصهر في هذا الشارع بالذات ؟ انني

والحق يقال سعيد بكم ، وغير سعيد . ولست أعرف كيف أبتهج لرفاهكم . . .» .

وجرب أن يحلل مشاعره المختلطة ، ويوجد سبباً لذلك ، فلم يصعب عليه أن يدرك أنه كان يفكر ويشعر بمثل هذا لأن القتال وكل ما مر به قد نأى به عن مثل هذا الحشد من الرجال والنساء الناعمين براحة البال .

وتساءل مع نفسه عندما التقت عيناه بعيني شاب متورد الخدين ممتلئ الجسم : «ما بال هذا مثلاً ؟ لِمَ لا يكون في الجبهة ؟ أحسب أنه ابن لصاحب معمل أو تاجر ميسور الحال ، فتخلص من الخدمة العسكرية ، يا للسافل ! أتراه يقوم بواجبه على الجبهة الداخلية ؟ ماذا يهمه من الوطن ما دام «يعمل في المؤخرة» ويعيش من خيرات الأرض ، ويحب أن يحظى بنسائه في راحة بال . . .» .

ثم تساءل : «ولكنك في أى جانب على كل حال ؟» وأجاب باسماً : «لماذا ، أنا بالطبع مع هؤلاء . فثمة شيء مني فيهم وأنا نفسي واحد منهم . وكل ما هو حسن وسيئ في طبقتي يوجد الى هذا الحد أو ذاك فيَّ . وربما كان جسمي أكثر نحافة بقليل من ذلك الخنزير اللحيم ، وربما كنت أعي الأمور بدقة أكثر منه ، وهذا هو سر اخلاصي وذهابي الى الجبهة بدلاً من «العمل في المؤخرة» . وربما لهذا السبب رميت بنفسي على الثلج في هذا الشتاء في موغيليف وبكيت مثل الأطفال عندما رأيت الأمبراطور المخلوع يترك مقر القيادة ، عندما رأيت شفتيه الباهتتين وقد ألقى بيده العاجزة بشكل لا يوصف على طية معطفه . . . أنا صادق في عدم تقبّلي للثورة . أنا لا أستطيع تقبّلها . ان قلبي وعقلي يرفضانها . وسوف أكرّس حياتي للماضي ،

سأكرّسها دونما تلكؤ ، أو بعبارة أخرى كالجندى . . . ولكن هل يوجد الكثير ممن يفعلون الشيء ذاته ؟» .

واعتراه الشحوب عندما تذكّر بجلاء مثير ذات أصيل ساطع متأخر في شباط ، بيت الحاكم في موغيليف ، وأحد السياج الحديد المزركشة بالصقيع ، والأرض المكسوة بالثلج ، ووهج أشعة الشمس الوردية ، عندما كانت تغيب وراء غلالة من الضباب . . . وفي الجانب الآخر من الدنيبر كانت السماء لازوردية ، قرمزية ، ذهبية متألقة . . . وكان كل شيء في الأفق أثيرياً لدرجة تبعث الألم في نفوس الناظرين . وكان قد تجمّع قرب البوابة حشد صغير من مقرّ القيادة العامة والمدنيين وظهرت سيارة ليموزين وكان بالوسع أن يُرى ، خلال النافذة ، البارون فردريك والقيصر متكئ في مقعده الى الخلف . كان وجه القيصر رمادياً تخالطه ظلال بنفسجية ، وقد ارتدى القبعة السوداء المصنوعة من فراء الضأن التي يستعملها الحرس القوزاق ، وقد انداحت فوق جبهته الشاحبة .

كاد لستنتسكي أن يجتاز الحشد الذى كان يرسل نظرات الدهشة وراءه . ولكنه رأى يد القيصر تخفض من طرف قبعته السوداء عندما رد على التحية ، وسمع ثرثرة السيارة ، ولاحظ الصمت المهين الذى ودّع الحشد به أمبراطورهم الأخير . . .

وارتقى ببطء سلم البيت الذى تقطنه هيئة أركان الكتيبة . كانت وجنتاه ما تزالان ترتعشان وعيناه حمراوين منتفختين مغرورقتين بالدموع . ودخّن في صالة الطابق الثاني لفافتين على التوالى ، ثم مسح نظارتيه ، وارتقى السلم شطر الطابق الثالث حيث تقيم القيادة ، قافزاً درجتين في آن واحد .

نشر آمر اللواء خريطة بتروغراد أمامه ، وأشار الى منطقة

الدوائر الحكومية التي ينبغي لفصيل لستتسكي أن يحرسها . وشخصت العمارات واحدة واحدة ، وأخبره بأدق التفاصيل حول تنظيم الوقت وتوزيع الأدوار على الحرس . وختم كلامه قائلاً :

— في قصر الشتاء ، كيرنسكي . . .

فدمدم لستتسكي بعنف وقد بدا عليه شحوب موات :

— ولا كلمة عن كيرنسكي !

— يجب أن تسيطر على نفسك يا يفغيني لستتسكي .

— أرجوك أيها العقيد . . .

— ولكن يا عزيزي . . .

— أرجوك !

— أعصابك . . .

وسأله لستتسكي وهو يجر أنفاسه بمشقة :

— هل علي أن أرسل دوريتنا باتجاه مصانع بوتيلوف في الحال ؟

وعضّ العقيد على شفتيه ، وابتسم ، وهز كتفيه مجيباً :

— في الحال ! ويجب أن يقودهم آمر الرعيل .

فاستدار لستتسكي وخرج ، وقد سحقته ذكرى كل ما جابهه ، وحديثه مع العقيد . ورأى في الخارج عند الباب الرئيسي تماماً دورية من كتيبة قوزاق الدون الرابعة . وقد تدلت من شكيمة جواد الضابط أزهار ذابلة يابسة ، وافتر ثغر الرجل ذي الشاربين الكتانيين عما يشبه الابتسامة .

وهتف سيد كهل منفعل وهو ينزل من الرصيف ويرفع قبعته :

— مرحى لمنقذي وطننا !

فحيّاه الضابط مجاملة ، وخبّت الدورية ماضية في طريقها . ونظر لستتسكي الى وجه المدني المتحمس ، الرطب الشفتين

الذي حيّا القوزاق والى ربطته الزاهية المشدودة بعناية ، وقطّب جبينه ، ومضى مسترخي الكتفين شطر الممر المؤدي الى مسكن سريّته .

١١

لقي تعيين الجنرال كورنيلوف قائداً للقوات المسلحة لجبهة الجنوب الغربي تأييداً حاراً من لدن ضباط كتيبة القوزاق الرابعة عشرة . وطفقوا يتحدثون عنه باكبار واحترام كرجل حديدي الطبع ، وقادر بلا شك على انقاذ البلاد من الفوضى التي أغرقتها فيها الحكومة المؤقتة .

وكان لستتسكي قد رحّب بهذا التعيين بصورة خاصة . وعن طريق ضباط السريّة الذين كانوا دونه بالرتبة ، والقوزاق الذين يركن اليهم حاول أن يتبين وقع هذا التعيين في نفوس المراتب الدنيا ، ولكن ما حصل عليه من معلومات لم يدخل الى نفسه سروراً كثيراً . ذلك أن القوزاق كانوا بين صامت أو مجيب بفتور :

— لا تعني شيئاً بالنسبة لنا .

— من يدري من أي شاكلة هو ؟

— اذا حاول تحقيق السلام ، فلا شك أنه . . .

— لن نحصل على أي شيء من ترقيته هذه .

وخلال بضعة أيام دارت شائعات عنود بين الضباط الذين كانوا يخالطون أوساطاً أوسع من السكان المدنيين والعسكريين يتوقف عليها مصير الجيش وضمان استمرار الحرب . وقبل ان كيرنسكي كان يخشى كورنيلوف ، وربما حاول استبداله بجنرال أكثر طاعة وذكرت اسماء الجنرالات المشهورة في الاوساط العسكرية .

ومن ثم فان مرسوم الحكومة في ١٩ تموز القاضي بتعيين كورنيلوف قائداً أعلى ، جاء مفاجأة كبيرة . وبعد هذا مباشرةً أخبرهم الرئيس أتارشجيكوف وهو ذو معارف كثيرين في اللجنة العليا لتحالف الضباط مستشهداً بمصادر موثوق بها ، بأن كورنيلوف أصرّ في تقريره للحكومة المؤقتة على اتخاذ الاجراءات الضرورية التالية :

تأسيس محاكم عسكرية في جميع أنحاء البلاد ، تشمل صلاحياتها القوات المسلحة في المؤخرة والسكان المدنيين ، مع صلاحيات اصدار عقوبة الاعدام ، واعادة صلاحيات الضبط الى كبار الضباط ، والحد من فعاليات لجان الجنود ، وغير ذلك . وفي مساء اليوم ذاته ، ناقش لستنسكي ضباط الكتيبة الآخرين وطرح عليهم هذا السؤال بصورة مباشرة وحادة : الى أى جانب هم ؟

وقال وهو يكبح انفعاله :

— أيها السادة ! نحن نعيش كعائلة واحدة ، ويعرف بعضنا البعض جيداً ، ومع هذا فما يزال هناك عدد من المسائل الهامة لم يبت فيها بعد . والآن وقد بات الصدام المكشوف بين القيادة العليا والحكومة وشيكا ، يجب أن نحسم مسألة أى من الجانبين نقف معه ، فلتتكلم كرفاق لا نخفي شيئاً عن بعضنا .

كان أول من أجاب على دعوته الرئيس أتارشجيكوف :

— أنا مستعد لاراقة دمي ودماء الآخرين أيضاً من أجل الجنرال كورنيلوف . فهو رجل في منتهى الاخلاص ، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يجعل روسيا تقف على قدميها . أنظروا الى ما فعله حتى الآن بالجيش . فبفضله أطلقت أيدى القواد الى

حد ما ، بينما كان وضع الجيش قبل ذلك في دوّامة من لجان متواصلة ، وجمعيات ، وفرار من الخدمة . وهل هناك من داع للنقاش حول ذلك ؟ ان كل رجل محترم سيؤيد كورنيلوف !

لقد تكلم بحرارة ، وعندما فرغ من كلامه جال ببصره في جمع الضباط ، ونقر سيكارته على علبته متحدياً . كان لأتارشجيكوف ساقان نحيلتان بصورة غير اعتيادية ، وصدر ، وكتفان عريضان بما لا يتفق ونحافة ساقيه ، وعلى الجفن الأسفل لعينه اليمنى ثمة شامة بنية كبيرة . وهي تحول دون أن ينطبق الجفن الأعلى تماماً ، وكان هذا يوحي لأول وهلة بأن عينيه كانتا تنمان على الدوام عن سخرية مترقبة مستهينة بالآخرين .

— لئن كان علينا أن نختار بين البلاشفة ، وكيرنسكي ، وكورنيلوف ، فلا شك أننا مع كورنيلوف .

— من الصعب معرفة ما يريده كورنيلوف : هل هو اعادة النظام ، أم اعادة شيء آخر . . .

— ليس هذا بجواب على السؤال الهام ! مم تخشون ، اعادة الملكية ؟

— أنا لا أخشى ذلك ، بل على العكس .

— حسناً ، اذا ، عم تتجادلون ؟

— أيها السادة !

كان المتكلم الأخير دولغوف الذى رفع حديثاً من رئيس عرفاء الى نائب ضابط لخدماته الممتازة . ومضى يتكلم بلهجة قوية راسخة :

— فيم الخصام حولها ؟ فلنقلها صراحة اننا نحن القوزاق يجب أن نتشبث بالجنرال كورنيلوف كما يتشبث الطفل بأذيال أمه . لنقل هذا بكل صراحة وبلا مراوغة . أمّـــا اذا

أعرضنا عنه ، فسوف ينتهي أمرنا . ان روسيا ستجرفنا كما يجرف الروث . الموقف واضح : حيثما يذهب ، نذهب نحن .

فقال أتارشجيكوف ، وهو يربّت على ظهر دولغوف بلطف :

— ذلكم هو بالضبط ! — وسمّر عينيه الضاحكتين على لستنتسكي الذى كان يبتسم ويسوّى طيات بنطاله بقلق . ورفع صوته قائلاً :

— والآن أيها السادة ! هل نحن مع كورنيلوف ، أم لا ؟

— ماذا ، بالطبع نحن معه .

— لقد حلّ دولغوف العقدة العويصة بضربة واحدة .

— كل الضباط معه !

— نحن ، عزيزنا لافر غيورغيفيتش ، القوزاقي والبطل ، المجد له !

وشرب الضباط شايهم . وهم يضحكون ويقرعون الأقداح . وزال الجو المتوتّر الذى خيّم عليهم ، ودار الحديث عن حوادث الأيام القليلة الماضية .

قال دولغوف متحيراً :

— كلنا وراء القائد العام ، ولكن القوزاق مبلبلو الأفكار بعض الشيء .

فتساءل لستنتسكي :

— من أية ناحية هم «مبلبلو الأفكار» ؟

— ماذا ، انهم شاردو الفكر ، وهذا هو كل ما في الأمر . فالخنازير يريدون أن يعودوا الى بيوتهم لزوجاتهم . لقد سئموا حياتهم الشاقة .

وصرّح الملازم تشيرنوقوتوف ضارباً الطاولة بقبضته :

— ان من صلب عملنا أن نجرّ القوزاق وراءنا . وهذا هو واجبنا نحن الضباط ولذلك بالذات نرتدى كتافياتنا .

— يجب أن يوضح للقوزاق بأناة أى جانب ينبغي أن يختاروا .

ونقر لستنتسكي القدح بملعقته ، وقال على مهل حين نال انتباههم .

— أرجو أن تتذكروا أيها السادة أن عملكم في هذه اللحظة ينحصر في ايضاح الأمور الراهنة على حقيقتها للقوزاق ، كما يقول أتارشجيكوف . يجب أن نبعد القوزاق عن تأثير اللجان . وهذا يتطلب تبدّلاً في طباعنا ، تبدّلاً لا يقل عما ترتب على معظمنا أن يعانوه منذ انتفاضة شباط ان لم يكن أكبر . ففي السابق ، في ١٩١٦ مثلاً ، كنت أستطيع أن أجلد قوزاقياً وأجازف بتلقي رصاصة منه في ظهرى في المعركة التالية . ولكن وجب علينا أن نعاملهم غير هذه المعاملة منذ ثورة شباط ، لأنني اذا ضربت أحد الحمقى قتلني البقية في الحال هنا في الخنادق ، دون أن ينتظروا فرصة مناسبة . أما الآن فقد تغير الوضع من جديد . يجب علينا الآن ، — وأكد لستنتسكي على الكلمة ، — أن نتآخى مع القوزاق . لأن كل شيء يتوقف على ذلك . — وأردف مؤكداً : هل تعرفون ماذا يحدث الآن في الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

— شيء مريع !

— تماماً ، وذلك لأن ضباطهم استمروا على وضع الحواجز القديمة بينهم وبين القوزاق ، فوقع القوزاق نتيجة لذلك تحت تأثير البلاشفة ، كلهم تقريباً ، وأصبح ٩٠ بالمئة منهم بلاشفة . وليس من شك بعد هذا أننا لن نقوى على تجنّب العواقب الوخيمة

المقبلة . وقد كان الثالث والخامس من تموز* انذاراً قاسياً لكل من لا يعي . . . امّا أن نحارب مع كورنيلوف ضد قوات الديموقراطية الثورية ، أو أن البلاشفة سيقومون بثورة أخرى بعد ان اكتنزوا قواهم ووسّعوا نفوذهم . انهم يأخذون نفساً الآن ، ويعززون قواهم ، أما نحن فماضون في وضعنا المتراخي . كيف يمكن أن ندع الأمور تأخذ هذا المجرى ؟ اننا بحاجة الى قوزاق مخلصين في الانتفاضة المقبلة .

— اننا بدون القوزاق لا أكثر من صفر على اليسار — قال دولغوف متنهداً .

— هذا صحيح يا لستنتسكي .

— صحيح جداً !

— ان روسيا على حافة القبر . . .

— هل تعتقدون أننا لا ندرك ذلك ؟ نعم ، ندركه ، ولكننا في زمن نعجز فيه عن فعل أى شيء .

ان المرسوم رقم ١ ** «وأكوبنايا برافدا» *** يبذران بذورهما .

وصاح أتارشجيكوف :

— ولهذا فنحن نمتّع أبصارنا بالنظر الى البراعم بدلاً من

---

* تظاهرات جماهيرية مسلّحة قام بها العمال والجنود والبحارة فى بتروغراد ضد الحكومة المؤقتة . **المترجمون** .

** المرسوم رقم ١ (فى آذار ١٩١٧) الصادر تحت ضغط جماهير الشعب الثوريين عن اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد أوجد تنظيمات انتخابية بين الجيش ، أخذت على عاتقها مراقبة أعمال ضباط روسيا القيصرية القدامى .

*** «أوكوبنايا برافدا» (حقيقة الخنادق) جريدة يومية بلشفية أسست عام ١٩١٧ .

أن نسحقها تحت أقدامنا أو نضرم النار فيها !

— كلا ، لا نمتّع بها أبصارنا ، انّما نحن عاجزون ليس الّا !

— كذب ، أيها النائب الضابط ! اننا مقصّرون !

— ليس كذلك !

— برهن اذا !

— هدوءاً ، أيها السادة !

— لقد دمرت الجريدة «برافدا» . ولكن كيرنسكي يستيقظ بعد فوات الأوان . . .

— ما هذا . . . أنحن في السوق ؟ لن نتوصل الى نتيجة بهذا الشكل !

وشيئاً فشيئاً خفت الصخب . ورجاهم أحد آمرى السرايا الذى كان يصغي الى لستنتسكي بانتباه كبير ، وقال بهدوء :

— اقترح أن نفسح المجال للرئيس لستنتسكي لينتهي من حديثه .

— استمر .

وواصل لستنتسكي كلامه وهو يدلك ركبتيه النحيلتين بيديه :

— أقول عندما يحين الكفاح . . . أعني الحرب الأهلية — وقد بدأت الآن أدرك أنها آتية لا ريب — سنحتاج قوزاقاً يركن اليهم . لذا يجب أن نكافح من أجل أن نصرفهم عن اللجان التي تجنح بهم نحو البلاشفة . وتلك ضرورة حيوية ! وينبغي أن تتذكروا أنه اذا حدثت اضطرابات جديدة سيطلق قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة النار على ضباطهم . . .

— هذا صحيح ، فلن يحجموا عن ذلك .

— . . . ومن تجربتهم ، المرّة كل المرارة ، يجب أن

نستفيد . ينبغي شنق نصف قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة ، فانهم لم يعودوا قوزاقاً والحق يقال ، ربما ترتب علينا أن نتخلص منهم جميعاً . . . يجب أن ينظف الحقل من الأعشاب السامة ! ويجب أن نجنّب قوزاقنا من الأخطاء التي قد يدفعون ثمنها في المستقبل .

وبعد لستنتسكي انبرى أحد آمرى السرايا ، وهو ضابط كهل خدم في الكتيبة تسعة أعوام وقد جرح أربع مرات في الحرب ، وراح يتكلم عن صعوبة الخدمة في الكتائب القوزاقية قبل الحرب . فقد استبقى الضباط القوزاق في المؤخرة ، محرومين من مسرات الحياة ، وكانت ترقيتهم تجرى بطيئة ، وكانت رتبة العقيد بالنسبة لمعظم الضباط النظاميين أعلى ما يستطيعون الطموح اليه ، وهذا كان في رأيه سبب الفتور في موقف القواد القوزاق أيام الاطاحة بالقيصر . ومع هذا فمن الضرورى بمكان تأييد كورنيلوف بأى ثمن ، وتعزيز الصلة الوثيقة به عن طريق مجلس تحالف الجيوش القوزاقية والهيئة العليا لتحالف الضباط . وأنهى كلامه قائلاً :

— فليكن كورنيلوف دكتاتوراً ! ان في ذلك انقاذاً للقوزاق . وربما سيكون وضعنا معه أفضل من عهد القيصر .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير . وخيم الليل على المدينة بغلالة بيضاء من السحاب . وخلف النافذة كان الطرف المستدق الداكن لبرج مبنى وزارة البحرية تشع وسط فيض أصفر من الضياء .

ظل الضباط يتحدثون حتى مطلع الفجر . وتقرر أن تلقى محاضرات على القوزاق ثلاث مرات في الأسبوع تتناول مواضيع سياسية ، وأن يشغل ضباط الرعائل الجنود يومياً بالألعاب الرياضية والقراءة ، بغية ملء أوقات الفراغ وابعاد القوزاق عن جو السياسة الذى يشيع روح التذمر . وأنشدوا قبل أن ينفرقوا : «الدون يقظ

وهائج ، الدون المسيحي الهادئ» . وفرغوا من سماورهم العاشر فيما كانت الأنخاب تقترح بدعابة وسط قرع الكؤوس . وقبل النهاية قال أتارشجيكوف بعد تفاهم مهموس مع دولغوف :

— والآن ، كحلاوة ، دعونا نستضيفكم حسب التقاليد بالأغنية القوزاقية القديمة . هدوءاً ، رجاء ! وقد يكون من الأفضل أن نفتح النافذة ، فالجو ثقيل هنا .

واجتمع صوتان ، صوت دولغوف ذو النبرة الغليظة الخشنة وصوت أتارشجيكوف الصادح على غير عادته ، وكانا في البداية مترددين ، غير أنهما صدحا أخيراً بأغنية فائقة الجمال :

. . . ولكنه شموخ ، دوننا الهادئ ،
أبونا الدون ،
لم يطأطىء مرة لكافر ، ولم ينتشر موسكو كيف تكون الحياة .
أمّا الأتراك ، فقد استقبلهم بحد السيوف
على مر العصور ،
وعاما تلو عام كانت أمّنا ، سهوب الدون تحارب
العدى بسيول متلاطمة
وتذود عن العذراء البتول وتصون حمى الديار
ذلك من أجل حرية الدون الشموخ . . .

كان أتارشجيكوف جالساً وقد عقد اصابعه على ركبتيه ، يغني دون توقّف وكان وجهه صارماً على غير عادته . وقد لاحظ لستنتسكي دمعة لامعة تسيل على خده عند نهاية الأغنية .

وبعد أن خرج ضباط السرايا الآمرون ، جلس أتارشجيكوف على سرير لستنتسكي ، وهمس وهو يعبث بحمالة بنطلونه حائلة الزرقة على صدره العريض :

— هل تدرى ، يا يفغيني . . . أنا موله بالدون الى حد

الجنون ، وبنمط الحياة القوزاقية العريقة ، العريقة جداً . أنا أحب قومي القوزاق ، والنساء القوزاقيات . أحبهم جميعاً ! أحس بحاجة الى البكاء عندما أشم شيح السهوب . . . وعندما تتفتح أزهار عبّاد الشمس ، وعندما يعبق الهواء بشذى الكروم المغسولة بالمطر ، أحب ذلك بكل جوارحي . . . أنت تفهم . . . ولكنني أتساءل : ألسنا نضلل هؤلاء القوزاق بكل هذا ؟ أهذا هو السبيل الذى نريد أن يسلكوه ؟

فسأله لستنتسكي بحذر :

— ماذا تقصد ؟

ولاحت رقبة أتارشجيكوف التي لفحتها الشمس ، ناعمة فتية وبريئة ازاء ياقته البيضاء . وتدلّى جفنه الأزرق بشكل غريب على شامته السمراء وتوهجت عينه نصف المغمضة بلزوجة في الظلام .

— اني أتساءل فيما اذا كان هذا خيراً للقوزاق ؟

— واذا لم يكن كذلك ، فما هو الأفضل ؟

— لست أدرى . . . ولكنهم لماذا ينصرفون عنا من تلقاء أنفسهم ؟ يبدو أن الثورة قد قسمتنا الى خراف وماعز ، وكأن مصالحنا قد تميزت .

وشرع لستنتسكي يقول بعناية :

— ألا ترى ؟ أن ثمة فرقاً في ادراك الحوادث . ان لدينا ثقافة عالية ، ونستطيع أن نقدّر الموقف بدقة ، ولكن كل شيء بالنسبة لهم بدائي وبسيط . ويحشو البلاشفة رؤوسهم باستمرار بأن الحرب يجب أن تنتهي ، أو تتحول بالأحرى الى حرب أهلية . ويحرّضون القوزاق علينا ، ولما كان القوزاق تعيين ، ولما كانت فيهم نزعة حيوانية ، وليس لديهم ما لدينا منه ، من ذلك الادراك

العميق لواجبهم ومسؤوليتهم نحو أرض أجدادهم ، فمن البديهي أن يصبحوا تربة خصبة لهذه المعتقدات . وعلى كل حال ، ماذا تعني حقاً أرض الأجداد بالنسبة للقوزاق ؟ انها في أحسن الأحوال فكرة مجردة . وهم يقولون لأنفسهم ان «منطقة الدون بعيدة عن الجبهة ، ولن يبلغها الألمان» . تلك هى المسألة بجوهرها . يجب أن نشرح لهم العواقب التي تنجم عن تحويل الحرب الى حرب أهلية .

وشعر يفغيني أثناء كلامه ، بأن كلماته لم تصب مرماها ، وأن أتارشجيكوف بدأ ينكمش على نفسه كالمحار في صدفته . وهذا ما حدث . فعندما انتهى ، دمدم الرجل بشيء غير مسموع ، ثم ظل جالساً وقتاً طويلاً لا يحير كلاماً ، وعبثاً حاول لستنتسكي أن يتبين مجرى الأفكار التي كانت تراوده . وقال في نفسه نادماً : «كان ينبغي أن أدعه يفصح عن خبيئته حتى النهاية . . .» .

وتمنى له أتارشجيكوف ليلة سعيدة ، ومضى الى سريره دونما كلمة أخرى . لقد نشد باخلاص أن يتبادل الآراء ، ورفع طرفاً من ستار الأسرار ، ذلك الستار الأسود الذى يحجب به الانسان نفسه عن الآخرين ثم أسدله ثانية .

واستلقى لستنتسكي وأخذ يدخّن بعض الوقت ، مضطرباً حانقاً لأنه لم يستطع الوصول الى السر الذى كان يقلق صديقه . وفيما كان يحدق بشدة في الظلمة المخملية الرمادية ، تذكر أكسينيا فجأة وأيام اجازته التى ملأتها سعادة . وأحس بالنعاس وقد أسكره تحوّل مجرى أفكاره ونتف الذكريات العارضة لعلاقاته مع النساء اللواتي عاشرهن في حياته في شتى المناسبات .

١٢

كان في سريّة لستنتسكي قوزاقي ، يدعى ايفان لاغوتين ، وهو أول من انتخب للجنة العسكرية الثورية للكتيبة . وحتى وصول الكتيبة الى بتروغراد لم يظهر عليه ما يميزه بأى شكل من الأشكال ، الاّ أنه في نهاية تموز أخبر ضابط الرعيل ، يفغيني أن لاغوتين كان قد اعتاد حضور الشعبة العسكرية لمندوبي شغيلة وجنود سوفييت بتروغراد ، وكان كثيراً ما يرى يتكلم مع القوزاق الآخرين في الرعيل وقد ترك تأثيراً سيئاً فيهم . فقد وقع حادثان من رفض القيام بمهة الحراسة والدورية ، وعزاهما ضابط الرعيل لتأثير لاغوتين .

فرأى لستنتسكي أن عليه أن يعرف المزيد عن الرجل ، ويقف على حقيقة تفكيره . وقد يكون من العبث والتسرع استجواب القوزاقي مباشرة ، لذلك آثر التريث . وسرعان ما سنحت المناسبة لذلك . فبعد بضع ليال أنطيت برعيل لاغوتين مهمة الدورية في الشوارع المحيطة بمصنع بوتيلوف ، وأخبر لستنتسكي ضابط الرعيل بأنه سيتعهد مسؤوليتها هذه المرة . وأمر مراسله باعداد حصانه الأدهم .

كان له حصانان ، «تحوّطا» ، كما كان يقول . وارتدى بدلته بمساعدة جندي ، وذهب الى الباحة .

كان الرعيل قد امتطى الخيل ولبث ينتظر . فقاده الى الخارج ، ومضوا في سبيلهم وقد اجتازوا عدة شوارع خلل العتمة الضبابية . وتلكأ لستنتسكي عن عمد الى الخلف ، ونادى لاغوتين . فاستدار الرجل بفرسه ومضى نحو الرئيس وهو يحدجه بنظرة مستفهمة .

سأله لستنتسكي :

— حسناً ، ما هي آخر أنباء اللجنة ؟

— لا شيء يذكر الآن .

— من أين أنت يا لاغوتين ؟

— من محافظة بوكانوفسكي .

— والقرية ؟

— متياكين .

وصار جواداهما يسيران سوية . وأخذ لستنتسكي على ضوء مصابيح الشارع يتفحص وجه القوزاقي الملتحي . وبانت خصلة ناعمة من شعره من تحت القبعة ، ونمت لحية على هيئة مقشة على ذقنه المكتنز ، وقبعت عيناه الذكيتان بله الماكرتين بعيداً تحت حاجبيه المقوسين .

«اعتيادى جداً في مظهره الخارجي ، بسيط ، ولكن أى شيء هو قلبه ؟ لعله يمقتني كما يمقت كل ما يقترن بالنظام المباد . . .» قال لستنتسكي ذلك في سريرته . ولسبب ما استبدت به الرغبة فجأة لمعرفة ماضي لاغوتين .

— هل أنت متزوج ؟

— نعم ، لي زوجة وطفلان .

— ومزرعة ؟

فأجاب لاغوتين بلهجة هازئة تنم عن رثاء :

— مزرعة ؟ نحن نعيش من اليد الى الفم ، وحياتنا كدح وكفاح .

وتوقف لحظة ، ثم أضاف بلهجة صارمة :

— أرضنا رملية .

كان لستنتسكي قد مر راكباً ذات مرة خلال بوكانوفسكي ، فعادت ذاكرته بجلاء الى ذلك المكان المنعزل البعيد تحده من الجنوب مروج مستوية لا رجاء فيها ، ويطوّقه نهر الخوبر المعرج المتقلّب . وتذكر السديم الأخضر للأشجار المثمرة التي كان يشاهدها

من رابية تبعد عشرين فرسخاً ، وقد تجللها برج الكنيسة الأبيض المهترىء .

وتحسر لاغوتين وقال :

— أجل ، ان تربتنا رملية جداً .

— أحسب أنك تود العودة الى أهلك .

— بالطبع يا سيدى . لا شك أنني أحب العودة حالما أستطيع . لقد تحمّلنا الكثير خلال هذه الحرب .

— أخشى أنك لن تعود في القريب يا ولدى .

— أعتقد أننا سنعود .

— ولكن الحرب لما تنته .

فأجاب القوزاقي باصرار :

— سوف تنتهي قريباً . وسوف نعود الى أهلينا وشيكاً .

— سنحارب بعضنا أولاً . ألا ترى ذلك ؟

وأجاب لاغوتين بعد لحظة دون أن يرفع عينه عن قربوس سرجه :

— من ترانا سنحارب اذا ؟

— هناك الكثيرون ممن نحاربهم . . . ربما البلاشفة .

وصمت لاغوتين ثانية وكأنه أغفى على وقع حوافر الخيل الرتيبة والراقصة . ثم أجاب متمهلاً :

— ليس لدينا خصام معهم .

— لكن ماذا عن الأرض ؟

— هناك أرض كافية للجميع .

— هل تعرف ماذا يبغي البلاشفة ؟

— لقد سمعت بعض الشيء . . .

— حسناً اذاً ، ماذا علينا أن نفعل اذا ما هاجمنا البلاشفة

ليستولوا على أرضنا ويستعبدوا القوزاق ؟ لقد كنت تقاتل الألمان دفاعاً عن روسيا ، أليس كذلك ؟

— الألمان يختلفون .

— والبلاشفة ؟

فقال لاغوتين :

— حسناً ، يا سيدى ، — ولا شك أنه قرر شيئاً ، فرفع عينيه وحاول أن يظفر بعيني لستنتسكي ، ثم أضاف : — لن يأخذ البلاشفة ما أملك من قطعة أرض . فليس لديَّ سوى حصّة واحدة . وليست بهم حاجة اليها . . . ولكن . . . أرجو أن لا تزعل ، أليس كذلك . . . ؟ فوالدك مثلاً ، يملك عشرة آلاف دسياتين . . .

— ليس عشرة بل أربعة . . .

— حسناً ، فلتكن أربعة . انها ليست قطعة صغيرة ، أليس كذلك ؟ وما هو وجه الحق في ذلك ؟ وهناك عدد مثل أبيك في جميع أنحاء روسيا . والآن حكّم نفسك يا سيدى ، ماذا على كل فم أن ينال ؟ أنت تريد أن تأكل وكل انسان آخر أيضاً . لعلك تعرف قصة الغجرى الذى ظن أنه اذا لم يطعم مهرته فسوف تتعود على الاستغناء عن الطعام . حسناً ، لقد اعتادت على ذلك تسعة أيام ، ولكنها في اليوم العاشر ماتت . . . وفي عهد القيصر كانت الأمور لا تجرى على ما يرام ، وكان الفقراء في وضع لا يحسدون عليه . لقد أعطوا أباك أربعة آلاف نصيبه من الكعكة ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل طعام رجلين منا نحن بسطاء الناس . مسكين هو الشعب . ان البلاشفة هم في الطريق السوى ، وأنت تتكلم عن القتال . . . .

كان لستنتسكي يصغي اليه بانفعال يحاول أن يخفيه . وعند النهاية أدرك أنه عاجز عن رد حجته بحجة ذات وزن . وأدرك أن

منطق القوزاقي البسيط ، البسيط للغاية ، قد شد على خناقه . ولكن لستنتسكي ارتبك واغتاظ ليقينه الراسخ العميق بخطئه :

ـــ ما أنت على أى حال ، بلشفي ؟

فأجاب لاغوتين هازئاً :

ـــ التسمية لا تقدم ولا تؤخر . . . فليست المسألة مسألة الاسم ، بل الحق . ان ما يريد الناس هو الحقيقة ، ولكنها كانت دائماً تدفن ويهال عليها التراب . ثم يقولون انها جثة هامدة منذ أمد طويل .

ـــ اذا ، هكذا حشى البلاشفة دماغك . ولم تضيّع وقتك في صحبتهم سدى .

ـــ آه ، أيها الرئيس ، ان الحياة نفسها هي التي علمتنا نحن الصابرين ، أمّا البلاشفة فهم يشعلون الفتيلة ليس الاّ .

فقاطعه لستنتسكي :

ـــ أترك هذه الحكايات . لا مكان هنا للمزاح !

ثم أردف بغضب شديد :

ـــ أجبني ! كنت تتكلم قبل لحظة عن أرض والدى ، وعن أراضي الملاكين بصورة عامة ، ولكن تلك ملكية خاصة . اذا كان لديك قميصان ولم يكن لدىّ حتى واحد ، فيتعين حسب منطقك أن أنتزع واحداً منك ؟

ولم يستطع بفغيني رؤية وجه القوزاقي ، ولكنه قدّر من نبرة صوته أنه كان يبتسم .

ـــ سأتنازل عن قميصي الزائد من تلقاء نفسي . وفي الجبهة لم أعطِ قميصاً زائداً فحسب ، بل وآخر قميص كان علي ، ثم لبست معطفي على جلدى العارى . ولكني لم أسمع برجل تنازل عن أرضه .

ورفع لستنتسكي صوته :

ـــ ماذا دهاك ، هل بك جوع للأرض ؟ أليس لديك ما يكفيك الآن ؟

وراح لاغوتين يلهث غاضباً ، وقال وهو يكاد يصيح :

ـــ أتظن أنني أفكر في نفسي فقط ؟ لقد كنا في بولندا . . . كيف يعيش الناس هناك ؟ أشاهدت ذلك أم لا ؟ وكيف يعيش الفلاحون حولنا في الدون ؟ لقد شاهدت ذلك ؟ وحسب ذلك أن يجعل دم المرء يفور ! هل تظن أنني لا أرثي لحالهم ؟ ربما تزفت قلبي من أجل البولنديين ، مفكراً في مزّق الأرض المرة التي يضطرون الى أن يعتاشوا عليها .

وكان يغيظني على وشك أن يأتي بجواب لاذع ، بيد أنه فوجئ بصرخة «امسكوا به !» جاءت من جهة العمارات الرمادية المضاءة في مصنع بوتيلوف . وتبعتها قعقعة حوافر وصوت اطلاقة . ففرقع لستنتسكي بسوطه وعدا بفرسه .

لقد عدا هو ولاغوتين جنباً الى جنب فألفيا الرعيل قد توقف وتجمع في مفترق الطرق . كان هناك عدة قوزاق يقعقعون بسيوفهم مترجلين عن خيولهم ، وفي وسط الحلقة رجل يقاوم .

وهجم لستنتسكي ، دافعاً حصانه وسط الحشد ، وصاح :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ كان هذا النغل يرمي الحجارة . . .

ـــ ضرب واحداً منا وهرب .

ـــ أضربه يا أرجانوف !

ـــ يا وغد ! . . . تريد أن تقتل واحداً منّا ؟ . .

كان عريف الرعيل أرجانوف مائلاً من سرجه وممسكاً برجل فمي، يرتدى قميصاً روسياً أسود ، من ياقته ، بينما كان ثلاثة قوزاق

مترجلين قد أوثقوا يديه خلف ظهره .

فصاح لستتسكي بالرجل وهو مستشيط الغضب :

— من أنت ؟

ورفع الأسير رأسه بوجهه الشاحب ، ولكن شفتيه بقيتا مزمومتين على بعضهما بشدة . وأعاد يفغيني سؤاله :

— من أنت ؟ كنت ترمي الحجر ، أنت يا حثالة الناس ! لن تتكلم ، ها ؟ أرجانوف . . .

وقفز أرجانوف من سرجه ، وأطلق ياقة الأسير من يده ، ولطمه على وجهه . ثم أوعز لستتسكي وهو يستدير بفرسه :

— أضربوه !

فألقى ثلاثة أو أربعة من القوزاق المترجلين بالرجل الموثوق على الأرض ولوّحوا بسياطهم . فقذف لاغوتين بنفسه من السرج وهرول نحو لستتسكي . وطوق ركبة لستتسكي بأصابعه المرتجفة وصاح :

— أيها الرئيس . . . ماذا أنت فاعل . . . ؟ أيها الرئيس ! لا يمكن أن تفعل ذلك ! انه رجل . . . ماذا أنت فاعل ؟

ولكن يفغيني حث جواده دون أن يجيب . وهرع لاغوتين الى القوزاق ، وطوّق أرجانوف من خصره وحاول أن يجره بعيداً . غير أن العريف قاوم مدمدماً :

— دعك عن هذا ! دعك ! هل عليه أن يرمي الحجارة ونقف مكتوفي الأيدى ؟ اتركني ! خير لك أن تتركني !

وانحنى أحد القوزاق بعد أن سحب البندقية من كتفه ، وضرب جسد الرجل الناعم بأخمصها . وانسلت صرخة وحشية خفيضة عبر الطريق . وأعقبها صمت لبضع ثوان ، ثم ارتفع الصوت ثانية ، ولكنه فتي ومختنق يختلج بالألم هذه المرة ويدمدم بعد كل ضربة بعبارات مقتضبة يزخر بها :

— خنازير ! أعداء . . . الثورة ! أضربوا ! أو . . . وه !

وتوالت الضربات بقسوة .

فهرول لاغوتين الى لستتسكي ، وتشبث بركبته وراح يخمش السرج بأظافره ، ويقول متهدجاً :

— دعه يذهب !

— ابتعد !

— أيها الرئيس . . . لستتسكي ! ألا تسمعني . . . ؟ سوف تسأل عن ذلك !

— أبصق عليك ! — فحّ لستتسكي همسا واتجه حصانه الى لاغوتين .

والتفت لاغوتين وهرول نحو القوزاق الواقفين بعيداً عن الجمع المحيط بالرجل ، وصرخ :

— اخواني ! أنا عضو في اللجنة الثورية . . . آمركم بانقاذ ذلك الرجل من الموت . . . ! سوف تكونون مسؤولين عن ذلك ! لقد ولّى الماضي الآن !

وأطار الحقد الأعمى صواب لستتسكي . ففضرب حصانه بسوطه بين أذنيه وعدا نحو لاغوتين . وسدد مسدسه الأسود المدهون جيداً بوجه القوزاقي ، وزأر :

— صه ، أيها الخائن ! بلشفي ! سأطلق عليك النار !

ولكنه سيطر على نفسه بصعوبة ، ورفع اصبعه عن الزناد ، واستدار بحصانه على ساقيه الخلفيتين ومضى .

وبعد بضع دقائق مضى في أثره القوزاق الثلاثة .

وسحب أرجانوف ولابين الأسير بين فرسيهما . وكان ثوب الرجل المبلل بالدم ملتصقاً بجسمه . وراح يترنح واهناً وقدماه تجرجران فوق البلاط ، فيما كان القوزاقيان يسندانه تحت ابطيهما .

وتدلّى رأسه المدمى مسترخياً بين كتفيه المرتفعين ، وقد كاد أن يهرس وجهه . وعدا القوزاقي الثالث مسافة ما . ورأى في زاوية شارع سائق عربة ، فخب نحوه واقفاً في ركابه . وضرب جزمته بسوطه معبراً للرجل عن أمر مقتضب ، وباستجابة ذليلة هرع سائق العربة نحو القوزاقيين ووقف في منتصف الشارع .

وفي الصباح التالي استيقظ لستنتسكي وهو يشعر بأنه اقترف بالأمس خطأ عظيماً يصعب اصلاحه . وعض شفتيه وقطّب جبينه عندما تذكّر مشهد الليلة الماضية ، وكل ما جرى بينه وبين لاغوتين . وعندما كان يرتدي ملابسه رأى أنه من الأفضل أن يترك لاغوتين لحاله في الوقت الحاضر ، ليتجنب تدهور علاقته مع لجنة الكتيبة . وان من سداد الرأي أن ينتظر حتى ينسى الحادثة قوزاق الرعيل الآخرون ، ليزيحه بعد ذلك بهدوء .

«اذا هكذا يكون التآخي مع القوزاق» ، — قال ذلك في سريرته بسخرية مريرة ولم يستطع أن ينفض عنه أثر الحادث المزعج أياماً عديدة .

وذات يوم مشمس جميل من أيام آب الباكرة ذهب لستنتسكي وأتارشجيكوف الى المدينة . ومنذ حديثهما الذي أعقب اجتماع الضباط لم يحدث بينهما ما يزيل الشك الذي شاب علاقتهما . فقد كتم أتارشجيكوف آراءه ، وكلما حاول لستنتسكي أن يستدرجه الى الحديث ، تسربل بالستار المحكم الذي يرتديه معظم الناس عادة في الحفاظ على ملامحهم الأصيلة من عيون الآخرين .

وكان يلوح للستنتسكي دائماً أن الناس في معاملاتهم مع زملائهم يخفون تحت مظهرهم الخارجي الملامح الأخرى التي لا يكشفون عنها مطلقاً في بعض الأحيان . وكان يعتقد جازماً بأنه متى ما أزيح هذا القناع الخارجي ، ظهرت للعيان حقيقة الانسان

العارية الحقة غير المزيفة . وكانت تحدوه على الدوام رغبة جامحة لمعرفة ماذا يكمن وراء هذه الواجهات ، الخشنة ، العنود ، الجريئة ، المتكبرة ، البشوش الفرحة ، التي يحتمي وراءها الناس . وهو الآن عندما يفكر في أتارشجيكوف ، لا يسعه الّا أن يستنتج أن أتارشجيكوف في كفاحه لايجاد مخرج للخصومات التي قسمت مختلف قطاعات البلاد ، كان يسعى لربط القوزاق بمطامح البلاشفة . وهذا الافتراض أدّى به الى أن يوقف محاولاته في أن يوطد صداقته مع أتارشجيكوف .

كانا يتجولان في شارع نيفسكي ، ويتبادلان ملاحظات عرضية . واقترح لستنتسكي مشيراً بعينه الى أحد المطاعم :

— فلنذهب ونتناول بعض الطعام .

ووافق الآخر قائلاً :

— لا بأس !

ودخلا المطعم وظلا واقفين ينظران حواليهما حائرين . كانت جميع الموائد محجوزة . فهمّ أتارشجيكوف بالخروج بيد أن سيداً أنيقاً بدينا كان جالساً مع سيدتين تتفرسان في الضابطين بامعان ، نهض من مائدته قرب النافذة وتقدم نحوهما وهو يرفع قبعته بلطف .

— أرجو المعذرة . هل تتفضلان بأخذ مائدتنا ؟ اننا على أهبة الخروج .

وابتسم ، فكشف عن نقص في أسنانه ، وأشار اليهما بالمرور ، وقال :

— أنا مسرور لتقديم خدمة للضباط . أنتم فخر الوطن .

ونهضت السيدتان اللتان كانتا جالستين أمام المائدة . احداهما ، طويلة وسمراء ، كانت تصفف شعرها ، والأخرى ، أصغر بقليل ، كانت تعبث بمظلتها .

وشكر الضابطان السيد على صنيعه وتقدّما نحو النافذة . وخلال الستار المسدل كانت أشعة الشمس الحارة تنغرز في غطاء المائدة ، وكأنها إبر صفراء . وطغت رائحة الطبيخ على شذى الورد الرقيق الموضوع على المائدة . وطلب لستنتسكي شربة الشونـــدر المثلّجة ، وجلس متفكراً يعبث بغصن من الرشاد الأصفر الفاتح تناوله من المزهرية . ومسح أتارشجيكوف العرق من جبهته بمنديله . وكانت عيناه التعبتان الواهنتان تطرفان باستمرار ، وتنظران الى أشعة الشمس التي تتراقص على ساق المائدة المجاورة . ولم يكادا يفرغان من وجبتهما حتى دخل المطعم ضابطان يتكلمان بصوت مرتفع . وبينما كان الأول يبحث عن مائدة خالية أدار وجهه الذى لفحته الشمس باتجاه لستنتسكي ، فالتمعت عيناه السوداوان من الفرح ، وهتف :

— ماذا ، انه لستنتسكي !

وتقدم نحوه بخطوات واثقة غير مترددة ، وقد التمعت أسنانه البيضاء بياض الثلج تحت شاربيه السوداوين .

وفي الحال عرف لستنتسكي الرئيس كالميكوف ورفيقه تشوبوف . فتصافحا بحرارة . وقال يفغيني بعد أن قدمهما لأتارشجيكوف :

— أية صدفة جاءت بكما الى هنا ؟

فأجاب كالميكوف وهو يفتل شاربيه متطلّعاً الى ما حوله :

— كنا في مهمة . سوف أخبرك بعدئذ . ولكن قبل ذلك أخبرنا عن نفسك . كيف وجدت الحياة في الكتيبة الرابعة عشرة ؟

. . . وتركوا المطعم سوية . وتخلّف كالميكوف ولستنتسكي وراء الآخرين ، وعاجا في أول منعطف طريق وبعد نصف ساعة مضيا سوية نحو مكان هادىء في المدينة ، وهما يتكلمان بصوت الى الهمس أقرب ويأخذان حذرهما .

قال كالميكوف ليفغيني :

— لقد استبقي فيلقنا الثالث احتياطاً في الجبهة الرومانية . وقبل حوالي عشرة أيام تلقيت أمراً من آمر الكتيبة بتسليم سريتي لضابط آخر ، والذهاب مع تشوبوف لنضع أنفسنا تحت أمرة قيادة الفرقة . حسناً ! ذهبنا الى قيادة الفرقة . وهناك أعلمنا سراً أن علينا أن نقدم أنفسنا الى الجنرال كريموف . فذهبنا الى مقر قيادة الجيش . ونظر اليّ كريموف ، وحسب المعلومات التي توفّرت لديه عن نوع الضابطين المرسلين اليه ، قال لي بصراحة : «ان الحكومة بأيدى رجال يسيرون بالبلاد عن عمد نحو الهاوية . ان الفئة التي على رأس الحكومة يجب أن تستبدل ، ومن المحتمل أن تعزل الحكومة المؤقتة وتقام محلها الدكتاتورية العسكرية» وذكر كورنيلوف كمرشح منتظر ، ثم طلب مني أن أذهب الى بتروغراد ، لأضع نفسي تحت تصرف اللجنة المركزية لتحالف الضباط . وقد تجمّع الآن في المدينة بضع مئات من الضباط الذين يركن اليهم . وتستطيع أن تحزر أى دور سنلعب . كما أن اللجنة المركزية لتحالف الضباط على اتصال وثيق بمجلسنا ، مجلس تحالف القوات القوزاقية ، وتوزّع كتائب صدامية على ملتقى الخطوط وفي الفرق» .

— وماذا سيترتب وراء ذلك ؟ ماذا تعتقد ؟

— غريب أمرك ! . . ولكن هل تريد أن تقول انك ، أنت الذى تعيش هنا ، تجهل الوضع ؟ لا شك أنه سيحصل انقلاب ، وسيستولي كورنيلوف على الحكم . ان الجيش برمّته معه . ونحن نعتقد أن هناك قوتين متعادلتين : البلاشفة وكورنيلوف . أما كيرنسكي فهو بين رحى الطاحونة . وسوف يسحقه هذا أو ذاك . دعه ينم في مخدع القيصرة . — صمت كالميكوف برهة ثم قال وهو يعابث شرّابة سيفه : — انه خليفة لساعة واحدة . وبالطبع نحن الضباط

كالبيادق على رقعة الشطرنج ، لا نعرف الى أين سيحركنا اللاعب . فأنا مثلاً ، لا أفهم كل ما يحدث في مقر القيادة . ولكنني أعرف أن بين الجنرالات : كورنيلوف ، لوكومسكي ، رومانوفسكي ، كريموف ، دينيكين ، كاليدين ، تفاهماً سرياً .

وسأله لستنتسكي وهو يحث خطاه :

— ولكن الجيش . . . ؟ هل سيتبع الجيش بكامله كورنيلوف ؟

— الجنود لن يفعلوا ذلك بالطبع . ولكن علينا أن نقودهم .

— هل تدرى ، أن كيرنسكي يحاول أن يعزل قائد القوات المسلحة تحت ضغط اليسار ؟

— لن يجرؤ . فغداً سيركع على ركبتيه . لقد عبّرت اللجنة المركزية لتحالف الضباط عن رأيها بصورة نهائية حول هذه المسألة .

وقال لستنتسكي وهو يبتسم :

— أمس استقبل وفداً من مجلس تحالف القوات القوزاقية . وأخبروه أن القوزاق لا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير في عزل كورنيلوف . وهل تدرى بماذا أجابهم ؟ قال : «انها اشاعة ليس الّا . . . وليس لدى الحكومة المؤقتة أى ميل لاتخاذ خطوات من هذا القبيل» ، — محاولاً تطمين الجمهور وفي الوقت نفسه يهش مثل المومس الى مندوبي السوفييت .

وأخرج كالميكوف من جيبه مفكرة ضباط وقرأ البرقية بصوت عالٍ :

— ان مؤتمر الرجال الاجتماعيين ، يرحّب بك ، أيها القائد الأعلى للجيش الروسي . ويعلن المؤتمر أنه يعتبر أى محاولة من شأنها أن تقوّض من سلطتك في الجيش وفي روسيا عملاً اجرامياً ، وهو يضم صوته الى الضباط ، وفرسان القديس غيورغي ، والقوزاق . وفي ساعة الامتحان الرهيبة هذه يشخص كل المتنورين الروس اليك

بأبصارهم بأمل وايمان . فليكن الله في عونك في تحمّلك المسؤولية العظمى لاعادة بناء جيش جبّار وانقاذ روسيا ! — التوقيع ، رودزيانكو» . هل يكفيك هذا ؟ ان ابعاد كورنيلوف لن يكون ذا موضوع . . . ولكن هل شاهدت، عندما وصل الى المدينة أمس ؟

— لم أعد من تسارسكويه سيلو الّا ليلة أمس .

وابتسم كالميكوف فافتر عن صف من أسنان ولثة وردية سليمة . وتغضّنت عيناه الحادتان وتجعّد جفناهما جعداتٍ صغيرة في الزاويتين :

— كان منظراً كلاسيكياً ! فقد كان حرسه سرية التركمانيين . وكان في كل سيارة رشاش . وكانوا جميعاً راكبين صوب قصر الشتاء ، حيث كان كيرنسكي . انه لانذار لا لبس فيه ! ها — ها — ها ! . . كان ينبغي أن ترى وجوه أولئك التركمانيين بقبعاتهم الطويلة من الفرو ! ان منظرهم لجميل !

وعاد الضابطان الى مركز المدينة ، ثم ودعا بعضهما . وقال كالميكوف وهو يصافحه :

— يجب ألّا نبتعد عن بعضنا يا يفغيني . فنحن مقبلون على أوقات عصيبة ! ثبت قدمك على الأرض والا فسوف تضيع .

وبعد أن افترق عنه لستنتسكي صاح كالميكوف في أثره :

— أوه ، نسيت أن أخبرك ، هل تذكر ميركولوف ؟ صاحبنا القنان ؟

— نعم ؟

— لقد قُتل في أيار .

— مستحيل !

— كان مجرد حادثة . لا يمكنك أن ترى ميتة أسخف منها . لقد انفجرت قنبلة يدوية في يدى كشاف ونسفت ذراعي الرجل من

مرفقيه . وكل ما عثرنا عليه من ميركولوف الذى كان واقفاً الى جانبه هو جزء من أحشائه ومنظار ميدان . لقد ابتعد عنه الموت ثلاث سنوات . . .

وهتف بشيء آخر ، غير أن الريح أثارت الغبار الرمادى فلم تبلغ مسمع لستنتسكي غير مقاطع شاردة . ولوح يفغيني بيده وحث خطاه ، وهو يلتفت بين الحين والآخر الى الوراء .

١٣

في السادس من آب ، تسلّم الجنرال لوكومسكي رئيس هيئة أركان القيادة العليا أمراً بواسطة الجنرال رومانوفسكي الجنرال الأول لهيئة أركان الحرب ، يقضي بتحشيد فيلق الخيالة الثالث والفرقة القوقازية الملحقة به ، في منطقة نيفيل — نوفيه سوكولنيكي — فيليكييه لوكي . وتساءل لوكومسكي مندهشاً :

— لماذا نرسلهم الى تلك المنطقة بالذات ؟ لقد استبقيت هذه الوحدات احتياطاً في الجبهة الرومانية .

— لست أدرى أيها الجنرال . لقد بلّغت الأمر تماماً كما تسلمته من قائد القوات المسلحة .

— متى تسلمته ؟

— أمس . استدعاني قائد القوات المسلحة الى غرفته وأمرني بتوجيه هذا الأمر اليك هذا الصباح .

وتوقف رومانوفسكي الذى كان يتخطى قرب النافذة ، أمام خارطة استراتيجية كبيرة لأوروبا الوسطى شغلت نصف أحد جدران غرفة لوكومسكي ، وتفحّصها بانتباه مفرط والتفت قائلاً :

— لِمَ لا تسأله ؟ انه في غرفته الآن .

والتقط لوكومسكي الورقة ، ودفع كرسيه الى الوراء ومشى نحو الباب بخطوات راسخة يتميز بها كل عسكرى بدين كبير السن . وقرب الباب عندما أفسح المجال لرومانوفسكي قال مواصلاً سلسلة تفكيره على ما يظهر :

— أجل ، صحيح .

وخرج للتو من غرفة كورنيلوف عقيد مديد القامة طويل الساقين لم يعرفه لوكومسكي . وتراجع الى الخلف باحترام ليفسح المجال للوكومسكي وواصل سيره شطر الممر وهو يعرج بشكل واضح ، ويرتعش كتفاه بشكل مضحك ومخيف بتأثير صدمة القنابل كما يبدو .

كان كورنيلوف منحنياً بعض الشيء الى الأمام فوق منضدته ، ويداه ممتدتان الى الخارج ، ويتكلم الى ضابط كهل أمامه :

— . . . لا يمكن الا أن نتوقعها . هل تفهمني ؟ أرجو أن تخبرني عن وصولك الى بسكوف . والآن يمكنك أن تخرج .

وانتظر كورنيلوف حتى سدّ الباب خلف الضابط ، وجلس بخفة ونشاط ، وسحب كرسياً للوكومسكي ، وسأله :

— هل أعطاك رومانوفسكي تعليماتي حول نقل فيلق الخيالة الثالث ؟

— نعم ، لقد جئت لأتحدث معك بشأنها . لماذا اخترت تلك المنطقة لتحشيد الفيلق ؟

وتفحّص لوكومسكي وجه كورنيلوف الأسمر باهتمام . كان غامضاً وهادئاً مثل وجوه الآسيويين ، وكانت الخطوط التي يتميز بها وجهه تحدد الوجنتين من الأنف الى الفم الغليظ المغطّى قليلاً بشاربين متدليين . ولم تلطف من قسمات وجهه القاسية سوى خصلة من الشعر تدلت بشكل صبياني فوق جبينه .

واحتوى كورنيلوف ذقنه براحة يده العجفاء الصغيرة ، وطرف بعينيه المنغوليتين المتألقتين ، وقال وقد لمس لوكومسكي بيده من ركبته :

ـــ لا أريد أن أحشد الخيالة بشكل خاص خلف الجبهة الشمالية ، بل أريد أن أجعلها في منطقة يمكن نقلها منها بسهولة الى الجبهة الشمالية أو الغربية . وفي رأيي أن المنطقة التي اخترتها تلبي هذه الحاجة وغيرها تلبية تامة . هل ترى غير ذلك ؟ ماذا ؟

وأتى لوكومسكي بحركة غامضة من كتفيه :

ـــ ليس هناك ما يدعوك للقلق على الجبهة الغربية . من الأفضل تحشيد الخيالة في منطقة بسكوف .

وردد كورنيلوف :

ـــ بسكوف ؟

وانحنى الى الأمام ، وقطّب وجهه فتقلصت شفته السفلى الشاحبة النحيفة ، وهز رأسه وأضاف :

ـــ كلا ، ان منطقة بسكوف لا تصلح .

ووضع لوكومسكي يديه على ذراعي كرسيه بحركة شيخ تنّم عن تعب ، وقال وهو يختار الكلمات بعناية :

ـــ سوف أصدر الأوامر الضرورية في الحال يا لافر غيورغيفتش ، ولكن لديّ شعوراً بأنك أخفيت شيئاً لم تذكره . . . ان المنطقة التي اخترتها صالحة جداً لتحشيد الخيالة عند ضرورة نقلها الى بتروغراد أو موسكو ، غير ان الجبهة الشمالية لا تصلح لمثل هذا التحشيد لأن نقل الخيالة سيكون أمراً صعباً جداً . ولكنك اذا ما وزّعت قواك بهذه الطريقة ، فقد أخفيت شيئاً لم تفصح به ، فاني ألتمس منك امّا أن ترسلني الى الجبهة أو تخبرني بكل ما في ذهنك . فلا يستطيع رئيس أركان حرب أن يحافظ على مركزه

دون أن يتمتع بكامل الثقة من لدن رئيسه .

كان كورنيلوف قد أحنى رأسه وهو يصغي بانتباه ، وخطفت عيناه الحادتان توردا خفيفاً ينم عن الانفعال الذى انفجر مثل الطفح في وجه لوكومسكي الهادئ في العادة . ثم تأمل بضع لحظات وأجاب :

ـــ أنت على حق . فهناك اعتبارات معينة لم أبحثها معك بعد . . . أرجوك أن تصدر الأوامر بنقل الخيالة كما أوصيت واستدع في الحال قائدها الجنرال كريموف الى مقر القيادة . وسوف نبحث الموضوع أنا وأنت بالتفصيل عند عودتي من بتروغراد . صدقني يا ألكسندر سيرغييفيتش ، لست أرغب في اخفاء شيء عنك .

وشد كورنيلوف على الكلمة الأخيرة «عنك» والتفت فجأة على صوت طرقة استئذان .

ـــ أدخل .

ودخل الغرفة فونفيزين مساعد قوميسارية هيئة الأركان العامة ، ومعه جنرال ربعة ذو شعر كتاني . فنهض لوكومسكي وفي طريقه الى الخارج سمع كورنيلوف يجيب على سؤال فونفيزين بحدة :

ـــ ليس لديّ وقت لاعادة النظر في قضية الجنرال ملر . . . ماذا . . . ؟ نعم ، أنا راحل . . .

وعندما عاد لوكومسكي الى غرفته وقف طويلاً أمام النافذة . وراح يمشّط لحيته الشهباء بأصابعه وينظر ، وهو شارد ، إلى الريح تعابث قمم أشجار الكستناء وتتماوج خلل الحشائش المتمايلة التي تألقت بضوء الشمس .

وبعد ساعة تسلّم فيلق الخيالة الثالث أمراً من القائد الأعلى لرئاسة أركان الحرب بالاستعداد للانتقال . وفي اليوم نفسه أرسلت برقية شفريّة الى الجنرال كريموف ، الذى رفض بطلب من كورنيلوف

بتعيينه قائداً للجيش الحادى عشر ، تدعوه للشخوص في الحال الى مقر القيادة العليا .

وفي التاسع من آب سافر كورنيلوف في قطار خاص الى بتروغراد ، تحرسه سرية من التركمانيين .

وترددت شائعات في اليوم التالي في مقر القيادة حول إعفاء القائد الأعلى من منصبه أو حتى اعتقاله ، غير أن كورنيلوف عاد الى موغيليف في صبيحة اليوم الحادى عشر .

ولدى وصوله استدعى لوكومسكي في الحال . وقرأ البرقيات والبلاغات ، وعدل بعناية ردن كمه الناصع البياض الذى يحيط بأناقة برسغه الزيتوني وتحسس ياقته ، ففضحت حركاته السريعة انفعاله غير المألوف . وقال بهدوء :

— نستطيع الآن استئناف حديثنا المنقطع . ولا بأس في أن نعود الى ذكر الاعتبارات التي دفعتني الى نقل الفيلق الثالث باتجاه بتروغراد والتي لم نناقشها حتى الآن . أنت تذكر أنه في الثالث من آب ، عندما كنت في بتروغراد في اجتماع مجلس الوزراء حذرني كيرنسكي وسافنكوف بأن لا أتناول أية مسألة من مسائل الدفاع الهامة لأنه ، كما يقولان ، يوجد أشخاص لا يركن اليهم بين الوزراء . وعندما أقدّم ، أنا القائد الأعلى للقوات المسلحة ، تقريراً للحكومة ، لا أستطيع الكلام عن الخطط العسكرية لأنه لا يوجد ضمان بأن ما أقوله لن يصبح معروفاً في غضون بضعة أيام لدى القيادة العليا الألمانية ! فهل هذه حكومة ؟ وهل يسعني ، بعد ذلك ، الاعتقاد بأن حكومة كهذه قادرة على انقاذ الوطن ؟

وسار كورنيلوف شطر الباب بخطوات سريعة ثابتة ، وأدار المفتاح في المزلاج ، وجعل يتمشّى ذهاباً وإياباً أمام منضدته ويقول :

— انها لحقيقة مرّة ومؤلمة أن تحكم هذه البلاد حشرات

كهذه ! ارادة ضعيفة ، وشخصية مفتقدة ، وعجز في الذكاء ، وتردد ، وحتى خيانة ، تلك هي المقومات التي تميز أعمال هذه «الحكومة» اذا جاز تسميتها بذلك . وبالتعاطف المستر لأشخاص مثل تشيرنوف * وغيره ، سيزيح البلاشفة كيرنسكي . . . ذلك هو ، يا ألكسندر سيرغييفيتش وضع روسيا . على أني أروم انقاذ بلادنا من الانتفاضات المقبلة ايمانا بالمبادئ التي نتمسك بها كلانا . وغرضي الرئيسي من نقل فيلق الخيالة الثالث هو أن نتمكن من استقدامه ، في حالة انطلاق البلاشفة ، الى بتروغراد في نهاية آب لنصفّي الحساب هناك بصورة نهائية مع خونة الوطن . وسوف أعهد بالقيادة المباشرة لهذه العملية للجنرال كريموف ، وأنا واثق أنه اذا ما تطلب الأمر ، فلن يتردد في شنق أى مندوب عن سوفييتات الجنود والعمال . أمّا الحكومة المؤقتة . . . فسوف نرى ما نفعله بشأنها . انني لا أبقي شيئاً لنفسي . . . علينا إنقاذ روسيا ، بأى ثمن !

وتوقف كورنيلوف أمام لوكومسكي وسأله فجأة :

— هل تشاركني رأيي ، وهو أن اجراءات كهذه هي وحدها الكفيلة بضمان مستقبل البلاد والجيش ؟ وهل ستقف الى جانبي حتى النهاية ؟

ونهض لوكومسكي وصافح يد كورنيلوف الحارة العجفاء بثبات وعاطفة عميقة :

— اني أشاركك الرأى تماماً ! وأنا معك حتى النهاية . يجب أن نتبصر بالموضوع ، ونزن كل شيء ، ومن ثم نضرب ضربتنا . فاعهد لي بهذه المهمة يا لافر جيورغيفتش .

---

* زعيم حزب الاشتراكيين-الثوريين . **المعرب** .

ـــ لقد أعدت أنا الخطة العامة . وسوف يوضح التفاصيل العقيد ليبيديف والرئيس روجينكو . أنت مغمور بالأعمال ، يا ألكسندر سيرغييفيتش . صدقني ، سوف يتوفر الوقت الكافي لمناقشة كل شيء واجراء التعديلات الضرورية عند الحاجة .

وخلال الأيام القليلة التالية مارست هيئة أركان القيادة نشاطاً محموماً . كان ضباط لفحت وجوههم الشمس وعلا الغبار بدلاتهم الخاكية يتوافدون كل يوم من مختلف وحدات خط الجبهة على دار الحاكم في موغيليف ليقدّموا خدماتهم ، وممثلون عن تحالف الضباط وتحالف القوزاق ببزات عسكرية مهيبة ، ورسل قادمون من جهة كاليدين الذى عين أتماناً لجيش قوزاق الدون .

وتوافد مدنيون من مختلف الفئات ، أشخاص يريدون مخلصين مساعدة كورنيلوف . وثمة نسور تشم من بعيد رائحة الدماء المسفوكة وتتطلع الى الأيدى القوية التي سيقيض لها فتح شرايين البلاد ، توافدت على موغيليف طمعاً بالفريسة . وعرف رجال أمثال زافويكو وعلاء الدين بعلاقتهما الوثيقة بالقائد الأعلى . وتهامس الناس في مقر القيادة العامة وفي مقر قيادة جيش قوزاق الدون بأن كورنيلوف كان يثق بجماعته كثيراً ، وقد وقع تحت تأثير عناصر مغامرة ، وفي الوقت نفسه كانت الفكرة السائدة بين دوائر واسعة من الضباط أن كورنيلوف هو رمز راية البعث الروسية القديمة التي انهارت في شباط ١٩١٧ . وتحت هذه الراية تدفق من جميع الأطراف دعاة العهد القديم المتحمسون .

وفي الثالث عشر من آب توجه كورنيلوف الى موسكو لحضور مؤتمر الدولة .

كان نهاراً حاراً تظلله بعض الغيوم . والسماء تسطع بزرقة حائلة تشبه لون الألمنيوم . وعالياً فوق سمت الرأس تدلت غيمة عاصفة كأنها

الجزء يؤطرها الليلك . وفي الحقول ، وعلى القطار الذى يقعقع فوق السكة ، والغابات التي زينها التآكل ، وفوق غابة أشجار البتولا الزاهية وفوق التربة التي اكتست بألوان الخريف المبكر الحزينة ، الشبيهة بحزن الأرملة ، تساقطت مزن خفيفة مائلة تعكس ألوان قوس قزح .

وكان القطار يترك ذيلاً من الدخان خلفه في المسافات البعيدة . وكان جنرال قصير ببزته الخاكية وعلى صدره وسام القديس غيورغي يقف عند النافذة المفتوحة . وقد أخرج رأسه من النافذة وأغمض عينيه المنغوليتين الفاحمتين نصف اغماضة ، فرطبت قطرات المطر الندية وجهه المعرض للشمس باستمرار وشاربيه السوداوين المتهدلين ، وعبثت الريح بخصلة شعره التي تدلت بشكل صيباني فوق جبهته .

١٤

قدم الكابتين لستنتسكي الى موسكو قبل وصول كورنيلوف بيوم ، ومعه وثائق هامة أودعه اياها مجلس تحالف القوات القوزاقية في بتروغراد . وعندما سلم الحقيبة الى قيادة كتيبة القوزاق المرابطة في موسكو علم أن من المنتظر أن يصل كورنيلوف في اليوم التالي .

وفي ظهر اليوم التالي كان لستنتسكي في المحطة لاستقبال القائد العام للقوات المسلحة . لقد تجمّع حشد كبير من الناس ، معظمهم عسكريون ، في غرفات الانتظار والمقاصف . واصطف حرس الشرف الذى جيء به من الأكاديمية العسكرية على رصيف المحطة ، واصطف فوج الدائيات النسائية الموسكوفي في الخارج . ووصل قطار كورنيلوف حوالي الساعة الثالثة .

فران على الجمهور صمت مهيب . ودوى صوت جوقة موسيقية فطغى على وقع الأقدام . وهاج الجمهور ، وهجم بجنون الى الرصيف ، جارفاً لستنتسكي معه . وحين شق طريقه خارج هذه الموجة رأى صفين من التركمانيين يقفان أمام عربة القائد العام للقوات المسلحة . فعكس جانب العربة الساطع الطلاء اللون الأحمر الزاهي لخلعهم الطويلة . وشاهد لستنتسكي كورنيلوف يترجّل من القطار بصحبة عدد من الضباط ، ويفتش حرس الشرف ، ويقابل وفوداً من تحالف فرسان القديس غيورغي وتحالف ضباط الجيش والبحرية ، ومجلس تحالف القوات القوزاقية .

ومن بين الذين قدموا الى رئيس أركان الجيش عرف لستنتسكي أتمان الدون كاليدين والجنرال زابونتشكوفسكي ، وقدم الضباط المحيطون بكورنيلوف المستقبلين الآخرين :

— كسلاكوف ، وكيل وزير المواصلات .

— رودنيف محافظ مدينة موسكو .

— الأمير تروبتسكوي رئيس المستشارين للشؤون الخارجية في مقر القيادة .

— عضو المجلس الاستشاري موسين–يوشكين .

— الملحق العسكري الفرنسي العقيد كايو .

— الأمير غولتسين .

ثم همست الأصوات الخاضعة باحترام «الأمير مانسيريف . . .» .

وعندما اقترب كورنيلوف أمطر بالورود ترميها نساء أنيقات اللباس واقفات في نهاية الرصيف . وعلقت زهرة قرنفل بشريط سترته . وقد نفضها بيده بحركة محرجة مرتبكة . وطفق ضابط كهل ملتح من الأوراك ، يتلو التحيات متلعثماً باسم كتائب القوزاق الاثنتي

عشرة ، ولكن لستنتسكي لم يسمع ما قاله ، لأن الحشد دفعه الى الجدار وكاد أن ينكسر مقبض سيفه . وبعد الكلمة التي ألقاها عضو مجلس الدولة روديتشيف ، تحرك كورنيلوف ، بعد أن أخلى الطريق له ضباط متلازمو الأيدى . ولكن الجمهور اكتسحهم بعيداً . وامتدت عشرات الأيدى الى كورنيلوف . وحومت حوله امرأة بدينة شعثاء وحاولت أن تضغط شفتيها بكمه . وفي مدخل المحطة رفع كورنيلوف من كتفيه وحمل الى الخارج وسط موجة من الهتاف . وبدفعة قوية من الكتف أفلح لستنتسكي في ازاحة كهل ، وأمسك باحدى ساقي كورنيلوف ، ووضعها على كتفه . وتحرك الى الأمام قليلاً وهو يلهث من شدة الانفعال والجهد الذى يبذله لتثبيت قدميه دون أن يشعر بالثقل ، وقد أصمّه هدير المتجمعين ودوى الجوقة الموسيقية . وفي مدخل المحطة سوّى بدلته بسرعة بعد أن تجعدت تحت حزامه في الجلبة . وهبطوا الدرجات ومضوا الى الساحة . كان الجمهور في المقدمة ، ثم مراتب الجنود بملابسهم الخضر ، ثم سرية خيالة قوزاقية . ووضع لستنتسكي يده فوق قمة قبعته ، وطرف بعينيه المغرورقتين بالدموع وحاول أن يسيطر على اضطراب شفتيه . وبعد ذلك علقت في ذاكرته صورة مضطربة من ضربات آلات التصوير ، وجنون المتجمهرين ، ومسيرة طلاب الكلية العسكرية المهيبة ، وجرم الجنرال كورنيلوف الصغير الممشوق بعينيه الزائغتين الفاحمتي السواد ووجهه المنغولي وهو يستعرض المسيرة .

• • •

وفي اليوم التالي عاد لستنتسكي الى بتروغراد . وتسلّق سريره العالي في مقصورته ، واستلقى فوق معطفه وجعل يدخن ويفكّر في كورنيلوف :

«لقد هرب من العدو مخاطراً بحياته»، لكأنه أدرك أن البلاد بأمس الحاجة اليه . وأى وجه ! كأنه منحوت من الصخر ، ولا ينم عن شيء زائد أو طبيعي . . . وخلقه كذلك . كل شيء يجب أن يكون واضحاً بالنسبة له ، محسوباً بجميع تفاصيله . وعندما يحين الوقت فسوف يقودنا . يا للغرابة ، فأنا لا أعرفه . أهو ملكي ؟ ملكي دستورى . . . ليتنا كنا جميعاً واثقين من أنفسنا مثله» .

وفي الوقت ذاته تقريباً ، خلال فترة استراحة جلسة مؤتمر ولاية موسكو ، كان جنرالان ، أحدهما قصير ذو وجه منغولي ، والآخر بدين علا رأسه المربع شعر كثيف قصير ، يتخطيان ذهاباً وإياباً في ممرات المسرح الكبير* ، ويتحدثان بهدوء .

— هل يضمن هذا البند من التصريح إلغاء اللجان في الجيش ؟

— نعم .

— ان الجبهة الموحدة والتضامن التام لا غنى عنهما اطلاقاً . وما لم تنفذ الاجراءات التي أشرت اليها فلن يكون ثمة خلاص . فالجيش لا قدرة له على القتال . ان جيشاً كهذا لا يمكن أن يحقق النصر ، بل انه لن يستطيع الوقوف بوجه أى هجوم ذى شأن . فقد أشاعت الدعاية البلشفية التحلل بين الفرق . وهنا ، في المؤخرة ؟ ألست ترى كيف يقاوم العمال كل محاولة لتنفيذ الاجراءات التي تكبح من جماحهم ؟ اضرابات وتظاهرات ! ان على أعضاء المؤتمر أن يذهبوا مشياً على الأقدام . . . فيا لها من فضيحة ! ان عسكرة المؤخرة ، واقامة نظام قمعي شديد ،

---

* مسرح بولشوى فى موسكو . **المترجمون** .

واستئصال البلاشفة بلا رحمة ، تلك هي مهامنا الآنية . فهل أستطيع الاعتماد على مساندتك في المستقبل ، أيها الجنرال كاليدين ؟

— انني معك بصورة مطلقة .

— كنت واثقاً من ذلك . شكراً . أنت ترى كيف تكتفي الحكومة بأنصاف الحلول والعبارات الرنانة ، عندما نكون بحاجة الى اجراءات حازمة شديدة . فهم يتكلمون عن الضرب على أولئك الذين حاولوا ، مثل ثوار أيام تموز ، تهديد سلطة الشعب ، يتكلمون عن ضربهم بالنار والحديد . أمّا نحن الجنود فقد اعتدنا على العمل أولاً ثم الكلام بعد ذلك . بينما هم يفعلون العكس . حسناً . . . سوف يأتي الزمن الذى يذوقون فيه ثمار أنصاف حلولهم . ولكني لا أرغب أن أشاطر في هذه اللعبة غير المشرفة . سأبقى نصيراً للكفاح المكشوف . أنا لست مراوغاً .

وتوقف كورنيلوف ، وسوّى أحد أزرار بدلة كاليدين ، وقال وهو يتهته بانفعال :

— لقد أبعدوا فوهة البندقية ، ولكنهم الآن يخافون ديمقراطيتهم الثورية ويطلبون مني نقل القوات التي يركن اليها قرب العاصمة ، بالرغم من أنهم في الوقت نفسه يخشون من اتخاذ أية اجراءات حقيقية بأنفسهم . خطوة الى الأمام ، خطوة الى الوراء . . . اننا لن نستطيع كسب تنازلات من الحكومة الا بالتوحيد الكامل لقواتنا وبالضغط المعنوى القوى . والا . . . فسوف نرى . ولن أتردد في ترك الجبهة مفتوحة . فليردهم الألمان الى صوابهم !

— لقد بحثت المسألة مع الجنرال دوتوف ، ان لك كل السند من القوزاق . وما علينا سوى الاتفاق على تدابير أخرى .

ـــ سوف أكون بانتظارك والآخرين في غرفتي بعد الدورة .

كيف هو الوضع في الدون ؟

وغطّس كاليدين ذقنه المربع الحليق الصقيل في صدره ، وأجاب وهو ينظر الى الأرض ساهماً وشفتاه تحت شاربيه الكثين ترتجفان :

ـــ لم تعد لدى ثقتي السابقة بالقوزاق . ومن الصعب التكهن بالوضع في هذه اللحظة . ان المساومة ضرورية ، ولا بد أن يذعن القوزاق بعض الشيء الى الغرباء * ليضمنوا مساندتهم من جديد . وقد اتخذنا بعض الخطوات في هذا الاتجاه ، ولكني لا أستطيع ضمان نجاحها . وأخشى أن اصطراع المصالح بين القوزاق والغرباء قد يؤدى الى انفجار . الأرض . . . جميع أفكارهم تتركز حول ذلك في الوقت الحاضر .

ـــ يجب أن تكون لديك فرق قوزاقية يعتمد عليها على أهبة الاستعداد لحمايتك . وعندما أعود الى مقر القيادة وأتحدث الى الجنرال لوكومسكي سوف نجد وسيلة ما لارسال عدد من الكتائب من الجبهة الى الدون .

ـــ اذا استطعت فسوف تجعلني كثير الامتنان لك .

ـــ حسناً اذاً ، سنبحث هذا المساء مسألة تعاوننا في المستقبل . انني أعتقد اعتقاداً جازماً بالنجاح الكامل في تنفيذ خطتنا . ولكن الحظ غانية لعوب ، أيها الجنرال ، فاذا أدارت اليّ ظهرها برغم كل شيء ، فهل أطمئن الى أنك ستأويني في الدون ؟

وابتسم كاليدين لأول مرة خلال الحديث ، وقال :

---

* أطلق هذا الاسم على من هم ليسوا بقوزاق ولكنهم يعيشون في مناطق متاخمة للقوزاق .

ـــ لن آويك فحسب ، بل أذود عنك . ان القوزاق مشهورون باكرامهم الضيف .

وبعد ساعة أعلن كاليدين ، أتمان قوزاق الدون ، في اجتماع يخيّم عليه صمت مهيب بيان الكتائب القوزاقية الاثنتي عشرة التاريخي . ومثل خيط العنكبوت الأسود ، خيّم خطر مؤامرة كبرى على الدون ، والكوبان ، والتيريك ، والأورال ، والأوسورى ، في جميع أنحاء أراضي القوزاق من أقصاها الى أقصاها ، ومن قرية لأخرى .

١٥

على مبعدة فرسخ من خرائب قرية صغيرة أتت عليها نيران المدفعية أثناء هجوم حزيران ، يمتد منعرج خنادق مريع عبر احدى الغابات . وكان القطاع المحاذى للغابة تحرسه سرية خاصة من خيالة القوزاق .

ويمتد خلفهم ، وراء أجمة أشجار الحور والبتولا الصغيرة ، مستنقع فحم طيني صدئ ، بدأ تنقيبه قبل الحرب ، وتتألق زاهية ثمار التوت البرى القرمزية من شجيرات أزهار الكلب . والى اليمين ، خلف نتوء بارز في الغابة ، يمتد طريق مرصوف بالحصباء حفرته القنابل ، وهو بقايا مسالك لم تنل منها الحرب بعد . وفي أطراف الغابة نما أيك ناعس عليه آثار الرصاص ، وجذوع متفحمة تكومت باهمال . ويرى من هنا طين المتاريس البني الفاتح ، وتمتد الخنادق كالتجاعيد عبر الحقول المكشوفة المترامية الأبعاد . وخلف ذلك ، كان المستنقع بخرائب مناجم الفحم القديمة ، والطريق الخرب شاهدين بليغين على الحياة والعمل المهجور ، وفي نهاية الغابة لاحت الأرض صورة كئيبة مريرة للعيان .

وذات يوم ذهب ايفان أليكسييفتش الميكانيكي السابق في طاحونة موخوف الى البلدة المجاورة حيث تقيم عربات نقل معدات السريّة ، ولم يعد حتى المساء الباكر . وتوجه الى حفيرته فاصطدم بزاخار كورولیوف . وكان زاخار يركض تقريباً ويلوح بذراعيه بلا هدف ويحتك سيفه بالأكياس الرملية . فتنحّى ايفان اليكسييفتش جانباً ليدعه يمر ، ولكن زاخار أمسك به من أحد أزرار قمصلته ، وهمس في أذنه وهو يحملق بعينيه المصابتين بالبرقان .

— هل سمعت ؟ المشاة الذين عن يميننا راحلون . لعلهم يتركون الجبهة مفتوحة ؟

فتدلت لحية زاخار السوداء كالحديد بشكل مضطرب ، ونمّت عيناه عن حنين عارم .

— ماذا تعني بـ«يتركون الجبهة مفتوحة» ؟

— انهم راحلون ، ولست أدرى لماذا .

— ربما استبدلوا بغيرهم . فلنذهب الى ضابط الرعيل ونسأله .

واستدار زاخار ، وذهب الى حفيرة ضابط الرعيل ، وهو يتعثر وينزلق على الأرض اللزجة .

بيد أن السرية استبدلت بعد ساعة بالمشاة ، وسارت باتجاه المدينة ، وفي الصباح التالي امتطوا صهوات جيادهم ومضوا الى المؤخرة في مسيرة اضطرارية .

كان ثمة مطر خفيف يتساقط ، وكانت أشجار البتولا تنحني بكآبة . وولج الطريق غابة ، وكان مشبعاً بشذى الرطوبة ورائحة الأوراق المتساقطة البالية ، وأخذت الخيل تزنخر وتحث خطاها . وكانت أوراد الحب الصافي تتدلى عناقيدها ذات الحبات الوردية ، والنيجان المزبدة للبرسيم الأبيض تشع ببياض عجيب .

ونثرت الريح قطرات مطر كبيرة تساقطت من الأشجار على

الفرسان . فتلطخت معاطفهم وقبعاتهم ببقع سود مبللة كما لو رشت باطلاقات . وطفا دخان التبغ وانساب فوق الصفوف .

— انهم يأخذون بخناقنا ويقذفون بنا من مكان الى آخر .

— ألم تنالوا الكفاية من الخنادق ؟

— ولكن الى أين تراهم ذاهبين بنا ؟

— الى موقع جديد ، كما أحسب .

— لا يبدو كذلك .

— هيّا يا أولادى ، فلندخن وننس همومنا .

— اني أحمل همومي في حقائب سرجي .

— هل نستطيع انشاد أغنية ، أيها الرئيس ؟

— هل قال نعم ؟ . . ابدأ يا أرخيب !

كانوا القوزاق من الجبهة الى ديارهم عائدين ،
وعلى أكتافهم كتافيات
وعلى صدورهم ميداليات . . .

وطفت الأصوات المخضلة الرطبة واهنة فوق الغابة ثم تلاشت . واستوى زاخار كورولیوف ، الذى كان راكباً في صف ايفان الكسييفتش ، قائماً على ركابه وهتف :

— أنتم أيها الناعبون ! أهكذا يكون الانشاد ؟ انكم لا تصلحون الا للكدية في أبواب الكنائس !

— أنشد أنت اذا .

— رقبته قصيرة جداً ، لا تكاد تخرج صوتاً .

— تخاف ها ؟

وقبض كورولیوف يده على لحيته المقمّلة السوداء وأغمض عينيه لحظة ، ثم لوح بعنانه بشجاعة ، وانطلق ينشد أغنية حماسية .

وكأن السرية قد استيقظت عند سماع المقطع الأول ، فتلقّفت النغم بحماس ، وعلا هدير الأغنية في الغابة الندية .

واجتازوا المستنقع حتى نهايته يغنون ، فرحين بخلاصهم من «مقبرة الذئاب» كما كانوا يسمّون الخنادق . وفي مساء اليوم نفسه استقلوا قطاراً مضى بهم نحو بسكوف . ولم يعرفوا الاّ في وقت متأخر أن السرية قد نقلت مع بقية قطاعات فيلق الخيالة الثالث ، الى بتروغراد للقضاء على التمردات التي اندلعت ثمة . وخفت الكلام في العربات ، وخيم صمت كئيب . ولكن أحدهم وهو بورشوف طويل القامة أعرب عن شعورهم العام قائلاً :

ـــ من المقلاة . . .

وفي أول موقف ذهب ايفان الكسييفتش ، الذى أصبح منذ آذار الرئيس الدائم للجنة السرية ، ذهب الى آمر السرية وقال له :

ـــ ان القوزاق قلقون أيها الرئيس .

وحدق في النونة الغائرة في ذقن ايفان ، وأجاب وهو يبتسم :

ـــ أنا قلق أيضا يا صديقي .

ـــ الى أين يمضون بنا ؟

ـــ الى بتروغراد !

ـــ للقضاء على الانتفاضات ؟

ـــ حسناً ، لا أحسبك تظن أننا ذاهبون لمساعدة المتمردين ، أليس كذلك ؟

ـــ لا هذا ولا ذاك .

ـــ وكالعادة ، فهم لا يستفسرون عن آراءنا .

ـــ ولكن القوزاق . . .

وقاطعه الضابط غاضباً :

ـــ ماذا عن القوزاق ؟ أنا أعرف شخصياً ماذا يفكر القوزاق .

هل تعتقد أن هذه المهمة تعجبني ؟ خذ هذه واقرأها على مسامع السرية . وفي المحطة التالية سوف أتكلم الى القوزاق .

وسلمه الآمر برقية مطوية ، وجعل يأكل لحم بقر مشحم من علبة وقد عبرت تقطيبته عن نفور واضح من مذاقه .

وعاد ايفان الكسييفتش الى عربته حاملاً البرقية بحذر في يده ، وكأنها جمرة ملتهبة : «أدع القوزاق من العربات الأخرى» .

وبدأ القطار يتحرك ، بيد أن عدداً من القوزاق قفزوا الى عربة ايفان حتى بلغ عددهم حوالي الثلاثين .

قال لهم ايفان :

ـــ لقد أعطاني الآمر برقية لأتلوها عليكم .

ـــ فلنصغ الى ما تقوله !

ـــ أقرأ ، لا تثرثر !

ـــ عن السلم ؟

ـــ هدوءاً !

ووسط صمت موات قرأ عالياً بيان القائد العام كورنيلوف .

ثم تلقفت الأيدى المبتلة بالعرق البرقية ومررتها على الجميع :

أنا ، القائد العام للقوات المسلحة كورنيلوف ، أعلن أمام الأمة برمتها بأن واجبى العسكرى ، وولائى كمواطن لروسيا الحرة ، وحبى العظيم للبلد قد دفعنى فى هذه اللحظات الحاسمة التى تقرر مصير أرض الجدود الى رفض تنفيذ قرارات الحكومة المؤقتة ، ومن ثم احتفاظنا بالقيادة العليا للجيش والأسطول . واذ يساندني في هذا الموقف قواد جميع الجبهات ، أعلن للشعب الروسي أجمع بأنني أفضّل الموت على تنحيتي من مركزى . ان الابن البار للشعب الروسي سيظل أبداً مستعداً للموت وهو يؤدى واجبه ويضحي بحياته من أجل أرض أجداده .

وفي هذه اللحظات الرهيبة حقاً من حياة أرض اجدادنا ، حيث

يكاد الطريق الى مشارف عاصمتينا * أن يكون مفتوحاً أمام تقدم عدونا المنتصر ، تنسى الحكومة المؤقتة قضية استقلال البلاد الرئيسة ، وتخيف الشعب بثورة ردة وهمية ، تغذيها هي بعجزها عن الحكم وضعفها وترددها .

انني لست أرفض الدفاع عن الحريات العظمى لشعبي ولمستقبله العظيم ، وأنا ابنه البار الذى وهب حياته في خدمته . بيد أن هذا المستقبل يقع اليوم بين أيدى عديمي الارادة . ان عدواً وقحاً يعشش في صفوفنا وكأنه في بيته ، ويجلب الدمار عن طريق الرشوة والخيانة ، لا لقضية الحرية فحسب ، بل لكيان الشعب الروسي بالذات . تيقظ أيها الشعب الروسي ، وانظر الى الهاوية السحيقة التي ينحدر اليها وطننا !

وتجنبا لما يحل من اضطرابات ، وحقنا للدم الروسي ، وبغض النظر عن التهم المتبادلة وكل ما جرى لى من اهانة ومذلة على يدهم ، أتوجه الى الحكومة المؤقتة وأقول : «تعالوا اليّ فى مقر القيادة ، حيث تصان حريتكم وسلامتكم بكلمة الشرف التى أتعهد بها ، لتعملوا معي على ايجاد وتنظيم خطة للدفاع الوطني من شأنها أن تصون الحرية وتقود الأمة الروسية نحو المستقبل العظيم الجدير بشعب حر وجبار .

الجنرال كورنيلوف

وفي المحطة التالية توقف القطار بعض الوقت . وتجمع القوزاق خارج شاحناتهم وأخذوا يتحدثون عن برقية كورنيلوف وأخرى من كيرنسكي تلاها آمر السرية ، تتهم كورنيلوف بالخيانة ومعاداة الثورة . وناقش القوزاق الموقف في حيرة ، وسرت البلبلة بين صفوف الضباط أيضاً .

قال مارتن شامل شاكياً :

ـــ لقد اختلط عليَّ الأمر تماماً . لا يعلم الا الشيطان أيهما المخطئ .

---

* المقصود هنا بتروغراد وموسكو . **المترجمون** .

ـــ كلاهما يريد الانقضاض على صاحبه ، أما نحن فعلينا أن نتحمل العواقب .

ـــ كلاهما يريد أن يكون في السلطة .

ـــ السادة يتعاركون ، والقوزاق يتراجفون .

ـــ والدوامة تدور . . . مصيبة !

وتقدم رهط من القوزاق نحو ايفان الكسيفتش وقالو له :

ـــ اذهب الى الآمر واسأله عما يجب أن نفعل .

وذهبوا جميعاً الى آمر السرية ، فوجدوا الضباط مجتمعين في شاحنته . ودخل ايفان الكسيفتش :

ـــ أيها الرئيس ، يتساءل القوزاق ما ينبغي أن يفعلوا .

ـــ سأخرج اليكم بعد دقيقة .

ولبثت السرية بكاملها تنتظر عند الشاحنة الأخيرة ، ثم التحق الآمر بالمتجمهرين وشق طريقه الى وسطهم ، ورفع يده قائلاً :

ـــ نحن لا نخضع لكيرنسكي بل الى القائد العام ورؤسائنا المباشرين . أليس هذا صحيحاً ؟ ومن ثم فعلينا أن ننفذ دون نقاش أوامر قائدنا الأعلى ونواصل المضي الى بتروغراد . ومهما يكن الأمر فلسوف نكتشف الخبر اليقين حينما نصل محطة دنو ، حيث سنلتقي بقائد فرقة الدون الأولى . ولهذا أطلب منكم أن لا يستبدّ بكم القلق ، فهذا هو شأن زماننا الذى نحيا فيه .

ومضى الآمر يتكلم طويلاً عن واجب الجندى ، والوطنية ، والثورة ، محاولاً تهدئة القوزاق ، ويراوغ في الاجابة على أسئلتهم . وقد تحقق له ما أراد . وبينما كان يتكلم الى القوزاق شدت قاطرة بالقطار (ولم يعلم القوزاق أن ضابطين من سريتهم قد عجلا في رحيلهم بتهديد مدير المحطة بالمسدسات) وتفرق الرجال الى شاحناتهم .

ووصل القطار العسكرى محطة دنو بعد يوم . وفي المساء توقف ثانية ريثما يمرّ قطار آخر يقل كتيبتي الأوسورى والداغستان . وجر قطار القوزاق الى خط جانبي . وتناهت اليهم أصوات غليظة وأنين أنغام المزمار وألحان غير مألوفة من شاحنة الداغستانيين وهي تجرجر عجلاتها بعيداً ، وكان يسطع هنا وهناك ضياء في العتمة الخالية .

وفي منتصف الليل تحرك القطار ثانية . وكانت الماكنة الصغيرة قد وقفت طويلاً عند مضخة الماء والشرارات تتساقط من مشعلها . وقد مال السائق بجسمه خارج غرفته يدخن سيكارة ، كمن ينتظر شيئاً . وأخرج قوزاقي رأسه من الباب في أقرب شاحنة وهتف :

ـــ هيا يا ايفان تحرك والا فسنطلق النار !

فبصق السائق سيكارته ، وحدق فيها اذ هوت خلل العتمة ، ثم تنحنح وقال :

ـــ لا تستطيع أن تطلق النار على كل انسان ، ـــ ثم ابتعد عن النافذة .

وبعد بضع دقائق تحركت القاطرة بشكل مفاجئ فأحدثت رجة في المعدات وارتفعت قعقعة حوافر الخيل وهي تحاول أن تحافظ على الموازنة داخل الشاحنات . وانسل القطار حذوَ مضخة الماء وبضع نوافذ مضاءة وأشجار البتولا القاتمة . وأطعم القوزاق خيلهم وناموا أو جلسوا عند الأبواب المواربة ، يدخنون ويتطلعون الى السماء ويفكرون .

واستلقى ايفان الكسيفتش بجانب كورولوف ينظر خلل خصاص الباب الى النجوم العابرة . ظل طوال اليوم السابق يفكر في الموقف ، فتوصّل الى قرار راسخ يقضي بمنع السرية من الاستمرار في المضي

شطر بتروغراد بكل ما لديه من قوة . وفيما هو راقد ، راح يفكر بأفضل طريقة يقنع بها القوزاق برأيه .

وكان قد أدرك حتى قبل بيان كورنيلوف أن طريق القوزاق هو غير الطريق الذى رسمه القائد العام ، ومع هذا فقد أنبأته سليقته بأنه ليس من صالحهم أيضاً أن يدافعوا عن كيرنسكي . ومضى يقلّب المسألة في ذهنه المرة تلو المرة ، فعقد العزم على أن يحول دون وصول السرية الى بتروغراد . فاذا كان لا بد من صدام مع جبهة ما ، فيجب أن يكون ذلك مع كورنيلوف ، ولكن ليس لصالح كيرنسكي ، ولا لصالح حكومته ، بل لمن ينبغي أن يأتي بعده . وكان على ثقة كبيرة بأن الحكومة الحقة التي يريدها لن تأتي الا بعد زوال كيرنسكي . لقد كان أثناء الصيف في القطاع العسكرى للجنة الحزب التنفيذية في بتروغراد ، التي أرسلته اليها السريّة للمشورة حول خصام حصل مع آمر السريّة . وهناك شاهد عمل اللجنة ، وتكلم مع عدد من الرفاق البلاشفة ، وقال في نفسه : «دع هذا الهيكل العظمي يتجلبب بلحم عمالنا ، فتحصل من ثم على حكومة ! وحتى لو متّ يا ايفان ، فعليك أن تتشبث بذلك ، تتشبثْ به كما يتعلق طفل بصدر أمه !» .

واذ كان مستلقياً على جلّ حصانه ، راح يفكر مرة بعد مرة وقلبه مفعم بعاطفة حارة غير مألوفة تجاه الرجل الذى كان أول من وجد بهدى قيادته طريقه الجديد الشاق . وفيما كان يفكر فيما ينبغي أن يقوله للقوزاق في الغداة ، تذكر ما قاله شتوكمان عن القوزاق وأعاده مع نفسه بقناعة : «ان القوزاق محافظون حتى العظم . ولا تنس أنك عندما تحاول اقناع واحد منهم حول حقيقة الأفكار البلشفية ، يجب أن تتصرف بحذر ، وروية ، وتكيف نفسك وفقاً لمتطلبات الموقف . ففي البداية سيزدرونك مثلما ازدريتني أنت

وميشا كوشيفوى ، ولكن لا تدع ذلك يقلقك . اعمل بدأب وعناد ، فالنجاح حليفنا في النهاية» .

وقدر لايفان أنه سيواجه من القوزاق بعض المعارضة اذا ما حاول اقناعهم بعدم الانضواء تحت لواء كورنيلوف . ولكنه عندما بدأ يتكلم في الصباح مع زملائه في الشاحنة ويقترح عليهم بأن يطالبوا بعودتهم الى الجبهة لا أن يذهبوا الى بتروغراد ليحاربوا اخوانهم ، وافقه القوزاق عن طيب خاطر وكانوا على أتم الاستعداد لرفض مواصلة الرحيل . كان زاخار كورولیوف وقوزاقي يدعى توريلين أقرب الى ايفان في وجهة نظرهما ، فأمضيا نهارهما يتنقلان من شاحنة الى أخرى ، ويتحدثان الى الآخرين . وقرب المساء ، بينما كان القطار يمر ببطء خلال محطة صغيرة ، قفز نائب عريف من الرعيل الثالث الى شاحنة ايفان ، وهتف بوجهه بانفعال :

ـــ سوف تترك السريّة القطار في أول موقف . أى رئيس لجنة أنت ان كنت تجهل ما يريده القوزاق ؟ نحن لن نمضي أبعد من هذا ! ان الضباط يضعون الأنشوطة حول رقابنا ، وأنت أشبه بأطرش في زفة . ألأجل هذا انتخبناك ؟ لماذا تضحك ؟

فأجابه ايفان باسماً :

ـــ كان يجب أن تقول ذلك منذ زمن بعيد .

وفي موقف كان اوّل من قفز من الشاحنة ، وذهب الى مدير المحطة يصحبه توريلين .

ـــ لا ترسل قطارنا خطوة أخرى . سوف نترك القطار هنا .

فتساءل الرجل مذهولاً :

ـــ ماذا ؟ لديَّ تعليمات تقضي بارسالكم . . .

فقاطعه توريلين بغلظة :

ـــ اخرس !

ثم ذهبا الى لجنة المحطة وأوضحا الموقف للرئيس ، وهو تلغرافي ذو شعر أرجواني وجرم متين . وبعد بضع دقائق حوّل سائق القاطرة القطار الى خط جانبي عن طيب خاطر .

وهرع القوزاق لوضع الألواح الخشبية بين الشاحنات والرصيف وأخرجوا جيادهم . ووقف ايفان الى جانب القاطرة يمسح العرق من وجهه الضاحك ، وقد باعد بين ساقيه . فجاء آمر السريّة مهرولاً نحوه :

ـــ ماذا أنت فاعل ؟ أنت تدرى أن ذلك . . .

فقاطعه ايفان :

ـــ أدرى ، ولكن هدئ أعصابك أنت ، أيها الرئيس .

وأردف بوضوح وقد شحب وجهه :

ـــ لقد أشبعتنا صياحاً ، يا فتى . أمّا الآن فسنقوم نحن باصدار الأوامر .

ـــ ان القائد العام ، كورنيلوف . . .

نأتأ الضابط بذلك ، وقد استحال لونه أزرق . بيد أن ايفان راح يحدّق بقوة في جزمته المنغرسة في رمل الخط الحديد ، ونصح الرئيس وهو يلوح بيده بارتياح :

ـــ علق قائدك العام حول رقبتك بدلاً من الصليب ، أما نحن فلسنا بحاجة اليه .

واستدار الضابط على عقبيه وهرول الى عربته .

وبعد ساعة مضت السريّة خبباً تاركة المحطة باتجاه الجنوب الغربي وليس في صحبتهم ضابط واحد ولكنهم ساروا على أتم نظام . وكان ايفان الكسيفتش في مقدمة الرعيل الأول مع رماة الرشاشات ، يقودهم بمعية توريلين الربعة مساعداً له .

وتلمسوا طريقهم بصعوبة مسترشدين بالخارطة التي غنموها

من القائد ، وبلغوا القرية غوريلويه لقضاء الليلة . وفي اجتماع عام قرروا أن يعودوا الى الجبهة ، ويحاربوا كل من يعترض سبيلهم . وقيد القوزاق الخيل وعينوا الحرس ، ثم استلقوا بانتظار الفجر . ولم يوقدوا ناراً . وكان واضحاً أن معظمهم كان منقبض النفس ، وقد استلقوا دون أن يتبادلوا أحاديثهم ودعاباتهم المألوفة ، كاتمين ما يدور بخلدهم عن بعضهم البعض .

قال ايفان في نفسه جاداً وهو ينكمش تحت معطفه : «ماذا لو غيروا رأيهم وعادوا لاعلان خضوعهم ؟» . وتقدم نحوه توريلين وكأن الخاطرة قد تناهت اليه .

— هل أنت نائم يا ايفان ؟

— لما أنم بعدُ .

وقرفص توريلين بجانبه وهمس وهو يشعل سيكارة :

— ان القوزاق قلقون . . . لقد فعلوا فعلتهم وبدأوا الآن يتخوفون . لقد زججنا أنفسنا في ورطة . ما رأيك ؟

فأجابه ايفان بهدوء :

— سوف نرى . أنت لست خائفاً ، أليس كذلك ؟

فحك توريلين رأسه وابتسم ابتسامة شوهاء :

— انني خائف والحق يقال . في البداية لم أكن كذلك ، ولكني الآن خائف بعض الشيء .

— لا أظنك قوى المراس ، أليس كذلك ؟

— ان لديهم سطوة كبيرة ، يا ايفان .

ولم يحر كلاهما بجواب . وانطفأت أنوار القرية . ومن مكان ما في مستنقع الصفصاف علا صوت ذكر بط ، فهمهم توريلين قائلاً : — ينادى أنثاه ، — وعاد الى صمته ثانية .

أسدل الليل سكونه المهيب على المروج . واخضلّ الحشيش

بالندى . وهب نسيم يحمل الى أنوف القوزاق روائح مختلطة تنبعث من حشائش المستنقع والنباتات العفنية ، والتربة الموحلة والأعشاب المبتلة بالندى . وبين آونة وأخرى يجلجل قيد أحد الخيل ، أو يسمع زحير أو زنخرة كلما استلقى حيوان . ويعود الصمت الناعس ثانية ، ثم يتناهى نداء ذكر البط الوحشي من بعيد ، وجواب أنثاه من مسافة أقرب . وحفيف خاطف لأجنحة غير منظورة يخترق الظلمات . ليل ، سكون ، رطوبة المرج الضبابية ، ومن الغرب في النظير* تصاعدت غمامة كبيرة بلون البنفسج القاتم . وفي السمت ، فوق أراضي بسكوف العريقة ، ترتسم المجرة درباً نارياً فسيحاً أشبه بتذكار خالد .

وفي الفجر انطلقت السريّة ثانية . ومرت خلال القرية غوريلويه تتبعها ببطء أحداق النساء والأطفال الذين يسوقون الماشية الى المرعى . وارتقت مرتفعاً صبغته أشعة الفجر بلون القرميد الأحمر . والتفت توريلين صدفة الى الوراء ، فنخس ركاب ايفان بقدمه وقال :

— أنظر الى الوراء ! هناك رجال يتعقبوننا على الجياد .

فتطلع ايفان الى الوراء صوب القرية ، ورأى ثلاثة فرسان يهذبون بجيادهم وسط غيمة من الغبار الوردى المتطاير . فهتف آمراً :

— سريّة ، قف !

وبمثل ما عرف القوزاق به من سرعة ، صفّوا أنفسهم في مربع رمادى اللون . وعندما بلغ الفرسان مسافة تربو على نصف فرسخ خفضوا سرعتهم وأخذوا يسيرون خبباً . وأخرج أحدهم ، وهو

---

* النظير — نقطة فى القبة الزرقاء للسماء على خط عمودى من المراقب وهى تقابل السمت . **المترجمون** .

ضابط قوزاقي ، منديلاً أبيض ولوح به فوق رأسه . فحدق القوزاق بأبصارهم في الفرسان المتقدمين . كان الضابط القوزاقي يرتدي قمصلة خاكية وهو يتقدم فارسين آخرين يرتديان ملابس شركسية .

وعدا نحوهم ايفان بفرسه وسألهم :

ـــ ماذا تبتغون منا ؟

فقال له الضابط وهو يؤدي التحية :

ـــ جئنا لنتفاوض . من تولى أمرة السريّة ؟

ـــ أنا .

فقال الضابط وهو يشير بعينيه الى الشركسيين :

ـــ أنا مفوض من لدن فرقة قوزاق الدون الأولى ، وهذان الضابطان هما ممثلان عن الفرقة المحلية .

وسحب عنان فرسه وهو يمسد رقبة حصانه المتصبب عرقاً وأردف قائلاً :

ـــ اذا كنت راغباً في الشروع بمناقشة الموضوع ، فاصدر أمراً للسريّة بالترجل . فعلي أن أبلغكم بالتعليمات الشفهية الصادرة من قائد الفرقة اللواء غريكوف .

وترجّل القوزاق ، والممثلون كذلك . وشقوا طريقهم الى وسط الحشد . فأفسحت السرية لهم المكان وشكّلوا حلقة صغيرة . وتكلم الضابط القوزاقي أولاً :

ـــ أيها القوزاق ! لقد جئنا لكي نقنعكم بأن تعيدوا النظر فيما تفعلون وتتجنبوا العواقب الوخيمة لعملكم . فقد تناهى الى علم قيادة الفرقة أمس أنكم استجبتم لتحريضات اجرامية قام بها البعض ، وتركتم شاحناتكم اعتباطاً ، فأرسلنا اليوم لنتصحكم بالعودة حالاً الى المحطة . لقد احتل جنود الفرقة المحلية وقوات الخيالة الأخرى بتروغراد أمس ، وقد تسلمنا برقية بهذا الشأن اليوم .

ودخل حرسنا الأمامي المدينة ، واحتل الأبنية الحكومية ، والمصارف ، ودائرة التلغراف ، ومراكز التلفون وجميع النقاط الحساسة . وقد هربت الحكومة المؤقتة وقضي عليها . فتبينوا أيها القوزاق ! إنْ لم تخضعوا الى أوامر قائد الفرقة ، فسوف ترسل قوات مسلحة ضدكم . وسوف يعتبر تصرفكم خيانةً ، وتمرداً على التزاماتكم العسكرية . وليس من سبيل الى حقن الدماء الا باستسلامكم دون قيد أو شرط .

وعندما كان الممثلون الضباط قد اقتربوا منهم ، أدرك ايفان الكسييفتش أنه ليس من الممكن تجنب الدخول في نقاش معهم ، لأن ذلك لن يعطي سوى نتائج معاكسة لما يريد . وفكر برهة من الوقت ثم أمر السرية بالترجل وغمز بعينه لتوريلين واقترب شيئاً فشيئاً من الضباط . ووقف القوزاق وهم منكسرو الخاطر مكتئبو الوجوه ، ينصتون بانتباه الى كلمات الضابط ، وقد أخذ بعضهم يتهامس فيما بينهم . زاخار كورولیوف بلحيته السوداء الطافية على صدره مثل الحديد المنصهر ، كان يبتسم مذهولاً ، وبورشجيف يعبث بسوطه ويخاوص النظر ، ونائب العريف بشنيشنيكوف الذى اقترح ترك القطار في أول مكان ، ظلّ يحدق الى الأمام في الضابط فاغراً فاه ، ومارتن شامل يحك وجنتيه بكفه القذرة ومن ورائه يبدو وجه قوزاقي آخر مصفرّ ، وكراسنيكوف ، وهو حامل رشاش ، مقطباً كمن يتوقع شيئاً ، وتوريلين يلهث بنفسه ، وأوبنيزوف الأنمش يدفع قبعته الى مؤخرة رأسه ويحرك رقبته كثور ينوء تحت نير . ووقف جنود الرعيل الثاني بكاملهم دون أن يرفعوا رؤوسهم ، كأنهم يؤدون الصلاة ، ولم يحر الجمع كلاماً ، بل ظلت الأنفاس اللافحة تسمع من الحشد المتراصف . كانت الوجوه تختلج بمخاوف ساورت نفوسهم جميعاً .

وأدرك ايفان أن القوزاق كانوا على وشك الاذعان . ولن تمضي

بضع دقائق أخرى حتى يستطيع هذا الضابط ذو اللسان اللبق أن يستميلهم الى جانبه ، ينبغي أن ينقشع الانطباع الذى تركه في نفوسهم بأى ثمن . ورفع ايفان يده ، وأجال النظر في الجمع بعينين متسعتين يخالطهما بياض غريب ، وهتف :

— ايها الاخوان ! مهلاً !

والتفت الى الضابط وسأله :

— هل جئت بالبرقية معك ؟

— فسأله الرئيس مندهشاً :

— أية برقية ؟

— البرقية التي تقول ان بتروغراد قد تمّ احتلالها .

— البرقية . . . بالطبع لا . ماذا تبتغي من البرقية ؟

— آه ! اذا فهو لا يحتفظ بالبرقية !

وتنفست السريّة بكاملها الصعداء . ورفع الكثير من القوزاق رؤوسهم ، وتشبثت عيونهم بايفان وكلهم رجاء . فهتف بازدراء وثقة رافعاً صوته الأجش مستأثراً بانتباههم :

— تقول انها ليست معك ، ثم تريد منا أن نصدقك على ذلك ؟ كلا ، لا تستطيع خداعنا !

وهدرت السريّة بلهجة واحدة :

— انها خدعة !

ووضع الضابط يده على صدره علامة الاقناع ، وقال :

— لم ترسل البرقية اليَّ شخصياً ، أيها القوزاق !

ولكنهم لم يصغوا اليه . فشعر ايفان بأنه استعاد ثقة السريّة وكسب مشاعرهم من جديد ، وقال بصوت حازم وكأنه يقطع الزجاج بالماس :

— وحتى لو كانت عندك ، فان سبيلنا هو غير سبيلكم .

نحن لا نريد أن نحارب قومنا ! ولن نسير ضد الشعب . كلا ! لم نعد حمقى . ولن نذهب لنقيم حكومة من الجنرالات . هذا كل ما في الأمر !

وهتف القوزاق باستحسان : «لقد أعطاهم اياها !» «هذا صحيح يا ايفان !» «أطردهم !» «في بتروغراد توجد ثلاثة أفواج قوزاقية لكنهم لا يريدون أن يحارب الشعب !» «ليغربوا عـــن وجوهنا !»

ونظر ايفان الى المبعوثين . كان الضابط القوزاقي ينتظر بصبر فارغ وقد زم شفتيه بقوة ، والى خلفه يقف الآخران كتفاً لكتف . كان أحدهما ، وهو شاب من الأنغش ، معقود الذراعين ، وقد تألقت عيناه اللوزيتان المائلتان ، أمّا الآخر ، فهو كهل أشيب الشعر أوسيتاني . كانت يده حاطة باتخاء على مقبض سيفه ، وكان يجول ببصره بين القوزاق قلقاً ساخراً . وكان ايفان على وشك أن ينهى النقاش ، غير أن الضابط القوزاقي استبقه بعد أن تهامس مع الأنغشي ، وصرخ بصوت جهير :

— يا قوزاق الدون ! هل تسمحون لممثل الفرقة المحلية بالكلام ؟

وتقدم الأنغشي الى الأمام بجزمته الخالية من المهاميز دون أن ينتظر الاذن بالكلام ، وهو يعبث بعصبية بحزامه الرفيع المرصّع بالفضة :

— أيها الأخوة القوزاق ! علام هذه الضجة ؟ أنتم لا تريدون الجنرال كورنيلوف ؟ هل تريدون حرباً ؟ حسناً . لسوف نحاربكم . نحن لسنا خائفين ! لسنا خائفين اطلاقاً ! سوف نمحقكم اليوم . فثمة كتيبتان من ورائنا ! ها !

كان قد بدأ كلامه بهدوء مصطنع ، ولكنه عندما مضى في

حديثه أخذ يصب كلماته بانفعال زائد ، واختلطت عبارات من لغته الأصلية بكلمات روسية ، ركيكة ، وأردف :

ـــ ذاك هو القوزاقي الذى يفسدكم ! انه بلشفي ، وأنتم تتبعونه ! هكذا ! ألست على صواب ؟ ألقوا القبض عليه ! جردوه من السلاح !

وأشار بتحد الى ايفان الكسيفتش ، وجال بعينه في دائرة المجتمعين ، ملوّحاً بيديه دون هدف ، وقد ارتج جسمه انفعالاً واحمر وجهه المكفهر . أمّا زميله فقد حافظ على هدوء ثلجي ، وراح الضابط القوزاقي يعبث بشرابة سيفه . وخيم الصمت ثانية على القوزاق ، وعاودهم القلق والارتباك . وحملق ايفان في الضابط الأنغشي ، في أسنانه التي تلتمع مثل أسنان الحيوان ، وفي خيط رمادى من العرق ينحدر على صدغه الأيسر ، وآلمه أنه ترك الموقف ينزلق في حين كان بمقدوره أن يحسم النقاش بكلمة واحدة ويواصل مسيرته على رأس القوزاق . بيد أن توريلين أنقذ الموقف . فقد وثب الى وسط الحلقة ملوحاً بيديه بانفعال ، وهدر وهو يشق قميصه :

ـــ أيتها الأفاعي الزاحفة ! يا أبالسة . . . ! يا خنازير . . . ! يتملقونكم مثل الزانيات ، وأنتم ترهفون اليهم آذانكم ! لسوف يسوقكم الضباط حيث يشاءون . ماذا أنتم فاعلون ؟ ما ـــ ذا أنتم فاعلون ؟ يجب الاجهاز عليهم ، وأنتم واقفون تنصتون اليهم ! اقطعوا رؤوسهم ، اهدروا دماءهم ! انهم يقومون بتطويقنا الآن فيما أنتم تجعجعون . وسوف يحصدوننا بالرشاشات ! ولن يطول بكم الاجتماع اذا ما بدأت تلعلع ! انهم يرمون بالجزة على عيونكم حتى يصل جنودهم . ها ، وتسمون أنفسكم بعد ذلك قوزاقاً ! ما أنتم الا جمع من النسوان !

وهدر ايفان اليكسييفتش بصوت رهيب : «الى الجياد !»

فانفجرت صرخته مثل القنبلة بين الحشد . واطلق القوزاق صوب جيادهم . ولم تمض دقيقة حتى انتظمت السريّة ثانية رعائل .

وصرخ الرئيس : «مهلا ! أيها القوزاق !» .

فسحب ايفان الكسييفتش بندقيته على كتفه ، ووضع اصبعه بثبات على زنادها ، وهتف :

ـــ لقد انتهى الكلام ! واذا كان علينا أن نتكلم معك الآن فبهذه اللغة !

ولوح ببندقيته بما يفيد ذلك .

وتحرك ركبهم رعيلاً في أثر رعيل . والتفتوا الى الخلف ، فرأوا المبعوثين يمتطون جيادهم ويتذاكرون فيما بينهم . كان الأنغشي يناقش بشدة ، ويرفع يده بين الآونة والأخرى ، ويلوح كم قميصه الحريرى ناصعاً كالثلج . وعندما التفت ايفان للمرة الأخيرة لمح هذا الشريط الحريرى البراق ، وفجأة لاح أمام ناظريه صدر الدون الذى لفحته الرياح ، وأمواجه الخضر المزبدة ، وجناح أبيض لنورس ينساب فوق رؤوس الأمواج .

١٦

في التاسع والعشرين من آب علم كورنيلوف من البرقيات التي تلقّاها من كريموف بأن محاولة اسقاط الحكومة بواسطة القوات المسلحة قد باءت بالفشل .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر قدم الى مقر القيادة ضابط مراسل يحمل رسائل من كريموف . وبعد أن تحدّث معه كورنيلوف وقتاً طويلاً ، استدعى الجنرال رومانوفسكي . وقال وهو يدعك ورقة بعصبية :

— انهيار مطبق ! لقد خسرت وقتنا . فلن يستطيع كريموف أن يأتي بقواته الى بتروغراد في الوقت المطلوب وستضيع علينا الفرصة . ان الشيء الذى بدا سهل التحقيق اعترضته آلاف العراقيل . . . الفشل محتم . أنظر الى حركة القطارات العسكرية !

ونشر خارطة تشير الى تقدم فيلق الخيالة الذى يقوده كريموف والفرقة القوقازية نحو بتروغراد ، ومرقت عبر وجهه المتعب اختلاجة سريعة ، وأردف :

— انهم عمال السكك الأوغاد الذين يضعون أمامنا العراقيل في كل خطوة . وقد فاتهم أننا متى نجحنا لسوف أعلق واحداً من كل عشرة منهم على الفور . اقرأ تقرير كريموف .

وبينما طفق رومانوفسكي يقرأ التقرير ، ممسداً وجهه المنتفخ بيد ضخمة ، جعل كورنيلوف يحرر بسرعة :

نوفوتشيركاسك

الى أتمان قوزاق الدون

اليكسى ماكسيموفيتش كاليدين .

لقد تناهى الى علمى فحوى برقيتك الى الحكومة المؤقتة . ان القوزاق الأماجد قد نفد صبرهم فى صراعهم العقيم مع الأراذل والخونة ، وهم اذ يرون البلاد قد شارفت على دمار محقق ، فقد باتوا على أهبة الاستعداد وسلاحهم بأيديهم للدفاع عن حياة وحرية أرض الأجداد التى نمت واتسعت بعرقهم ودمائهم . سوف نقلل من اتصالاتنا لفترة ما . أرجو منك أن تنسّق أعمالك معى ، كما تملي عليك وطنيتك وشرفك القوزاقيان ،

الجنرال كورنيلوف

٦٥٨ . ١٩١٧/٨/٢٩ .

وانتهى من الكتابة وطلب من رومانوفسكي ارسال البرقية في الحال .

— هل تريد مني أن أرسل الى الأمير باغراتيون برقية ثانية توصيه بمواصلة الرحلة في مسيرة عسكرية ؟

— نعم ، ارسل .

وتوقف رومانوفسكي لحظة ، ثم قال بلهجة المتأمل :

— ليس هناك داع في رأيي للتشاؤم . أنت مخطئ في استباقك الحوادث . .

كان كورنيلوف قد مدّ يده ليخطف فراشة حوّمت حول رأسه . وراحت أصابعه تنقبض وتنفتح ، وبدا وجهه متوتراً بعض الشيء وقد نمّ عن ترقّب . واندفعت الفراشة الى النافذة بعد أن أربكتها حركة الهواء من حولها . ولكن كورنيلوف استطاع أن يمسك بها ، ثم رمى بنفسه على كرسيه الى الوراء وتنفس الصعداء .

وكان رومانوفسكي ينتظر الاجابة على ملاحظته ، بيد أن كورنيلوف استجاب له بابتسامة قاتمة شاردة .

— لقد رأيت حلماً في الليلة الماضية . حلمت أنني قائد لواء في إحدى فرق حملة البنادق ، أقود هجوماً في الكربات . وقد توقفت هيئة أركاننا عند مزرعة على الطريق ، وتقدم نحونا أوكراني حسن الهندام ، جاء ليحيينا . وقدم لي لبناً لأشربه . وقال لي بألمانية لا شائبة فيها وهو ينزع قبعته البيضاء المصنوعة من اللباد : «اشرب أيها الجنرال ! ان لهذا اللبن خصائص صحية رائعة» . ولاح لي في حلمي أنني شربت اللبن ولم أشعر بالدهشة عندما وجدت الأوكراني يربت بلا تكلف على كتفي . ثم مضينا نحو الجبال ولم تعد تبدو مثل جبال الكربات ، ولكن في مكان ما في أفغانستان ، عبر ممر أشبه بطريق الماعز . . . نعم ، هو ذاك ، طريق الماعز ، وكانت الحصباء والصخور البنية تنهار من تحت أقدامنا ، وفي الأسفل ، في قرار الأخدود شاهدنا منظراً طبيعياً من مناظر الجنوب الرائعة يتألق بأشعة الشمس الفضية . . .» .

وهبت نسمة خلل النافذة المفتوحة وعبثت بأوراق مكتبه .

وحوّمت نظرة كورنيلوف الضبابية الغامضة في مكان ما وراء الدنيبر ، فوق المرتفعات القائمة والمروج ذات الخضرة النحاسية .

وشاركه رومانوفسكي النظر ، ثم جر آهة واهنة وأدار عينيه الى صفحة الدنيبر الزجاجية الهادئة التي تشبه المايكا ، والى الحقول الضبابية التي كساها الخريف الباكر غلالة خلابة ناعمة .

١٧

توزّعت مختلف قطع الجيش التي أرسلها كورنيلوف لاحتلال بتروغراد على شبكة واسعة من ثمانية خطوط حديدية صوب الشمال الغربي . وضجت جميع المحطات الرئيسة وحتى المواقف الثانوية والخطوط الجانبية بالقطر العسكرية البطيئة . ولم تعد الكتائب تخضع للنفوذ الأدبي للقيادة العليا ، كما فقدت السرايا المبعثرة الصلة مع بعضها . وازدادت البلبلة بتغير التعليمات أثناء السير ، والأوامر غير المتناسقة ، مما غذّى القلق والتوتر المتفشيين بين الجنود .

كانت قوات كورنيلوف تتحرك ببطء نحو بتروغراد مواجهة مقاومة عنيدة من عمال السكك ومتخطية الصعوبات تلو الصعوبات .

وفي الشاحنات الحمر الصغيرة ، تجمّع قوزاق جياع من جميع مناطق القوزاق ورجال القبائل القوقازية التي تشكل الفرقة المحلية ، الى جانب جيادهم الجائعة أيضاً ، وكانت القطر تقف ساعات بطولها في المحطات بانتظار الارسال . فينطلق الرجال من الشاحنات ويتدفّقون الى غرف الانتظار ، أو يتجمعون فوق الخطوط الحديدية ويأتون على كل ما خلّفته القطر السابقة ، ويسلبون السكان خلسةً ، وينهبون مخازن الطعام .

خطوط سراويل القوزاق الصفر والحمر ، وقمصلات الجنود الخيالة الأنيقة ، وسترات الجبليين الطويلة الضيقة عند الخصر ...

حلل زاهية الألوان لم يسبق لتلك الربوع الشمالية المتواضعة أن رأت مثلها .

وسويّة مع الكتائب الأخرى التي تشكل فرقة قوزاق الدون الأولى ، مضت الكتيبة التي كان يخدم فيها يفغيني لستنتسكي سابقاً ، الى بتروغراد على خط ريفيل — فيتزبرغ — نارفا الحديدى . وقد وصلت نارفا سريتان من الفرقة الخامسة بعد ظهر الثامن والعشرين من آب . وعلم الآمر أن مواصلة السفر مستحيلة تلك الليلة لأن الخطوط وراء نارفا قد دمّرت . فأرسلت ثلة من راصفي العوارض الى الموضع ، واذا ما استطاعت تصليح الخط فى وقت مبكّر فسوف يرسل القطار في الصباح الباكر . وكان القائد مضطراً الى تقبّل ذلك الحل . وارتقى عربته وهو يلعن ، وأخبر بقية الضباط بالنبأ ، ثم جلس يشرب الشاى .

كانت السماء ملبّدة بالغيوم ، والريح تهبّ قاسية عنيفة من الخليج الفنلندى . وعلى الخطوط الحديدية والشاحنات تجمّع القوزاق يتحدثون بأصوات خافتة ، بينما كانت الخيول تضرب الأرض الخشبية بحوافرها منفعلة مضطربة بصفّارات القاطرات . وفي مؤخرة القطار انطلق صوت قوزاقي فتي يغني ، لا أحد يدرى لمن كان يشكو همومه في العتمة :

وداعاً يا شوارع المدينة والحواضر
وداعاً ، يا قريتى العزيزة
وداعاً ، يا حبيبتى الصغيرة الفاتنة
وداعاً ، يا وردتى اللازوردية .
وذات مرة استلقيت من الغسق حتى الفجر
على ذراع حبيبتى الجميلة
ولكنى اليوم من الغسق حتى الفجر
أقف وفى يدى بندقية .

وظهر رجل من وراء بناية المخزن الرمادية . ثم وقف ، وراح يصغي الى الأغنية ، ويتطلع الى الطريق الذى تلتمع على صفحته هنا وهناك بقع من الضوء الأصفر ، ويمم بثقة صوب الشاحنات . وكان لخطواته صدى مجوف في مسامع النائمين ، ولكنه تلاشى عندما سار في الممر الرملي بين خطوط السكك . ومر حول الشاحنة الأخيرة ، فتوقف القوزاقي الواقف عند بابها عن الغناء وناداه صائحاً :

— من ذاك ؟

فأجابه الرجل مكرهاً دون أن يتوقف :

— من تتوقع ؟

— وعم تبحث في الليل ؟ سنسلخ جلودكم يا شذاذ الآفاق !

واستمر الرجل في مشيه حتى بلغ منتصف القطار ، ومد رأسه في باب شاحنة ، وسأل :

— أية سرية أنتم ؟

فقال أحدهم هازلاً في الظلام :

— نحن سجناء !

— كلا ، أنا أقول جاداً .

— السريّة الثانية .

— وأين الرعيل الرابع ؟

— الشاحنة السادسة من الأمام .

كان ثلاثة قوزاق أحدهم مقرفص والآخران واقفان ، يدخنون عند باب الشاحنة السادسة . حدّقوا بصمت في الرجل المتقدم نحوهم .

— مرحباً ، أيها القوزاق !

فأجاب واحد منهم وهو يحملق في وجه القادم الجديد :

— مرحباً .

— هل نيكيتا دوغين على قيد الحياة ؟ هل هو هنا ؟

فأجابه الرجل المقرفص :

— انه أنا .

واستوى على قدميه ، وداس سيكارته بعقب حذائه ، وأردف :

— ولكني لا أعرفك . من أنت ؟ ومن أين ؟

ومد وجهه الملتحي الى الأمام ليتفحّص الغريب الذى يرتدى معطفاً وقبعة عسكرية مدعوكة . فهتف فجأة باستغراب :

— ايليا ! بونتشوك ! من أين نبعت بحق الشيطان ، يا ولدى العجوز ؟

وشد على يد بونتشوك المشعرة بيده الخشنة ، وانحنى عليه وقال بشيء من الهدوء :

— هؤلاء أصحابنا ، لا تخش شيئاً . كيف أتيت الى هنا ؟ قل لي ، عليك لعنة الشيطان !

وصافح بونتشوك القوزاقيين الأخرين ، وأجاب بصوت غليظ مجهد ، كأنه صوت حديد لا جرس له :

— جئت من بتروغراد ، وكنت أبحث عنك في كل مكان . ان ثمة مهمات أمامنا . وعلينا أن نتحدث في الأمر . لقد سرني أن أجدك حياً أيها الأخ .

وابتسم ، فالتمعت أسنانه ناصعة في وجهه الأشهب العريض ذى الحاجبين الكبيرين ، وتألقت عيناه عن سرور مكتوم .

وتساءل القوزاقي الملتحي مستغرباً :

— تريد أن تحدثنا اذا ، ولا تترفع عنا ، وأنت ضابط ؟ شكراً يا ولدى ايليا ، بارك الله فيك ، فنحن لم نذق طعم المعاملة الطيبة . — كانت في صوته نبرة تنمّ عن مزاج ممراح في صوته . فأجابه بونتشوك بلهجة ودّية مماثلة :

— حسبك مزاحاً الآن ! لقد نمت لك لحية تصل الى حزامك وما زلت تعبث !

— بوسعي أن أحلق لحيتي في الحال ، ولكن قل لي ماذا يجرى في بتروغراد . هل بدأت الانتفاضات ؟

واقترح بونتشوك :

— فلنذهب الى الداخل .

وارتقيا الى الشاحنة . ونخس دوغين أحدهم بقدمه ، وهمس :

— انهضوا ، يا أولاد ! لقد وصل ضيف نافع . أسرعوا ! تحركوا .

فتململ القوزاق ونهضوا . وامتدت يدان ضخمتان تنبعث منهما رائحة التبغ وعرق الخيل ، الى وجه بونتشوك تتحسسانه باهتمام في الظلام ، وصاح صاحبهما :

— بونتشوك ؟

— صحيح . وهل أنت تشيكاماسوف ؟

— نعم ، انني مسرور بلقائك أيها الصديق . هل أذهب وأحضر أولاد الرعيل الثالث ؟

— فكرة معقولة .

وجاء الرعيل الثالث كله تقريباً ، ما عدا اثنين لبثا مع الخيل . وتقدّم القوزاق نحو بونتشوك ومدوا اليه أيديهم القوية الخشنة ، منحنين عليه ، متفحصين وجهه الكبير والحزين بعض الشيء على ضوء الفانوس . وكانت ثمة نبرة رفاقية دافئة متماثلة في تحياتهم جميعاً .

وضجت الشاحنة بالرجال وأصبح الجو خانقاً . وتراقصت بقع الضياء على الجدران المصفحة ، وترنحت الظلال المشوهة وانتشرت ، وشع الفانوس بنور زيتي خلل الدخان .

وأعدوا له مقعداً قبالة الفانوس ، وتجمّعوا حوله ، وقد قرفص

القريبون منه على أعقاب أقدامهم ، ووقف الآخرون في حلقة مكتظة . وتنحنح دوغين ، وقال :

— لقد تسلّمنا رسالتك قبل أيام يا ايليا ، ولكننا كنا نرغب في رؤيتك واستشارتك في ما ينبغي أن نفعله . انهم يرسلوننا الى بتروغراد .

— انها على هذه الشاكلة يا ايليا .

قال ذلك قوزاقي واقف قرب الباب . وقد تدلى قرط من شحمة أذنه المتغضنة ، وهو الشخص الذى أهانه لستنتسكي ذات مرة بمنعه من غلي الماء على الصاج ، وأردف :

— لقد جاءنا شتى المحرضين وحاولوا أن يقنعونا بعدم المضي الى بتروغراد ، يطلبون منا أن لا نحارب بعضنا ، وما الى ذلك . وكنا نصغي اليهم ، ولكننا لا نثق بهم كثيراً . فهم ليسوا من قومنا . وقد يضعوننا في مأزق خطر دون أن ندرك ذلك . واذا ما رفضنا الذهاب الى بتروغراد فسوف يرسل كورنيلوف فرقته القوقازية ضدنا ، مما سيؤدى الى اراقة الدماء أيضاً . ولكنك قوزاقي مثلنا ، ونحن نثق بك أكثر من غيرك ، ونحن ممتنون لك لأنك كتبت لنا وأرسلت الينا صحفاً . . . وفي الواقع ، كان الورق يعوزنا للف السكاير .

فقاطعه آخر مغضباً :

— بماذا تهرف ياذا الرأس المتحجر ؟ أنت لا تجيد القراءة ، ومع هذا تتكلم عنها . ولكننا لسنا جميعنا مثلك . لكأنما استعملنا الجرائد للسكاير فقط ! كنا نقرأها من ألفها الى يائها يا ايليا .

— يا لك من شيطان كذوب !

— «يعوزنا للف السكاير» يا له من أسلوب ظريف !

وحاول القوزاقي ذو القرط أن يستدرك ، فقال :

— كلا ، لم أعن ذلك أيها الأولاد . طبيعي أننا نقرأها أولاً . . .

— هل قرأتها أنت ؟

— لم يتسن لي أن أتعلم القراءة . ولكن ما أعنيه هو أننا نقرأها سويّة ، ثم نستعملها للسكاير . . .

وابتسم بونتشوك ابتسامة مقتضبة وهو يحدّق في القوزاق . ووجد صعوبة في الكلام وهو جالس ، فنهض ، وأدار ظهره للفانوس وراح يتكلم بهدوء وهمّة :

— ليس لديكم ما تفعلونه في بتروغراد . ولم تحصل هناك أية انتفاضة . ولكن هل تعرفون لماذا يرسلونكم الى هناك ؟ كي تطيحوا بالحكومة المؤقتة . ومن يقودكم ؟ الجنرال القيصرى كورنيلوف . وماذا يبتغي بعد أن يزيح كيرنسكي ؟ أن يأخذ مكانه . استمعوا أيها القوزاق ! انهم يريدون أن يزيحوا النير الخشبي عن رقابكم ، ليضعوا آخر حديدياً مكانه ! يجب أن تختاروا أهون الشرين . أليس كذلك ؟ فكروا في ذلك مع أنفسكم : ففي أيام القيصر كانوا يلطمون وجوهكم ويستخدمونكم في الحرب . وفي أيام كيرنسكي ما انفكوا يريدون منكم أن تحاربوا ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يلوحوا بقبضاتهم أمام وجوهكم . ولكنكم ستجدون وضعاً مغايراً بعد زوال كيرنسكي ، عندما يتولى البلاشفة زمام السلطة . فالبلاشفة لا يريدون الحرب ، ومتى ما جاءوا الى الحكم حل السلام في الحال . أنا لست الى جانب كيرنسكي ، فليأخذه الشيطان ، فانهم كما يقال مُسحوا بمسحة واحدة !

وابتسم ، ثم مسح العرق عن جبينه بيده ، وواصل :

— ولكني أهيب بكم ألا تريقوا دم العمال . واذا استولى كورنيلوف على السلطة فسوف تخوض روسيا بدماء العمال حتى الركبة ،

وسوف يكون من الصعب انتزاع السلطة من يده وايداعها الى الكادحين .

وظهر قوزاقي قصير يشبه بونتشوك في بدانته من الصفوف الخلفية وقال :

— انتظر لحظة يا ايليا .

وتنحنح الرجل وفرك يديه الطويلتين اللتين تشبهان جذور بلوطة قديمة غسلها المطر ، ونظر الى بونتشوك بعينين ضاحكتين بمثل خضرة الأوراق اليانعة ولُزوجتها وأضاف متسائلاً :

— لقد ذكرت شيئاً عن النير . ترى ما شكل النير الذى سيضعه البلاشفة على رقابنا ؟

— ماذا ، هل ستضعون أنتم أنفسكم نيراً على رقابكم ؟

— ماذا تعني بـ«تضعون نيراً على رقابنا» ؟

— حسناً ، من سيأتي الى الحكم في عهد البلاشفة ، أنت اذا انتخبوك ، أو دوغين ، أو هذا الولد الكبير ، سوف تكون حكومة منتخبة ، حكومة السوفييتات ، فهمت ؟

— ولكن من سيكون على رأسها ؟

— ذاك الذى ينتخب . واذا اختاروك فسوف تكون أنت على رأسها .

— هل هذا صحيح ؟ أم أنك تمزح يا ايليا ؟

وضحك القوزاق ، وجعلوا يتكلمون جميعهم في آن واحد وحتى الحارس الذى أنيطت به حراسة الباب ترك مكانه لحظة ليشاركهم .

— ولكن ماذا سيفعلون بالأرض ؟

— ألن يأخذوها منا ؟

— هل سينهون الحرب ؟ ربما كان مجرد كلام لنقترع لهم ؟

— قل لنا الحقيقة . نحن في ظلام هنا .

— لا يستطيع المرء أن يصدّق الغرباء . وثمة أقاويل كثيرة تحوم حولنا . . .

— أمس جاء بحّار ينتحب على كيرنسكي ، فلطمناه على رأسه وطردناه من الشاحنة . فصرخ الأحمق في وجوهنا قائلاً : «ايه يا أعداء الثورة !» .

— نحن لا نعرف ماذا تعني كلماتهم الطويلة .

وتلفت بونتشوك يمنة ويسرة متفحصاً القوزاق بعينه ، وانتظر حتى هدأوا . لقد زال شعوره الأول من عدم الثقة بنجاحه في مسعاه ، وتيقن أنه مهما حدث فسوف يتوقف القطار في نارفا لأنه يعرف أمزجة القوزاق . فعندما تطوع في اليوم السابق أمام لجنة الحزب لمنطقة بتروغراد لعمل الدعاية بين مفارز فرقة الدون الأولى التى كانت تقترب من بتروغراد ، كان واثقاً من النجاح ، ولكنه عندما وصل نارفا ساورته الشكوك . كان يدرك أن عليه أن يتحدث الى القوزاق باللغة التي يفهمونها ، وكان يخشى أنه قد لا يستطيع الى ذلك سبيلاً ، لأنه مذ غادر الجبهة منذ تسعة أشهر لم يختلط بغير العمال ، واستوعب في الحال وبصورة تامة عاداتهم وأساليبهم في الكلام . كان يحس وهو يتحدث اليهم أن كلمة واحدة تكفي للتعبير عن مقصده ، ولكن الأمر ليس كذلك هنا مع أبناء جلدته القوزاق ، فهو بحاجة الى لغة كاد أن ينساها ، لغة الأرض السوداء ، وبحاجة الى مرونة تحاكي مرونة السحلية ، والى حجة اقناع قوية . فلم يكن اذكاء اللهيب كافياً ، فهنا ينبغي أن تبقى النار تصطلي لتأتي على الخوف المزمن من الجهر بالتمرد ، وتهدم أسوار الجهل ، وتزرع الشعور في نفوس القوزاق بأنهم على صواب ، وتقودهم الى الأمام .

ولكنه في بادئ كلامه مع القوزاق أحس بتلكؤ وتصنّع في

صوته ، كما لو كان هو نفسه يصغي الى كلماته الباهتة ، وحاله ما لمسه من ضعف في حجته ، وأخذ يعذّب نفسه ويعصر ذهنه عله يفتق عن كلمات كبيرة ، كلمات ذات وزن يمكن أن تقتحم الحواجز وتقنع الآخرين . ولكن شفتيه لم تتمخضا الا عن كلمات فارغة أشبه بفقاعات الصابون ، بينما كانت تصطخب في ذهنه أفكار شاردة عقيمة . وكان العرق يتصبب منه بشدة ، كان يتنفس بصعوبة ، ومضى يحدث نفسه «لقد ائتمنت هذه المهمة الكبيرة ، وها أناذا أحطمها بنفسي . لا أستطيع رصف الكلمات . . . ماذا دهاني ؟ كان بوسع رجل آخر أن يتكلم أحسن مني ألف مرة . أوه الى الجحيم ، يا لي من أبله !» .

وانتشله القوزاقي الذى سأله عن النير ، من عبّه ذاك ، فهيأ الكلام الذى أعقب اجابته فرصة ليلم شتات فكره . وأحس بدفق غير اعتيادى من القوة والغنى في اختيار كلمات ماضية واضحة بتّارة . وتشجع ، وكتم انفعاله خلف مظهر ينم عن هدوء ، واذ انهالت عليه الأسئلة عنيفة ثقيلة ، راح يدير النقاش كفارس ذلّل حصاناً جامحاً .

— أخبرنا لماذا كان المجلس التأسيسي سيئاً ؟

وانهمر وابل الأسئلة : «لينينكم ، ألم يرسله الألمان الى هنا ، أليس كذلك ؟» . «كلا» . «اذا من أين جئتم به ؟» . «هل جئت يا بونتشوك من تلقاء نفسك ، أم أنهم أرسلوك ؟» . «لمن سيعطون أرض القوزاق ؟» «ولماذا كانت الحياة تعيسة تحت ظل القيصر ؟» . «أو ليس المناشفة مع الشعب كذلك ؟» . «لدينا مجلس عسكرى خاص بنا وحكومة شعبية . ترى ما حاجتنا للسوفييات ؟» .

لقد عالج الأسئلة واحداً فواحداً . وانفضّ الاجتماع الصغير بعد منتصف الليل ، بعد أن تقرر دعوة السريتين لاجتماع عام في

الصباح . وقضى بونتشوك الليلة في الشاحنة ، وأبدى تشيكاماسوف استعداده ليشاركه بطانياته . وعندما رسم القوزاقي علامة الصليب ، واضطجع ، نبّه بونتشوك قائلاً :

— يبدو أنه لا يهمك المكان الذى تنام فيه . . . ولكن أرجو أن تعذرنا ، فقد صرنا طعاماً للقمل . فلا تتكدر اذا ما لسعك . لقد سئمنا وضعنا حتى تركناه ينمو فيغدو بحجم بيض البط . . .

وتوقف لحظة ، ثم سأل بونتشوك بصوت خفيض :

— الى أى قوم ينتسب لينين يا بونتشوك ؟ أعني أين ولد ، وأين ترعرع ؟

— لينين ؟ انه روسي .

— كلا ؟

— بالتأكيد ، روسي .

فقال تشيكاماسوف بلهجة متعالية :

— كلا ، أيها الأخ ، أنت خاطئ في هذا ! يبدو أنك لا تعرف عنه الكثير . هل تعرف من هو ؟ انه من دمنا . من قوزاق الدون ، وقد ولد في منطقة سالسكي ، قصبة فيليكوكناجيسكايا . . . هل تفهم ؟ ويقال انه كان مدفعياً في الجيش . ووجهه يليق بذلك : فهو يشبه القوزاق الجنوبيين — بعظام وجنتيه الكبيرة وعينيه .

— أين سمعت ذلك ؟

— سمعت القوزاق يتحدثون في ذلك مراراً فيما بينهم .

— كلا ، يا تشيكاماسوف . انه روسي ، وقد ولد في مقاطعة سمبرسك * .

---

* المدينة أوليانوفسك حالياً . **المعرب** .

— لا أصدقك ، للسبب البسيط التالي . خذ بوغاتشوف ، ألم يكن قوزاقياً ؟ وستنكا رازين ؟ ويرماك تيموفييفيتش ؟ تلك هى المسألة ! ليس هناك رجل قاد الناس الفقراء ضد القيصر الا وكان قوزاقياً . وتقول أنت عنه انه من مقاطعة سمبرسك . انني أخجل عند سماع مثل هذا الكلام ، يا ايليا . . .

وتساءل بونتشوك وهو يبتسم :

— اذا ، فهم يقولون انه قوزاقي ؟

— نعم ، وهو قوزاقي بالفعل ، سوى أنه لا يقول ذلك الآن . وحالما أرى وجهه سأتيقن من ذلك .

وأشعل تشيكاماسوف سيكارة ، ونفث دخان تبغ خام حريف في وجه بونتشوك . وتنحنح متفكراً :

— لا شك أنه شيء مدهش ، وقد تشاجرنا حتى كدنا نتضارب من أجل ذلك . ولكن كما ترى ، لو كان لينين قوزاقياً مثلنا ، وأحد رجال المدفعية ، فمن أين جاءته المعرفة ؟ حسناً ، يقال ان الألمان قد أسروه في بداية الحرب ، فتعلم كل ذلك هناك ، ولكنهم تخوّفوا عندما حرّض عمالهم على الثورة وكسب مثقفيهم . «انقشع عنا ، يا ذا الرأس الكبير !» هكذا قال له الألمان . «انقشع الى شعبك ، بحق المسيح ، فأنت تسبب لنا من المتاعب ما لن يكون بمقدورنا ايقافها» . وهكذا أرسلوه الى روسيا ، لأنهم كانوا يخشون أن يحمل عمالهم على الثورة . آها ! انه لشديد المراس ، أيها الأخ !

نطق تشيكاماسوف بالكلمات الأخيرة مباهياً ، وضحك جذلاً في الظلام ، وأضاف :

— لم يسبق لك أن رأيته ، أليس كذلك ؟ كلا ؟ شيء مؤسف . يقال ان له رأساً ضخماً .

وسعل وزفر من منخريه لولباً رمادياً من الدخان ، وأردف :

— ينبغي أن تلد الأمهات المزيد من أمثاله . سوف يطيح بأكثر من قيصر ! كلا ، يا ايليا ، لا تحاول أن تناقشني . ليتبن قوزاقي . ولماذا تريد أن تشكك في ذلك ؟ ان رجالاً كأولاء لم تتمخض عنهم مقاطعة سمبرسك .

لبث بونتشوك صامتاً ، والبسمة على محياه . وقد طال به الوقت دون أن ينام ، فلقد زحف القمل عليه ، ناشراً حكة حادة موجعة تحت قميصه . وتثاءب تشيكاماسوف وشرع يحك جنبه ، وقد طرد عنه النعاس صهيل حصان هائج . فظل يتقلب على جنبيه ، ولما أدرك والغيظ مستبد به أنه يقظ كل اليقظة ، جعل يفكر في اجتماع الغد . وحاول أن يتصور أى شكل ستتخذ مقاومة الضباط ، وابتسم متجهماً . «لعلهم سيهربون اذا ما قاومهم القوزاق بصورة اجماعية ، ولكن من يدرى . أيحسن بي أن أتكلم مع لجنة الحامية من باب الاحتياط» . ولأمر ما تذكّر حادثة وقعت في هجوم في ١٩١٥ ، وكما لو سره أن تجد طريقها الى ذاكرته ثانية ، شرع ذهنه يستجمع بالحاف شتات الذكرى : الوجوه والهيئة البشعة لجنود قتلى من روس وألمان ، نتف من كلام ، وآثار مشاهد الطبيعة أتى عليها الزمن وحال لونها ، وخواطر لم تجد من يعبر عنها ، وأصداء خافتة لقصف المدافع ، ولعلعة الرشاشات المعهودة وثرثرة أحزمتها ، وصداح الأنغام الجميلة حتى الألم ، ومعالم باهتة لفمّ امرأة أحبها ذات مرة ، ومرة أخرى آثار الحرب : الموتى ، الأكمات الواطئة حيث يدفن الجنود سويّة . . .

وجلس وقال ، أو لعله فكر في نفسه : «سأظل أحمل هذه الذكريات حتى الممات ، وكذلك سيحملها كل الذين عاشوا أيامها . لقد شوهت حياتنا كلها ، وحلت عليها اللعنة ! تبّا لهم . . . !

تبّا لهم ! حتى الموت لا يكفي لغسل جرائمهم» .

ثم تذكر لوشا الفتاة التي لها من العمر اثنتا عشرة سنة ، وهي ابنة صديق له كان عامل تعدين قتل في الحرب . كانا يعملان معاً في تولا . فذات مساء بينما كان يسير في أحد الشوارع ، وجد الفتاة — وهي طفلة نحيلة خرقاء — جالسة على مصطبة ، تدخن سيكارة وقد مدت ساقيها بوقاحة الى الأمام . وكان وجهها ذليلاً ، وعيناها كليلتين ، وشفتاها المطليتان اللتان تخفيان مرارة في زاويتيهما ، كانتا ناضجتين قبل الأوان . «ألا تعرفني ، أيها العم ؟» — قالت ذلك بصوت أجشّ وبابتسامة المحترفات ، ونهضت . ثم أجهشت ببكاء يائس كالأطفال ، حانية رأسها لاصقة اياه بساعد بونتشوك .

فصرّ على أسنانه وأنّ ، وكاد أن يختنق من الحقد الذى ملأ قلبه . وكان يدلك صدره الأشعر طويلاً ، وشفتاه ترتجفان وجلس يغلي صدره ، كأنما كان الحقد يغلي فيه مثل الحمم الساخنة ، يثقل عليه نفسه ويسبب له ألماً وخزازاً تحت قلبه .

ولم يعاوده النوم الا قبيل الصباح . وفي الفجر ذهب الى لجنة عمال السكك وقد بدا أصفر مرهقاً أكثر من ذى قبل ، وأقنعهم بعدم ارسال القطار الذى يقل الجنود القوزاق الى نارفا ، ثم بحث عن لجنة الحامية ليضمن مساندتها .

وعاد الى القطار في الساعة الثامنة ، وهو يحسّ بجميع خلجاته برودة الصباح . وقد عراه شعور غامض بالفرح لنجاحه المحتمل في مسعاه ، ولأشعة الشمس المتساقطة على سقف المخزن الصدئ ، ولصوت امرأة رقيق موسيقي . وكانت زخة ثرة من المطر قد تساقطت في الهزيع الأخير من الليل . وكانت أرض الخطوط الحديدية رطبة وقد خددتها آثار مسارب صغيرة ، وانبعثت منها رائحة ندية ولما

تزل حفر قطرات المطر على سطحها ، وكأنها آثار جدرى .

وفيما هو يدور حول الشاحنات اتجه نحوه ضابط يرتدى معطفاً وجزمة ملطخة بالطين . فلما عرف بونتشوك أنه الرئيس كالميكوف تمهّل في خطاه . وتوقف كالميكوف وقد شعّ من عينيه السوداوين المائلتين برود ظاهر .

ـــ النائب الضابط بونتشوك ؟ ألا تزال مطلق السراح ؟ أعذرني فلن أقدّم لك يدى . . .

وزمّ شفتيه بقوة وحشر يديه في جيبيه . فأجابه بونتشوك هازئاً :

ـــ لقد تعجلت بالكلام ، فلم يكن لدىّ ميل لأن أمد لك يدى .

ـــ ماذا تفعل هنا ؟ تنجو بجلدك ؟ أم . . . جئت من بتروغراد ؟ أنت لست مبعوثاً من الصديق كيرنسكي ؟

ـــ أهذا استجواب ؟

ـــ انه محض فضول مشروع عن مصير هارب كان يوماً زميلاً .

فهزّ بونتشوك كتفيه ، وقال مبتسماً :

ـــ أستطيع أن أؤكد لك ، أنني لم آت مبعوثاً من كيرنسكي .

وتطلع كالميكوف الى قامة بونتشوك المحدودبة بعض الشيء بنظرة رثاء وازدراء ، وقال :

ـــ ولكنكم متّحدون بالتأكيد كالأحبة الآن أمام الخطر . وعلى كل حال ، من وما أنت ؟ لا شارات على كتفيك ، وترتدى معطف جنود ، تاجر سياسة جوال ؟ هل أنا مصيب فيما أقول ؟

واستدار على عقبيه ومضى دون أن ينتظر الجواب .

ووجد بونتشوك دوغين ينتظره فى الشاحنة .

ـــ أين كنت ؟ لقد بدأ الاجتماع .

ـــ ماذا ، هل بدأ ؟

ـــ نعم . لقد عاد هذا الصباح آمر سريتنا كالميكوف من بتروغراد ، ودعا القوزاق للاجتماع . وقد ذهب قبل لحظة ليتحدث اليهم .

ولبث بونتشوك بضع دقائق ليعرف متى أرسل كالميكوف الى بتروغراد . . . فأخبره دوغين بأنه كان غائباً منذ شهر .

«أحد أعداء الثورة ، أرسله كورنيلوف الى بتروغراد بحجة دراسة فن القصف ، ولا بد أنه من أتباعه المخلصين» ـــ قال ذلك في نفسه فيما كان يسير مع دوغين نحو الاجتماع .

وخلف الحانوت كانت حلقة خاكية كثيفة من قمصلات القوزاق ومعاطفهم . وفي الوسط وقف كالميكوف على برميل مقلوب وقد أحاط به عدد من الضباط ، يصيح بعزم وقوة :

ـــ . . . نسير نحو نتيجة مظفرة . وهم يثقون بنا ، وسوف تكون عند حسن ظنهم ، وها أنذا أتلو عليكم برقية من الجنرال كورنيلوف .

وبسرعة لا مبرر لها أخرج ورقة مدعوكة من جيب قمصلته وهمس في أذن قومندان القطار .

وجاء بونتشوك ودوغين واختلطا بالقوزاق . وشرع كالميكوف يقرأ بطريقة تعبيرية لا تخلو من حماس :

ـــ أعزائي القوزاق ، أيها الأصدقاء ! ألبس على جماجم أسلافكم ترامت رقعة الأمة الروسية ، وأصبحت روسيا أمة عظيمة بفضل بسالتكم الجبارة ، ومآثركم المجيدة ، وتضحياتكم وبطولاتكم ؟ أنتم يا أبناء الدون الهادئ الأحرار ، ومحاربي الكوبان نهرنا الجميل ، ويا أبناء التيريك الثائر ، ويا نسور الأورال ، وأورنبرغ ، واستراخان ، وسميريتشنسك ، وسهوب سيبيريا وجبالها . وعبير البيكال القصية ، والآمور والأوسوري ، لقد رفعتم على الدوام شرف

ومجد راياتكم ، ان الأرض الروسية مليئة بالأساطير والأعمال البطولية لآبائكم وأجدادكم . وقد دنت الساعة لتهرعوا الى انقاذ تربة وطنكم . انني أتهم الحكومة المؤقتة بالتذبذب ، وعدم الأهلية وعدم القابلية على الحكم ، وبالسماح للألمان بالسيطرة على شؤون البلاد الداخلية ، كما حصل في حادث انفجار قازان ، حيث أصاب الخراب حوالي مليون قنبلة و١٢,٠٠٠ مدفع رشاش . كما أنني أتهم أعضاء معينين في الحكومة بالخيانة . وبوسعي البرهنة على ذلك . فعندما حضرت اجتماعاً وزارياً في قصر الشتاء * في الثالث من آب ، أخبرني رئيس الوزراء كيرنسكي وسافنكوف بألا أفصح عن كل ما أريد لوجود أناس غير مخلصين بين أعضاء الحكومة . واضح اذا أن حكومة كهذه تقود البلاد الى الدمار ، وأن حكومة كهذه لا يمكن أن تكون موضع ثقة ، ومن مثل هذه الحكومة لا يمكن أن تنتظر روسيا الشقية الخلاص . . . ولهذا السبب ، عندما طلبت الحكومة المؤقتة مني ، استرضاء للأعداء ، أن أستقيل من منصب القائد العام للقوات المسلحة ، رأيت أنا ، القوزاقي المخلص لشرفه وضميره ، أن أرفض هذا الطلب ، مؤثراً الموت في ساح المعركة على العار وخيانة الوطن الأم . أيها القوزاق ، يا فرسان الأرض الروسية ! قطعتم على أنفسكم وعداً أن تهبوا معي للدفاع عن الوطن الأم عندما أجد ضرورة لذلك ؟ ان تلك الساعة قد دقّت . ذلك أن أرض الأجداد على شفا الهاوية ! ولن أرضخ لأوامر الحكومة المؤقتة ، ولأجل أن أنقذ روسيا الحرة ، سوف أقاوم الحكومة ومستشاريها عديمي الشعور بالمسؤولية الذين يبيعون البلاد . صونوا أيها القوزاق الشرف والعزة ، وبرهنوا على بطولة شعبكم التي لا ضريب

* قصر القياصرة الروس في بتربورغ (لينينغراد حالياً) .

لها ، لتنقذوا الوطن والحرية التي حققتها الثورة ، أطيعوني ونفذوا أوامري ! اتبعوني ! ٢٨ آب ١٩١٧ . القائد العام للقوات المسلحة **الجنرال كورنيلوف**

وتريث كالميكوف وهو يطوي الورقة ، ثم هتف :

— ان عملاء البلاشفة وكيرنسكي يعيقون حركة قطعاتنا على الخطوط الحديدية . لقد تسلمنا تعليمات من قائد القوات المسلحة تقضي بالذهاب الى بتروغراد على ظهور الجياد متى ما أصبح من الصعوبة بمكان السفر عن طريق السكك الحديد . وسوف نبدأ رحلتنا اليوم . استعدوا لمغادرة القطار .

واندفع بونتشوك الى وسط الحلقة وهو يشق طريقه بصعوبة خلل الحشد ، ورفع صوته جهيراً دون أن يقترب من جمع الضباط :

— أيها الرفاق القوزاق ! لقد أرسلني اليكم عمال وجنود بتروغراد . ان ضباطكم يقودونكم لمحاربة اخوانكم ، لقهر الثورة . فاذا أردتم أن تهاجموا الشعب ، واذا أردتم أن تعيدوا الملكية ، فاتبعوهم ! ولكن عمّال وجنود بتروغراد ينتظرون منكم أن لا تفعلوا فعلة قابيل . وهم يبعثون اليكم تحياتهم الأخوية الحارة ، ويأملون أن يجدوا فيكم حلفاء لا أعداء . . .

ولم يسمح له بالاستمرار . صخب لغط يعز عن الوصف ، وكادت عاصفة الهتافات أن تطيح بكالميكوف من على البرميل . ولكنه خطا نحو بونتشوك ، ثم تراجع بضع خطوات واستدار نحو القوزاق :

— أيها القوزاق ! لقد فر نائب الضابط بونتشوك من الجبهة في العام الماضي ، وأنتم تعرفون ذلك . فهل يسعنا أن نصغي الى هذا الجبان الخائن ؟

وطغى على صوته جثير العقيد سوكين ، آمر السريّة السادسة :

— القوا القبض على هذا الوغد ! كنا نريق دماءنا بينما كان يختبئ في المؤخرة ! ألقوا عليه القبض !

— انتظر لحظة أنت والقاؤك القبض !

— دعوه يتكلم !

— لا تكمّ فمّ غيرك ! ليقل هو رأيه !

— ألقوا القبض عليه !

— نحن لا نريد هاربين من الجيش !

— هيا ، يا بونتشوك ! تكلّم !

— فليسقطوا !

— أعطهم درساً يا بونتشوك ، أعطهم درساً ! أصبحت شجى في حلوقهم !

وارتفعت جوقة من الأصوات المتضاربة بين القوزاق . واعتلى البرميل قوزاقي حاسر الرأس مديد القامة ، وهو عضو في لجنة الكتيبة الثورية . وبكلمات نارية طلب من القوزاق ألا يطيعوا أوامر الجنرال كورنيلوف ، خائن الثورة ، وتكلم عن النتائج الوخيمة لمحاربة الشعب . وفي خاتمة حديثه التفت الى بونتشوك ، وصاح :

— وأنت أيها الرفيق ، لا تظن أننا نزدريك كما يفعل الضباط . نحن مسرورون لرؤيتك ، ونحترم فيك ممثلاً للشعب ، ولأنك لم تبصق على القوزاق عندما كنت ضابطاً ، بل كنت معهم كالأخ . ولم نسمع منك كلمة فظة مطلقاً ، ولا تعتقد أننا ، نحن الجهلة ، لا نقدّر المعاملة الطيبة . فحتى القطيع يفهم الكلمة الطيبة ، فكيف بنا نحن بني البشر . اننا نرحب بك ، ونرجو منك أن تخبر عمال بتروغراد أننا لن نرفع يداً ضدهم .

وعلا هدير من هتافات التأييد مثل قرع الطبول . ارتفع عالياً ، ثم خفت ببطء ، وتلاشى .

وقفز كالميكوف ثانية الى البرميل ، وراح يترنح بقوامه الوسيم نحو القوزاق ويشمّر بيديه . وجعل يتكلم وهو شاحب يلهث عن مجد وشرف الدون ، وعن رسالة القوزاق التاريخية ، وعن الدم الذى أراقوه ضباطاً وجنوداً .

وأعقب كالميكوف قوزاقي له شعر حائل اللون . ولكن صياح الجمهور طغى على تهجمه المحموم على بونتشوك ، وسحبوه من على البرميل . وفي الحال قفز تشكاماسوف . ونعق وهو يلوح بكلتا يديه الى الأسفل كمن يحطب جذعاً :

— لن نذهب ! لن نترك القطار ! يقول كالميكوف ان القوزاق وعدوا بمساعدة كورنيلوف ، ولكن مَنْ طلب منا هذا الشيء ؟ اننا لم نعد كورنيلوف بشيء ! ان ضباط تحالف القوزاق هم الذين أعطوا الوعود . لقد هز الجنرال كريموف ذيله ، اذا فليساعده هو .

وتواثب الخطباء واحداً بعد الآخر على البرميل . وكان بونتشوك واقفاً محني الرأس ، يعلو الاصفرار المرضي وجنتيه والدماء تضج في عروق وجهه ورقبته . كان الجو مكهرباً . كان محض تسرع طفيف كفيلاً بأن يتمخض عن اراقة دماء . ولكن جنود الحراسة جاءوا دفعة واحدة ، فترك الضباط القوزاق الاجتماع .

وبعد نصف ساعة هرع دوغين مهرولاً الى بونتشوك :

— ماذا نفعل يا ايليا ؟ ان كالميكوف يعد شيئاً ما . لقد أفرغوا المدافع الرشاشة ، وأوفدوا رسولاً على ظهر جواد الى مكان ما .

— هيا ! اجمع عشرين قوزاقياً أو ما اليهم . أسرع !

وازاء عربة الضباط كان كالميكوف وثلاثة ضباط آخرين يحملون الخيل مدافع رشاشة . فتقدم نحوهم بونتشوك بخطى سريعة ، ونظر الى القوزاق خلفه ، ومد يده الى جيب معطفه ، وسحب مسدساً جديداً معتنى بتنظيفه من النوع الذى يحمله الضباط ، وصاح :

— كالميكوف ، أنت رهن الاعتقال ! ارفع يديك . . .

ووثب كالميكوف بعيداً عن الحصان ، وانحنى ليسحب مسدسه من بيته . الا أن طلقة مرقت فوق رأسه ، وكرر بونتشوك بصوت ثقيل ينذر بالسوء :

— ارفع يديك !

وارتفع زناد مسدسه ببطء الى وضعية نصب نصفي . فراقبه كالميكوف بعينين ضيقتين ، ورفع يديه ببطء مرتعش الأصابع . وسلم الضباط أسلحتهم مرغمين .

وتساءل نائب ضابط شاب من حملة الرشاشات باحترام :

— هل يجب أن نسلم سيوفنا ؟

— نعم .

وأنزل القوزاق الحمولة عن الخيل وجاءوا بالرشاشات الى داخل الشاحنة .

وقال بونتشوك لدوغين :

— ضع على هؤلاء حراسة . أمّا أنت يا تشيكاماسوف ، فالق القبض على الضباط الآخرين وآت بهم الى هنا . وسآخذ أنا ودوغين كالميكوف الى لجنة الحامية الثورية . أيها الكابتن كالميكوف ، أخط الى الأمام رجاء !

— عمل بارع . . . بارع ! — قال أحد الضباط بنبرة اعجاب ، وهو يقفز الى الشاحنة ويرى الى بونتشوك ودوغين وكالميكوف وهم يسيرون .

— أيها السادة ! يا للعار ، أيها السادة ! لقد تصرفنا مثل الأطفال ! فلم يفكر أحد في اطلاق النار على ذلك النذل ! كان ينبغي أن نلقنه درساً عندما رفع مسدسه بوجه كالميكوف ، فينتهي كل شيء .

قال ذلك العقيد سوكين وهو ينظر الى بقية الضباط ساخطاً ، ثم راح يبحث عن سيكارة في علبته بأصابع مرتجفة .

وألمح ضابط شاب من حملة الرشاشات معتذراً :

— كان هناك منهم رعيل بأكمله ، بوسعهم ابادتنا .

وأشعل الضباط السكاير بصمت ، وراحوا يتبادلون النظرات بين آن وآخر . لقد أذهلتهم السرعة التي تصرف بها بونتشوك .

ولبضع خطوات مشى كالميكوف دونما كلام ، ولكنه كان يعض ذؤابة شاربه السوداء . والتهبت وجنته اليسرى البارزة العظم وكأنها قد صفعت وكان المارة يتوقفون ويحدقون دهشين ويتهامسون مع بعضهم . وكانت سماء ذلك المساء غائمة فوق المدينة . ووقدت أوراق البتولا التي جردها آب المارق مثل سبيكة حمراء على صفحة الطرق . وكانت الغربان تحوم حول قبة الكنيسة الخضراء . وخلف المحطة ، خلف الحقول المعتمة ، هبط المساء بارداً ، ولم تزل ترى صوب الجنوب غيوم بيضاء — رمادية ، ممزقة ، تندفع من نارفا الى بسكوف ولوغا . وعبر الحدود غير المنظورة ، زحف الليل بظلاله .

وعند المحطة استدار كالميكوف وبصق في وجه بونتشوك ، وقال :

— نذل . . .

وزاغ بونتشوك عن البصاق ، ورفع حاجبيه . واستحثته أصابعه ليمسك المسدس . ولكنه كبح جماح نفسه وأمر الضابط باقتضاب أن يواصل المشي .

واستأنف كالميكوف السير وهو يصب لعناته ويرسل سيلاً من السباب . ويتوقف بين حين وآخر ثم يلتفت نحو بونتشوك ويصرخ :

— أنت خائن ! وسوف تدفع ثمن ذلك !

وكان بونتشوك يستحثه مراراً وتكراراً قائلاً :

— هيا ! رجاء . . .

ويقف كالميكوف مرة أخرى ويكور قبضتيه ، ويهدر مثل الحصان الجامح . ثم اقتربا من صهريج الماء . وصرخ كالميكوف وهو يطحن بأسنانه :

— لستم حزباً ، بل عصابة من حثالة المجتمع . من هم قادتكم ؟ هيئة الأركان الألمانية ! بلاشفة . . . هاها ! هجناء ! ان حزبكم يمكن أن يُشترى مثلما تُشترى العاهرات . أوغاد ! أوغاد ينبغي ابادتهم . . . ! لقد خنتم أرض الآباء ! لو كان بمقدوري لعلقتكم على شجرة واحدة . . . ولكن الوقت سيجين . لم يبع لينينكم روسيا بثلاثين ماركاً ألمانياً ، بل أخذ مليوناً كاملاً ، لا أقل . . . وأخفى نفسه . . . يا له من مجرم !

وهتف بونشوك فى الحال وهو يلهث بكلماته :

— قف عند الحائط !

فبدا الاضطراب على دوغين :

— ايليا ! بونتشوك ! انتظر لحظة ! ماذا أنت فاعل ؟ قف !

ولاح وجه بونتشوك أزرق شوهه الغيظ ، ووثب على كالميكوف وصفعه بقوة على صدغه . وداس على القبعة التي طارت من على رأس الضابط ، وسحب الأسير نحو جدار صهريج الماء الآجرى القاتم .

— قف !

وهدر كالميكوف وهو يقاومه :

— ماذا ستفعل . . . ؟ أنت . . . لن تجرؤ . . . هل تجرؤ على ضربي !

وعندما التصق ظهره بالحائط ، استقام ، وأدرك كل شيء في الحال .

— اذا ، فسوف تقتلني !

وخطا خطوة الى الأمام ، وفتح أزرار معطفه بخفة .

— ارم ، يا ابن الخنزير ! ارم . . . ! وانظر كيف يموت الضباط الروس . . . ! أنا أقف بوجه الموت . . .

وأصابته الطلقة في فمه ، وتردد صدى الاطلاقة حول صهريج الماء وخمش كالميكوف رأسه بيده اليسرى ، وترنح ، ثم سقط . وقوس ظهره ، وبصق أسناناً ملطخة بالدم على صدره ، ولعق شفتيه بلسانه . ولم يكد يلمس ظهره الأرض الندية حتى أطلق عليه بونتشوك ثانية . فتشنجت أوصال كالميكوف وارتعشت ، وانحنى على جنبه ، ثم سقط رأسه على صدره كالطير الوسنان ، وشهق .

ابتعد بونتشوك . فلحق به دوغين .

— ايليا . . . لماذا أطلقت عليه النار يا بونتشوك ؟

فامسك بونتشوك بكتفيه ، وسمر عينيه بعيني القوزاقي ، وقال بلهجة رقيقة هادئة بشكل غريب :

— أمّا نحن أو هم ! وليس هناك طريق وسط . الدم بالدم . فهمت ؟ ان أشخاصاً مثل كالميكوف ينبغي أن يزاحوا ، يسحقوا كالأفاعي . كما يجب أن يرمى أولئك الذين يتوجعون عليهم . أفهمت ؟ علام تتوجع ؟ اجمع شتات نفسك ! كن صلباً ! ولو كنّا بيد كالميكوف القذرة ، لكان قد رمانا دون أن يرفع السيكارة من فمه ، وأنت . . . انّما أنت طفل لا يعرف غير البكاء !

بيد أن دوغين هز رأسه واصطكت أسنانه ، وفقدت قدماه ، في جزمتهما المتسخة ، حاسة الاتجاه .

وسارا في الشارع المهجور دونما كلام . والتفت بونتشوك الى

الوراء . كانت الغيوم الداكنة السائرة صوب الشرق تزيد واطئة في السماء . ومن خلال فجوة بين السحاب أطل القمر شاحباً مغسولاً بالمطر كأنه عين محولة خضراء . وفي زاوية وقف جندى وامرأة على كتفيها شال أبيض ملتصقين مع بعضهما . كان الجندى يعانق المرأة ويسحبها اليه ، ويسرّ لها بشيء . ولكنها دفعته من صدره بيديها وابتعدت برأسها عنه وهمهمت بنبرة مختنقة : «لا أصدقك ! لا أصدقك !» . ثم انطلقت من شفتيها ضحكة فتية ناعمة .

١٨

في الحادى والثلاثين من آب أطلق الجنرال كريموف الرصاص على نفسه حين استدعاه كيرنسكي الى بتروغراد .

ثم أخذ ممثلو وحدات جيش كريموف وقوادها يتوافدون على قصر الشتاء ليعلنوا ولاءهم . وأحنى الرجال الذين كانوا الى وقت قريب ماضين للانتفاض على الحكومة المؤقتة هاماتهم ومسحوا أذيالهم أمام كيرنسكي ، مؤكدين له ولاءهم التام . وكان جيش كريموف يعالج سكرات الموت بعد أن تحطمت معنوياته . وكانت بعض القطعات ما تزال تزحف على بتروغراد بفعل الاستمرارية ليس الا ، ولكن لم يبق للحركة أى هدف بعد ، لأن تمرد كورنيلوف كان في رمقه الأخير ، وقد همد أوار الانفجار الرجعي ، وأصبح حاكم البلاد الوقتي — والحق أن لغده لم يعد لين الملمس — يتبختر كنابليون ، ويتكلم في اجتماعات الحكومة عن «اشاعة الاستقرار السياسي في جميع أنحاء روسيا» .

وقبل انتحار كريموف بيوم عيّن الجنرال ألكسييف قائداً للقوات المسلحة . ولكن اليكسييف الذى يعرف كيف يحسب للأمور

حسابها ، رفض في البدء رفضاً باتاً المنصب الذى عيّن له ، ادراكاً منه لطبيعة مركزه المواربة ، غير أنه وافق بعد ذلك بدافع وحيد ، هو رغبته في تخفيف عقوبة كورنيلوف والذين اشتركوا معه بشكل من الأشكال في تنظيم عصيانه المعادى للحكومة . واتصل اليكسييف بكورنيلوف اتصالاً هاتفياً مباشراً في مقره ، ليطمئن من موقف القائد السابق ازاء تعيينه ووصوله الوشيك . وقد استطالت المفاوضات متقطعة بين حين وآخر ، حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي اليوم نفسه عقد كورنيلوف مؤتمراً لضباط أركانه ومساعديه . فكانت الأكثرية الى جانب مواصلة الحركة .

والتفت كورنيلوف الى لوكومسكي الذى ظل صامتاً خلال النقاش :

— هل ستدلي برأيك يا ألكسندر سيرغييفتش ؟

فأوضح لوكومسكي بعبارات متحفظة ولكنها جازمة ، أنه ضد استمرار الكفاح من أجل السلطة . فقاطعه كورنيلوف بحدة :

— الاستسلام اذاً ؟

فهز لوكومسكي كتفيه ، وقال :

— ان الظروف تفصح عن نفسها .

واستمر النقاش نصف ساعة أخرى . كان كورنيلوف خلال ذلك صامتاً وهو يبذل جهداً جهيداً للسيطرة على نفسه . ثم فضّ الاجتماع واستدعى لوكومسكي بعد ساعة . وقال له :

— أنت على حق يا ألكسندر سيرغييفتش .

وطق أصابعه وقال بلهجة مهمومة وهو ينظر جانباً بعين مدلهمة كليلة :

— ان الاستمرار في المقاومة ضرب من الجنون والاجرام .

وجلس ينقر على المنضدة بأصابعه وبدا وكأنه يصغي الى شيء ما — ربّما الى أفكاره الشاردة كالفئران — وتساءل :

— متى يصل أليكسييف ؟

— غداً .

وفي اليوم الأول من أيلول وصل أليكسييف الى مقر القيادة . وفي مساء اليوم نفسه اعتقل كورنيلوف ، ولوكومسكي ، ورومانوفسكي حسب تعليمات الحكومة المؤقتة .

وقبل أن يُرسل القادة المعتقلون الى فندق متروبول ، ليوضعوا تحت الحراسة هناك ، أجرى ألكيسييف مقابلة شخصية مع كورنيلوف دامت عشرين دقيقة . ثم غادر الغرفة وهو يهتز من أعماقه ، ويكاد لا يسيطر على نفسه . وعندما حاول رومانوفسكي أن يواجه كورنيلوف اعترضته زوجة الأخير قائلة :

— آسفة ، فلقد طلب مني ألا أسمح لأى انسان بالدخول مطلقاً .

فألقى رومانوفسكي الى وجهها القلق نظرة خاطفة وعاد على عقبيه ، يطرف بانفعال بعينيه .

وفي اليوم التالي في بيرديتشيف ألقي القبض على القائد العام للجبهة الجنوبية الغربية الجنرال دينكين ، مع الجنرالات ماركوف ، وفانوفسكي ، وأرديلي .

وهكذا في بيخوفو ، في ثانوية البنات النبيلات ، انتهى تمرد كورنيلوف نهاية غير مظفرة ، كما شاء لها التاريخ . ولكنها تمخضت عن تمرد جديد ، ذلك أن البوادر الأولى لخطط الحرب الأهلية القادمة والهجوم الموسع على الثورة كانت قد أعدت في الواقع في «أيام كورنيلوف» .

١٩

في صباح يوم باكر من أيام أكتوبر الأخيرة تسلم الرئيس لستنسكي تعليمات من آمر الكتيبة تقضي بأن يمضي بسريته مشياً على الأقدام الى ساحة قصر الشتاء . فأصدر الأوامر اللازمة لرئيس العرفاء ، وارتدى ملابسه على عجل . واستيقظ الضباط الآخرون وهم يتثاءبون ويلعنون ويسألون :

— ما سبب ذلك ؟

— البلاشفة ! . .

— أيها السادة ! من أخذ خراطيشي ؟

— الى أين ننطلق ؟

— هل تسمعون ؟ يطلقون النار !

— من يطلق النار ، عليك اللعنة ! هذه هلوسة ، لا غير !

وذهبوا الى الباحة . ثم انتظمت السريّة في هيئة رعائل . وقادهم لستنسكي في مسيرة سريعة الى الشارع . كان شارع نيفسكي مهجوراً . وكانت تتناهى الى الأسماع اطلاقات من بعيد بين الحين والآخر . وكانت سيارة مسلحة تدور حول ساحة قصر الشتاء ، وكان طلاب الكلية العسكرية في الحراسة . وخيّم على الشوارع صمت صحراوى . وعند أبواب القصر التقى القوزاق بمفرزة من طلاب الكلية العسكرية وضباط السريّة القوزاقية الرابعة . وانتحى أحدهم ، وهو آمر السرية ، بلستنسكي جانباً وقال له :

— هل جئت بكامل أفراد السريّة معك ؟

— نعم ، ولم ؟

— لقد رفضت السرايا الثانية والخامسة والسادسة المجيء ، ولكننا جئنا بمفرزة الرشاشات معنا . كيف حال قوزاقك ؟

فأتى لستنسكي بحركة مقتضبة من يده وقال :

— لا يركن اليهم ! ولكن ماذا عن الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

— ليستا هنا . لن تأتيا . أنت تدرى أن من المتوقع أن يقوم البلاشفة بهجوم اليوم . الشيطان يدرى ماذا ينتظرنا .

وتأوه باكتئاب وأضاف :

— ليتني كنت الآن في الدون بعيداً عن كل هذا . . .

وقاد لستنتسكي سريته الى باحة القصر . وكوم القوزاق أسلحتهم وأخذوا يتجولون في الساحة الفسيحة ، في حين تجمّع الضباط في أحد الأركان يدخنون ويتحدثون .

وبعد ساعة وصلت كتيبة من طلاب الكلية العسكرية وفوج النساء . وأخذ طلاب الكلية العسكرية مواقعهم مع رشاشاتهم في ممر القصر . واحتشدت النساء في الباحة . وتجمع القوزاق حولهن وجعلوا يطلقون نكات نابية ، وصفع عريف احدى النساء على ظهرها وقال :

— انك تصلحين لانجاب الأطفال ، يا خالة ، وليس للتدخل في شؤون الرجال .

فردت عليه «الخالة» الصدوف بصوت عميق :

— احبل أنت بالأطفال !

فقال توكوفنوف وهو من المؤمنين القدامى ، وذو كلف بالجنس اللطيف ، ممازحاً النساء المجندات :

— ايه يا بنات ، ما لكّن وهذا .

— هن بحاجة الى سلخ جلودهن ، العاهرات !

— ما أروعهن من جنود !

— لماذا لا يبقين في بيوتهن ، يعملن شيئاً أفضل من هذا؟

— هن من الأمام يماثلن الجنود ، أمّا من الخلف فهن أشبه بقديس ، أو بشيء آخر لا يعلمه الا الشيطان ، يثرن فيك الرغبة لبصاق !

— أنت أيتها المغوارة ! هزى عجزك قليلاً والا هززته لك !

وقهقه القوزاق عالياً . ولكن أمزجتهم المرحة تبخرت عند اقتراب الظهيرة . وتوزعت النساء فصائل ، وحُصّنت الأبواب بجذوع كبيرة من خشب الصنوبر . وكانت تقودهن امرأة ضخمة ذات جرم رجولي ، تحمل مدالية القديس غيورغي على معطفها الذى يناسبها . وأخذت السيارة المسلحة تدور حول الساحة أكثر من ذى قبل ، ونقل تلامذة الكلية العسكرية صناديق ملأى بالخراطيش وأحزمة الرشاشات .

— حسناً ، أيها الفتية ، لقد زجّ بنا في المعمعان .

— الجو يوحي بالقتال .

— علام جاءوا بك الى هنا اذا ؟ لتنشب ظفرك بالنساء ؟

وتجمع حول لاغوتين رهط من الرجال من منطقته يتحدثون عن شيء ما . واختفى الضباط ، ولم يبق في الباحة غير القوزاق والنساء . وكان ثمة عدد من الرشاشات المهجورة قائماً عند البوابات . وقد التمعت دروعها الندية .

وبدأت السماء ترذُّ عند الغروب . وشرع القوزاق يتذمرون لأنهم تركوا بلا طعام .

— أين لستنتسكي ؟

— انه في القصر ولن يدعنا طلاب الكلية العسكرية ندخل الى هناك .

— يحسن بنا أن نرسل أحدهم ليأتي بمطبخ الميدان .

وأُرسل رجلان . وقد نصحهما لاغوتين قائلاً :

— لا تأخذا بندقيتيكما خشية أن ينتزعوهما منكما .

وانتظر القوزاق بضع ساعات أخر ، دون أن يبدو أثر لمطبخ الميدان ولا الرسولين . واتضح فيما بعد أن المطبخ قد أعاده على

أعقابه جنود كتيبة أخرى . وعندما حلّ الغسق استلقى فوج النساء المتجمع أمام الأبواب ، في خط طويل خلف الجذوع ، ورحن يطلقن النار عبر الساحة . ولم يسهم القوزاق في هذا ، بل جلسوا يدخنون وقد اشتد بهم السأم . وأخيراً جمع لاغوتين السريّة أمام الحائط ، وخاطب الجمع وهو يراقب نوافذ القصر متوجساً :

— اليكم حقيقة الموقف ، أيها القوزاق ! لا معنى لبقائنا هنا . يجب أن نذهب والا فسوف نكابد خسارة بلا مبرر . سوف ينسفون القصر ، وأين سيكون مصيرنا بعد ذلك ؟ لقد اختفى الضباط عن الأنظار . . . وهل يتحتم علينا أن نبقى هنا لنموت ؟ لنعد الى أهلينا . علام نحك ظهورنا بهذا الحائط ؟ وأمّا بشأن الحكومة المؤقتة . . . فأى خير حققته لنا ؟ ما رأيكم أيها القوزاق ؟

— اذا خرجنا من الباحة فسوف يرمينا البلاشفة برشاشاتهم .

— سوف يريقون دماءنا .

— لماذا يريقون دماءنا ؟

— فكّر في ذلك بنفسك .

— كلا ، فلنبق هنا حتى النهاية .

— نحن هنا كالخراف تنتظر القصّاب في الحظيرة .

— افعلوا ما تشاءون ، أمّا رعيلنا فانه سوف يخرج .

— ونحن ذاهبون أيضاً !

— ارسلوا رجالا الى البلاشفة . ليتركونا وشأننا ونتركهم وشأنهم .

وجاء قوزاق السريتين الأولى والرابعة وانضموا الى الاجتماع ، وبعد فترة وجيزة من النقاش خرج من الباب ثلاثة قوزاق ، واحد من كل سريّة . ثم عادوا بعد فترة وبرفقتهم ثلاثة بحارة . ووثب البحارة فوق متراس الجذوع وحثوا الخطو عبر الباحة . ثم التحقوا بالقوزاق فرحّبوا بهم . واندفع أحدهم وسط الحشد ، وهو بحار شاب وسيم

له عذاران أسودان ، وقد كان معطفه مفتوحاً وقبعته منداحة الى الوراء .

— أيها الرفاق القوزاق ! لقد جئنا ، نحن ممثلي الأسطول البلطيقي الثورى ، لنعرض عليكم مغادرة قصر الشتاء . فيم تدافعون عن حكومة برجوازية عدوة لكم ؟ فليدافع عنهم أبناؤهم البرجوازيون ، طلاب الكلية العسكرية ! لم يأت جندى واحد ليدافع عن الحكومة المؤقتة ، وقد انضم الى صفوفنا اخوتكم من الكتيبتين الأولى والرابعة . ليقف كل من يريد الذهاب معنا ، الى اليسار .

وتقدم عريف من السرية الأولى الى الأمام وقال :

— انتظر لحظة ، أيها الأخ ! سوف نذهب عن طيب خاطر ، ولكن ماذا لو بدأ البلاشفة باطلاق النار علينا ؟

— أيها الرفاق ! باسم لجنة بتروغراد العسكرية الثورية نعدكم بأنكم ستغادرون المكان بأمان تام . ولن يمس أحد بسوء .

وتقدم بحار آخر بدين مجدور الوجه ووقف مع رفيقه ذى العذارين السوداوين . وتفحص القوزاق وهو يحرك ببطء رقبته الغليظة ، التي تشبه رقبة الثور ، ثم ضرب قميصه المنتفخ المزرر باحكام بقبضة كفه وقال :

— سوف نذهب نحن معكم ! لا لزوم لوساوسكم يا أولاد ، فلسنا أعداءكم ، وليس شغيلة بتروغراد أعداء لكم . ان أعداءكم هم أولئك . . .

وأشار بابهامه صوب القصر وكشّر بابتسامة عن أسنان متراصة حادة . وانتابت القوزاق موجة تردد . واقترب عدد من أفراد الفوج النسائي ووقفن ينصتن هنيهة ، ثم عدن الى البوابات ، فهتف في أثرهن قوزاقي ملتح :

— أنتن أيتها النسوة ، ألا تأتين معنا ؟

وقال لاغوتين بثبات :

ـــ احملوا بنادقكم وتحركوا .

فتناول القوزاق بحماس أسلحتهم واصطفوا . وسأل أحد حاملي الرشاشات البحار ذا العذارين الأسودين :

ـــ هل نأخذ الرشاشات معنا ؟

ـــ نعم ، لا تتركوها لطلاب الكلية العسكرية .

وفي اللحظة التي كان القوزاق على وشك مغادرة الساحة ، ظهر ضباطهم ، فوقفوا متأملين يحدقون في البحارة . وبدأت السرايا تسير في طريقها الى الخارج ، فسارت مفرزة الرشاشات مع أسلحتها في المقدمة . وعلا صرير العجلات وضجيجها فوق البلاط الندى . وذهب البحار ذو السترة مع الرعيل الأمامي للسريّة الأولى . فشمّر قوزاقي طويل أشقر الحاجبين عن ذراعيه وقال بلهجة يشوبها الشعور بالاثم :

ـــ أنت لا تعتقد أننا أردنا الذهاب ضد الشعب أيها الأخ ، أليس كذلك ؟ لقد جاءوا بنا الى هنا خدعة ، ولو علمنا لما جئنا .

وهز رأسه بقوة ، وأضاف :

ـــ صدقني ، لما جئنا ! والله شهيد على ما أقول !

واتخذت السرية الرابعة موقعها في المؤخرة ، وتوقف القوزاق عند البوابة ، حيث تجمّع الفوج النسائي بكامله في كتلة متراصة . وتسلق قوزاقي ممتلئ الجسم المتاريس ، وهتف قائلاً وهو يهز اصبعه المتسخ بحركة دالة على محاولة الاقناع :

ـــ انصتن الي أنتن ! نحن خارجون ، ولكنكن باقيات هنا لحماقتكن النسائية . حسناً اذا ، اياكن والغدر ! اذا شرعن باطلاق النار علينا من الخلف فسوف نعود ونجعل منكن لحماً مفروماً . أواضح هذا ؟ حسناً اذا ، الى اللقاء .

ثم قفز من على المتراس وهرول ليلحق برعيله ، متلفتاً بين الحين والآخر الى الوراء . ولم يكد القوزاق يصلون وسط الساحة حتى التفت واحد منهم الى الوراء وصرخ بانفعال :

ـــ أنظروا أيها الأولاد ! هناك ضابط يركض وراءنا !

وأدار عديد من الرجال رؤوسهم . كان ضابط مديد القامة يهرول عبر الساحة ، ممسكاً بقبعته ، ويلوّح بيده :

ـــ انه أتارشجيكوف من السرية الثالثة .

ـــ من ؟

ـــ طويل القامة ذو الشامة على جفنه .

ـــ اذاً فهو يريد المجيء معنا .

ـــ انه شاب طيب !

كان أتارشجيكوف يركض مسرعاً وراء السريّة ، وقد اختلج وجهه بابتسامة . فلوّح القوزاق بأيديهم وضحكوا .

ـــ هرولْ أيها الرئيس ! أسرع !

وانبعث من أبواب القصر صوت اطلاقة وحيدة جافة . فبسط أتارشجيكوف يديه ، وتعثر ، ثم سقط على ظهره ، وجعل يخبط بساقيه ، ويحاول النهوض . وكما لو تلقت السريّة أمراً ، استدارت وواجهت القصر . وصوّب حاملو الرشاشات رشاشاتهم نحو البوابات فتعالت لعلعة أشرطة الخراطيش . ولكن أحداً لم يلح خلف جذوع الصنوبر . لعل الاطلاقة أفلحت في ابعاد الضباط والنساء الذين كانوا محتشدين هناك قبل دقيقة . ثم سرعان ما اصطفت السريّة من جديد وسارت الى الخارج بخطوات سريعة . ولحق بهم قوزاقيان من الرعيل الأخير كانا قد رجعا الى أتارشجيكوف ، وهتف أحدهم بصوت عال لتسمعه السريّة بكاملها :

ـــ لقد أصابوه تحت الكتف الأيسر . لقد قضي عليه !

وراحت خطوات القوزاق ترنّ بثبات وقوة ، وأصدر البحار ذو العذارين الأسودين الأمر التالي :

— الى اليسار در . . . عادة سرْ !

فمضوا مبتعدين يجرون المدافع الرشاشة ، تاركين القصر قابعاً يلفه الصمت .

٢٠

كان خريفاً دافئاً يتخلله مطر . وكانت الشمس الشاحبة قليلاً ما تظهر فوق بيخوفو ، المدينة الصغيرة . وفي أكتوبر شرعت الطيور بالهجرة نحو الجنوب . وحتى في المساء كانت صرخات الكراكي الصاخبة الحزينة تضج فوق الأرض الباردة السوداء . كانت الأسراب المهاجرة تنزح عجلى هرباً من الزمهرير المقبل ، ومن رياح الشمال العاتية العالية .

لبث الجنرالات الذين اعتقلوا في بيخوفو لارتباطهم بقضية كورنيلوف ستة أسابيع في انتظار المحاكمة . كانت حياتهم في السجن قد استقرت بشكل من الأشكال ، واتخذت نمطاً خاصاً بها وان لم تكن اعتيادية بكل معنى الكلمة . فبعد الافطار يخرج الجنرالات للتمشي ، وعند عودتهم ينصرفون لقراءة بريدهم ، ويستقبلون أقرباءهم ومعارفهم ، ثم يتغدون ، وبعد ساعة من السكون المطبق يذهبون الى غرفاتهم ليعمل كل منهم على انفراد ، وفي المساء يجتمعون عادة في غرفة كورنيلوف ، حيث يتحادثون ويتناقشون حتى وقت متأخر من الليل .

كانوا يقضون حياة مريحة نسبياً في ثانوية البنات النبيلات التي اتخذت سجناً لهم .

وكان يحرس البناية من الخارج رجال من فوج القديس غيورغي ، ومن الداخل رجال من التركمانيين وبالرغم من أن الحراسة كانت تحدّ من حرية السجناء الى حد ما ، فقد وضعت بشكل يسهل معه للسجناء الهرب بأمان ، متى شاءوا ذلك . وطوال فترة اعتقالهم كانوا على اتصال حر بالعالم الخارجي ، وراحوا يمارسون ضغطهم على الأوساط البرجوازية وهم يطالبون بالتحقيق والمحاكمة بأسرع وقت ممكن ، ويخفون معالم مؤامرتهم ، ويرسلون جواسيسهم ليتبينوا أمزجة الضباط ، ويعدوا العدة لهربهم عندما يتأزم الحال .

ورغبة من كورنيلوف للحفاظ على ولاء التركمانيين في حراسته ، اتصل بكاليدين الذى أرسل في الحال يطلب من كورنيلوف عدة شاحنات محملة بالحبوب الى عوائل التركمانيين الجائعة في تركستان . وبغية الحصول على مساعدة لعوائل الضباط الذين ساندوا كورنيلوف في محاولته الاستيلاء على الحكم ، بعث كورنيلوف برسالة شديدة اللهجة الى أصحاب المصارف المتنفذين في موسكو وبتروغراد ، فوزع أصحاب المصارف في الحال منحاً بلغ مجموعها عشرات الآلاف من الروبلات خشية افتضاح أسرارهم المحرجة . وبقي كورنيلوف على اتصال دائب مع كاليدين حتى تشرين الثاني . وفي رسالة مطولة أرسلها الى كاليدين في أواسط تشرين الأول سأله عن الحالة في الدون وكيف سيتقبله القوزاق . وكان جواب كاليدين مشجعاً .

ولكن ثورة أكتوبر زلزلت الأرض تحت أقدام الجنرالات المعتقلين في بيخوفو . وفي اليوم التالي أوفد الرسل الى شتى الاتجاهات . وبعد أسبوع تردد صدى القلق على مصائر السجناء في الرسالة التي بعث بها كاليدين الى دوخونين الذى نصب نفسه قائداً عاماً ، تتضمن طلباً ملحفاً باطلاق سراح كورنيلوف وبطانته بكفالة . وقد أرسل طلب مماثل الى مقر القيادة من تحالف

القوزاق واللجنة الرئيسية لتحالف ضباط الجيش والبحرية . ولكن دوخونين تردد في اجابة الطلب .

وفي الأول من تشرين الثاني وجّه اليه كورنيلوف رسالة . وقد عكست مطالعة دوخونين على تلك الرسالة مدى العجز الذى آلت اليه القيادة العليا ، ذلك لأنها فقدت كل سيطرة فعلية لها على الجيش وراحت تقضي أواخر أيامها في حالة من الشلل التام .

يا صاحب المعالى ، نيكولاى نيكولايفتش !

لقد وضعك القدر فى ظرف يتطلب منك أن تدير دفة الحوادث التى تنذر بخراب البلاد بسبب من تردد واهمال القواد الكبار بصورة رئيسية . وقد حان الوقت بالنسبة لرجل مثلك لأن يقدم على مجازفة كبرى أو أن يستقيل ، والا فان تبعات خراب البلاد والعار المتأتي من انهيار الجيش سيقع على عاتقك .

على ضوء المعلومات القليلة المتيسرة المتوفرة لديّ ، فان الوضع يبدو خطيراً ، ولكنه ما يزال غير ميؤوس منه تماماً . على أنه سيؤول الى هذا المصير ، اذا ما تركت مقر القياد يستولي عليه البلاشفة أو اذا اعترفت بسلطتهم طواعية .

ان فوج القديس غيورغي الذى أوشكت الدعاية أن تحطم معنويته ، وكتيبة التركمانيين التي حل بها الضعف ، هاتان الوحدتان اللتان هما تحت تصرفك ، لا تتمتعان قط بأية قوة تذكر .

واستباقاً لحوادث المستقبل التي قد تتطور ، أرى من الضرورة أن تتخذ اجراءات من شأنها أن توجد ظروفاً ملائمة لضمان استمرار الكفاح ضد الفوضى التي توشك أن تطبق علينا ، بالاضافة الى ضمان سلامة مقر القيادة العامة .

وأرى أن تكون هذه الاجراءات على النحو التالي :

١ . ينبغي نقل كتيبة تشيكوسلوفاكية وكتيبة من الأوهلان البولونيين في الحال الى موغيليف .

حاشية من دوخونين . لا تعتقد القيادة أن هاتين الكتيبتين يمكن الاعتماد عليهما كل الاعتماد . فقد كانتا من أوائل الكتائب التي قبلت بالهدنة مع البلاشفة .

٢ — ينبغي أن تحتل أورشا ، وسمولنسك ، وزلوبين ، وغوميل وحدات من القطعات البولونية تساندها المدفعية التي تسحب من بطاريات الجبهة القوزاقية .

حاشية . لقد جيء بفرقة الكوبان الثانية ولواء من قوزاق استراخان لاحتلال أورشا وسمولنسك . أمّا سحب كتيبة من الفرقة البولونية الأولى من بيخوفو فهو أمر غير مرغوب فيه اذ ان ذلك قد يتهدد سلامة السجناء . وأمّا وحدات الفرقة الأولى فهي ضعيفة الى درجة كبيرة ولا يمكن اعتبارها قوة حقيقية . وقد اتخذت القبائل البولونية موقفاً واضحاً بعدم التدخل في شؤون روسيا الداخلية .

٣ — ينبغي تحشيد جميع وحدات القطعات التشكيلية وكتيبة كورنيلوف ، مع واحدة أو اثنتين من الفرق القوزاقية التي يركن اليها ، على طول خط أورشا — موجيليف — زلوبين بحجة نقلها الى بتروغراد أو موسكو .

حاشية . القوزاق يعارضون محاربة البلاشفة بشكل قاطع .

٤ — ينبغي تحشيد كل المدرعات البريطانية والبلجيكية في المنطقة ذاتها ويعهد بها للضباط فقط .

٥ — ينبغي أن تقام مستودعات تخزن فيها البنادق ، والعتاد ، والرشاشات ، والاسلحة الاوتوماتيكية والقنابل ووضعها تحت حراسة جيدة فى موجيليف ونقطة أخرى فى موضع قريب ، لتوزيعها على الضباط والمتطوعين الذين لا بد أن يتجمعوا فى هذه المنطقة .

حاشية . قد يؤدى هذا الى افراط .

٦ ـــ ينبغي تنظيم صلات موثوقة وعقد اتفاقات دقيقة مع أتمانات الدون ، وجيوش التيرسك والكوبان ، واللجنتين التشيكية والبولندية . لقد هب القوزاق بعزم لاعادة النظام في البلاد ، أمّا بالنسبة للبولنديين والتشيكيين فان مسألة المحافظة على النظام لها علاقة كبيرة بكيانهم بالذات .

° ° °

ومع كل يوم كانت الأنباء تنذر بخطر أشد ، وكان القلق يتفاقم في بيخوفو نفسها . وكان مريدو كورنيلوف ، الذين يطالبون باطلاق سراح الجنرالات يتوافدون جيئة وذهاباً بين موغيليف وبيخوفو في سيارتهم . وقد عمد تحالف القوزاق الى التهديدات المقنعة .

واستمر تردد دوخونين تحت ضغط الحوادث . وفي الثامن عشر من تشرين الثاني أصدر أمراً يقضي بنقل المعتقلين الى الدون ، ولكنه سرعان ما عدل عن رأيه .

وفي الصباح التالي اتجهت سيارة ملطخة بالطين نحو المدخل الرئيسي لسجن ثانوية بيخوفو . وفتح السائق الباب بخضوع ، فخرج من السيارة ضابط كهل حسن الهيئة . وكانت الأوراق التي قدمها الى ضابط الحراسة تحمل اسم العقيد الركن كوسونسكي .

ـــ أنا من القيادة العامة . لديَّ رسالة خاصة للجنرال كورنيلوف . أين أجد القومندان ؟

وقاد القومندان ـــ وهو المقدم أرغهارت من كتيبة التركمانيين ـــ الزائر في الحال الى كورنيلوف . فقدم كوسونسكي نفسه واصطنع لهجة تنم عن شيء من الخطورة :

ـــ بعد أربع ساعات ستستسلم موغيليف الى البلاشفة دونما مقاومة . وقد أمرني الجنرال دوخونين أن أخبرك بأن على جميع المعتقلين أن يغادروا بيخوفو في الحال .

وبعد أن سأل كورنيلوف كوسونسكي عن الوضع في موغيليف ، استدعى المقدم أرغهارت . وقال وقد اتكأ بأصابع يده اليسرى على حافة الطاولة :

ـــ أطلق سراح الجنرالات في الحال . يجب أن يستعد التركمانيون للرحيل في منتصف هذه الليلة . أمّا أنا فسوف أرافق الكتيبة .

وظلت المنافخ تشهق وتتنهد النهار كله في كورة الكتيبة ، ويتوهج الفحم متورد الحمرة ، وتصطفق المطارق فتصهل الخيل بشدة أمام السنادين . كان التركمانيون ينعلون الحوافر الأربعة لجميع الخيل ، ويصلحون سروجها ، وينظفون بنادقهم ويهيئونها .

وخلال النهار غادر الجنرالات السجن فرادى . وفي منتصف الليل الساعة التي فيها تسعى الذئاب ، وحين كانت البلدة الريفية تطفئ أنوارها وتغط في سبات عميق ، خرج رجال على صهوات جيادهم وانحدروا من باحة المدرسة الثانوية في تشكيلة ثلاثية ، وقد انتصبت أشباحهم السود كرسم منحوت على صفحة السماء ذات الزرقة الفولاذية . وسرى الخيالة بقبعات عالية من الصوف أنزلوها فوق عيونهم ، وقد التفعت وجوههم السمر اللامعة بقلنسواتهم ، ساروا منحنين على سروجهم مثل طيور سود كبيرة انتفش ريشها . وفي وسط الصف استوى كورنيلوف بكتفيه المتهدلين على حصان نشيط حذاء آمر الكتيبة العقيد كوغيلغين . وبين آونة وأخرى كان ينكمش وجهه كلما لفحته الريح الباردة التي تهب في شوارع البلدان ، ويضيّق شقي عينيه الصغيرتين محدّقاً في السماء الثلجية التي تتلألأ فيها النجوم .

وكان وقع حوافر الخيل الحديثة النعال يدق على الأرض برفق عبر الشوارع ، ثم تلاشى عند ضواحي القرية .

٢١

مضى يومان على كتيبة القوزاق الثانية عشرة وهي تتراجع . كانت تقاتل طوال الطريق ، وهي ماضية في تراجعها البطيء . وكانت قوافل الشحن التي تنقل أمتعة الجيشين الروسي والروماني تزحف فوق الطرقات المرتفعة غير المعبدة . وقد أطبقت الفرق النمساوية والألمانية الموحدة على الجيوش المتقهقرة بحركة التفاف واسعة ، وحاولت احكام الطوق .

وذات مساء شاع نبأ يفيد بأن الكتيبة الثانية عشرة واللواء الروماني الذى يليها مهدّدان بالتطويق . وعند غروب الشمس طرد العدو الرومانيين من القرية هوفينيسكي وتقدم الى المرتفع «٤٨٠» الذى يحدّ العبور غولشسكي . وفي الليل تلقت الكتيبة الثانية عشرة التي تعززها بطارية من فرقة الجبليين ، أمراً يقضي باشغال مواقع لحماية المؤخرة في القسم الأسفل من وادى غولشسكي . وبعد أن نظّمت الكتيبة الحراسة أعدّت العدة لمواجهة العدو الزاحف .

وفي الليلة ذاتها أرسل الى موضع أمامي خفي ميشا كوشيفوى وآخر ، وهو فتى بدين قصير القامة من قرية تاتارسكي يدعى أليكسي بشنياك . فكمنا في حفرة قريبة من بئر مهملة ، ولبثا يعبان هواء بارداً لطيفاً . وبين آونة وأخرى كان سرب من الأوز البرى يمرق في السماء الغائمة ، يدلل عن طيرانه بصرخات ملهوفة . وهمس ميشا بهدوء في أذن صاحبه وقد أثار سخطه الأمر بمنع التدخين :

— انها لحياة غريبة ، يا أليكسي ! يتخبط فيها الناس كالعميان ، يلتقون ويفترقون ، وفي بعض الأحيان يدوس احدهم الآخر . . . وها أنت تعيش على حافة الموت ، وتقول لنفسك لم كل ذلك . أنا لا أعتقد أن هناك شيئاً في العالم أفظع من روح الآخرين ، افعل ما شئت ، ولكنك لا تستطيع أن تسبر غورها . . .

ها أنذا مستلق بجانبك ، ولست أدرى ماذا يدور في ذهنك ، ولم يسبق لي معرفة شيء من هذا ، كما أنني أجهل أى نمط من الحياة عشت ، ولا أنت تعرف مثل هذا الشيء عني . . . ربما رمت قتلك الآن ، وها أنت ذا تعطيني البسقماطة دون أن تكون لديك أية فكرة عما يدور في خلدى . . . ان الناس لا يعرفون الكثير عن أنفسهم . في الصيف كنت في المستشفى . وعلى السرير المجاور لي كان يرقد جندى من موسكو . وكان يسألني طوال الوقت كيف يحيا القوزاق ، ولا يعلم الا الله ماذا كان يسألني أيضاً . فهم يعتقدون أن القوزاق لا يعرفون سوى السياط ، ويحسبون القوزاق وحوشاً ، يضمون بين جوانحهم زجاجة الفودكا بدلاً من الروح . ومع هذا فنحن رجال مثلهم ، لا نختلف عنهم في كلفنا بالنساء والفتيات ، ونحن نبكي همومنا ، ولكننا لا نغتبط لسعادة الآخرين . ماذا تقول يا أليكسي ؟ صرت أنا متعطشاً للحياة ، وعندما أفطن الى عدد النساء الجميلات في العالم يوجعني قلبي . . . لقد أصبح لدى شعور تجاه النساء من الرقة بحيث يسعني أن أحبهن جميعاً حتى الألم . . . وبوسعي أن أضاجعهن جميعاً ، طويلات قصيرات ، نحيفات بدينات . ولكن أى نمط بديع من الحياة رسموه لنا ؟ فهم يلصقونك بامرأة واحدة وعليك أن تلازمها حتى الموت . ترى كيف ينتظرون منا أن لا نملها ؟ وفوق كل هذا وذاك نراهم يعلنون الحرب . . .

فقال بشنياك ماكراً :

— لم يشبعوك ضرباً ، أيها الثور !

واستلقى كوشيفوى على ظهره ولاذ بالصمت ، محدقاً في السماء وهو يبتسم حالماً ويداه تداعبان الأرض الباردة السادرة في سكونها .

وقبل أن ينتهي واجبهما بساعة باغتهما الألمان . وأفلح بشنياك

باطلاق رصاصة ، ثم خر ساقطاً وهو يطحن أسنانه منطوياً على نفسه من شدة الألم . فقد نفذت حربة ألمانية في أحشائه ، واخترقت مثانته وارتجت عندما اصطدمت بعموده الفقرى . وأطاح بكوشيفوى أخمص بندقية . ثم حمله جندى ضخم على ظهره مسافة نصف فرسخ . وخيل لميشا أنه قد غص بدمه ، ولكنه عندما استرجع نفسه واستعاد قواه ، لم يجد صعوبة في الافلات من على ظهر الألماني . فأطلقوا النار في أثره دفعة واحدة . الا أن الظلام والدغل ساعداه على النجاة .

وبعد أن أوقف التراجع وخلصت القوات الروسية — الرومانية نفسها من حركة التطويق ، سحبت الكتيبة الثانية عشرة الى المؤخرة ، الى اليسار من موقعها ببضعة فراسخ . وصدرت الأوامر بقطع الطرقات ، ووضع الحراسة عليها للحيلولة دون تسلل الفارين ، واطلاق النار عليهم اذا اقتضى الأمر وارسال كل ما يلقى عليه القبض الى مقر قيادة الفرقة تحت الحراسة .

وكان ميشا كوشيفوى بين الأوائل ممن أرسلوا الى نقاط المراقبة . فترك هو وثلاثة قوزاق آخرين القرية في الصباح واتخذوا مواقعهم حسب أمر العريف ، عند طرف حقل ذرة على مقربة من الطريق العام . وكان يمتد الطريق بمحاذاة غابة وينتهي في واد دائرى كثير الزرع . وراحوا يتناوبون على المراقبة . وعند الظهر شاهدوا مجموعة تضم حوالي العشرة جنود تسير في الطريق باتجاههم . ومن البديهي انهم يبتغون السير بمحاذاة القرية التي تلوح خلف تلّ ولما بلغوا الغابة توقفوا وأشعلوا سكائرهم ، ولا بد أنهم كانوا يتناقشون حول الطريق ، اذ انعطفوا الى اليسار فجأة .

فسأل كوشيفوى زميليه وهو ينهض من حقل الذرة :

— هل تناديهم ؟

— أطلق فوق رؤوسهم .

— أنتم يا أولاد ! قفوا !

وسمع الجنود النداء ، كانوا آنذاك على بعد حوالي مئة خطوة من القوزاق ، فتوقفوا لحظة ، ثم عادوا فتحركوا ببطء . فصرخ أحد القوزاق «قفوا !» ، ثم أطلق رصاصة في الفضاء .

وهرولوا وبنادقهم مسددة بوضع أفقي ، ليلحقوا بالجنود الذين كانوا يسيرون ببطء . وصاح كوليتشيف العريف القوزاقي المسؤول عن نقطة المراقبة :

— لماذا لم تتوقفوا بحق الشيطان ! من أين جئتم ؟ وأين أنتم ذاهبون ؟ أرونا أوراقكم !

فتوقف الجنود . وأنزل ثلاثة منهم بنادقهم . وانحنى أحدهم وأعاد شد السلك الذى يربط الكعب بحذائه . كانوا جميعاً خلقي الثياب قذرين الى درجة فظيعة . ويبدو أنهم باتوا الليل على أدغال الغابة ، فثمة بقايا كثيرة من الأشواك بنية اللون على معاطفهم . وكان اثنان منهم يرتديان قبعتين صيفيتين ، أمّا الآخرون فقبعات رمادية متسخة من الفرو تركت أغطية الأذن غير معقودة عليها والريح تعبث بخيوطها . وصرخ جندى محدودب طويل ، وهو رئيسهم كما يبدو ، بصوت غضوب وقد ارتعشت وجنتاه الغائرتان :

— ماذا تريدون ؟ هل آذيناكم ؟ علام تتعقبوننا ؟

فقاطعه العريف متصنعا لهجة صارمة :

— أوراقكم !

فأخرج جندي ذو عينين زرقاوين وبشرة بحمرة القرميد المشوى حديثا ، قنبلة يدوية من جيبه . ولوح بها في وجه العريف ، والتفت الى رفاقه وقال بلهجة ياروسلافيّة * سريعة :

* مدينة فى روسيا الوسطى ياروسلافل .

— تلك هي أوراقي يا اخواني ! تلك هي ! انها اجازة مفتوحة أستعملها في كل أيام السنة . حذار اذا ! فمتى ما رميتها لن يتسنى جمع المزق فيما بعد . فهمتموني ؟ هل فمهتموني ؟ أهذا واضح ؟

فقطب العريف ونخسه في صدره ، وقال :

— لا تعبث ! تحاول اخافتنا ، فقد شبعنا خوفا . أنتم فارون ، وعليكم أن تعودوا معنا الى القيادة . فهم يتوقون الى رؤية أمثالكم هناك .

وتبادل الرجال النظرات ، وأنزلوا بنادقهم . وجال أحدهم ، وهو نحيل ذو شعر أسود يبدو أنه عامل منجم ، ببصره بين القوزاق فرداً فرداً وهمس :

— سوف نذيقكم طعم الحربة ، قسماً بالله ! انقشعوا ! بحق الله ، سوف أجعل الطلقة تخترق أول من يقترب مني ! . .

ولوح الجندى ذو العينين الزرقاوين بقنبلته اليدوية فوق رأسه ، وخرق الرجل الطويل المحني الواقف في المقدمة معطف العريف بحربته الصدئة ، وهتف عامل المنجم بكلمة سباب ولوح بعقب بندقيته في وجه ميشا كوشيفوى . فارتعشت اصبع كوشيفوى على زناد بندقيته . وأمسك أحد القوزاق جندياً قميئاً من ياقة معطفه وجره منبسط الذراع وهو ينظر مضطرباً الى الوراء صوب الآخرين خشية أن تناله ضربة من الوراء .

كانت الأوراق اليابسة تخشخش على سيقان الذرة . وخلف الوادى الدائرى يلوح خط متماوج أزرق من التلال . وفي المرعى القريب من القرية تسرح بقرات حمر . وحملت الريح غباراً ثلجياً استحال دوامات خلف الغابة . وكانت أيام أوكتوبر البطيئة طافحة بسكون وسنان ، وأطل على الريف المشمس هدوء وصمت جليلان .

غير أن هناك رجالاً على قارعة الطريق يتخبطون في حومة من غضب لا مبرر له ، مستعدين لهدر دمائهم على التربة الخصبية التي رطبها المطر .

على أن العواطف كانت قد هدأت بعض الشيء وطفق الجنود والقوزاق يتكلمون بهدوء .

قال كوشيفوى ساخطاً :

— لم يمض على سحبنا من الجبهة سوى ثلاثة أيام ، ولم نهرب الى المؤخرة ! بينما أنتم تفرون ، يجب أن تخجلوا من أنفسكم ! تتركون رفاقكم ! من سيدافع عن الجبهة ؟ لقد طعن رفيقي بالحربة وهو بجانبي ، وتقولون اننا لم نذق الحرب ! ذوقوها كما ذقناها !

فقاطعه قوزاقي آخر :

— فيم الكلام ؟ هيا الى القيادة ، ولا داعي الى الجدل .

فقال الجندى الذى يشبه عمال المناجم مهدداً :

— تنحوا عن الطريق أيها القوزاق ! والا رميناكم ، والله نرميكم !

فنشر العريف يديه قانطاً :

— لا نستطيع أن نفعل ذلك أيها الأخ ! اقتلنا اذا شئت ، ولكن النتيجة واحدة وهي أنكم لن تمروا ، فسريتنا معسكرة في القرية هناك . . .

وجعل الجندى المحني الطويل يهدد تارة ويروغ تارة أخرى ، ويتوسل مرة أخرى متخضعاً . وفي الأخير ، انحنى الى الأسفل ، وسحب قنينة مجدولة بالقشّ من حقيبته القذرة وغمز لكوشيفوى وهمس :

— سنعطيكم دراهم أيها القوزاق ، وانظروا . . . فودكا

ألمانية . . . وسنجمع أشياء أخرى . دعونا نمرّ ، حباً بالمسيح . فلدينا أطفال في بيوتنا ، ولا شك أنكم تقدرون ذلك بأنفسكم . . . لقد أنهكت قوانا ، ونلنا أكثر مما نتحمل . . . كم علينا أن نتحمل ذلك ؟ رباه ! يقيناً أنكم لن تحولوا دون مرورنا .

وسحب كيسه بسرعة من ساق جزمته ، وأخرج منه ورقتين مدعوكتين من الروبلات الكيرنسكية ، وراح يدسّهما بالحاح في يد كوشيفوى وقال :

— خذهما ! خذهما ! بحق الاله . . . ! لا تهتم . . . فسوف ندبر حالنا على نحو ما . ان النقود لا قيمة لها . . . بوسعنا أن ندبر حالنا بدونها . خذها ! سوف نحصل على المزيد منها . . .

فتراجع كوشيفوى وقد وخزه الخجل ، مبقياً يده خلف ظهره وهو يهز رأسه . وتوردت وجناه بالدم والتمع الدمع في عينيه . وقال في نفسه : «لقد جننتني مبتة بشنياك تلك ! وها أنا أحاول أسر هؤلاء الرجال ، مع أنني ضد الحرب . بأى حق أفعل ذلك ؟ ماذا أنا فاعل هنا ؟ أى خنزير وضيع أنا !»

ومضى الى العريف ، وتنحى به جانباً ، وقال وهو يشيح بعينيه :

— لم لا ندعهم يذهبون ؟ ماذا تقول ؟ دعهم يذهبون ، بحق الله ! !

وغارت عينا العريف كمن يقوم بعمل مخجل ، وقال :

— دعهم يذهبون . . . والا فما عسانا نفعل بهم ؟ فسرعان ما سنقدم نحن على فعل الشيء نفسه . . . لماذا نخفي الحقيقة ؟

والتفت الى الجنود ، وصرخ مغضباً :

— أنتم أيها الحثالة ! نحن نعاملكم بأدب وبكل احترام ، وأنتم تقدمون لنا المال ! فهل تحسبوننا معوزين ؟

وازرق لونه وأردف صارخاً :

— أخفوا أكياسكم ، والا سقناكم الى القيادة !

وتنحى القوزاق جانباً . واستأنف الجنود سيرهم . فالتفت كوشيفوى صوب شوارع القرية المهجورة البعيدة ، وصاح في أثر الفارين المتراجعين :

— أنتم ! أمهار الخيل ! الى أين أنتم سائرون في وضح النهار ؟ هناك غابة في هذه الناحية ، التجئوا اليها خلال النهار ، ثم واصلوا سيركم في الليل . والا فسوف تلاقون نقطة مراقبة أخرى ، وسوف يقبضون عليكم !

فتلفت الجنود حواليهم متحيرين ، ثم انطلقوا مثل الذئاب في خط رمادى أغبر شطر غابة الحور .

* * *

في بداية تشرين الثاني بدأت الشائعات حول الانقلاب في بتروغراد تصل أسماع القطعات القوزاقية . وقد أكد المراسلون في القيادة ، الذين هم أكثر علماً بالأخبار من غيرهم ، بأن الحكومة المؤقتة قد هربت الى أميركا ، كما قالوا ان كيرنسكي قد أسره البحارة وحلقوا شعره بدرجة صفر ، وسخموه بالقطران مثل المومس وجرجروه طوال يومين في شوارع بتروغراد .

وبعد ذلك ، عندما وصلت الأنباء الرسمية حول سقوط الحكومة المؤقتة وانتقال الحكم الى العمال والفلاحين ، لزم القوزاق الصمت احتراساً . وكان الكثيرون فرحين أملا بأن تنتهي الحرب . ولكن الشائعات حول مسيرة فيلق الخيالة الثالث مع كيرنسكي والجنرال كراسنوف الى بتروغراد ، وتقدم كاليدين من الجنوب مع الكتائب

القوزاقية التي قد أفلح في سحبها سلفاً الى الدون ، زرعت الرعب في نفوسهم .

وتمزقت الجبهة شذر مذر ، وفي تشرين الأول أخذ الجنود يفرون جماعات متفرقة غير منظمة ، وعند نهاية تشرين الثاني انسحبت سرايا وكتائب بكاملها من مواقعها ، وكانت تحمل أحياناً معدات خفيفة ليس الا ، ولكنها في الغالب تأخذ أمتعة الكتيبة معها ، ويقتحم الجنود المخازن عنوة ، ويطلقون النار على ضباطهم ويسلبون كل من يصادفونه ، عائدين الى أهليهم كالسيل الجارف .

وأصبحت مهمة الكتيبة الثانية عشرة في ايقاف الفارين غير ذات معنى في الظروف الجديدة . وبعد أن زجت في الجبهة ثانية في محاولة عقيمة لسد الفجوات والثغرات التي تركها المشاة عندما هجروا قطاعاتهم ، سحبت ثانية في كانون الأول ، الى أقرب محطة ، حيث شحنوا جميع أمتعة الكتيبة ، ومدافعها الرشاشة ، والذخيرة الاحتياطية ، والخيل ، في الشاحنات ، وانطلقوا الى قلب روسيا التي أنهكها القتال .

وسارت القطارات العسكرية التي تحمل الكتيبة الثانية عشرة الى الدون عبر أوكرانيا . وليس بعيداً عن زنامنكا حاول الحرس الأحمر البلشفي تجريدهم من السلاح . واستغرقت المفاوضات نصف ساعة . لقد طلب كوشيفوى وخمسة قوزاق آخرين ، وهم رؤساء لجان السرايا الثورية ، السماح لهم بالمرور مع سلاحهم . فسألهم أعضاء سوفييت المحطة :

— ما حاجتكم بالسلاح ؟

فأجاب كوشيفوى نيابة عن الجميع :

— نستعمله في القضاء على برجوازيتنا وجنرالاتنا ! ولقطع ذنب كاليدين !

واعترض القوزاق أيضا :

— لن نسلم أسلحتنا ، فهي تعود الى الجيش .

وسمح للقطارات بمواصلة سيرها . وفي كريمنتشوغ جرت محاولة أخرى لتجريدهم من السلاح . ولم يسمح لهم بالمرور الا بعد أن نصب حملة الرشاشات القوزاق رشاشاتهم في أبواب الشاحنات المفتوحة وصوبوها نحو المحطة ، وانتشر جنود احدى السرايا على طول الخطوط مستعدين للقتال . وقرب يكاترينوسلاف جردت الكتيبة من بعض سلاحها ومن غير أن يحصل تبادل اطلاق النار مع مفرزة الحرس الأحمر ، وصودرت الرشاشات ، وأكثر من مئة صندوق من الذخيرة ، وجهاز مخابرة الميدان وعدة بكرات من الأسلاك . وقد رفض القوزاق الاستجابة الى الاقتراح الذى يقضي بتوقيف ضباطهم . ولم يفقدوا أثناء الرحلة سوى ضابط واحد ، وهو مساعد الآمر ، وقد حكم عليه القوزاق أنفسهم بالموت ، ونفذ الحكم أوريوبين وبحار من الحرس الأحمر .

ففي السابع عشر من كانون الأول ، وشيك المساء ، في محطة سينلنيكوفو ، أمسك القوزاق بمساعد الآمر وسحبوه خارج القطار . وسأل البحار ذو الأسنان المتباعدة وهو يحمل مسدساً من طراز ماوزر وبندقية يابانية ، والمرح باد عليه :

— أهذا هو الذى خان القوزاق ؟

فأجاب أوريوبين لاهثاً :

— هل تعتقد أننا لا نعرف وجهه ؟ أى نعم ، هو بعينه !

فحملق المساعد ، وهو رئيس شاب ، حواليه مثل حيوان وقع في شرك ماسحاً شعره بيده العرقة ، ولم يشعر بالبرد الذى لفح وجنتيه أو بألم الضربة التي تلقاها بأخمص البندقية ، وسار به أوريوبين والبحار مبتعدين عن القطار .

وفحّ أوريوبين قائلاً :

ـــ ان الشياطين أمثاله يجعلون الناس يثورون ، وهو ممن سببوا هذه الثورة . . . آها ، لا ترتجف كثيراً يا عزيزى ، والا تفككت أوصالك .

ثم رفع قبعته ورسم شارة الصليب ، وصاح :

ـــ انتبه أيها الرئيس !

وقال البحار وهو يلعب بمسدسه ، وقد انفرجت شفتاه عن تكشيرة خبيثة ولمعت أسنانه البيضاء :

ـــ مستعد ؟

ـــ نعم .

ورسم أوريوبين شارة الصليب ثانية ، ونظر جانباً الى البحار الذى أخّر قدماً الى الوراء مهدفاً ، وكشر عن ابتسامة وأطلق عليه النار قبله .

وعلى مقربة من تشابلين ، انجرت الكتيبة بصورة عفوية الى معركة اندلعت بين الفوضويين والأوكرانيين . فخسروا ثلاثة رجال من القوزاق وشقوا طريقهم بالقوة ، بعد أن لاقوا صعوبة في اخلاء الخطوط التي كانت تشغلها قطارات عسكرية تحمل فرقة من حملة البنادق .

وبعد ثلاثة أيام ترك القطار القسم الأول من الكتيبة في محطة ميليروفو ، أمّا القسم الآخر فقد تأخر في لوغانسك . وأفلت نصفهم وامتطوا جيادهم الى بيوتهم من المحطة رأساً ، أمّا الآخرون فقد ساروا الى قرية كارغين بنظام . وفي اليوم التالي أخذوا يتجرون بتحفياتهم وبالخيل التي غنموها من النمساويين ، وتقاسموا أموال الكتيبة ومعداتها .

وانطلق كوشيفوى والقوزاق الآخرون من أهالي قرية تاتارسكي الى بيوتهم في المساء . وارتقوا تلاً ، حيث تقع في سفحه ، على ضفتي نهر تشير المتعرجتين البيضاوين بلون الثلج ، قرية كارغين أجمل قرى الدون الأعلى . وكان الدخان يتصاعد نفثات متجعدة من مدخنة الطاحونة البخارية ، وتجمع حشد أسود من الناس في الساحة ، وكان الناقوس يقرع لصلاة المساء . وخلف منحدرات كارغين كانت تلوح قمم أشجار الصفصاف المحيطة بقرية كليموفسكي . ووراء زرقة الشيح المترامية في الأفق الملتفع بالثلج ، نشرت أشعة الشمس الغاربة في السماء خيوطاً أرجوانية متألقة .

ومر الثمانية عشر فارساً برابية تحتضن ثلاثاً من أشجار التفاح البرية ، وعرّجوا خبياً بسرعة صرّت لها سروجهم ، صوب الشمال الشرقي . وكان الليل القر قابعاً مثل اللص خلف قمم التلال . وكان القوزاق يستحثون جيادهم بين آونة وأخرى لتمضي بهم في هذب سريع وقد لفوا وجوههم بقلنسواتهم . وكانت سنابك الخيل توقع على الأرض الصلدة برنين يكاد يثير الألم ، وهي تنساب وراءهم الى الجنوب . وعلى جانبي الطريق تنكشط قشرة الجليد بفعل الذوبان الحديث ، وتعلق بين الحشائش ، وتسطع في ضوء القمر مثل ذوب من نار .

وراح القوزاق يستحثون خيلهم وقد ران عليهم الصمت ، وانساب الطريق من ورائهم صوب الجنوب . وتلفّع الشرق بغابة . بانت آثار الأرانب البرية الدقيقة على الثلج على جانب الطريق . وعالياً فوق السهب تحزمت السماء بالمجرة كأنها نطاق قوزاقي مرصع بالفضة .

الجزء الخامس

بدأ القوزاق ، فى أواخر خريف عام ١٩١٧ ، بالعودة الى أهليهم من الجبهة ، فعاد خريستونيا ، الذى بدا عليه كبر واضح ، وكذلك ثلاثة آخرون ممن خدموا فى الكتيبة الثانية والخمسين . وعاد أنيكوشكا الأمرد ، والمدفعى ايفان توميلين وياكوف الملقب بنعل الحصان . وفى أثرهم جاء مارتن شامل ، وايفان أليكسيفتش ، وزاخار كورولیوف ، وبورشيف الطويل الفظ . أحيلوا جميعهم الى الاحتياط . وفى كانون الأول وصل ميتكا كورشونوف على غير انتظار ، وبعد ذلك بأسبوع وصلت جماعة برمتها من القوزاق الذين خدموا فى الكتيبة الثانية عشرة : ميشا كوشيفوى ، وبروخور زيكوف ، وبيفان ماكسايف ، وأندريه كاشولين ، ويغور سينيلين . وقد عاد فيدوت بودوفسكوف ، الذى كان قد انفصل عن كتيبته ، من فورونيج رأساً ، على ظهر جواد بديع أشهب اللون داكن ، كان قد غنمه من ضابط نمساوى . وروى بعد ذلك مراراً كيف شق طريقه بين قرى مقاطعة فورونيج ، وهى تمور بالثورة ، وكيف أفلت من تحت أنوف مفارز الحرس الأحمر ، معتمداً على سرعة جواده .

ووصل بعدئذ ميركولوف ، وبيوتر ميليخوف ، ونيقولاى كوشيفوى ، الذين هربوا من الكتيبة السابعة والعشرين المتبلشفة . وهم الذين جاءوا بخبر التحاق غريغورى ميليخوف بالبلاشفة وبقائه فى كامينسكايا ، وكان قبل ذلك فى كتيبة الاحتياط الثانية . وقد خلفوا وراءهم كذلك مكسيم غريازنوف ، سارق الخيل الجرىء الذى

مال الى البلاشفة فى تلك الأيام الحافلة بكل جديد وطمعا فى الحصول على عيش رغيد . وقيل ان مكسيم حصل على حصان لا مثيل لقبحه ولا لقوته ، وان خطاً من الشعر الفضى يمتد على طول ظهره ، وانه لم يكن حصاناً عالى الهامة ، ولكنه طويل البنية أحمر كالبقرة . ولم يتحدثوا عن غريغورى كثيراً . الواضح أنهم لم يرغبوا فى الحديث عنه لعلمهم أنه اتخذ طريقاً غير طريق أهل القرية ، وربما فارقهم الى الأبد .

لقد ملأ الفرح البيوت التى عاد اليها القوزاق أرباباً أو ضيوفاً طال انتظارهم ، وشدد هذا الابتهاج ، بشكل قاس لا رحمة فيه ، من وطأة الأسى العميق فى نفوس أولئك الذين فقدوا أقاربهم وأعزاءهم الى الأبد . لقد افتقد العديد من القوزاق ، منتشرين فوق حقول غاليسيا وبوكوفينا ، وبروسيا الشرقية ، وجبال الكربات ، ورومانيا — بقيت جثثهم ملقاة لتجيف بينا دوّت فوقهم المدافع تنشد مرثاتهم . وقد علت روابى المقابر المشتركة أدغال طويلة ، ينهال عليها المطر ، ويحف بها الثلج تحمله الرياح . ومهما ركضت نسوة القوزاق الحاسرات الى منعطفات شارع القرية ليحدقن فى الأبعاد وقد ظللن عيونهن ، فلن يبصرن يوماً أحباءهن عائدين على ظهور الجياد . ومهما انسابت الأدمع من عيونهن المتورمة الذاوية ، فليس بمستطاعهن ازالة الآلام . ومهما بَكينَ فى أيام الذكرى والاحتفال فلن تحمل ريح الشرق صرخاتهن الى غاليسيا وبروسيا الشرقية ، الى الروابى الغائرة حيث مقابرهم المشتركة ! . .

وكما ينبت العشب على القبور يطغى الزمن على الأحزان . وكما تذرو الرياح آثار من رحلوا ، كذلك يذرو الزمن ، من نفوس أولئك الذين انتظروا عودة أحبائهم عبثاً ، ذكرياتهم وآلامهم

الدامية ، أولئك الذين سيدوم بهم الانتظار عبثاً ، فقصيرة هى حياة الانسان . وليس لأى منا عمر يكفيه . . .

كانت زوجة بروخور شامل تضرب رأسها على الأرض الصلدة وتنهش أرض بيتها وهى ترى الى أخ زوجها يلاطف زوجته الحبلى أو يعطى الهدايا الى أولاده ويدللهم . كانت تتلوى وتزحف على يديها وركبتيها : يحف بها أطفالها الصغار كقطيع من الغنم ، ويتصارخون اذ يشهدون أمهم وقد اتسعت مآقيهم ذعراً .

ايه عزيزة قلبى ، مزّقي آخر قمصانك ! جزى شعرك الذى غدا رهيفاً جراء حياتك الشاقة التى لا تعرف البهجة ، عضّي على شفتيك حتى تسيل الدماء ، أعصرى يديك اللتين خدشهما الكدح ، دقى جسدك على عتبة بيتك الخاوى ! فبيتك يفتقد سيده ، وزوجك راح ، وأطفالك أمسوا يتامى ، وتذكّري أن أحداً لن يلاطفك أو يداعب أيتامك ، أن أحداً لن يشد رأسك الى صدره ليلاً اذ تدلفين الى الفراش وقد أضناك العناء ، وأن أحداً لن يقول لك كما قال لك ذات مرة : «لا تقلقي ، يا أنسكا ، ستتدبر الأمر بشكل ما !» انك لن تحصلى على زوج جديد ، فقد ذبل عودك وشاخ من الكدح والجزع والأطفال . لن يكون هناك أب لأطفالك شبه العراة . وعليك أن تؤدى بنفسك كل أعمال الحراثة والتمهيد وتلهثى من فرط الارهاق . سيكون من واجبك أن ترفعى بالمذراة حزم القمح من الحاصدة الى العربة ، وحين ترفعين حزم القمح الثقيلة بالمذراة ستشعرين أن شيئاً يتمزق فى أحشائك . وبعدها ستتضورين ألماً ، وستنزفين الدم تحت أسمالك .

بكت أم ألكسى بيشنياك مر الدموع وهى تقلب ملابس ولدها الداخلية القديمة وتشمها ، ولم تستطع شم أثر لعرقه ، الاّ فى طيات قميصه الأخير الذى عاد به ميشا كوشيفوى . ودفنت العجوز رأسها

فى القميص وراحت تهز جسدها وتنتحب حزناً ، فطرزت دموعها ذلك القماش القطنى المتسخ .

لقد تيتمت عوائل مانيتسكوف ، وأوزيروف ، وكالينين ، وليخوفيدوف ، وكثير غيرها من عوائل القوزاق .

أمّا ستيبان أستاخوف فلم يبكه أحد ، اذ لم يكن لديه من يبكيه . فقد ظل بيته الموصد بالألواح ، المتصدع الأظلم حتى فى الصيف ، خاوياً على عروشه . فأكسينيا تعيش فى ياغودنويه ، لا يصل القرية من أخبارها الاّ اليسير ، ولم تطأ قدمها أرض القرية ، ولعلها لم تجد رغبة في ذلك .

عاد قوزاق المناطق العليا من الدون الى أهليهم زرافات . وما ان حل كانون الأول حتى عاد الجميع تقريباً الى قراهم فى منطقة فيشينسكايا . فكانت جماعات من الفرسان ، يتراوح عدد كل فريق منها بين العشرة والأربعين ، يمرون ليلاً ونهاراً بتاتارسكى فى طريقهم الى الضفة اليسرى من الدون .

وكان الشيوخ يخرجون اليهم يسألونهم :

— من أين أنتم ، أيها الجنود ؟

فتأتيهم الأجوبة على هذا النحو :

— من نهر تشورنايا ، من زيموفنايا ، من دوبوفكا ، من غوروخوفسكايا .

— فيسألهم الشيوخ بخبث : — هل انتهيتم من القتال ، اذاً ؟

ويبتسم بعض الفرسان ، الهادئين ذوى المشاعر الرقيقة ، ويقولون :

— لقد نلنا الكفاية ، يا أبتى ! أجل ، لقد انتهينا .

أمّا المتهورون الحانقون منهم فكانوا يشتمون الشيوخ وينصحونهم قائلين : «اذهبوا وجربوها أنتم ! ما الداعى لكل هذه الأسئلة ؟ ما أكثر الفضوليين بينكم» .

كانت الحرب الأهلية قد اندلعت فى أواخر الشتاء قرب نوفوتشيركاسك ، ولكن صمت المقابر ظل مخيماً على قرى مناطق الدون العليا . ولم تحتدم سوى خلافات داخلية خفيّة تجرى داخل البيوت ، وتطفو بعض الأحيان الى خارجها . فلم يستطع الشيوخ أن يكونوا على وفاق مع القوزاق العائدين من جبهة القتال .

ولم يعرف أهل القرى شيئاً عن الحرب التى اندلعت قرب عاصمة اقليم الدون الاّ عن طريق الاشاعات . واذ استعصت على مداركهم الاتجاهات السياسية المختلفة التى برزت يومئذ الى الوجود لم يكن أمامهم سوى أن يرهفوا آذانهم ويترقبوا الأحداث .

وانسابت الحياة وادعة فى قرية تاتارسكى حتى شهر كانون الثانى . وقد استكان القوزاق العائدون من الجبهة الى الراحة فى بيوتهم مع زوجاتهم ، فأكلوا حتى الشبع ، ولم يدر فى خلدهم أن على عتبات بيوتهم مصائب وأعباء جديدة أمر من تلك التى تجرعوها أيام الحرب .

٢

فى كانون الثانى عام ١٩١٧ رقى غريغورى ميليخوف الى رتبة نائب ضابط تقديراً لخدماته البارزة فى سوح القتال ، وقد نسب آمر رعيل فى كتيبة الاحتياط الثانية . وعاد الى أهله فى شهر أيلول التالى باجازة ، اثر اصابته بالتهاب الرئتين . فأمضى ستة أسابيع بين أهله ، ثم قررت اللجنة الطبية المحلية أنه قد أبل من مرضه فأعيد الى كتيبته . وبعد ثورة أكتوبر* رقى الى مرتبة آمر سرية .

* ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى فى ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) الذى يصادف الخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) حسب التقويم القديم عام ١٩١٧ . المترجمون .

وفى حوالى ذلك الوقت طرأ على آرائه تغير ملموس ، جراء ما دار حوله من أحداث ، وبتأثير من الملازم يفيم ايزفارين ، أحد ضباط كتيبته .

كان غريغورى قد تعرف على ايزفارين يوم عودته من الاجازة ، وصار بعد ذلك يلتقى به كثيراً أثناء الواجب وبعده ، وقد وقع تحت تأثيره دون أن يشعر بذلك . كان يفيم ايزفارين ابناً لقوزاقى ثرى . وقد درس فى كلية نوفوتشيركاسك العسكرية ، ومن الكلية التحق رأساً بكتيبة قوزاق الدون العاشرة فى الجبهة ، وخدم فيها زهاء عام فنال كما يحلو له أن يقول «وسام صليب القديس غيورغى وأربع عشرة شظية من قنبلة يدوية فى أجزاء مناسبة وغير مناسبة من جسمه» . وقد نقل من ثم الى كتيبة الاحتياط الثانية .

كان ايزفارين رجلاً فائق المقدرة ، كثير الموهبة ، نال من الثقافة قسطاً أوفر بكثير مما يناله الضابط القوزاقى الاعتيادى ، وكان شديد الحماس لأن تنال بلاد القوزاق استقلالها الذاتى . وقد أيقظته ثورة شباط البرجوازية وأتاحت له فرص التقدم ، فاتصل بحلقات الانفصاليين القوزاق ، وقام بدعاية بارعة فى سبيل الحكم الذاتى الناجز لمنطقة الدون ومن أجل اقامة حكومة كالتى حكمت فى الدون قبل أن تستولى القيصرية على القوزاق . كان حسن الالمام بالتاريخ ، شديد الحماس مع صفاء فى البصيرة ورزانة فى التفكير ، فكان يرسم ببيانه الأخّاذ صورة حياة المستقبل الحرة التى سينعم بها قوزاق الدون حين تكون لهم حكومتهم ، حين يخلو الاقليم من أى روسى ، ويومذاك يقف القوزاق حرساً على امتداد حدود بلادهم ، فيكون بوسعهم أن يخاطبوا أوكرانيا وروسيا الكبرى ، مخاطبة الند للند ، دونما حاجة الى رفع القبعة اجلالاً ، وأن يقيموا صلات التجارة والتبادل معهما . لقد استحوذ ايزفارين على ألباب القوزاق

البسطاء والضباط الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من الثقافة ، ووقع غريغورى كذلك تحت سحره . وفى بادئ الأمر كان يحتدم بينهما الجدال ، ولكن غريغورى ، وهو أشبه بالأمى ، لم يكن نـــدا لمقابله ، فكان ايزفارين ينتصر دوما فى صولات الجدال دونما مشقة . وكانت المناقشة تجرى عادة فى ركن من أركان الثكنـــة ، فيأخذ المستمعون على الدوام جانب ايزفارين . كان يبهرهم بحججه وبالصور التى يرسمها لحياة الاستقلال المرتقب ، وذلك ما يتجاوب بشكل خاص أعمق المشاعر الصميمية للقوزاق الموسرين فى الدون الأسفل .

كان غريغورى يسأله :

ـــ ولكن كيف يسعنا أن نعيش بدون روسيا ، وليس لدينا غير القمح ؟

فيوضح ايزفارين له الأمر بطول أناة :

ـــ أنا لا أفكر بالاستقلال والعزلة التامة لمنطقة الدون وحدها . سنعيش سوية مع الكوبان ، والتيريك ، وأهالى مرتفعات القوقاز على أساس فيدرالى ، أى اتحادى . القوقاز غنى بمعادنه ، وبوسعك أن تجد كل شىء هناك .

ـــ والفحم كذلك ؟

ـــ ان حوض الدونيتس لا يبعد أكثر من مرمى حجر .

ـــ ولكنه يعود لروسيا .

ـــ ان عائديته وفى أى حدود يقع لأمر متنازع عليه . ولكن حتى اذا ذهب حوض الدونيتس الى روسيا فاننا لا نخسر كثيراً . فحلفنا الفيدرالى لن يرتكز على الصناعة . نحن بلد زراعى ، وسوف نموّن صناعتنا الصغيرة ، والحالة هذه ، بفحم نشتريه من روسيا . وليس الفحم وحده . ثمة أشياء كثيرة أخرى ينبغى لنا أن نشتريها من

روسيا : الخشب ، المعادن ، الحاجيات المصنوعة وما اليها ، وفى مقابل ذلك سنزودهم بالقمح والبترول الجيدين .

ـــ وماذا نربح من انفصالنا ؟

ـــ ذلك أمر بسيط ! قبل كل شىء ، سنتحرر من حمايتهم السياسية . سنعيد النظام الذى قضى عليه قياصرة روسيا ، ونطرد جميع الدخلاء . وفى غضون عشرة أعوام ستزداد ثروتنا عشرة أضعاف وذلك باستيرادنا المكائن التى ترفع مستوى زراعتنا ، فالأرض أرضنا . لقد اغتسلت بدماء آبائنا وأخصبت بسماد عظامهم ، ولكن أربعمائة عام مضت ونحن خاضعون لروسيا ، ندافع عن مصالحها دون اهتمام بحالنا . ان لدينا منفذاً على البحر . وسيكون عندنا جيش محارب قوى . ولن تستطيع أوكرانيا أو حتى روسيا أن تعتدى على استقلالنا .

كان ايزفارين مثال القوزاقى بقوامه المتوسط ، وهيئته الوسيمة ومنكبيه العريضين . وكان ذا شعر أجعد بلون الهرطمان قبل نضوجه ، ووجه أسمر ، وجبين منحدر ، ولم تلوّح الشمس سوى وجنتيه وحوالى حاجبيه الحائلين . كان صوته صدّاحاً عالياً حسن النغمة ، ومن عادته لدى الكلام أن يرفع حاجبه الأيسر فجأة ويجعد أنفه الصغير المعقوف ، فيبدو وكأنه يتشمم شيئاً . وكان يتميز بين ضباط كتيبته بمشيته النشطة ، وانتصاب قامته اعتداداً بالنفس ، ونظرة عينيه البنيتين الصريحة . وكان القوزاق يكنون له احتراماً صادقاً ربما فاق احترامهم لآمر الكتيبة ذاته .

دارت بين ايزفارين وغريغورى أحاديث طويلة فشعر غريغورى بالأرض ترتخى تحت قدميه كرة أخرى ومر بتجربة مثيلة لتلك التى عاناها فى مستشفى العيون فى موسكو حين التقى بغرانجا .

وحدث بعد ثورة أكتوبر بقليل أن دار بينه وبين ايزفارين

حديث طويل . وكانت تتمزقه نوازع متناقضة ، فسأل الملازم باحتراس عن رأيه فى البلاشفة .

— قل لى ، يفيم ايفانتش ، هل تعتقد أن البلاشفة على حق أم لا ؟

فأجابه ايزفارين رافعاً حاجبه مجعّداً أنفه بهزل :

— هل البلاشفة على حق ؟ — ها — ها ! انك ، يا بنى ، أشبه بالطفل الوليد . ان للبلاشفة برنامجهم ، وخططهم ، وآمالهم ، انهم على حق ، من وجهة نظرهم هم ، كما أننا على حق من وجهة نظرنا نحن . أتعرف الاسم الحقيقى للحزب البلشفى ؟ لا تعرف ؟ حسناً ، انه حزب **العمال** الاشتراكى الديمقراطى الروسى ، أفهمت ؟ العمال ! انهم الآن يغازلون الفلاحين والقوزاق ، لكن الطبقة العاملة هى قاعدتهم . انهم يحررون العمال ، ولكنهم ربما يجلبون شر العبودية للفلاحين . ففى واقع الحياة لا يحدث مطلقاً أن يتساوى نصيب الجميع . اذا تغلّب البلاشفة فذلك خير للعمال وشر للآخرين . واذا عاد النظام الملكى فذلك خير لمالكى الأرض ومن لف لفهم وشر لغيرهم ، اننا لا نريد هذا ولا ذاك . اننا بحاجة الى نظام **خاص بنا** ولكننا بحاجة قبل كل شىء الى التخلّص من حماتنا سواء كانوا كورنيلوف ، أم كيرنسكى ، أم لينين . فبوسعنا العيش فى أرضنا بدونهم . فلينجنا الربّ من شر أصدقائنا وسوف نتدبر أمر أعدائنا بأنفسنا .

— ولكنك تعلم . . . أن غالبية القوزاق يميلون الـــى البلاشفة ؟

— غريشا ، يا صاحبى ، أفهم هذا ، فهو أمر جوهرى . فى **الوقت الراهن** يتفق اتجاه القوزاق والفلاحين مع اتجاه البلاشفة . هذا صحيح ، ولكن أتدرى لماذا ؟ السبب هو أن البلاشفة يطمحون

الى السلام ، الى السلام الفورى ، وفى هذه اللحظة يحس القوزاق بوطأة الحرب ها هنا .

وصفع رقبته السمراء صفعة رنانة ، وصاح ، وهو يعدل حاجبه المرفوع تهكّما :

— ولهذا يتبلشف القوزاق بعض الشىء ويسايرون البلاشفة . ولكن . . . حالما تنتهى الحرب ويمد البلاشفة يدهم للاستحواذ على ممتلكات القوزاق يفترق طريقاهما ! ذلك أمر أساسى ، وحتمية تاريخية . فثمة هوة لا قرار لها بين أسلوب القوزاق فى المعيشة وبين الاشتراكية ، وهى غاية الثورة البلشفية ! حسناً ، ما قولك فى ذلك ؟

فغمغم غريغورى قائلاً :

— أقول اننى لا أفهم شيئاً . ان من العسير علىّ أن أتبين رأس الشىء من ذنبه . اننى تائه لكأننى نهب عاصفة ثلجية فى السهب .

— ولن تخرج اذا بقيت على هذه الحال . فسترغمك الحياة ذاتها على ادراك الأمور ، وستدفع بك الى هذا الجانب أو ذاك .

دار هذا الحديث فى أواخر تشرين الأول . وفى تشرين الثانى صادف لغريغورى أن يلتقى بقوزاقى آخر لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الثورة على الدون . التقى غريغورى بفيودور بودتيلكوف ، فاستعاد قلب غريغورى من جديد الحقيقة السابقة بعد شىء من التردد .

كان المطر يرذ يومها منذ الظهيرة ، وقد صفا الجو عند المساء ، فقرر غريغورى أن يزور دروزدوف ، وهو نائب عريف فى الكتيبة الثامنة والعشرين ، من أهل منطقته . وبعد ربع ساعة كان يمسح قدميه على الحصير عند باب دروزدوف . وكان عند دروزدوف زائر : قوزاقي عظيم الجرم على كتفيه شرائط رئيس عرفاء فى بطارية الحرس ،

وكان يجلس على سرير سفرى وظهره ازاء النافذة وحوله أزهار فيكوس نحيلة وأثاث مهترئ . كان يجلس محنى الظهر وقد انفرجت ساقاه بسروالهما الأسود بينا استقرت يداه الكبيرتان المشعرتان على ركبتيه العريضتين . وكانت قمصلته من الضيق بحيث بدت على وشك التمزق عند صدره . وعلى صرير الباب أدار رقبته القصيرة ، وحدّق صوب غريغورى ببرود ، ثم أخفى ضوء عينيه البارد فى مجاهل محجريهما الضيقين ، تحت أجفانهما الغليظة .

— أود أن تعرفا بعضكما ! غريغورى ، أقدّم اليك بودتيلكوف من أوست خوبرسكايا ، تكاد تجاورنا داره .

تصافح الاثنان بصمت ، ثم جلس غريغورى .

ابتسم غريغورى لمضيفه وقال :

— لقد لطخت الأرضية بحذائى ، آسف .

— لا عليك . سوف تقوم صاحبة البيت بتنظيفه . . . هل لك ببعض الشاى ؟

وكان دروزدوف قميئاً نشطاً كالسحلية ، فدق على السماور بظفر اصبعه الأصفر من الدخان ، وأردف بأسف :

— عليك أن تشربه بارداً .

— لا أريده ، دعك منه .

ثم قدم غريغورى سيكارة الى بودتيلكوف . فأعمل الأخير أصابعه الحمر الكبيرة بالعلبة المرصوصة بالسكائر وغمغم قائلاً : «عليها اللعنة ، لا أستطيع أن أمسكها على أية حال» . وأخيراً استطاع أن يخرج سيكارة ، ثم رفع عينيه الباسمتين (وقد زاد ضيقهما الآن) الى وجه غريغورى فاستلطف طبيعته السمحة وسأله : «من أية قرية أنت ؟» .

— ولدت فى كروتوفسكى ، ولكنى كنت أعيش مؤخراً فى

أوست كلينوفسكى . أحسبك سمعت بكرتوفسكى ؟

كان يخاطب غريغورى دونما اهتمام تارة بالرسميات وتارة أخرى بصيغة مفرد ويتحدث بحرية وذات مرة حتى وضع يده الثقيلة على كتف غريغورى .

كانت آثار الجدرى الخفيفة تبدو على وجه بودتيلكوف العريض الحليق . وكان عذاراه مفتولين باحكام ، وشعره المبلل والممشط بعناية لصيقاً بأذنيه الصغيرتين ، وقد علت حاجبه الأيسر خصلة من شعره . كان محياه قمينا بأن يسر الناظر لولا أنفه الكبير المتجه الى أعلى . ولم يبدو على عينيه ، لأول وهلة ، أيما شىء غريب ، ولكن حين نظر غريغورى اليهما ملياً كاد أن يلمس ثقلهما الرصاصى . كانتا صغيرتين ، أشبه بكُرتين من الرصاص تلتمعان خلال شقيهما الضيقين وكأنهما تومضان من كوتين ، لتسمرا النظر فى نقطة واحدة باصرار لا يكل .

راح غريغورى يتملى هذا الرجل بفضول ، ولاحظ أن فيه ظاهرة خاصة ، فهو لا يكاد يطرف عينيه . كان وهو يتكلم يثبت نظرته الجادة على صاحبه ، أو ينتقل بها من شىء الى شىء ، لكنما أهدابه الكثة الحائلة تبقى مسبلة لا حراك فيها . ولم يكن ليسبل جفنيه المنتفخين الا من حين لآخر . ثم لا يلبث أن يرفعهما بغتة ليصوب بتلكما العينين الخرزيتين .

قال غريغورى مفتتحاً الحديث :

— هاكما نقطة جديرة بالاهتمام ، أخىّ ، سوف تنتهى الحرب وسنبدأ الحياة على نمط جديد . ستكون لأوكرانيا حكومتها الخاصة ، وسيحكم الدون مجلس القوزاق العسكرى .

فصحّح بودتيلكوف قوله بهدوء :

— تعنى الأتمان كاليدين .

— سيان ، وما الفرق ؟

فقال بودتيلكوف موافقاً :

— أوه ، ليس ثمة فرق .

وبدأ غريغورى يشرح حجة ايزفارين ، وقد استبد به الفضول لرؤية ما تحدثه هذه الآراء من رد فعل لدى دروزدوف وهـذا العظيم الجرم من بطارية الحرس . قال :

— لقد قلنا لأمنا روسيا : وداعاً . ستكون لدينا حكومتنا الخاصة ونمط معيشة خاص . ليخرج الأوكرانيون من أرض القوزاق . سوف نعين حرساً للحدود ونحول بين الدخلاء وبلادنا . سوف نعيش كما عاش أجدادنا فى الأيام الخوالى . أعتقد أن الثورة جاءت لصالحنا . ما رأيك ، يا دروزدوف ؟

فابتسم دروزدوف ابتسامة ماكرة وتململ قائلاً :

— طبعاً سيكون ذلك أفضل بالنسبة الينا . لقد سلبنا الفلاحون قوانا ، وما كان بالوسع أن نحيا فى ظلهم . ثم ان جميع الاتمانات كانوا من الألمان ! فون تاوبه ، فون كرابه ، والشيطان يعلم اسماء الآخرين . لقد منحوا أرضنا لكل ضباط الأركان هؤلاء . أمّا الآن فسيكون بمقدورنا أن نتنفس على أية حال .

فقال بودتيلكوف بهدوء دون أن يوجه السؤال الى شخص معين :

— ولكن هل توافق روسيا على ذلك ؟

فأجابه غريغورى مطمئناً :

— أحسب أنها ستُرغم على قبول ذلك .

— على أية حال ، سيبقى الامر على ما هو تماماً ، الحساء القديم نفسه سوى أنه مخفف أكثر من السابق .

— كيف تفسر الأمور هكذا ؟

— طبعاً سيكون الأمر كذلك .

وشرع بودتيلكوف ينقل عينيه الخرزيتين بسرعة أشد ثم رمى غريغورى بنظرة ثقيلة وأضاف :

— سيظل الأتمانات يجرون على منوالهم السابق فى اضطهاد الشعب الذى يتعين عليه أن يكد . ستمثل أمام واحد من أصحاب السعادة وسيضربك على الخرطوم . حياة جميلة ، حقاً . أفضل منها أن تعلق حجر الطاحونة على رقبتك وترمى بنفسك فى النهر .

فنهض غريغورى وراح يمشى فى الغرفة الصغيرة الضيقة جيئة وذهاباً . ثم توقف أمام بودتيلكوف وسأله :

— فماذا علينا أن نفعل اذا ؟

— علينا أن نتم المهمة !

— أية مهمة ؟

— حين تشرع بالحراثة عليك شق الأرض الى النهاية . وحين تخلع القيصر والمعادين للثورة عليك تسليم الحكم الى الشعب . وأمّا قصة الأيام الخوالى تلك فهى حديث خرافة . ففى الأيام الغابرة كان القياصرة يضطهدوننا ، ولئن لم يعد القياصرة يضطهدوننا الآن ، فسوف يضطهدنا آخرون غيرهم .

— اذاً ما هو سبيلك للخروج من المأزق ، يا بودتيلكوف ؟

ومرة أخرى راحت عيناه الخرزيتان تجولان هنا وهناك ، تتسمان منفذاً فى تلك الغرفة الصغيرة التى ضاقت بما فيها .

— حكومة شعبية ، منتخبة . وان وقعنا فى قبضة الجنرالات فالحرب آتية من جديد ، ولا أرانا بحاجة اليها . ليتنا نستطيع اقامة حكومة شعبية فى جميع أنحاء العالم فلا يضطهد الشعب أو يساق الى الحروب ! ولكن ماذا عندنا الآن ؟ انك ان قلبت السروال العتيق على بطانته فلن تتوارى ثقوبه .

وضرب بودتيلكوف ركبتيه ضربة داوية ، وافتر فمه عن ابتسامة صارمة كاشفاً عن صف مرصوص من أسنان صغيرة بيضـــاء وأردف :

— خير لنا أن نبتعد عن الايام الخوالى ، لكيلا يشدوا السرج علينا وتمسى حياتنا أسوأ منها أيام القيصر .

— ومن الذى سيحكمنا ؟

فأجاب بودتيلكوف بحمية متزايدة :

— سنحكم أنفسنا ، ستكون لنا حكومتنا نحن . ليرخوا حزام سرجنا قليلاً ، أما كاليدين وأمثاله فبوسعنا نحن ان نلقى بهم من على ظهورنا فى الحال .

وقف غريغورى ازاء النافذة المضببة وطفق يحدق الى الشارع ، والى الأطفال وهم يلعبون ، والسقوف الندية للبيوت المقابلة ، والأغصان الرمادية الباهتة لشجرة حور تقوم وراء السياج ، ولم يعد ينصت الى النقاش الدائر بين بودتيلكوف ودروزدوف . كان يجاهد متألماً لكيما يتبين ضوء النهار خلال الأفكار التى اختلطت عليه فأثقلت كاهله ، ولكيما يتوصل الى قرار ما .

ولبث هناك زهاء عشر دقائق يخط باصبعه على الزجاج الأحرف الأولى لبعض الأسماء . وكانت شمس المغيب الشتائى المبكر ، تتوهج وراء سقف البيت الواطئ المقابل . وكان قرص الشمس يبدو حاطاً على تسنيمة * السقف الصدئ وكأنه على وشك التدحرج فى هذا الاتجاه أو ذاك . واندفعت من حديقة البلدة الى الشارع أوراق مخشخشة متلاحقة ، وعصفت خلال البلدة ريح قادمة من أوكرانيا ولوغانسك ما لبثت أن اشتدت .

---

* أعلى السقف الذى على شاكلة الجملون . المترجمون .

غدت مدينة نوفوتشيركاسك محط أنظار كافة الهاربين من الثورة البلشفية . وتدفق الى مناطق الدون السفلى جنرالات بارزون كان فى يدهم ذات يوم مصير الجيوش الروسية المتدهورة ، جاءوا يحدوهم الأمل فى العثور على التأييد لدى رجعيى قوزاق الدون ، وليتخذوا الدون قاعدة للهجوم على روسيا السوفييتية . وفى الثانى من تشرين الثانى وصل الجنرال ألكسييف الى المدينة . وبعد أن أجرى مداولات مع كاليدين شمر عن ساعد العمل لتنظيم مفارز من المتطوعين . وتألف العمود الفقرى لجيش المتطوعين العتيد من الضباط الذين فروا من الشمال وطلاب الكليات العسكرية ، والطلبة ، والجند الذين فقدوا ارتباطهم الطبقى ، ومن أنشط القوزاق المعادين للثورة ، ورجال يسعون وراء المغامرات والأجرة العالية ولو كانت بروبلات كيرنسكى .

وفى أواخر تشرين الثانى ، حين كان لدى ألكسييف أكثر من ألف رجل فى مفارزه ، قدم جنرالات لوكومسكى ، ماركوف وايرديلى . وفى السادس من كانون الأول وصل المدينة كورنيلوف نفسه الذى ترك فى الطريق حرسه التركمانى وبلغ حدود الدون متنكراً . وكان كاليدين قد أفلح آنذاك فى سحب كتائب القوزاق كلها تقريباً من الجبهات الرومانية والنمساوية الألمانية ، فوزعها على امتداد خطوط السكك الحديد الرئيسية فى اقليم الدون . بيد أن القوزاق ، الذين أرهقتهم أعوام الحرب الثلاثة فعادوا من الجبهة يحملون روحاً ثورية ، لم يبدوا رغبة شديدة لقتال البلاشفة . ولم يبق فى الكتائب سوى أقل من ثلث أفرادها ، اذ كانت نار المواقد فى منازلهم تدعوهم اليها بالحاح . ولم تكن على الأرض قوة بوسعها أن تحول بين القوزاق وزحفهم التلقائى نحو قراهم . ولم يبق فى بتروغراد من

كتائب القوزاق الا ثلاث ، وحتى هذه لم تمكث هنـــاك طويلاً .

وثمة وحدات لم تكن موضع ثقة فحاول كاليدين اعادة النظر فى تشكيلاتها ، أو عزلها باحاطتها بأشد قطعاته اخلاصاً .

وفى أواخر تشرين الثانى ، حين قام كاليدين بأول محاولة لارسال عدد من مفارز الجبهة لمهاجمة روستوف الثورية ، أبى القوزاق أن ينفذوا الأمر ، وعادوا القهقرى دون أن يتقدموا الا مسافة قصيرة . بيد أن التنظيم المتطور الواسع لتدعيم الفرق المشتتة بدأ يعطى ثماره . وما ان حل السابع والعشرون من تشرين الثانى حتى أصبح تحت امرة كاليدين عدد من مفارز المتطوعين المخلصين ، واستطاع أن يستعير بعض القوات من ألكسييف ، الذى كان آنذاك قد جمع بضعة أفواج .

وما ان حل الثانى من كانون الأول حتى أطبقت قوات الحرس الأبيض المتطوعة على روستوف وحين وصلها كورنيلوف غدت المدينة المركز التنظيمى لجيش المتطوعين . وترك كاليدين وشأنه ، فوزع وحدات القوزاق على امتداد حدود الاقليم حتى تساريتسين وأطراف مقاطعة ساراتوف . الّا أنه استخدم مفارز من الضباط والانصار لتنفيذ أشد مهامه خطورة ، فلم يكن بوسع الحكومة العسكرية الهزيلة أن تركن فى تنفيذ المهام الآنية الّا الى هـــذه الوحدات .

وأرسلت المفارز المجندة حديثاً لاخماد حركة عمال المناجم فى الدونيتسك . وشرع الرئيس تشيرنتسوف بالعمل فى منطقة ماكاييف حيث كانت ثمة وحدات من كتيبة القوزاق النظامية الثامنة والخمسين . وقد شكلت فى نوفوتشيركاسك مختلف المفارز والأرهاط الحربية تحت قيادة سيميليتوف وغريكوف ، وفى الشمال جمع الضباط والأنصار

لتشكيل ما دعيت بمفارز «ستينكا رازين» * . الّا أن طوابير من الحرس الأحمر كانت تتقدم صوب المقاطعة من اتجاهات ثلاثة . واستمر جمع القوات فى خاركوف وفورونيج لتوجيه ضربة الى أعداء الثورة فى منطقة الدون . علت السحب الدون وتكاثفت وادلهمت . وبدأت رياح أوكرانيا تحمل دوى المدافع الذى رافق الاشتباكات الأولى .

٤

كانت ثمة غمامات منتفشة بيضاء مصفرة ، تنساب على مهل فوق نوفوتشيركاسك . وتعلقت فى السماء فوق قبة الكاتدرائية اللامعة غمامة رمادية متجعدة كالعهن المنفوش ، وقد تدلى ذنبها الطويل بلون فضى متورد .

لم تكن الشمس ساطعة عند شروقها ولكن نوافذ قصر الأتمان كانت تتوهج بأشعتها توهجاً قوياً . وكانت سقوف المنازل الحديدية المائلة تلتمع ، وتمثال يرماك ** البرونزى ما يزال مبللاً بمطر اليوم السابق ، رافعاً تاج سيبيريا .

سار فصيل من مشاة القوزاق صعداً الى تل كريشنسكى ، وراحت أشعة الشمس تتراقص مرحة على حراب بنادقهم . وكانت مشية القوزاق منتظمة لا يكاد وقعها يحدث الا صوتاً ضئيلاً لا يعكر

---

* ستيبان (ستينكا) رازين (١٦٣٠ — ١٦٧١) وهو الأتمان القوزاقي وزعيم الحرب الفلاحية (١٦٧٠ — ١٦٧١) . **المعرب** .

** يرماك (توفى عام ١٥٨٥) وهو الأتمان الذى بدأ بقواته القوزاقية بفتح سيبيريا وانضمامها الى روسيا . كان يتمتع بشعبية واسعة وأصبح ، وهو على قيد الحياة ، بطلاً لقصائد وأغان شعبية كثيرة . **المعرب** .

صفو ذلك الصباح البلورى الذى لم يسمع فيه من صوت آخر سوى خطوات عابر سبيل يمر بين الفينة والفينة أو قعقعة عربة من عربات الدروزكى .

وصل صباح ذلك اليوم ايليا بونتشوك الى نوفوتشيركاسك بقطار موسكو . وكان آخر من غادر عربة القطار لاماً أطراف معطفه القديم شاعراً بالارتباك فى ملابسه المدنية .

وكان ثمة دركى وفتاتان يتمشون ذهاباً وإياباً على الرصيف وهما تتضاحكان لشىء ما . خرج بونتشوك الى المدينة ، متأبطاً حقيبته الرخيصة الرثة . ولم يكد يصادف أيما مخلوق فى طريقه رغم أنه قطع المدينة من أدناها الى أقصاها . وبعد أن سار نصف ساعة توقف أمام دار صغيرة خربة ، لم تمسسها يد الترميم لسنوات عديدة ، فعبثت بها يد الدهر ، وتهدّل السقف وانحنت جدرانها ، وتدلت صفاقاتها الخشبية ، واحولت نوافذها . وحين فتح بونتشوك البوابة ألقى نظرة عجلى منفعلة على الدار وفنائها الصغير ، ثم أسرع مرتقياً الدرج .

صادفه صندوق معباً بسقط المتاع يحتل نصف الممر الضيق . وقد ارتطمت ركبته بحافة الصندوق فى الظلام ولكنه فتح الباب دون أن يشعر بالألم . ولم يكن ثمة أحد فى الغرفة الأولى الواطئة . فذهب صوب الثانية ، وتوقّف عند العتبة وقد أفعمته رائحة مألوفة جداً ينفرد بها هذا البيت ، ورأسه يدور . واستوعبت عيناه الغرفة برمتها : الايقونات بأطرها الثقيلة فى الركن ، السرير ، المائدة التى تعلوها المرآة الصغيرة المنقطة ، بضعة تصاوير ، عدد من الكراسى المخلخلة ، ماكنة الخياطة ، وسماور قديم فوق الموقد . فألقى حقيبة ملابسه وراح يحدّق فى أرجاء المطبخ وقد اشتد خفقان قلبه على حين غرة . وكان على الموقد المرتفع المطلى بالاخضر سيماء

الترحاب ، وأطلت قطة عجوز رقطاء من وراء ستارة قطنية زرقاء ، تومض عيناها بما يشبه فضول البشر ، فلا بد أنها لم تألف الزوار . وكان ثمة صحون وسخة مبعثرة على المائدة ، وعلى مقعد تركت كرة من الصوف وأربعة ابر لماعة تحمل جوراباً لما تتم حياكته .

ان ثمانية أعوام بطولها لم تغيّر شيئاً . لكأنه لم يغادر البيت الاّ قبل يوم . وهرع خارجاً الى الدرج . فظهرت عجوز محنية الظهر من باب سقيفة فى أقصى الفناء . «أمى !. ولكن أتراها هى ؟ أهى أمى ؟» واندفع يلقاها بشفتين مرتعشتين نازعاً قبعته وهو يركض .

تساءلت العجوز جفلة وهى تظلل عينيها براحة يدها :

— من تريد ؟

فانفجرت الكلمات مبحوحة فى حنجرة بونتشوك :

— أماه ! ألا تعرفينني ؟

ومضى نحوها متعثراً ، فشاهدها تترنح من وقع صرخته ، وكأن ضربة سددت اليها . وحاولت أن تركض ولكن لم تسعفها قواها ، فتقدمت بخطوات صغيرة وكأنها تكافح ريحاً هوجاء . واحتواها بين ذراعيه ، وراح يقبل وجهها المتغضن وعينيها ، اللتين غشيهما الخوف والفرح ، بينما كانت عيناه تطرفان بلا ارادة . وراحت العجوز تهمس :

— ايليا ! اليوشا ! يا ولدي الصغير ! لم أعرفك . . . رباه ، من أين جئت ؟ — وهى تحاول ان تعدل قامتها لتقف على قدميها الضعيفتين المرتجفتين .

دخلا البيت ، وخلع معطفه المستعار وهو يتنفس الصعداء ، ثم جلس ازاء المائدة .

— لم يدر فى خلدى أبداً أننى سأراك ثانية وأنت على قيد

الحياة . . . مضت سنوات كثيرة . . . يا عزيزى . . . كيف أستطيع معرفتك ، لقد نما جسمك كثيراً ، وصرت تبدو أكبر سناً .

فسألها باسماً :

— حسناً ، وكيف حالك ، يا أمى ؟

كان جوابها متقطعاً ، وهى تنتقل هنا وهناك ، تعد المائدة ، وتضع الفحم فى السماور . وكانت تهرع الى ابنها ، المرة تلو المرة ، بدموعها المنهمرة لتمسد رأسه وتشده اليها وهى تمسح خديها المبللين وتلطخهما بالفحم الأسود . ثم غلت الماء وغسلت رأسه بنفسها ، وأخرجت له من أسفل الصندوق بعض الملابس الداخلية النظيفة التى اصفر لونها من فرط القدم ، ثم قدمت الى ضيفها العزيز وجبة طعام وجلست حتى منتصف الليل ، وقد سمرت فيه عينيها ، تسأله عن حاله وتهز رأسها بحزن .

كانت الساعة الثانية قد دقت فى كنيسة مجاورة حين رقد بونتشوك لينام . وقد استغرق فى النوم حالاً ، ورأى فى نومه أنه عاد من جديد تلميذاً فى مدرسة الصنائع وقد أنهكه التعب جراء اللعب فأغفا فوق كتبه ، بينا فتحت أمه باب المطبخ وسألته بصرامة : «ايليا ، هل حفظت دروسك ليوم غد ؟» كان نائماً وقد تسمرت على محياه ابتسامة تطفح بالهناء .

وذهبت أمه اليه أكثر من مرة خلال الليل لتسوى غطاء بطانيته ووسادته ، وتقبّل جبينه السمح بخصلة من شعره الشقراء تدلّت عليه ثم تخرج ثانية بهدوء .

أمضى فى بيته يوماً واحداً فقط . وفى الصباح جاءه رفيق يرتدى معطفاً عسكرياً وقبعة جديدة من الخاكى وتحادث معه بصوت خافت ، وبعد أن غادره الرجل ، تنقل هنا وهناك منهمكاً فى اعداد حقيبته ووضع فيها الملابس الداخلية التى غسلتها له والدته ، وارتدى معطفه

الذى لا يلائمه . ثم ودّع أمه وداعاً عاجلاً ، بعد أن وعد بزيارتها فى غضون شهر .

— أين أنت ذاهب الآن ، يا ايليا ؟

— الى روستوف ، أماه ، الى روستوف ، سوف أعود عما قريب . . . لا تحزنى ، أماه . . . لا تحزنى .

قال لها ذلك مشجعاً . فأسرعت تنزع صليباً صغيراً من حول عنقها ، وبينا هى تقبل ابنها أنزلت الخيط حول رأسه وسوته حول رقبته بأصابع مرتعشة ، ثم همست :

— احمل هذا ، ايليا . احمه ونجه أيها القديس نيقولاى ، احفظه بجناحيك فهو كل ما عندى فى هذه الدنيا .

وفيما كانت تعانقه بكل حرارة ، لم تقو على كبح جماح نفسها فارتعشت زاويتا شفتيها وتهدلت بمرارة . وكمثل مطر الربيع تساقطت دموعها الدافئة ، واحدة اثر واحدة ، على يد بونتشوك المكسوة بالشعر . ثم فكّ يديها عن رقبته وهرول الى خارج البيت بوجه مكفهر محزون .

* * *

كانت محطة روستوف تعج بحشد تزاحم كالقطيع ، وقد تراكمت على الأرض حتى الكاحل أعقاب السكائر وقشور بذور عبّاد الشمس . ووقف جنود من حامية المدينة فى ساحة المحطة يبيعون المعدات والتبغ والحاجيات التى سرقوها . وكان يضج ويموج أمامه حشد حاشد من شتى الأقوام كالذى يشاهده المرء فى مرفأ من مرافئ الجنوب . وشق بونتشوك طريقه خلال الحشد الى غرفة لجنة الحزب وارتقى السلم الى الطابق الأول . فاعترض سبيله جندى من

الحرس الأحمر ببندقية من طراز يابانى . وكانت حربتها عريضة قصيرة .

— ماذا تريد ، أيها الرفيق ؟

— أريد الرفيق أبرامسون . أهو هنا ؟

— الغرفة الثالثة الى اليسار .

فتح بونتشوك باب الغرفة المقصودة ، فوجد رجلاً قصير القامة أسود الشعر كبير الأنف يتحدث الى عامل كهل من عمال السكة الحديد . كانت يسراه تحت ياقة سترته ويمناه تلوح فى الهواء بانتظام . وكان الرجل ذو الشعر الأسود يقول :

— ما هذا بالعمل المرضى ! ليس ذلك بتنظيم ! اذا سارت الدعاية على هذا المنوال فانك تحصل على عكس النتيجة التى نريدها تماماً .

وكانت نظرة الشعور القلق بالذنب ، البادية على وجه عامل السكة الحديد تدل على أنه يريد قول شىء يبرر به عمله ، الا أن الرجل الآخر لم يدعه يفتح فاه . ومن الواضح أنه كان منفعلاً أشد الانفعال اذ كان يصرخ :

— أزح مبتشينكو من العمل فوراً ! لا يمكن احتمال ذلك ! لا يمكننا السماح بما يجرى بينكم . سوف يترتب على فيرخوتسكى أن يمثل من أجل ذلك أمام المحكمة الثورية . هل تم القاء القبض عليه ؟ أجل ؟ سأصر على رميه بالرصاص ! — وحين أنهى كلامه القاسى هذا ، أدار وجهه الغاضب صوب بونتشوك ، قبل أن يسيطر على نفسه تماماً ، وسأله بحدة : — ماذا تريد ؟

— هل أنت أبرامسون ؟

— نعم .

فناوله بونتشوك وثائق ورسالة من أحد الرفاق المسؤولين فى

بتروغراد وجلس على طنف النافذة . فقرأ أبرامسون الرسالة بعناية ويبدو أنه ندم لما أبدى من خشونة فابتسم لبونتشوك ابتسامة كئيبة ، وقال :

— انتظر قليلاً ، ستتحادث بعد لحظة أو لحظتين .

ثم صرف عامل السكك وخرج ، ليعود مع ضابط حليق الوجه متين البنية من الجيش النظامى يحمل على فكه أثر ضربة بالسيف .

— اليك عضواً من أعضاء لجنتنا العسكرية الثورية . وأنت ، أيها الرفيق . . . آسف ، نسيت اسمك .

— بونتشوك .

— أنت من حملة الرشاشات ، أليس كذلك ؟

— بلى .

— أنت ضالتنا المنشودة .

قال ذلك وابتسم فتورد أثر الجرح بطوله ، من أذنه حتى نهاية فكه . ثم قال أبرامسون سائلاً :

— هل تستطيع أن تنظم لنا مفارز حملة رشاشات بين العمال المنتمين الى الحرس الأحمر ؟ بأسرع ما يمكن ؟

— سوف أحاول . انها مسألة وقت .

فقال العسكرى مائلاً نحو بونتشوك وعلى ثغره ابتسامة أمل :

— حسناً ، كم من الوقت تحتاج ؟ أسبوعاً . . . اثنين ، ثلاثة ؟

— بضعة أيام .

— عظيم .

وفرك أبرامسون جبينه ، ثم قال بكدر واضح :

— ان مفارز حامية المدينة واهنة العزيمة ، وليس بالوسع

الاعتماد عليها ، كما هى الحال فى كل مكان ، على ما أظن ، أيها الرفيق بونتشوك . ان محط آمالنا هنا هم العمال . والبحارة كذلك ، أمّا الجنود . . . ولهذا السبب نريد حملة رشاشات من جماعتنا . — ثم أمسك لحيته السوداء ، وقال سائلاً : «كيف تتصور وضع تجهيزاتنا ؟ حسناً ، سنتدبر ذلك . هل تيسر لك ما تأكله هذا اليوم ؟ لا ، بالطبع لا» .

«لا بد أنه ذاق طعم الحرمان فى حياته ، فهو يستطيع أن يحكم من أول نظرة ما اذا كان المرء متخماً أم جائعاً ، ولا بد أنه عانى الكثير من المتاعب أو الرعب ليجمع فى رأسه كل هذا الشيب» . هذا ما دار فى نفس بونتشوك وقد تملكه حنان مفاجئ ، وهو يرى الى بقعة الشيب التى كانت تسطع على رأس ابرامسون الأسود كالخنفساء . وظل بونتشوك يفكر بأبرامسون وهو ذاهب الى غرفته بصحبة أحد الأدلاء : «انه رجل طيب ، بلشفى حقيقى ! صارم ، ولكنه يحمل طيبة وانسانية فى اعماقه . انه لا يتردد فى اصدار حكم الاعدام على مخرب ما ، ومع ذلك فهو يهتم بحاجات رفاقه» .

وكان ما يزال متأثراً بالانطباع الدافئ الذى تكون لديه فى ذلك اللقاء حين وصل الى منزل أبرامسون ، فسلم ربة البيت رسالة من عنده وتناول بعض العشاء ، ثم استلقى ليستريح على السرير فى الغرفة الصغيرة الملأى بالكتب . وسرعان ما أخذته سنة من النوم .

٥

فى الأيام الأربعة التالية ، شغل بونتشوك منذ الصباح الباكر حتى الليل ، بالعمال الذين أرسلتهم اليه لجنة الحزب . كان مجموعهم ستة عشر رجلاً ، وكانت حرفهم أيام السلم مختلفة جداً ،

وكذلك تباينت أعمارهم وتعددت مللهم . كان بينهم عاملا ميناء هما خفيليتشكو الأوكرانى ، وميخاليدى اليونانى المتجنس بالروسية ، ومنضد حروف المطبعة ستيبانوف ، وثمانية من عمال التعدين ، وزيلينكوف عامل فى مناجم بارامونوف ، وغيفوركيانتس خباز أرمنى بادى الهزال ، وألمانى متجنس بالروسية وهو ميكانيكى ماهر يدعى ريبيندر ، وعاملان من معامل السكة الحديد . ثم وصلت الرسالة السابعة عشرة الى بونتشوك بيد امرأة ترتدى معطفاً عسكرياً محشواً وجزمة كبيرة جداً لا تناسبها . وحين تناول الرسالة المختومة ، سألها قائلاً :

— هل تستطيعين أن تمرى بمقر الأركان فى طريق عودتك ؟

فابتسمت محرجة وسوت خصلة غزيرة من شعرها تدلت من تحت عصابة رأسها ، ثم أجابت بارتباك :

— لقد أرسلونى اليك . . . — ثم تغلبت على ارتباكها الطارئ ، وأضافت : — . . . كحاملة رشاش .

فاحمر وجه بونتشوك ، وقال :

— هل جن جنونهم ؟ أينبغى لى أن أشكل فوجاً نسائياً ؟ أرجو المعذرة ، ولكن هذا عمل لا يناسبك ، انه شاق ويتطلب قوة الرجال . كلا ، لا أستطيع قبولك .

ثم فض الرسالة ، وهو ما يزال عابساً ، ومر على محتوياتها بعجالة . ان كتاب التجنيد نفسه لا يعدو عن القول ان عضو الحزب آنا بوغودكو قد نسبت الى صنف الرشاشات ، لكن أبرامسون كان قد أرفق الكتاب برسالة قرأها بونتشوك مرات عديدة جاء فيها :

عزيزى الرفيق بونتشوك :

نبعث اليك رفيقاً طيباً فى شخص آنا بوغودكو . لقد أذعنا

لطلبها الملحاح ونأمل أن تجعل منها حاملة رشاش محاربة . انني أعرف الفتاة . وبوسعي أن أزكيها بحرارة . انها عاملة جليلة النفع ، واني لأرجوك أن تنتبه الى أمر واحد : انها فتاة ملتهبة المشاعر ذات مزاج حاد بعض الشيء فهي ما تزال غراً (فهي لم تستطع أن تتخطى شبابها) . امنعها من اتيان الأعمال الطائشة ، واعتن بها .

ان نواة مفرزتك ستتألف ، بدون شك ، من عمال التعدين الثمانية . ومن بين هؤلاء أول اهتماماً خاصاً ببوغوفوى فهو رفيق قدير مخلص للثورة . ان مفرزتك حملة الرشاشات ، أممية فى تكوينها ، وذلك أمر حسن يزيد من قدرتها على القتال . عجل فى التمرين ، فقد بلغنا أن كاليدين يعد العدة لمهاجمتنا .

مع تحيات رفاقية

أبرامسون

تفرس بونتشوك فى الفتاة الماثلة أمامه ، ولم يستطع أن يتبين معالم وجهها فقد أخفته عتمة القبو الذى أعطى له مثابة المقر . ثم قال بلا مجاملة :

— أوه حسناً ! اذا كانت هذه مشيئتك أنت . . . وبما أن أبرامسون يرجو ذلك ، فبوسعك البقاء .

* * *

واحتشدوا حول المدفع الرشاش ، وخيموا عليه كالعنقود مستندين الى ظهور بعضهم البعض وراحوا يرقبونه بعيون متلهفة فيما كانت يدا بونتشوك الماهرتان تفصلان أجزاءه . ثم أعاد تركيبه ، وهو

يشرح طبيعة ووظيفة كل جزء ، ويبين لهم كيفية استعماله ، وحشوه ، وتصويبه ، وتثبيت المحرك والمدى . ثم علمهم كيف يحمون أنفسهم من نار العدو ، مشيراً الى ضرورة نصب المدفع على موقع مناسب ووضع شريط العتاد بصورة صحيحة .

وقد تعلم السبعة عشر كلهم بسرعة ، باستثناء الخباز غيفوركيانتس . فمهما حاول بونتشوك أن يعلمه لم يستطع أن يتذكر شيئاً ، وطار صوابه ، وهو يغمغم مرتبكاً :

— لماذا أخطئ ؟ آه . . . انني لأحمق . . . هذه القطعة ينبغى أن تكون هناك . . . ولكنها مع ذلك ليست فى محلها ! — ثم صرخ يائسا : — لماذا ؟

— اليك السبب ! — حاكاه فى ذلك بوغوفوى وهو رجل أسمر ، ترك البارود آثاراً زرقاء على جبينه وخديه . وأردف : — انك لا تستطيع تركيبه لأنك مغفل . اليك ما ينبغى أن تفعل . — فوضع الجزء فى محله الصحيح بكل ثقة وأردف : — منذ صباى كنت مولعاً بالأمور العسكرية . — ثم أشار الى الآثار الزرقاء على وجهه وسط ضحك الجميع . — لقد حاولت أن أصنع مدفعاً ، ولكنه انفجر ، فنلت أسوأ عاقبة ، ولهذا السبب ترونني الآن ماهراً .

وكان هو فعلاً أول من أتقن فن استعمال المدفع الرشاش . ولم يتخلف سوى غيفوركيانتس ، فكان صوته المتوجع الحانق يتردد على الدوام :

— أخطأت ثانية ، ولكن لماذا ؟ لست أدرى !

— يا لك من حمار ! ليس فى ناخيتشيفان الّا حمار واحد مثله !

قال ذلك ميخاليدى بغضب ، وأيده الألمانى المتحفظ ريندر قائلاً :

— انه أحمق بشكل لا مثيل له .

وقال خفيليتشكو مازحاً :

— ان هذا العمل لا يشبه عجن العجين .

فابتسم الجميع ابتسامة رضية . بيد أن ستيبانوف صاح متكدراً وقد احمرّ وجهه :

— يجب أن تعلموا رفيقكم لا أن تضحكوا منه !

وقد أيده فى ذلك كروتوغوروف ، وهو عامل ضخم الهامة طويل الأطراف جاحظ العينين من معامل السكك الحديد ، قال :

— تقفون ضاحكين هناك ، أيها الحمقى ، فتؤخرون العمل ! أيها الرفيق بونتشوك ، درب تماثيلك الشمعية هذه ، أو اطردها ! ان الثورة فى خطر وهم يقفون ضاحكين !

ثم لوح قبضة يده الشبيهة بالمطرقة الكبيرة .

استفسرت آنا بوغودكو عن كل شىء باهتمام بالغ . كانت ترهق بونتشوك ، وتعت كميه ، ولم تتزحزح عن جانب المدفع الرشاش . وكانت تلحف عليه بالأسئلة رافعة الى عينيه برجاء عينيها السوداوين الوامضتين :

— ماذا يحدث لو أن الماء تجمد فى خزان الماء ؟ . . ما هو الميل اللازم لريح شديدة ؟

كان يشعر بالارتباك فى محضرها ، فغدا يتشدد معها ، فيسلك حيالها سلوكاً بالغ الفتور . ولكن شعوراً جياشاً غريباً كان ينتابه حين تدلف الى قبوه فى تمام السابعة صباح كل يوم ، وقد أخفت يديها فى كمى سترتها ، وهى تجر خطاها فى جزمتها العسكرية الكبيرة . كانت أقصر منه قليلاً ، لها الجسد القوى بدين تلك البدانة التى تتميز بها العاملات اللواتى يتمتعن بصحة جيدة ، وربما اتصف كتفاها بشىء من الاستدارة ، وربما افتقرت الى الجمال ، لولا

عيناها الواسعتان الأخاذتان اللتان تضيفان على محياها برمته جمالاً غريباً .

ولم تكد تسنح له فرصة لامعان النظر فيها ، فى الأيام الأربعة الأولى . كان القبو ردىء الانارة ، وحتى لو تيسر لديه الوقت لينعم النظر فى وجهها فما كان ليستمرئ ذلك . وفى مساء اليوم الخامس غادرا القبو سوية . كانت تسير أمامه ، ولكنها حين وقفت عند الدرجة الأخيرة والتفتت لتسأله عن شىء ما ، شهق بونتشوك شهقة صامتة حين رآها فى ضوء الغروب . وقفت تنتظر الجواب ، وقد أمالت رأسها قليلاً ، وسمرت عينيها فيه ، وهى تدفع شعرها الى الوراء بيدها . غير أنه لم يسمع سؤالها . ومضى يرتقى السلم على مهل ، وقد تملكه احساس رقيق الى حد الألم . ووجدت صعوبة فى ترتيب شعرها ثانية دون أن تخلع عصابة رأسها ، وقد ارتعش منخراها الورديان رعشة طفيفة جراء انهماكها . وكانت معالم فمها قوية لا تخلو من رقة صبيانية . وبدا على شفتها العليا المرفوعة زغب ناعم لاح داكناً على أديم بشرتها . فأحنى رأسه وكأنه يتلقى ضربة وقال مازحاً على نحو مسرحى :

— آنا بوغودكو ، يا حاملة الرشاش رقم ٢ ، انك جميلة مثل السعادة التى يرفل بها البعض .

— هراء ! — قالت ذلك بحزم ، ثم ابتسمت ، وأردفت : — هراء ، أيها الرفيق بونتشوك ! سألتك عن موعد ذهابنا غدا للتمرين على الرمى .

وأضفت عليها ابتسامتها مزيداً من البساطة والالفة والقرب . وتوقف بجانبها يسرح نظرة ساهمة فى الشارع حيث كانت الشمس جانحة تغمر كل الأشياء بغشاوة زرقاء . ثم أجابها بصوت خافت :

— التمرين على الرمى ؟ غداً . فى أى اتجاه تذهبين ؟ أين تقيمين ؟

فذكرت اسم شارع صغير فى أطراف المدينة . وذهبا معاً .

وعند أحد مفترقات الطرق أدركهما بوغوفوى ، وقال :

— بونتشوك ، متى نجتمع غداً ؟

فأوضح بونتشوك وهم سائرون أنهم سيلتقون فى الساعة الثامنة غداً فى غابة تيخايا . وسيأتى اثنان من الآخرين بمدافع رشاش فى عربة . ورافقهما بوغوفوى مسافة قليلة ثم ودعهما .

واستمر بونتشوك وآنا يسيران بعض الوقت دونما كلام . وأخيراً رمقته بنظرة جانبية وقالت سائلة : — هل أنت قوزاقى ؟

— أجل .

— وهل كنت ضابطاً ؟

— لا ، أبداً .

— من أى منطقة أنت ؟

— من نوفوتشيركاسك .

— هل مضى عليك وقت طويل فى روستوف ؟

— بضعة أيام .

— وقبل ذلك ؟

— كنت فى بتروغراد .

— متى انضممت الى الحزب ؟

— فى عام ١٩١٣ .

— وأين عائلتك ؟

— فى نوفوتشيركاسك ، — قال ذلك على عجل ومد يده متوسلاً : — قفي قليلاً ودعينى الآن أقوم ببعض الأسئلة . هل ولدت فى روستوف ؟

— لقد ولدت فى مقاطعة يكاترينوسلاف ، ولكنى أقمت هنا منذ أمد قريب .

— هل أنت أوكرانية ؟

فترددت برهة ، ثم أجابت بحزم :

— كلا .

— يهودية ؟

— نعم ، ولكن كيف عرفت ؟ هل أتكلم كما يفعل اليهود ؟

— كلا .

— اذا ، كيف حزرت أنى يهودية ؟

فقصر خطواته فى محاولة لتنسيقها مع خطواتها ، وأجاب :

— أذنك ، شكل أذنيك ، وعينيك . والاّ فليس فيك ما ينم قليلاً عن قوميتك . — ثم صفن برهة ، وأردف : — انه لأمر حسن أنك معنا .

فسألته بلهفة :

— لماذا ؟

— حسناً ، ان لليهود سمعة معينة . وأعرف أن كثيراً من العمال يعتقدون بصحة هذا — وأنا كما ترين عامل أيضاً — ان اليهود يصدرون الأوامر ولا يعرضون أنفسهم للنار . ليس ذلك صحيحاً ، وانك ستبرهنين بشكل رائع على أن ذلك ليس صحيحاً . هل درست فى مكان ما ؟

— أجل ، لقد تركت المدرسة الثانوية فى العام الماضى . من أين حصلت على ثقافتك ؟ أسألك هذا لأن حديثك يظهر بأنك من أصل غير عمالى .

— لقد قرأت الكثير .

ومضيا يسيران على مهل . وقد عمدت الى اختيار طريق أطول

الى بيتها ، وبعد أن أخبرته شيئاً يسيراً عن نفسها ، شرعت تسأله عن هجوم كورنيلوف ، وعن موقف عمال بتروغراد ، وعن ثورة أكتوبر .

ووصل سمعهما من مكان ما فى المرفأ اطلاق بندقية ، ثم مزّق الصمت مدفع رشاش . فبادرت الى السؤال :

— ما نوع ذلك الرشاش ؟

— لويس .

— ما مقدار ما استهلكه شريط العتاد ؟

لم يجب على سؤالها . فقد كان يتأمل باعجاب الضوء البرتقالى الكشاف ترسله سفينة صيد راسية الى سماء المغرب الملتهبة .

تجولا فى أرجاء المدينة الخاوية قرابة الثلاث ساعات ، وافترقا فى النهاية عند بوابة المنزل الذى تقيم فيه .

وعاد الى بيته مفعماً بالغبطة والرضى .

— انها رفيقة رائعة ، وفتاة ذكية ! وحسناً فعلتُ بالحديث معها . لقد غدوت خشن الطباع خلال الأعوام الأخيرة . لا بد أن تكون للمرء صلات ودية مع الناس ، والاّ غدا جافاً كالخبز العسكرى .

كان ذلك يدور فى خلده وهو يخادع نفسه عن عمد .

وجد أبرامسون قد عاد لتوه من اللجنة العسكرية الثورية ، فشرع يسأل بونتشوك عن تدريب مفرزة حملة الرشاشات ، ثم سأله عن آنا :

— كيف الحال معها ؟ اذا كانت غير لائقة فبوسعنا أن نجد لها عملاً آخر بسهولة .

فأجابه بونتشوك بهلع :

— آه ، كلا ! انها فتاة جد قديرة .

وأحس رغبة لا تقاوم للمضى فى الحديث عنها ، ولم يستطع كبح هذه الرغبة الاّ بجهد عظيم من ارادته .

٦

فى ظهر الخامس والعشرين من تشرين الثانى شرع كاليدين يدفع قواته فى الهجوم على روستوف . فتقدمت صفوف قليلة من مفارز ضباط الكسييف على امتداد السكة الحديد ، تساندهم من الجناح الأيمن قوة أكبر من طلاب الكلية العسكرية ، ومن الجناح الأيسر مفرزة المتطوعين التابعة لبويوف ، وتواثبت أشباحهم مثل خلق رمادية داخل خندق ، ثم تزاحفت خارجة وانتظمت صفوفها من جديد .

وكان صف الحرس الأحمر المنتشر على أطراف المدينة ناخيتشيفان قلقاً لا يقر له قرار . وكان بعض العمال ، وكثير منهم يحمل بندقية لأول مرة فى حياته ، يحسون بالخوف ويزحفون ، هنا وهناك ، بمعاطفهم السود ، لا يكترثون بوحل الخريف ، وكان بعضهم يرفع الرأس ويحدق بالأشباح الصغيرة النائية للجنود البيض المتقدمين .

وكان بونتشوك فى ذلك الصف ، راكعاً بجانب مدفعه الرشاش ، والمنظار على عينيه . وكان فى اليوم السابق قد غيّر معطفه المدنى المزعج ، فأصبح يشعر بالراحة والسكينة فى معطفه العسكرى .

فتح الرجال النار دون انتظار لاشارة الآمر : كان السكوت متوتراً وحين دوّت الطلقة الأولى ، أرسل بونتشوك اللعنات ، ثم قفز على قدميه ، وصرخ :

— أوقفوا النار !

ولكن صرخته غرقت فى خضم الطلقات ، فتخلى عـــن

محاولته ، وأمر بوغوفوى أن يفتح النار بالمدفع الرشاش ، جاهداً أن يسمع صوته فوق دوى الطلقات . فألصق بوغوفوى وجهه الباسم الرمادى بمغلاق المدفع الرشاش ثم لف اصبعه حول الزناد . فنفذت الى أذن بونتشوك لعلعة المدفع الرشاش المألوفة . وحدّق صوب العدو ليتبين دقة التصويب ، ثم هرول على امتداد الصف نحو المدافع الرشاشة الأخرى .

— ارم !

— حسناً ! ها — ها — ها — ها !

هكذا دوى صوت خفيليتشكو ، وهو يلتفت اليه بوجه مرتعب وسعيد فى آن واحد .

ولم يكن الفتيان العاملون حول المدفع الرشاش الثالث من المركز موضع اعتماد تام ، فهرول بونتشوك اليهم . وتوقف فى منتصف الطريق ، واذ انحنى ، شرع يحدق فى عدسات المنظار المضببة . واستطاع أن يرى أجسادهم الرمادية المتزاحمة تتحرك عن بعد . وقد وصل سمعه صوت رميهم المستمر . فارتمى على الأرض ، ورأى ، وهو منبطح ، أن مدى المدفع الرشاش الثالث لم يكن دقيقاً ، فصاح وهو يزحف على الخط :

— أخفضوه ، أيها الشياطين !

وكانت الطلقات تصفر واطئة فوقه بشكل خطر . كان العدو يرمى بدقة من يقوم بالتمرين . كانت فوهة المدفع الثالث مائلة بزاوية تبعث على الضحك ، وقد ارتمى الرجال حوله على بطونهم . وكان ميخاليدى اليونانى يطلق النار دون توقف ، فيبدد عتاده . وكان بقربه ستيبانوف مرتعباً ، وخلفه أحد عمال السكة الحديد وقد غاص برأسه الى الأرض ، وحدب ظهره كالسلحفاة .

فدفع بونتشوك ميخاليدى جانباً ، وسدد المدفع تسديداً

بعيداً محكماً . وحين بدأت الطلقات تندفع منه ثانية كان لها أثرها الفورى . فقد ولت الأدبار حدر التل ثلة من طلاب الكلية العسكرية ، كانت تتقدم نحوهم جرياً ، تاركة وراءها أحد الطلبة على الأرض الطينية .

وسلمهم بونتشوك المدفع ، وعاد الى مدفعه ، فوجد بوغوفوى راقداً على جنبه ، وهو يقذف اللعنات ويعصب جرحاً فى الجزء اللحمى من ساقه ، وكانت آثار البارود تبدو بشكل أوضح على وجهه الشاحب .

وهتف أحد رجال الحرس الأحمر زنجبيلى الشعر وهو يجثو على ركبتيه بجانبه :

— واصل الرمى ، أنت أيها الشيطان ! ألا تراهم يتقدمون ؟ كانت صفوف مفرزة الضباط تتقدم عبر المنحدر بنسق محكم . حل ريبيندر محل بوغوفوى وشرع يرمى بمهارة دون أن يبدد عتاده أو يتعرض للانفعال .

وجاء غيفوركيانتس من الجناح الأيسر ينط كالأرنب ، منبطحاً اثر كل رمية تمر فوق رأسه ، متوجعاً صارخاً :

— لا أستطيع . . . لا أستطيع . . . لقد استعصى ! أصابه العطب !

فهرع بونتشوك راكضاً على امتداد الصف الى المدفع المعطوب . وقبل أن يبلغه بمسافة قصيرة رأى آنا بجانبه وقد جثت على ركبتيها ، وراحت تحدق من تحت راحة يدها فى صف العدو المتقدم وهى تبعد خصلة من شعرها تدلت على عينيها .

فهتف بها ، وقد ادلهم وجهه خوفاً عليها :

— انبطحى ! انبطحى ، انى آمرك !

فرمقته بنظرة خاطفة ولبثت راكعة . فأوشكت لعنات ثقيلة

كالصخر أن تنطلق من شفتيه . ثم هرع يركض اليها ودفعها الى الأرض بعنف .

ورقد كروتوغوروف يحمحم وراء درعه ، وتمتم لبونتشوك قائلاً :

— لقد أصابه العطب ! لا يعمل ! — وتلفت باحثاً عن غيفوركيانتس ، وانفجر صارخاً :

— لقد هرب الآن ، لعنة الله عليه ! لقد زعزعنى بأنينه . . . انه لا يدع الانسان يعمل !

وجاء غيفوركيانتس ، زاحفاً متلوياً كالثعبان ، وقد علق الوحل بلحيته الشعثاء السوداء ، فحدق كروتوغوروف فيه برهة ، ثم صرخ بأعلى من دوى الرصاص :

— ماذا صنعت بأحزمة العتاد ؟ أيها الحيوان ! أبعده عنى ، يا بونتشوك ، والا سأقتله !

وفيما كان بونتشوك يفحص الرشاش أصابت الدرع طلقة شديدة ، فسحب يده وكأن النار قد لسعتها . ثم أصلح المدفع ، وأصلى رجال الكسيف المغيرين بالرصاص فأرغمهم على الانبطاح . ثم انسحب بعيداً ، وهو يبحث عن وقاء .

اقتربت صفوف العدو . ورأى بونتشوك ، والمنظار على عينيه ، سير المتطوعين فهم لا ينبطحون الا نادراً . واشتدت نارهم . وقد أصيب ثلاثة من رجال الحرس الأحمر ، فأخذ رفاقهم بنادقهم وعتادهم : فليس للأموات من حاجة الى السلاح . . . لقد أصيب شاب من الحرس الأحمر برصاصة أمام عينى آنا وبونتشوك وهما راقدان بجانب مدفع كروتوغوروف . فتلوّى وتوجّع ، رافساً الأرض ، وأخيراً رفع نفسه فوق الأرض بيديه ثم سعل وشهق للمرة الاخيرة . وحدج بونتشوك آنا بنظرة

من طرف عينه . اعتراها رعب كانت تحدّق دون طرفة عين بساقى الفتى المتوفى واللفاف الخرق يحيط بهما ، فلم تنتبه لصياح كروتوغوروف :

— شريط . . . شريط ! أيتها الفتاة ، أعطينى شريطاً جديداً !

وبحركة التفاف بعيد المدى اضطرت قوات كاليدين صفوف الحرس الأحمر على التراجع . فشرعت المعاطف السود للعمال ، ومعاطف الحرس الأحمر العسكرية تتسرب الى شوارع الضواحى . وقد سقط المدفع الرشاش القائم فى أقصى الجناح الأيمن فى يد البيض ، اذ أصاب أحد طلاب الكلية العسكرية ميخاليدى اليونانى بطلقة وأرداه قتيلاً . وطعن حامل رشاش ثانٍ بالحراب ، ولم يستطع النجاة سوى منضد الحروف ستيبانوف .

وتوقف التراجع حينما شرعت القذائف الأولى تنطلق من سفن الصيد الحمر فى المرفأ .

صرخ رجل ، وهو يركض الى أمام ، وقد عرفه بونتشوك عضواً فى اللجنة الثورية :

— اصطفاف ! . . اتبعونى ! . .

تردد الحرس الأحمر ، ثم استداروا ، وتقدموا هاجمين . وكان بونتشوك قد لم حوله كلاً من آنا ، وكروتوغوروف ، وغيفوركيانتس .

ومر بهم ثلاثة من الحرس الأحمر . كان أحدهم يدخن ، والآخر حاملاً بندقيته بحيث كان ترباسها يرتطم بركبته ، وكان ثالثهم يتفحص أذيال معطفه المتسخ باهتمام . وكانت ثمة ابتسامة مرتبكة تلوح فى ذؤابتى شاربيه ، لكأنه غير ذاهب لمواجهة الموت بل عائد الى بيته بصحبة أصدقائه من وليمة شراب ، يتفحص سترته ليقدر درجة العقوبة التى يتوجسها من زوجته

الشكسة . وأشار كروتوغوروف ، على حين غرة الى سياج بعيد تجمع خلفه عدد من الناس بملابسهم الرمادية ، وصاح :

— هناك هم !

فربض بونتشوك كالدب وأدار الماسورة صوبهم . وانطلقت لعلعة المدفع الرشاش فسدت آنا أذنيها . وجلست ورأت الحركة تتلاشى خلف السياج . وبعد برهة ، فتح البيض ناراً محكمة التسديد ، فتطاير الرصاص فوقهم ، ناخراً فى لوحة المساء المضببة ثقوباً لا تراها العين . وجلجل الشريط وهو يمر عبر المدفع الرشاش كالطبل الصغير . وتصارخت فوق رؤوسهم القذائف التى أطلقها بحارة أسطول البحر الأسود من الميناء . وكان للطلقات المنفردة دوى عال لدن . وكان صرير القذائف الداوى فوق الرؤوس يصم الآذان . وشاهدت آنا رجلاً ضخماً من الحرس الأحمر ، بقبعة من جلد الخراف ، وشاربين مشذبين على الطراز الانكليزى ، ينحنى دون ارادة مع كل قذيفة تمر فوق رأسه . وكان يصيح :

— لقنهم درساً يا سيمون ، لقنهم درساً !

وكان البحارة قد أحكموا التسديد ، فأصلوهم ناراً مركزة . وكان منثار القنابل المتفجرة يحيق بجماعات مبعثرة من قوات كاليدين المتقهقرة . وقد انفجرت احدى القذائف فوق جماعة منهم مباشرة فنثر عمود الانفجار البنى أولئك الرجال شذر مذر . فألقت آنا منظارها ، وتأوهت ، حاجبة عينيها الهلعتين بيديها المتسختين . وانتاب حنجرتها تشنج مر . فصاح بونتشوك بها :

— ما الأمر ؟

فصكّت على أسنانها وزاغت عيناها المتسعتان :

— لا أستطيع . . .

فدوى فى أذنيها صوته الآمر المهيمن :

— تشجعى ! أنت . . . أنا ، أتسمعيننى ؟ أتسمعيننى ؟ لا تفعلى ذلك ! لا تفعلى . . .

كان بعض رجال العدو قد تجمع فى الجناح الأيمن ، فى الوادى وعلى سفوح أحد التلال . وقد اكتشف بونتشوك أمرهم ، فهرول بمدفعه الرشاش الى نقطة ملائمة وفتح النار على الوادى .

وكان مدفع ريبندر يطلق بدفعات قصيرة .

وانبعث من بعد عشرين خطوة تقريباً صوت أجش غاضب :

— نقالة ! أليس هناك نقالة ؟ . . نقالة !

وأطلق ضابط مشاة صيحة مستطيلة :

— سددوا المرمى !

— فصيل ، ارم !

وقبيل المغرب شرعت بلورات الثلج الأولى تدوم نازلة الى الأرض القاسية . وان هى الّا ساعة حتى غطى الثلج الندى اللزج الحقل برمته وأكوام الموتى السوداء الموحلة . فما كان من قوات كاليدين الاّ أن تنسحب .

أمضى بونتشوك تلك الليلة الثلجية فى موقع المدفع الرشاش . وكان كروتوغوروف قد لف حول رأسه مرشحة فرس سميكة وجدها فى مكان ما ، وراح يمضغ قطعة لحم مطاطية ، وهو يبصق ويلعن . وكان غيفوركيانتس قد تكوم فى مدخل أحد البيوت ومضى يدفئ يديه الزرقاوين فوق سيكارته . وجلس بونتشوك فوق صندوق عتاد ، مدثراً آنا المرتجفة بمعطفه ، وانتزع يديها من فوق عينيها وقبلهما . وقد نبست شفتاه بعسر بعض الكلمات الرقيقة التى لم يتعودها .

— كفى ، كفى ، كيف بوسعك أن تتأثرى هكذا ؟ . . كنت شديدة المراس فيما مضى . . . آنا ، اصغى ، سيطرى

على نفسك ! آنا . . . عزيزتى . . . سوف تعتادين على ذلك . لئن منعك الكبرياء من الانسحاب فلا بد أنك من طينة أخرى ليس بوسعك أن تنظرى الى الموتى ، هكذا . لا تدعى أفكارك تذهب فى هذا الاتجاه ! سيطرى عليها . هل رأيت طبيعة المرأة تنتصر فيك رغم ما قلته .

لبثت آنا صامتة . ومن يديها تفوح رائحة أرض الخريف ودفء المرأة .

وتوشحت السماء بثوب ناعم هش من الثلج المتساقط . واكتنف الصمت الناعس الفناء ، والحقول ، والمدينة الهامدة .

٧

دام القتال ستة أيام فى روستوف وضواحيها . وكانت المعارك تدور فى الشوارع ومفترق الطرقات . وقد سلّم الحرس الأحمر المحطة مرتين ، وطرد العدو منها مرتين أخريين . ولم يأسر أى من الطرفين أحداً خلال الأيام الستة تلك .

وأصيل ذات يوم كان بونتشوك وآنا يجتازان محطة قطار البضائع ، فشاهدا اثنين من الحرس الأحمر يطلقان النار على ضابط أسير . فقال بونتشوك بلهجة أقرب الى التحدى لآنا التى أشاحت بوجهها :

— هذا طبيعى ! يجب أن يقتلوا ، ويبادوا دونما رحمة . فهم لم يرحمونا ، ولن نطلبها منهم . فلماذا نرحمهم ؟ يجب أن تجرف هذه القذارة من الأرض . ليس هناك مجال للعواطف الرقيقة حينما يتعرض مصير الثورة للخطر . ان هذين العاملين على صواب !

وفى اليوم الثالث من المعركة ألم به مرض . ولكنه تملك

نفسه طوال يوم بأكمله ، وهو يحس بغثيان متزايد موصول وبوهن فى كل مفاصله . وكان رأسه يطن ، وقد بدا له ثقيلاً لا يحتمل .

وغادرت المدينة مفرزتا الحرس الأحمر اللتان استنفدتا قواهما فى فجر الثانى من كانون الأول . وكان بونتشوك يتمايل خلف عربة تحمل جرحى ورشاشاً ، مستنداً الى آنا وكروتوغوروف . كان يجرجر جسده الواهن بصعوبة فائقة ، رافعاً قدميه الثقيلتين كالحديد ، أشبه بسائر فى نومه . وكان يرى عينى آنا القلقتين وكأنهما نائيتان عنه ويستمع الى صوتها يقول :

— اصعد الى العربة يا ايليا . أتسمعنى ؟ هل تعى ما أقول ؟ أقول لك اصعد ، أنت مريض .

ولكنه لم يع كلماتها ، ولم يك يدرى أن المصيبة قد حلّت به ، ووقع صريع التيفوس . وكانت الأصوات المألوفة وغير المألوفة تنقر على الغطاء الخارجى لوعيه ، دون أن تنفذ الى داخله ، وفى مكان ما فى البعيد القاصى التمعت عينا آنا السوداوان قلقتين يائستين ، وتموجت لحية كروتوغوروف بأشكال شائهة .

وأمسك بونتشوك برأسه ، وشد بيديه الكبيرتين على وجهه الملتهب . وأحس كأن الدم يسيل من عينيه ، والعالم كله لا حدود له ولا قرار ، وقد حالت دونه ستارة غير منظورة ، وجعل ينساب ويميد تحت قدميه . وفى بحران هذيانه راح خياله يناجى رؤى غريبة كل الغرابة . وكان يتوقف بين حين وآخر . ويقاوم كروتوغوروف الذى راح يحاول جهده أن يضعه فى العربة . وصرخ بغلظة وهو ينتزع يده من قبضة آنا :

— كلا ! انتظر ! . . من أنت ؟ . . أين آنا ؟ أعطنى قليلاً من التراب . . . ودمّر هؤلاء . . . آمرك أن تصوب الرشاش عليهم . . . انتظر ! انها حارة جداً !

ورفعوه عنوة ووضعوه فى العربة . وبعد لحظة استطاع أن يشم خليطاً من شتى الروائح الحريفة ، وجاهد أن يستعيد زمام نفسه والخوف يستبد به ، دون أن يفلح فى ذلك . وأطبق عليه فراغ أصم أسود ، وفى الأعالى تراقصت أمام عينيه عين الشمس الملتهبة فى الزرقة اللازوردية ، وارتعاشات ووهج لبريق أرجوانى .

٨

كانت خيوط الثلج تتساقط من أفاريز السطوح وقد علق بها التبن ورافق تكسرها رنين بلورى . وفى القرية انجلى الذوبان عن غدران وبقع من الأرض الجرداء . وتسكّعت الماشية فى الشوارع تشمشم بخياشيمها ، وهى لما تزل تلتفع بأردية الشتاء . وزقزقت العصافير كما لو كان الفصل ربيعاً ، وهى تنقر فى أكوام الدغل فى الأفنية . وكان مارتن شامل يطارد عبر الساحة حصاناً أشهب ناعم الملمس هرب من اصطبله . وقد ارتفع ذيله المنسدر الى الأعلى ، وعبثت الريح بعرفه الأشعث ، وجمح وجعل ينثر كتل الثلج نصف الذائبة بحوافره ، وحام حول الساحة ، ثم توقف عند جدار الكنيسة ، وأخذ يشمشم الآجر . وأغرى سيده بالاقتراب منه ونظر شزراً بعين بنفسجية الى اللجام وقد أمسك به فى يده ، ثم جمح من جديد وجرى هائجاً .

وغمر كانون الثانى الأرض بأيام دافئة غائمة . وترقب القوزاق الدون متوقعين فيضاناً مبكراً ، ووقف ميرون غريغوريفتش فى فنائه الخلفى طويلاً ينظر الى الثلج بعيداً فى الحقول ، والى خضرة الدون الرمادية الجليدية ، وقال فى دخيلته : «سوف يفيض علينا هذا العام كما فعل فى العام الفائت . ثلج ، ثلج ،

ولا شىء غير الثلج ! لا بد أنه سيثقل على أمنا الأرض بكلكله» .

وكان ميتكا ينظف حظيرة الماشية مرتدياً قمصلته الخاكية . وقد التصقت قبعته الفرو البيضاء بمؤخرة رأسه بأعجوبة . وتدلى شعره السبط المبلل بالعرق على حاجبه ، فأعاده الى الوراء بقفا يده الوسخة التى تفوح منها رائحة الروث . وكان ثمة ماعز منتفش يململ فى مكانه عند البوابة ، وهو يضرب بحوافره زبل البهائم المتجمد أكواماً . وثمة حمل أكبر من أمه يحاول أن يرضع من ضرعها ، ولكنها أحنت رأسها وطردته عنها . وكان ثمة كبش أسود ذو قرن دائرى يحك جسمه بمحراث .

وأقعى سلوقى كبير مبقع بالأحمر المصفر على كسرة من الجليد الذائب قرب باب مخزن الحبوب المطلية بالطين . وتدلت الشباك وحبال صيد الأسماك على الجدران الخارجية تحت الأفاريز ، وكان غريشاكا العجوز يقف هناك يتكئ على عكازه وينظر اليها ، كان يفكر على ما يظهر بالربيع القادم وفى العمل لاصلاح الشباك .

ذهب ميرون غريغوريتش الى ساحة درس الحبوب ، وبعين حريصة قدر كمية التبن التى ما زالت باقية . وأخذ يجرف بعض عيدان الذرة التى نثرها الماعز ، وبلغت سمعه أصوات غير مألوفة . فألقى بالمجرفة على الكومة وذهب الى الفناء .

كان ميتكا واقفاً يلف سيكارة ، وقد باعد بين قدميه ، وأمسك بكيس تبغه باصبعين ، وهو ثر التطريز أهدته اياه حبيبة له من احدى القرى . وكان خريستونيا وايفان أليكسييفتش واقفين معه . كان خريستونيا يخرج ورقة لف رثة من قبعته الاتمانية الزرقاء ، وايفان اليكسييفتش مستنداً الى السياج ينقب فى جيوب سرواله المبطنة ، وقد لاحت على وجهه النظيف الحليق أمارات الكدر : لقد نسى شيئاً ما على ما يظهر . فقال خريستونيا :

— هل قضيت ليلة هانئة يا ميرون غريغوريفتش ؟

— لله الحمد !

— تعال ودخن معنا .

— ليحفظكم المسيح . لقد فرغت الآن من تدخين سيكارة .

وصافح ميرون غريغوريفتش القوزاق ، ورفع قبعته ذات الرأس الأحمر ، ومسد شعره الأشعث الأشيب وقال مبتسماً :

— وما عساكم تريدون منا اليوم أيها الاخوان ؟

ونظر اليه خريستونيا من الأعلى الى الأسفل ، دون أن يجيبه فى الحال . ومر بلسانه الكبير الخشن كلسان الثور متباطئاً على قصاصة من الورق ، وأجاب بعد أن لف السيكارة :

— لدينا شغل مع ميتكا .

ومر غريشاكا الجد متثاقلاً ، وهو يحمل شبكة صيد على ذراعه المنبسطة . فرفع ايفان وخريستونيا قبعتيهما وحييا ووضع الشبكة على الدرجات ثم قفل عائداً ، وتساءل :

— فيم أنتم مقيمون فى بيوتكم ، أيها الجنود ؟ أتراكم تقضون وقتاً بالغ المتعة مع زوجاتكم ؟

فتساءل خريستونيا :

— لماذا ؟

— أسكت ، خريستونيا ! لا تقل لى انك لا تدرى !

فأقسم خريستونيا :

— الله يشهد ، أننى لا أدرى ! وحق الصليب أنا لا أدرى ! أيها الجد !

— جاء رجل قبل أيام من فورونيج ، وهو تاجر ، صديق لسيرغى بلاتونوفتش موخوف أو قريبه أو ما الى ذلك . لست أعرف بالضبط . حسناً ، جاء وقال ان جنوداً غرباء ، أولاء

البلاشفة ، هم فى تشيرتكوف . سوف تشن روسيا الحرب علينا ، بينما أنتم لابدون فى بيوتكم ! وأنت ، الآخر ، أنت أيها الشيطان الصغير . . . هل تسمعنى ، يا ميتكا ؟ أليس لديك شىء تقوله ؟ ما رأيك ؟

فابتسم ايفان اليكسيفتش : — لا رأى لنا اطلاقاً !

فقال غريشاكا العجوز وقد امتلأ غيظاً :

— هذا هو العار بعينه ، أن لا يكون لكم رأى ! سوف يوقعونكم فى الشرك مثل طير الحجل ! سيأخذكم الفلاحون أسرى ويهشمون خطومكم !

فتبسم ميرون غريغوريفتش بتأدب . وحك خريستونيا يده بخديه اللذين لم يحلقا منذ وقت طويل . ووقف ايفان اليكسيفتش يدخن وينظر الى ميتكا . وتطايرت شرارات من عينى ميتكا الشبيهتين بعينى القط ، وكان من المستحيل أن يعرف المرء فيما اذا كانت عيناه الخضراوان تانك تضحكان أم تشعان حقداً لا يكبح .

وبعد أن تحدث ايفان اليكسيفتش وخريستونيا بعض الوقت ، تركا ميرون غريغوريفتش ، واستدعيا ميتكا الى البوابة الصغيرة . وسأله ايفان اليكسيفتش بحدة :

— لماذا لم تحضر الاجتماع البارحة ؟

— لم يكن لديَّ وقت .

— ولكن كان لديك الوقت للذهاب الى بيت ميليخوف !

وأتى ميتكا بحركة من رأسه فانزلقت قبعته الى الأسفل فوق جبهته ، وقال وقد كظم غيظه :

— لم أحضر ، وهذا كل ما فى الأمر . ماذا يمكن أن يقال ؟

— كل رجال القرية العائدين من الجبهة كانوا هناك ما عداك وبيوتر ميليخوف . لقد قررنا ارسال مندوبين الى قرية كامنسكايا . فسوف يعقد فيها مؤتمر لرجال الجبهة فى العاشر من كانون الثانى . وقد أجرينا القرعة فتقرر أن نذهب أنـا ، وخريستونيا ، وأنت .

فأعلن ميتكا جازماً :

— أنا لن أذهب .

فعبس خريستونيا وجره من زر قمصلته .

— ما هى لعبتك ؟ هل تريد أن تبتعد عن رفاقك ؟ أو لا يناسبك ذلك ؟

فقال ايفان اليكسيفتش :

— انه وبيوتر ميليخوف يدان فى قفاز واحد .

وتلمّس كمّ معطف خريستونيا وأضاف وقد استحال لونه شاحباً بصورة ملحوظة :

— هيا . ليس لدينا شيء نفعله هنا . اذا ، فأنت لن تذهب يا ميتكا ؟

— كلا ! لقد قلت كلا ، وأنا أعنى كلا .

فأمال خريستونيا رأسه جانباً وقال :

— الى اللقاء اذاً . وحظاً سعيداً لك .

وبسط ميتكا يده وودعه متفادياً النظر بعينيه ، ثم استدار ويمم وجهه شطر الدار فدمدم ايفان اليكسيفتش وقد ارتعش منخراه : «يا للوغد !» ثم كرر بصوت عال وهو يخزر ظهر ميتكا العريض : «يا للثعبان الوغد !» .

وفى طريقهما الى البيت أخبرا بعضاً من رجال الجبهة

أن ميتكا قد رفض الذهاب ، وأنهما سيذهبان كلاهما الى المؤتمر فى اليوم التالى .

وغادرا تاتارسكى فى فجر الثامن من كانون الثانى . وقد تطوع ياكوف الملقب نعل الحصان بنقلهما الى كامينسكايا . فسار بهما فرساه بخفة خارج القرية صعد المنحدر . وكان الذوبان قد عرى الطريق ، وحيث كان الثلج قد زال ، أخذ مزلاقا الزحافة يلتصقان بالطين وظلت الزحافة تترجرج فى طريقها ، والفرسان يشدان بجهد جهيد على السيور . وكان القوزاق يسيرون خلف الزحافة . وكان ياكوف يحث خطوه طوال الطريق فتقرش جزمتاه قشرة الجليد الرقيقة ، وقد ألهب وجهه نسيم الصباح الصقيعى . الّا أن الندبة البيضوية بقيت على خده زرقاء ميتة . وكان خريستونيا يلهث صاعداً التل فوق الثلج المتصلّب وهو يسير على جانب الطريق ، ويشهق بشدة من أثر الغاز السام الألمانى الذى أصاب رئتيه فى دوبنو عام ١٩١٦ .

وفى أعلى التل اشتد لسع الهواء وعصف الريح . وظل القوزاق صامتين . وغطى ايفان اليكسيفتش وجهه بياقة فروته . واقتربوا من غابة ، يتجه فيها الطريق شطر قمة رابية . وتدفقت الريح أمواجاً خلل الغابة . وكانت جذوع أشجار البلوط المتقرنة تكسوها بطبقات من اللحاء الأخضر الذهبى الصدئ . وراح عقعق يثرثر من بعيد ، ثم ما لبث أن رفرف بجناحيه عبر الطريق . لقد حادت به الريح عن اتجاهه ، فراح يخفق بجناحيه بعنف مائلاً الى أحد الجانبين ، وقد انتفش ريشه المتلبد .

والتفت ياكوف الذى لم ينبس ببنت شفة مذ غادر القرية ، الى ايفان اليكسيفتش وقال متروّياً ، وهو يفصح ، على ما يظهر ، عن أفكاره التى ظل يقلّبها فى ذهنه منذ فترة :

— حاولا فى المؤتمر أن تجعلا الأمور تسير بحيث لا تكون هناك حرب . فلن يكون ثمة متطوعون للحرب .

فأكد خريستونيا : «طبعا» ، — وهو يتعقب العقعق بغبطة فى طيرانه الطليق ، ويقارن فى ذهنه بين حياة الطير السعيدة الخالية من الهموم وحياة الانسان .

بلغوا كامنسكايا أصيل العاشر من الشهر . كانت جموع القوزاق تأخذ طريقها خلل الشوارع صوب مركز المدينة . وكان الحماس يلحظ فى كل مكان . وذهب ايفان وخريستونيا الى نزل غريغورى ميليخوف ، ولكنهما علما أنه لم يكن هناك . لقد أخبرتهما صاحبة المنزل ، وهى امرأة شقراء مكتنزة بأنه ذهب الى المؤتمر .

— وأين هو هذا المؤتمر ؟ — سألها خريستونيا .

— لعله فى الادارة أو فى مبنى البريد — أجابت المرأة وصفقت الباب بوجهيهما .

وعند وصولهما وجدا المؤتمر قد باشر أعماله . ولم تتسع الغرفة ذات النوافذ العديدة لجميع المندوبين ، وقد احتشد كثير من القوزاق على الدرجات ، وفى الممرات ، وفى الغرف الملاصقة . وقال خريستونيا لايفان بما يشبه الزحير وهو يشق طريقه بمرفقيه :

— ابق ورائى !

وتبعه ايفان خلال الفتحة الضيقة التى مهدها .

وعندما كادا أن يبلغا الغرفة التى انعقد فيها المؤتمر وجد خريستونيا الطريق أمامه قد سده قوزاقى تفصح عنه لهجته عن كونه من الدون الأسفل . فانتهره قائلاً :

— مهلك يا فتى .

— دعنا نمر .

— بامكانك أن تقف هنا . فليس ثمة متسع فى الداخل .

— دعنا ندخل أيها البعوضة ، والاّ قصمت ظهرك !

واندفع خريستونيا ، ونحّى القوزاقى جانباً بسهولة ، ودخل الغرفة .

وسرت همهمة من الاعجاب والدهشة فى الحشد المتجمع حول الباب . وابتسم القوزاق ورنوا الى خريستونيا بنظرات احترام لا ارادية ، فقد كان يعلو هاماتهم برأسه .

ووجدا غريغورى ازاء الحائط فى المؤخرة ، كان مقرفصاً على مؤخرته ، يدخن ويتحدث مع مندوب آخر . وعند مرأى ابنى قريته ارتعش عذاراه الفاحمان المتهدلان عن ابتسامة .

— ماذا ، أية ريح عصفت بكما الى هنا ؟ مرحباً يا ايفان اليكسييفتش ! وكيف حالك أيها العم خريستونيا ؟

فأجابه خريستونيا ضاحكاً ، وهو يضم كف غريغورى بكامله بقبضته الكبيرة :

— لا بأس .

— وكيف هى أحوال عائلتى ؟

— حسناً . لقد بعثوا بتحياتهم . وطلب أبوك منك الشخوص اليهم لزيارتهم .

— وكيف حال بيوتر ؟

فابتسم ايفان اليكسييفتش بغير لباقة :

— بيوتر . . . بيوتر لا يختلط معنا .

— أدرى . وناتاليا ؟ والطفلان ؟ هل صادف أن رأيتهما ؟

— الكل على ما يرام ، وهم يبلغونك تحياتهم . وأبوك مستاء .

وكان خريستونيا ينظر الى الزمرة الجالسة وراء الطاولة على

المنصة ، أثناء كلامه . ورغم أنه كانَّ فى المؤخرة فقد كان بوسعه أن يرى خيراً من أى شخص آخر . وظل غريغورى يمطرهما بالأسئلة ، مستفيداً من برهة توقف أثناء الجلسة . فراح ايفان أليكسييفتش يحدثه عن أخبار القرية ، وقص عليه باقتضاب عن اجتماع رجال الجبهة الذين أرسلهم الى كامينسكايا . وجعل هو بدوره يسأله عن الأحداث فى كامينسكايا ، بيد أن أمرءاً جالساً أمام الطاولة هتف قائلاً :

— أيها القوزاق ، سيتكلم الآن مندوب عن عمال المناجم . يرجى الاصغاء اليه باهتمام ، والمحافظة على النظام .

ومسّد رجل متوسط الطول شعره الأشقر الى الوراء وشرع يتكلم . فتلاشت همهمة الأصوات فى الحال .

وشعر غريغورى والقوزاق الآخرون بعمق ايمان عامل المنجم من الكلمات الأولى لخطابه العاطفى المشبوب . لقد تكلم عن السياسة المارقة لكاليدين الذى كان يسوق القوزاق الى الحرب ضد عمال وفلاحى روسيا ، وعن المصالح المشتركة للقوزاق والعمال ، وعن أهداف البلاشفة ، الذين يشنّون نضالاً ضد أعداء الثورة من القوزاق .

— اننا نمد أيدينا الأخوية الى القوزاق الكادحين ، ونأمل أننا فى غمرة نضالنا ضد عصابات الحرس الأبيض سنجد حلفاء أمناء بين قوزاقى الجبهة . لقد أراق العمال والقوزاق دماءهم سوية فى جبهات الحرب القيصرية . وفى الحرب ضد البرجوازية التى يدافع عنها كاليدين يجب أن نقف سوية أيضاً . ولسوف نقف سوية ! سوف نخوض القتال كتفاً لكتف ضد أولئك الذين استعبدوا الكادحين قروناً ، — دوى صوت الرجل القوى العالى .

وهمس خريستونيا منشرح الخاطر : «لقد أجاد ، ابن

العاهرة !» ، — وعصر مرفق غريغورى بشدة جعلته يقطب من الألم .

وأخذ ايفان اليكسييفتش يهمهم مراراً وتكراراً فيما كان يصغى وفمه نصف مفتوح : «انه على حق ! ايه ، انه لعلى حق !».

وعندما فرغ مندوب عمال المناجم من كلامه ، نهض عامل منجم مديد القامة ، يتأرجح مثل شجرة الدردار فى مهب الريح ، واستوى بكامل طوله ، وجال ببصره فوق بحر العيون الماثل أمامه ، وتمهل حتى تخفت الضوضاء . وكان يبدو قوياً ومتيناً كأنه حبل مراكب . وكانت مسامات وجهه ملأى بهباب دقيق من غبار الفحم ، ولم يكن لعينيه الغائرتين الباهتتين أي لون فى ظلمة الأرض الأبدية ، نفس بريق الفحم . وهز رأسه قصير الشعر ، ورفع ثم خفض قبضتيه الملمومتين كمن يضرب بالمعول .

— من الذى شرّع عقوبة الاعدام ضد الجنود فى الجبهة ؟ كورنيلوف ! من الذى يساعد كاليدين فى خنقنا ؟ كورنيلوف !

وجعل يسرع فى قوله ويغص بكلماته :

— أيها القوزاق ! أيها الأخوة ، أيها الأخوة ! أيها الأخوة ! الى أى جانب ستنضمون ؟ ان كاليدين يريد منا أن نشرب دماء أخوتنا . كلا ! لن نفعل ذلك أبداً . سوف نسحقهم ! سوف نغرقهم فى البحر ! . .

وكشر خريستونيا عن أسنانه ووسّع شدقتيه وقال : — يا له من ابن عاهرة ! — ثم رفع يديه وقهقه دون أن يقوى على مقاومة نفسه ، وأضاف : — هكذا يكون الكلام . لقنهم درساً !

فهتف ايفان اليكسييفتش متهيباً :

— اخرس يا خريستونيا ، ماذا دهاك ؟ فسوف يركلونك خارج القاعة !

ولفح لاغوتين — وهو قوزاقى من بوكانوفسكى ، والرئيس الأول لشعبة القوزاق التابعة للجنة المركزية لمجلس السوفييت — لفح القوزاق بكلمات لاهبة ، غير مترابطة ولكنها أثرت بهم فى الصميم .

ثم تكلم الرئيس بودتيلكوف ، وتبعه شادينكو ، وهو رجل وسيم ذو شاربين انكليزيين صغيرين .

وتساءل خريستونيا مشيراً بمخلبه الكبير :

— من ذلك ؟

— شادينكو ، قائد بلشفى .

— وذاك ؟

— ماندلشتام .

— من أى الديار هو ؟

— من موسكو .

— ومن هم أولئك ؟ — وأشار خريستونيا الى زمرة من مندوبى فورونيج .

— أوه ، اخرس قليلاً يا خريستونيا .

— يا الهى ، ألا يجدر بى أن أعرفهم ؟ هيا ، قل لى ، من هو ذلك الرجل الطويل الجالس جوار بودتيلكوف ؟

— كريفوشليكوف ، من قرية غورياتوف . وجماعتنا خلفه ، كودينوف ، ودونيتسكوف .

— سؤال آخر لا غير . من هو ذلك الرجل ؟ كلا ، ليس ذاك ، انما الشخص الذى فى النهاية ، ذو الخصلة المتدلية على ناصيته .

— بلبسيف . كلا ، لست أدرى من أى الديار هو .

واذ اكتفى خريستونيا بذلك ، لاذ بصمت وأنصت الى كل متكلم بانتباه زائد وكان أول من يسمع من بين مئات الأصوات بهديره العميق «حق ما تقول !» .

وبعد المتكلمين الآخرين ، وقف مندوب عن الكتيبة الرابعة والأربعين . وأمضى وقتاً طويلاً فى اخراج عباراته المرتبكة ، كان يأتى بكلمة كأنها الجذوة الملتهبة ، ثم يتوقف وينشق بأنفه . ولكن القوزاق كانوا ينصتون اليه بتعاطف كبير ، ولا يقاطعونه الاّ بهتافات التأييد بين الحين والآخر . ويبدو أن كلماته كانت تلقى استجابة عميقة من لدنهم .

— أيها الاخوة ! ان على مؤتمرنا أن يتناول هذه القضية الخطيرة بشكل لا يعود بالعار على شعبنا وبحيث يمكن أن ينتهى كل شىء بصورة هادئة وحسنة . ان ما أعنيه هو أننا يجب أن نجد مخرجاً بدون حرب دموية . لقد مضى علينا ، كما ترون ، ثلاث سنوات ونصف مدفونين فى الخنادق ، واذا أجبرنا على مواصلة القتال ، فسوف يتعرض القوزاق الى الهلاك . . .

— هذا صحيح !

— نحن لا نريد الحرب .

— يجب أن نبحث ذلك مع البلاشفة والمجلس العسكرى .

— يجب أن نحسمها سوية ، وليس كيفما اتفق .

وهوى الرئيس بودتيلكوف على الطاولة بقبضته ، فتلاشى الهدير . وواصل مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين كلامه ، وهو ينتف لحيته القصيرة :

— يجب أن نبعث بمندوبين الى نوفوتشيركاسك ونطلب من المتطوعين والأنصار أن يرحلوا من هنا . وليس للبلاشفة ما

يعملونه هنا هم الآخرون . اننا نستطيع أن نسوّى الحساب مع أعداء الشغيلة بأنفسنا . نحن لا نحتاج الى مساعدة الآخرين ، ومتى ما كنا بحاجة اليها فسوف نطلب منهم أن يمدونا بيد المعونة .

— ان هذا الضرب من الكلام لن يجدى فتيلاً !

— انه على صواب !

— انتظر قليلاً . أى صواب فيه ؟ هب أنهم حصرونا فى زاوية ، من أين سنحصل على المعونة حينذاك ؟

— علينا أن نشكل حكومة من عندنا .

— قول أيسر من فعل !

وأعقب لاغوتين مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين بخطاب نارى جرىء . وقوطع فى كثير من الأحيان بالصيحات . ثم عرض اقتراح يقضى بتأجيل الاجتماع عشر دقائق ، بيد أنه ما ان حصل الصمت حتى هتف بودتيلكوف بجمهور القوزاق الهائج :

— أيها الاخوة القوزاق ! ان عدو الكادحين ليس نائماً ، فى حين نتجادل هنا نحن . اننا جميعاً نريد أن يشبع الذئاب وتبقى الخراف سليمة ، ولكن هذا هو غير ما يريده كاليدين . لقد استولينا على نسخة من أمر وقّعه هو يقضى بتوقيف كل الذين يسهمون الآن فى هذا المؤتمر . وها أنا أقرأه عليكم .

وحينما قرأ الأمر سرت موجة من الهياج بين المندوبين ، وازداد الصخب أكثر من السابق .

— نتكلم كثيراً غير أننا نفعل قليلاً ! . .

— اسكتوا !

— لماذا يسكتون ؟ دعوهم يتكلمون !

— لوبوف ، يا لوبوف ! ألق كلمة !

— مهلاً !

— أما كاليدين فهو ليس بالغبي !

كان غريغورى يصغى بصمت ، ويحدق فى الرؤوس المتأرجحة ، والأذرع الملوحة للمجتمعين . ولم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فى آخر الأمر ، فصرخ وقد وقف على رؤوس أصابعه :

— هدوءاً ، أيها الشياطين ! هل نحن فى سوق ؟ دعوا بودتيلكوف يتكلم !

وأمسك ايفان اليكسييفتش بتلابيب أحد المندوبين وجعل يناقشه .

وجأر خريستونيا راداً على زميل له من كتيبته :

— ينبغى لنا أن نكون يقظين ! لا تحدثنى بهذا الكلام الفارغ ! ألا ترى أننا لسنا أقوياء بما فيه الكفاية حتى نندفع بمفردنا !

وأخيراً خبا هدير الأصوات — كما لو أن الريح مرت على حقل من القمح — ومن المنصة مزقت نبرات كريفوشليكوف الأنثوية الصمت :

— يسقط كاليدين ! تعيش اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية !

وزخر المتجمهرون . وتعالت هتافات التأييد معاً فى جوقة لافحة ثقيلة من الصخب . ولبث كريفوشليكوف واقفاً ويده مرفوعة الى الأعلى . كانتْ أصابعه ترتعش قليلاً مثل أوراق الحور . ولم يكد الهدير الذى يصم الآذان يخبو حتى صاح بصوته ذى النبرة العالية الرنانة قائلاً :

— أقترح انتخاب لجنة ثورية عسكرية قوزاقية من بين المندوبين الحاضرين ، وأن يعهد لها مواصلة النضال ضد كاليدين وتنظيم . . .

ومزقت الهواء صرخة استحسان «آ — آ — آ» كأنها قذيفة متفجرة ، أهالت قشوراً من الصبغ الأبيض من السقف .

وشرع المجتمعون فى الحال ينتخبون أعضاء اللجنة . واستمر قطاع صغير من القوزاق يقوده مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين وآخرون ، يطالبون بحل سلمى للخلاف مع حكومة كاليدين . بيد أن الأكثرية لم تعد تعضدهم . فلقد أثار حفيظة القوزاق أمر كاليدين القاضى بالقاء القبض عليهم ، فطلبوا مقاومته بصورة فعالة .

واستدعى غريغورى فى الحال الى قيادة الكتيبة فلم يبق حتى نهاية الانتخاب . وسأل خريستونيا وايفان أليكسييفتش فيما هو يستعد للخروج :

— عندما ينتهى الاجتماع تعالا الى غرفتى . أود أن أعرف من انتخب .

وذهب ايفان اليكسييفتش بعد الغروب . وأخبر غريغورى وهو واقف على العتبة قائلاً :

— الرئيس بودتيلكوف ، والسكرتير كريفوشليكوف .

— والأعضاء ؟

— ايفان لاغوتين وخريستونيا ، ومناييف ، وكودينوف وآخرون .

فسأله غريغورى :

— ولكن أين هو خريستونيا ؟

— ذهب مع آخرين لالقاء القبض على سلطات كامنسكايا .

وقد صار جمرة حتى أنك لو بصقت عليه لفار البصاق على ناره .

ولم يعد خريستونيا الاّ عند الفجر . ووقف فى الغرفة يتنفس بصعوبة ويتمتم بشىء ما بصوت خفيض . ولاحظ غريغورى وهو يشعل المصباح أن وجهه كان مدمى وأن خدشة اطلاقة قد سرت عبر قصبته .

فانتفض غريغورى وفتح حقيبة الاسعافات الأولية العائدة له وقال :

— من فعل ذلك بك ؟ هل أعصبها لك ؟ تمهل لحظة ، سآتى بضمادة .

فلعلع خريستونيا :

— سيبرأ الجرح من تلقاء نفسه ، كما يبرأ الكلب . لقد أطلق الآمر العسكرى علىّ النار من مسدسه . كنا نتقدم سوية الى الباب الأمامى كما يفعل الضيوف . ولكنه ابتدرنا بالقتال . وقد جرح قوزاقياً آخر أيضاً . وأردت أن أنزع عنه روحه لأرى ماذا تشبه روح الضابط ، غير أن القوزاق الآخرين لم يدعونى . كنت أود أن أمسك روحه بيدى . أجل ، كنت أود ذلك !

٩

بعد مؤتمر كامينسكايا بيوم ، كانت كتيبة قوزاق الدون العاشرة ، التى أرسلها كاليدين لتلقى القبض على جميع أعضاء المؤتمر وتجرد أشد الفرق القوزاقية ثورية من سلاحها ، قد وصلت كامينسكايا ، وتركت القطار لحظة انعقاد الاجتماع فى المحطة . وكان بودتيلكوف على الرصيف . كان يقول :

— أيها الآباء ، والاخوة ، أنا لست عضواً فى أى حزب ولست بلشفياً . انما أكافح من أجل شىء واحد فقط : من

أجل العدالة ، ومن أجل السعادة والاتحاد الأخوى بين جميع العمال ، كيلا يكون هناك اضطهاد ، ولا كولاك * ، ولا برجوازيون وأناس أثرياء ، كيما يعيش كل انسان حراً وحسب ارادته . . . ويحاول البلاشفة أن يحققوا ذلك ، وهم يناضلون من أجله . ان البلاشفة عمال ، ناس كادحون مثلنا نحن القوزاق . ولا يختلف العمال البلاشفة عنا ، سوى أنهم أكثر وعياً واتحاداً منا . فقد كنا نحن سادرين فى الظلام ، فيما هم ، فى المدن ، تعلموا أن يفهموا الحياة أحسن منا . ومن هنا فان ما ينجم عن ذلك هو أننى بلشفى رغم أننى لست منتمياً الى الحزب البلشفى .

كان القوزاق الذين وصلوا حديثاً ، وهم رجال ذو بنية قوية ، ومعظمهم جنود مختارون ، قد احتشدوا حول الاجتماع ، واختلطوا برجال من كتائب أخرى . وسرعان ما أثرت خميرة الدعاية الفعالة التى بدأ أنصار البلاشفة يبثونها بينهم ، فحينما دعاهم آمر الكتيبة لتنفيذ أمر كاليدين رفضوا .

وكانت كامينسكايا فى هذه الأثناء تضج بالنشاط ، فقد أرسلت مفارز من القوزاق حشدت على عجل الى الخارج لاحتلال المحطات ، وعجل بارسال قطر عسكرية . وجرى انتخاب قادة جدد للمفارز . وتسلل بعض القوزاق الراغبين فى تجنب الحرب بهدوء خارج المدينة ، فى حين كان المندوبون المتأخرون القادمون من مختلف القرى ما يزالون يتوافدون . ولم يسبق لشوارع كامينسكايا أن شهدت حركة ناشطة كهذه على الاطلاق .

فى الثالث عشر من كانون الثانى وصل الى المدينة وفد

---

* كولاك — فلاح غنّي يستغلّ عمل الغير . **المعرب** .

من الحرس الأبيض لحكومة الدون ليفتح باب المفاوضات برئاسة آغييف . فقوبل بحشد كبير فى المحطة . وسارت حامية من القوزاق من كتيبة حرس الأتمان بالوفد الى بناية البريد حيث قضت فيها اللجنة الثورية العسكرية معظم الليلة فى جلسة مع وفد الحكومة .

كان سبعة عشر ممثلاً عن اللجنة الثورية العسكرية حاضراً . ووجه بودتيلكوف رداً عنيفاً على خطاب آغييف الذى يتهم اللجنة الثورية العسكرية بخيانة الدون والتعاون مع البلاشفة . وأعقبه كريفوشليكوف ولاغوتين . وقوطع خطاب العقيد كوشناريف بهتافات القوزاق المحتشدين فى الممر . وطالب أحد رماة الرشاشات باسم القوزاق الثوريين بالقاء القبض على الوفد الحكومى .

وفشل المؤتمر فى الوصول الى تسوية ، وحوالى الساعة الثانية صباحاً ، بعد أن صار من الجلى عدم الوصول الى اتفاق ، اقترح أحد أعضاء الوفد بأن على اللجنة الثورية العسكرية أن ترسل وفداً الى نوفوتشيركاسك ، للوصول الى حل نهائى بشأن حكومة المستقبل . فأقر الاقتراح .

ورحل وفد حكومة الدون ، وتوجه ممثلو اللجنة الثورية العسكرية فى الحال بعده شطر نوفوتشيركاسك . وكان بودتيلكوف على رأسهم . واستبقى ضباط كتيبة الأتمان الذين قد ألقى القبض عليهم فى كامينسكايا ، رهائن .

١٠

كانت عاصفة ثلجية ترعد خارج نوافذ العربة . وتتجمع كتل الثلج التى حملتها الرياح فوق أسوار الثلج المتقوسة . وكانت مقاصير السكك ، وأعمدة التلغراف ، ورتابة السهب الثلجية

الموحشة غير المتناهية تنسل بعيداً الى الشمال .

جلس بودتيلكوف ازاء النافذة ، وقد ارتدى سترة جلدية جديدة . وجلس قبالته كريفوشليكوف ، وهو نحيف ضيق المنكبين كالصبيان وقد استند بمرفقيه على المنضدة . كان ثمة قلق وترقّب فى عينيه الصافيتين الصبيانيتين . وكان لاغوتين يمشط لحيته الشقراء الخفيفة . وكان ميناييف ، وهو قوزاقى جسيم ، يدفئ يديه على أنابيب الحرارة ويتململ غير مرتاح فى مقعده . واستلقى غولوفاتشوف وسكاتشكوف على السريرين العلويين يتحدثان بهدوء .

وعلت نافذة المقصورة غشاوة من الضباب بفعل دخان التبغ والبرد . ولم يكن أعضاء الوفد يشعرون بالثقة فى نجاح مهمتهم الى نوفوتشيركاسك . ولم يتحدثوا الّا لماماً ، وخيم عليهم صمت ثقيل . وأخيراً عبر بودتيلكوف عن الشعور الذى كان يتملكهم جميعاً :

— لن نخرج بنتيجة منها . فلن نتفق على شىء .

فأيده لاغوتين :

— أى ، انه ضياع وقت .

ثم خيم عليهم الصمت ثانية . ولوى بودتيلكوف معصمه بصورة ايقاعية ، كمن يدخل مكوكاً فى شبكة ويخرجه . وراح ينظر بين آونة وأخرى الى سترته ، متملياً لمعان الجلد . ولما كانوا يقتربون من نوفوتشيركاسك ، بسط ميناييف الخارطة ونظر الى الدون المبتعد عن المدينة عريضاً زاخراً وشرع يروى لهم قائلاً :

— فى الأيام السالفة عندما كان قوزاق كتيبة الأتمان ينهون الخدمة العسكرية كانوا يعدون العدة للعودة الى بيوتهم . كانوا يحملون القطار بصناديقهم وجيادهم وحوائجهم ، ثم ينطلق

بهم الى ديارهم ، وبالقرب من فورونيج ، حيث يمر الخط الحديد عبر الدون للمرة الأولى ، يخفف السائق سرعة القاطرة ، ويسير بأبطأ ما يستطيع من سرعة . . . فقد كان يدرى بما سيعقب . وما ان يبلغ القطار الجسر . . . يا أجدادى ! يا له من منظر ! حتى يطير صواب القوزاق : «الدون ! الدون ! الدون الهادئ ! أبونا ، نهرنا ! له المجد» ، — وتتطاير القبعات والقمصلات العتيقة ، والسراويل ، والقمصان ، وأشياء أخرى يشهد الله عليها ، عبر النافذة فوق الجسر الى الماء ! كانوا يقدمون الهدايا الى الدون عند عودتهم من الخدمة . وعندما يصادف أن تنظر الى الماء أحياناً ، ترى قبعات الأتمان الزرق تجرى طافية مثل الأوز والزهور . . . لقد كانت تلك عادة قديمة جداً .

وخفف القطار السرعة ، ثم توقف أخيراً . ونهض القوزاق . وقال كريفوشليكوف بابتسامة نافرة وهو يشدّ حزام معطفه :

— حسناً ، ها قد وصلنا !

فقال سكاتشكوف محاولاً المزاح :

— لا أحسبهم ناشرين الأعلام لنا !

وفتح الباب رئيس مديد القامة دون أن يطرقه ، ودخل المقصورة . وتفحّص أعضاء الوفد بعينين عدائيتين ، وقال بفظاظة متعمدة :

— لقد كلفت بمرافقتكم . أرجو أن تغادروا العربة بالسرعة الممكنة ، أيها السادة البلاشفة . فلا أستطيع أن أضمن الجمهور و . . . سلامتكم .

وثبت عينيه على بودتيلكوف ، أو بالحرى على سترته وهى سترة ضابط جلدية ، ثم صاح بلهجة عدائية مكشوفة قائلاً :

— أخرجوا ، بسرعة !

وحينما خرجوا هتف ضابط ذو عذارين طويلين ، واقف على الرصيف وسط الحشد :

— أولئك هم ، الخنازير ، خونة القوزاق !

فشحب وجه بودتيلكوف ونظر وراء الى كريفوشليكوف بعينين مضطربتين . فتبسم كريفوشليكوف وهمس :

— «لن نستقبل بكلمات استحسان واطراء ، بل بعواء حقود فاجر» ، ألا تعرف ذلك ، يا فيودور ؟

وقرر بودتيلكوف أن يردّ بابتسامة رغم أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة .

ورافق الوفد حرس قوى من الضباط . وصاحبهم جمهور محموم الى باب مقر الحكومة تماماً يطالب بشنقهم فى الحال . ولم تأتهم الاهانات من الضباط والتلامذة العسكريين فحسب ، بل من نساء متأنقات وطلاب أيضاً .

فالتفت لاغوتين الى أحد الضباط المرافقين وقال والحنق باد عليه :

— ان هذه لفضيحة مقصودة ، انها لكذلك !

فحدجه الأخير بنظرة حقود ، وفحّ قائلاً :

— أشكر ربك أنك ما زلت حياً . لو كانت لديّ سلطة عليك . . . اللعنة عليك ، أنت أيها الجيفة . . .

وكبحت جماحه خزرة معنفة من ضابط آخر ، أصغر منه .

وهمس سكاتشكوف الى غولوفاتشوف عندما وجد فرصة سانحة :

— أية ورطة !

— يبدو كما لو أنهم يقودوننا الى المشنقة .

لم تكن قاعة الحكومة الاقليمية واسعة بما فيه الكفاية

لتستوعب كل الحشد الذى تجمع . ووصل أعضاء الحكومة بينما كان أعضاء الوفد يجلسون فى جانب واحد أمام الطاولة كما أوعز بذلك الملازم .

واقترب من المائدة كاليدين منحنياً بعض الشىء بخطوات ذئبية راسخة ، يرافقه بوغايفسكى . وسحب كرسيه الى الوراء وجلس ، ثم وضع قبعته التى تزينها شارة الضباط على الطاولة بهدوء ، ومسّد شعره الى الوراء وزرر جيب قمصلته الجانبى . ثم مال الى بوغايفسكى الذى كان يهمس له بشىء ما . وكانت كل حركة ونأمة يأتى بها تعبّر عن ثقة راسخة وقوة بالغة . كانت كل حركاته تنم عن رجل تذوق السلطة واكتسب فى غضون سنوات عديدة هيبة وتصرف ومشية تميزه على الآخرين . فى حين بدا بوغايفسكى ، وهو ذو هيئة قميئة بالمقارنة مع كاليدين ذى الشخصية المهيبة ، أكثر انفعالاً أمام المفاوضات الوشيكة . كان يهمس ، وبالكاد يحرك شفتيه ، وكانت عيناه الضيقتان الحادتان تتألقان خلف نظارتيه . وقد فضحت عصبيته حركات يديه القلقة ، فتارة يصلح ياقته ، وأخرى يتحسس ذقنه القوى ، ثم ما يلبث أن يرفع حاجبيه الأشعثين . وجلس بقية وفد الحكومة الى جانبى كاليدين ، وكان بعضهم يزورون كامينسكايا ، وهم : كاريف ، سفيتوزاروف ، أولانوف وآغييف .

وسمع بودتيلكوف بوغايفسكى يهمس بشىء ما لكاليدين . ثم نظر الجنرال بحدة الى بودتيلكوف المقابل له وقال : «أعتقد أننا نستطيع المباشرة» .

فتبسم بودتيلكوف ، وجعل يتكلم بصوت جلى ، ذاكراً أسباب مجىء الوفد . وتناول كريفوشليكوف الانذار الذى أعدته اللجنة الثورية العسكرية ونشره على الطاولة ، غير أن كاليدين

دفعه بحركة من يده البيضاء ، وقال بلهجة راسخة :

— لا حاجة لتبذير الوقت بأن يدرس الوثيقة كل عضو من أعضاء الحكومة على انفراد . أرجو تلاوة انذاركم . ثم نناقشه بعد ذلك .

فأوعز بودتيلكوف قائلاً :

— اقرأه .

وشد نفسه باعتداد ، بيد أنه كان واضحاً أنه ، شأن بقية الوفد ، شعر بالحاجة الى التزام جانب الحذر .

واستوى كريفوشليكوف واقفاً . وانساب صوته النسوى الرفيع وسحب فى هواء القاعة المزدحمة :

— «ابتداء من العاشر من كانون الثانى عام ١٩١٨ ، تنتقل السلطات المشرفة على الوحدات العسكرية فى اقليم الدون من الأتمان الى اللجنة العسكرية الثورية لقوزاق الدون . وتسرّح وتجرّد من السلاح جميع الوحدات العسكرية التى تعمل ضد الجيش الثورى فى الخامس عشر من كانون الثانى ، وكذلك جميع أرهاط المتطوعين ، والكليات العسكرية ، ومدارس خدمة العلم . ويرحل جميع أعضاء المنظمات الآنفة الذكر الذين هم من غير سكنة اقليم الدون الى أماكن سكنهم الدائم .

ملاحظة : يجب تسليم السلاح ، والمعدات ، والملابس العسكرية الى قوميسار اللجنة العسكرية الثورية ، الذى سيصدر رخصاً بمغادرة نوفوتشيركاسك .

وسوف تحتل القوات القوزاقية مدينة نوفوتشيركاسك حسب أمر اللجنة العسكرية الثورية . وتعتبر أوراق اعتماد أعضاء مجلس الجيش القوزاقى باطلة ابتداء من الخامس عشر من كانون الثانى .

وعلى حكومة الدون أن تسحب جميع رجال البوليس المتخذين مواقعهم فى مصانع ومناجم اقليم الدون .

وحقناً للدماء يجب على الحكومة أن تعلن لجميع قرى ومقاطعات اقليم الدون أنها استقالت من تلقاء ذاتها وانها ستنقل السلطة فى الحال الى اللجنة العسكرية الثورية القوزاقية ، الى حين تشكيل حكومة دائمة من الكادحين فى الاقليم» .

ولم يكد يخفت صوته حتى سأله كاليدين بصوت عالٍ :

— أية وحدات عسكرية منحتكم السلطة لاصدار هذا الانذار ؟

فتبادل بودتيلكوف النظرات مع كريفوشليكوف ، وشرع يعدد بصوت عال :

— حرس الأتمان ، الحرس القوزاقى ، البطارية السادسة ، الكتيبة الرابعة والأربعون ، البطارية الثانية والثلاثون ، السرية الخاصة الرابعة عشرة . . . — وكان يثنى أصبعاً من يده اليسرى كلما أتى على ذكر وحدة ، وتتعالى من القاعة قهقهات استهزاء مكتومة . فعبس بودتيلكوف ، ووضع يديه المكسوتين بشعر أشقر على المائدة ورفع صوته : — الكتيبة الثامنة والعشرون ، البطارية الثامنة والعشرون ، البطارية الثانية عشرة ، الكتيبة الثانية عشرة . . .

وهمس له لاغوتين بصوت خفيض :

— الكتيبة التاسعة والعشرون .

وأردف بودتيلكوف :

— . . . الكتيبة التاسعة والعشرون ، البطارية الثالثة عشرة ، سرية كامينسكايا المحلية ، الكتيبة العاشرة ، الكتيبة السابعة والعشرون ، فوج المشاة الثانى ، الاحتياطى الثانى ، الكتيبة

الثامنة ، الكتيبة الرابعة عشرة .

وعندما فرغ سأله كاليدين بضعة أسئلة غير هامة ، ثم مال الى الأمام على الطاولة ، وتفرس فى بودتيلكوف وسأله :

— هل تعترفون بسلطة مجلس مفوضي الشعب ؟

وأتى بودتيلكوف على قدح من الماء ، وأعاد وضع الدورق على الصحن ، ومسح عذاريه بكمه ، ثم أجاب :

— لا يستطيع الاجابة على ذلك الاّ الشعب بأكمله .

وتدخل كريفوشليكوف ، خشيةً أن يفوه بودتيلكوف الساذج بأكثر مما ينبغى فقال :

— ان القوزاق لن يقبلوا بأية حكومة يوجد فيها ممثلون عن حزب الحرية الشعبى * . اننا قوزاق ، وينبغى أن تكون حكومتنا حكومة قوزاقية من عندنا .

— كيف يتسنى لنا أن نفسر هذا القول فى الوقت الذى يكون اليهود وأمثالهم على رأس المجلس ؟

— لقد وضعت روسيا ثقتها بهم ، وسوف نوليهم نحن ثقتنا .

— هل ستنشئون علاقات معهم ؟

— نعم .

وزخر بودتيلكوف مستحسناً ، وأيد كريفوشليكوف :

— اننا لا نهتم بالأشخاص ، ان ما يهمنا هو الفكرة .

وسأل أحد أعضاء الحكومة بلهجة بريئة :

— هل يعمل مجلس مفوّضى الشعب لصالح الشعب ؟

وحامت نظرة بودتيلكوف المتفحصة بطيئاً حوله . وتناول

* الديمقراطيون الدستوريون ، أو الكاديت ، كما كان يسمى حزب الكاديت المعادى للثورة .

قنينة الماء وهو يبتسم ، وصب لنفسه قدحاً آخر وشربه بسرعة . كان شديد العطش ، وكأن ناراً حامية كانت تصطلى فى أحشائه .

ونقر كاليدين بأصابعه على الطاولة وسأله مستفهماً :

— ما الذى يجمع بينكم وبين البلاشفة ؟

— اننا نريد أن يكون للقوزاق حكم ذاتى فى اقليم الدون .

— نعم ، ولكنك تعرف جيداً أنه سيصار الى تأليف مجلس عسكرى جديد فى الرابع من شباط . وسوف يعاد انتخاب الأعضاء . فهل توافقون على سلطة مشتركة ؟

فرفع بودتيلكوف عينيه ، وأجاب بحزم :

— كلا ! اننا سنملى ارادتنا عليكم ما دمتم تمثلون الأقلية .

— ولكن ذلك سيكون قسراً !

— أجل .

وحوّل بوغايفسكى عينيه من بودتيلكوف الى كريفوشليكوف وسأله :

— هل تعترفون بالمجلس العسكرى ؟

فهز بودتيلكوف كتفيه قائلاً :

— الى حد ما فقط . . . سوف تعقد اللجنة الثورية العسكرية الاقليمية مؤتمراً لممثلى الشعب . وسوف تعمل تحت اشراف القوات المسلحة . واذا لم يرضنا المؤتمر فلن نعترف به .

فرفع كاليدين حاجبيه وقال :

— ومن سيكون الحكم فى هذه المسألة ؟

ورمى بودتيلكوف برأسه بزهو الى الوراء فصرّت سترته الجلدية فيما استند الى ظهر كرسيه المنقوش ، وقال :

— الشعب !

وبعد فترة قصيرة نهض كاليدين للكلام . فتلاشت الضوضاء

فى القاعة ، وانبعث صوته ، بنبراته الخفيضة الكامدة كمود الخريف ، واضحاً فى السكون :

— ان الحكومة لا تستطيع أن تتخلى عن سلطاتها بناء على طلب اللجنة الثورية العسكرية . لقد انتخب الحكومة سكان الدون ، وهم وحدهم ، لا الفئات الخاصة ، يستطيعون أن يطالبوا بالتخلى عن السلطة . أما أنتم فآلات صماء بيد البلاشفة . انكم تعملون وفق مشيئة عملاء الألمان ، دون أن تدركوا المسؤولية الجسيمة التى تحملون أنفسكم بها ازاء القوزاق . أنصحكم بأن تعيدوا النظر فى الموضوع ، لأنكم ستجلبون لوطنكم شقاء عظيماً باصطدامكم مع الحكومة التى تمثل ارادة مجموع السكان . أما أنا فلن أتشبث بمركزى . انما سيدعى المجلس الكبير لجيش قوزاق الدون للاجتماع ، وسوف يقرر هو مصير البلاد . ولكن يجب أن أبقى فى منصبى حتى موعد اجتماعه . وللمرة الأخيرة أنصحكم باعادة النظر بموقفكم .

ثم خطب بعده أعضاء الحكومة من القوزاق وغير القوزاق . وألقى بوسيه الاشتراكى الثورى ، خطبة طويلة حشرت بضمانات مغرية .

وقاطعه هتاف من لاغوتين :

— ان مطلبنا هو أن تسلموا السلطة الى اللجنة الثورية العسكرية ! ما الذى تنتظرونه اذا كانت حكومة الدون تروم حلاً سلمياً للمسألة . . .

فتبسم بوغايفسكى :

— وهذا يعنى ؟ . .

— ان عليكم أن تعترفوا للملأ أن سلطتكم قد انتقلت الى اللجنة الثورية . وليس بمقدورنا أن ننتظر أسبوعين آخرين

ريثما يلتئم مجلسكم ! ان الشعب جياش الغضب كما تعهدونه .

وألقى عضو حكومى آخر خطاباً ملتوياً ، ومع ذلك فقد نشد عضو آخر تسوية مستحيلة .

وأصغى بودتيلكوف اليهما بزعل . وعندما ألقى بنظرة خاطفة الى مساعديه ، لاحظ أن لاغوتين كان شاحباً وعابساً ، وكريفوشليكوف قد ثبت عينيه على المائدة ، وغولوفاتشوف يتفجر ليقول شيئاً ما . وحانت اللحظة التى كان كريفوشليكوف يترقبها فهمس بهدوء :

— اعطهم درساً !

وبدا على بودتيلكوف أنه كان ينتظر هذه المناسبة . فدفع كرسيه الى الوراء وشرع يتكلم بتوتر ، ويتهته بانفعال ، ويبحث عن كلمات من شأنها أن تزيل كل الشكوك :

— انكم تخطئون الحساب فى كل ذلك ! فلئن كانت الحكومة العسكرية يركن اليها ، لتنازلت عن كل مطالبينا عن طيب خاطر . بيد أن الشعب لا يثق بها ! ولسنا نحن ، بل أنتم تبدأون الحرب الأهلية . لماذا تأوون هؤلاء الجنرالات الهاربين فى أرض القوزاق ؟ لذلك يهجم البلاشفة على دوننا الهادئ . اننا لن نذعن لكم . ولن نسمح بذلك ! ان الحقائق الى جانبنا . لا أصدق ان الحكومة العسكرية ستنقذ الدون ! أى اجراء اتخذتم ضد الوحدات التى تأبى اطاعتكم ؟ . . آها ، لقد أسقط فى يدكم ! لماذا ترسلون متطوعيكم ضد عمال المناجم ؟ قل لى ، أى ضمان هناك فى أن الحكومة العسكرية ستتجنب الحرب الأهلية ؟ آها ، ليس لديكم شىء تقولونه بهذا الشأن ! ان الشعب وقوزاق الجبهة الى جانبنا !

ومرقت ضحكة خلال القاعة مثل عزيف الريح ، وتناهى

الى الأسماع صياح غضوب ضد بودتيلكوف . فالتفت بوجهه المحتقن تجاههم ، وهتف دون أن يكتم غضبه المرير :

— أنتم تضحكون الآن ، ولكنكم سرعان ما ستذرفون الدموع ! — والتفت ثانية الى كاليدين ، وثبت فيه عينيه الخرزيتين وأردف :

— اننا نطلب منكم أن تسلموا الحكم الينا نحن ممثلي الشعب الكادح ، وتبعدوا جميع البرجوازيين وجيش المتطوعين . . . ويجب أن تستقيل حكومتكم أيضاً .

فأحنى كاليدين رأسه بتعب وقال :

— ليست لديَّ نية فى ترك نوفوتشيركاسك .

وبعد فترة قصيرة استأنف الجلسة متكلم حكومى آخر :

— ان مفارز الحرس الأحمر تتقدم نحو الدون لتقضى على القوزاق ! لقد دمروا روسيا بحكمهم المخبول وهم يريدون أن يفعلوا المثل هنا ! لم يحدث أبداً فى التاريخ أن تحكم البلاد جيداً طغمة من المدعين أو تعمل لصالح الشعب . لقد أعماكم جنون الآخرين وتريدون أن تجردونا من السلطة وتفتحوا الأبواب على مصاريعها للبلاشفة . ولكننا لن نسمح لكم بذلك !

فتقحم بودتيلكوف قائلاً :

— سلموا السلطة الى اللجنة الثورية ، وسيوقف الحرس الأحمر هجومه .

وأفسح كاليدين المجال الى فرد من جمهور المستمعين وهو الضابط الرئيس شاين . فنهض من بين الصفوف وعلى صدره أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغى . وأصلح قمصلته كأنه فى استعراض ثم اندفع وكأنه يغير بجواده ، وجعل ينبح وقد أسبل ذراعه وكأنه يضرب بسيفه :

— فيم نصغى لهم ، أيها القوزاق ! ان سبيل البلاشفة هو غير سبيلنا ! ان خونة الدون والقوزاق وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن تسليم السلطة الى السوفييتات ويحثوا القوزاق على الانضمام الى البلاشفة ! — وانحنى الى الأمام وهتف مؤشراً صوب بودتيلكوف بالذات : — هل تعنى ما تقول ، يا بودتيلكوف ، ان الدون سيتبع شخصاً أمياً نصف متعلم مثلك ، كما يخيل لك ؟ لن تحصل على أتباع لك الّا من شذاذ الآفاق القوزاق والذين قد تركوا ديارهم وذويهم . وحتى هؤلاء سيثوبون الى رشدهم ، يا ولدى ، ويشنقونك لقاء ذلك !

واتجهت اليه رؤوس المجتمعين كما تتجه أوراد عبّاد الشمس نحو الشمس ، وتعالى زعيق الاستحسان . وعاد شاين الى مقعده . فانحنى فوقه ضابط مديد القامة يرتدى معطفاً ملموما قصيراً على كتفه شارة مقدم وربّت على ظهره . فتجمع الضباط حوله . ولمع صوت نسائى بنبرة هستيرية :

— شكراً لك يا شاين ! شكراً !

ونعب صوت جهير فتى متصنع من المقصورة ، مرفعاً رتبة الرئيس فى الحال :

— مرحى لك أيها الرئيس الأول شاين ! ألف مرحى !

واستمر خطباء الحكومة وقتاً طويلاً يحاولون اقناع قوزاق اللجنة الثورية حديثة التكوين . وغدا الهواء أزرق ثقيلا من جراء دخان التبغ . وكانت الشمس وراء النوافذ تقترب من نهاية مسيرتها النهارية . والتصقت أغصان شجر الشوح المتجمدة بالألواح الزجاجية الخارجية . وكان بوسع الناس الجالسين على عتبات النوافذ أن يسمعوا صلاة الغروب تنشد ، وهديراً أجش كصفير قاطرات المحطة يطغى على عزيف الريح .

ولم يستطع لاغوتين أخيراً أن يتحمل أكثر من ذلك . فالتفت الى كاليدين وقال مقاطعاً أحد الخطباء :

ـــ اتخذوا قراراً : لقد حان الوقت لانهاء ذلك !

فهمس بوغايفسكى بلهجة كاوية :

ـــ لا تنفعل يا لاغوتين ! اشرب قدح ماء . انه شىء خطر على أرباب العائلة والقابلين للشمل أن ينفعلوا . هـذا الى أنه لا يحسن مقاطعة الخطباء ، فليس هذا مجلـس سوفييتات !

ورد عليه لاغوتين بشدة هو الآخر ، ولكن جميع الأعين اتجهت صوب كاليدين من جديد . اذ كان ما يزال يلعب لعبته السياسية باعتداده المعهود ، ازاء أجوبة بودتيلكوف الساذجة لكنها الثابتة ثبات الدرع .

ـــ لقد قلت اننا اذا سلمنا السلطة لكم فسوف يكف البلاشفة عن شن هجومهم على الدون . ولكن هذا رأيك ليس الّا . أمّا ماذا سيعمل البلاشفة عندما يبلغون الدون ، فلسنا ندرى .

ـــ ان اللجنة الثورية على ثقة من أن البلاشفة سوف يحققون ما قلته . جرّبوا ذلك . سلموا السلطة لنا ، واطردوا المتطوعين من الدون وسوف ترون أن البلاشفة سينهون الحرب .

وبعد لحظة نهض كاليدين . كان خطابه قد أعد مسبقاً ، وكان قد أمر تشيرنتسوف بتحشيد القوات للتقدم نحو محطة ليخايا المجاورة . ولكنه كان يراوغ كسباً للوقت ، ثم أنهى المؤتمر باقتراح مماطل :

ـــ ستنظر حكومة الدون فى مقترحات اللجنة الثورية ، وسوف تقدم جوابها خطياً فى الساعة العاشرة من صباح الغد .

نص الجواب الذى سلمته الحكومة العسكرية القوزاقية الى وفد اللجنة الثورية فى الصباح التالى على ما يأتى :

لقد تدارست الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون مطاليب اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية التى تقدّم بها مفوضو اللجنة باسم حرس الأتمان ، والحرس القوزاقى ، والكتائب : الرابعة والأربعين والثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين ، والوحدات : العاشرة والسابعة والعشرين والثالثة والعشرين والثامنة العائدة للاحتياطى الثانى والكتيبة الثالثة والأربعين ، والسرية السقلة الرابعة عشرة ، والبطاريات السادسة والثانية والثلاثين والثامنة والعشرين والثانية عشرة والثالثة عشرة ، وفوج المشاة الثانى ، وسرية كامينسكايا ، وعليه فان الحكومة العسكرية القوزاقية تعلن أن الحكومة تمثل جميع السكان القوزاق فى الاقليم . وليس لها الحق ، كحكومة انتخبها السكان ، فى التخلى عن سلطاتها ريثما يصار الى تأليف مجلس جديد .

ان الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون ترى من الضرورة حل المجلس السابق واجراء انتخابات جديدة لمفوضى كل من النواحى ووحدات الجيش . ان المجلس الجديد ، المنتخب بحرية (بحرية كاملة عن طريق التصويت) من قبل السكان القوزاق على أساس الانتخاب السرى المتساوى المباشر ، سوف يجتمع فى مدينة نوفوتشيركاسك فى الرابع (حسب التقويم القديم) من شباط ١٩١٨ ، وهو يجتمع فى الوقت نفسه مع مؤتمر جميع السكان من غير القوزاق . والمجلس وحده ، وهو المؤسسة الشرعية التى أعادتها الثورة والتى تمثل سكان المنطقة من القوزاق ، له الحق فى تنحية الحكومة العسكرية القوزاقية من الحكم وانتخاب حكومة جديدة . وسوف يتدارس هذا المجلس فى الوقت نفسه مسألة سيطرة الوحدات العسكرية وفيما ينبغى أو لا ينبغى وجود وحدات من المتطوعين للدفاع عن سلطة الحكومة . أما بشأن تشكيل جيش المتطوعين وفعالياته ، فان الحكومة الائتلافية الحالية قد اتخذت قراراً يقضى بوضع جيش المتطوعين تحت السيطرة المشتركة للحكومة واللجنة العسكرية الاقليمية .

وبصدد مسألة سحب البوليس من منطقة المناجم الذى زعم أن الحكومة العسكرية القوزاقية قد أرسلته الى هناك ، فان الحكومة تعلن أن هذه المسألة ستحال الى المجلس فى الرابع من شباط .

وتعلن الحكومة أن السكان المحليين هم وحدهم الذين يحق لهم أن يسهموا فى تنظيم شؤون حياتهم المحلية ، ومن ثم فانها حسب ارادة المجلس ترى من الضرورى أن تعارض بكل الوسائل تغلغل المفارز البلشفية المسلحة الى الاقليم الذى تريد أن تفرض نمط حياتها عليه . ان على الأهالى وحدهم أن ينظموا نمط حياتهم .

ان الحكومة لا تريد حرباً أهلية ، انها تسعى فى كل خطواتها للتوصّل الى حل سلمى . ولهذا السبب اقترحت أن تسهم اللجنة الثورية العسكرية فى وفد مشترك يبعث الى القوات البلشفية .

وترى الحكومة أنّ حرباً أهلية لا تنشب الّا اذا سمح لقوات غريبة بالدخول الى الاقليم ، ذلك أن الحكومة لا تقوم الّا بالدفاع عن أرض الدون ، وهى ليست بصدد الاعداد لأى عمل عدوانى ، كما أنها لا تريد فرض ارادتها على بقية أنحاء روسيا ، وعليه فهى لا ترغب بأن تفرض أية جماعة غريبة ارادتها على الدون .

وستؤمن الحكومة حرية كاملة فى الانتخابات فى النواحى ووحدات الجيش ، وسيكون بوسع كل مواطن الادلاء بصوته حسب رغبته ، وأن يبدى وجهة نظره عن طريق انتخابات المجلس العسكرى القوزاقى .

ويجب أن تشكل لجان من المندوبين من مختلف الوحدات لتتدارس حاجات القوزاق فى جميع الفرق .

وتوعز الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون الى سائر الوحدات التى أرسلت مندوبين الى اللجنة الثورية العسكرية باستئناف واجبهم الاعتيادى فى الدفاع عن اقليم الدون .

وترى الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون أن من غير المعقول أن تعمل بعض وحداتها ضد الحكومة ، فتزج الدون الهادئ فى حرب لا تبقى ولا تذر .

ويجب أن تحل اللجنة الثورية العسكرية من لدن الوحدات التى

انتخبتها ، وينبغى أن تبعث جميع الوحدات ، بديلاً عنها ، بممثلين الى اللجنة العسكرية الاقليمية القائمة ، التى تمثل جميع الوحدات العسكرية فى الاقليم .

وتطالب الحكومة العسكرية القوزاقية باطلاق سراح جميع الأشخاص الذين أوقفتهم اللجنة الثورية العسكرية على الفور ، وبغية اشاعة الحياة الاعتيادية فى الاقليم يجب السماح للادارة باستئناف أعمالها .

ولما كانت اللجنة الثورية العسكرية لا تمثل الّا عدداً غير ذى شأن من الوحدات القوزاقية ، فليس لها الحق أن تتحدث باسم جميع الوحدات ، ناهيكم عن المطالبة باسم القوزاق جميعاً .

وتعتبر الحكومة العسكرية القوزاقية أنه من غير الجائز مطلقاً للجنة أن تنشئ علاقات مع مجلس مفوضى الشعب ، وتتسلم منه المساعدات المالية ، لأن ذلك من شأنه أن يبسط نفوذ مجلس مفوضى الشعب فى اقليم الدون ، علماً بأن مجلس القوزاق ومؤتمر السكان من غير القوزاق فى سائر أنحاء الاقليم قد قررا رفض سلطة السوفييتات ، كما فعلت القوات الأوكرانية ، والسيبيرية ، والقفقاسية ، وسائر القوات القوزاقية بلا استثناء .

رئيس الحكومة العسكرية القوزاقية ، نائب أتمان الجيش القوزاقى م . **بوغايفسكى**

أمراء جيش قوزاق الدون **يلاتونتسيف** ، **بولياكوف** ، **ميلنيكوف** .

انضم لاغوتين وسكاتشكوف ممثلين عن لجنة كامينسكايا الثورية الى الوفد الذى أرسلته حكومة الدون الى تاغانروغ ليتفاوض مع ممثلى سلطة السوفييتات . وكان بودتيلكوف وأعضاء اللجنة الآخرون قد احتجزوا مؤقتاً فى نوفوتشيركاسك ، بينما كانت قوات كاليدين تحت أمرة تشيرنتسوف ، التى تنتظم بضع مئات من حملة الحراب ، وبطارية ثقيلة ومدفعين خفيفين مركبين على عربة سكك ، قد احتلت محطتى زفيريفو وليخايا بسرعة ، وتركت فيهما قوة صغيرة للحماية ، وواصلت تقدمها شطر كامينسكايا ،

واحتلت تلك الناحية فى السابع عشر من كانون الثانى . وبعد بضع ساعات من احتلال كامينسكايا وردت أنباء تفيد أن مفارز الجيش الأحمر برئاسة سابلين قد طردت قوات الحماية من زفيريفو وليخايا . فكرّ تشيرنتسوف بقواته . وبهجوم جبهوى خاطف اكتسح مفرزة موسكو الثالثة ، ووجه ضربة قاصمة لمفرزة خاركوف ورمى بالحرس الأحمر الى مواقعهم الأصلية .

وبعد أن استعاد تشيرنتسوف زمام الأمر فى جبهة ليخايا ، أخذ المبادرة وعاد الى كامينسكايا ، وفى التاسع عشر من كانون الثانى تسلم امدادات من نوفوتشيركاسك ، وصمم فى اليوم التالى على التقدم شطر غلوبوكايا .

وتقرر فى مجلس حرب القيام بالاستيلاء على غلوبوكايا بحركة التفاف واسعة . وقد تردد تشيرنتسوف فى التقدم على السكك الحديد خشية من مجابهة مقاومة عنيفة من وحدات لجنة كامينسكايا الثورية وامدادات الحرس الأحمر التى أرسلت من تشيرتكوف .

وبدأت حركة الالتفاف تلك الليلة ، وكان تشيرنتسوف يقودها بنفسه .

وبلغوا غلوبوكايا قبل الفجر . فغير الرتل تشكيلاته بخفة وانتشر على هيئة صف . وأعطى تشيرنتسوف أوامره الأخيرة ، ثم ترجل ، وأوعز بصوت أجش ، وهو يمط ساقيه ، الى آمر احدى السرايا قائلاً :

— بلا رحمة ولا شفقة أيها الرئيس . فهمت ؟

وخشخشت جزمتاه فوق الثلج ، ودفع قبعته الاستراخانية الرمادية الى أحد الجانبين ليحك بقفازه أذناً وردية . وكان ثمة دائرة قاتمة الزرقة تحت عينيه المتألقتين . وكانت شفتاه مزمومتين من شدة البرد ، كما كان شارباه القصيران مفضضين بالصقيع .

ووثب على سرجه بعد أن نال شيئا من الدفء ، وعدل طيات سترته العسكرية القصيرة ، وحثّ كميته بعد أن تناول العنان وهو يفتر عن ابتسامة رصينة واثقة وقال :

— فلنبدأ !

١٢

قبيل انعقاد مؤتمر قوزاقيى خط الجبهة فى كامينسكايا هرب صديق غريغورى الرئيس أزفارين من كتيبته . كان قد زار غريغورى فى الليلة السابقة لرحيله وألمح له بغموض بالخطوة التى أزمع تنفيذها .

— انى أجد من الصعب علىّ أن أخدم فى الكتيبة فى الوضع الراهن . فالقوزاق يتأرجحون بين نقيضين ، البلاشفة والنظام الملكى السابق . ولا أحد يريد مساندة حكومة كاليدين ، لأنه على أقل تقدير يتصرف كطفل بيده لعبة جديدة . ان من نريده هو رجل حازم ثابت العزم يضع الغرباء فى أماكنهم اللائقة بهم . ولكننى أعتقد أنه من الأفضل أن نساند كاليدين فى الوقت الحالى ، والاّ فسوف نخسر اللعبة كلياً . — وتساءل بعد برهة صمت أشعل خلالها سيكارة : — أحسب أنك اعتنقت عقيدة الحمر ؟

فأجابه غريغورى :

— تقريباً .

— عن ايمان ؟ أم مثل غولوبوف ، تريد أن تحظى بشعبية بين القوزاق ؟

— لست بحاجة الى الشعبية . أنا أبحث عن مخرج بنفسى .

— انك تضرب فى حديد بارد ، ولا أخالك قد وجدت سبيل الخلاص .

— سوف نرى . . .

— أخشى أن نلتقى كأعداء يا غريغورى .

فتبسم غريغورى :

— ان المرء لا يعرف حتى أصدقاءه فى ساح المعركة .

ولبث أزفارين يتكلم بعض الوقت ، ثم خرج . واختفى فى الصباح التالى كما يتوارى الحجر فى الماء .

وفى يوم انعقاد المؤتمر جاء لزيارة غريغورى أحد أفراد الحرس القوزاقى من مقاطعة فيشينسكايا . كان غريغورى ينظف ويزيت مسدسه . لقد جاء جندى الحراسة الذى كان فى السابق يخدم فى كتيبة ليستنتسكى ويعرف أن ليستنتسكى قد أخذ صاحبة غريغورى منه ليخبره أنه شاهد الضابط السابق فى المحطة . ومع ذلك فلم يأت على ذكر الموضوع الّا قبيل مغادرته ، فقال عرضاً :

— لقد رأيت بالصدفة صديقاً لك فى المحطة اليوم يا غريغورى .

— من ؟

— ليستنتسكى . هل تعرفه ؟

فسأله غريغورى بحدة :

— متى رأيته آخر مرة ؟

— قبل حوالى الساعة .

وجلس غريغورى ، وقد اعتصر الألم القديم قلبه كأن ذئباً أنشب فيه مخلبه ولم يعد يحس بالحقد الضارى ذاته تجاه عدوه ، ولكنه يدرى أنه لو صادف والتقيا ، اذا ما اندلعت

الحرب الأهلية ، فسوف تراق بينهما الدماء . لقد جعله هذا النبأ المفاجئ عن ليستنتسكى يدرك أن جرحه القديم لما يندمل بعد ، ان محض لمسة من شأنها أن تجعله ينزف من جديد . لا شك أن طعم الانتقام حلو لدى غريغورى لما اقترفه ليستنتسكى من جرم مرير بحقه ، فلم يترك له من حياته السابقة سوى قشرتها ، فغدت ملهوفة تاعسة ظمأى بعد أن كانت تزخر بسعادة مشبوبة طافحة .

ولاذ بالصمت بعض الوقت ، ثم قال عندما أحس بالحميا تنجاب عن وجنتيه :

— أتحسب أنه سيأتى الى هنا ؟

— لا أظن ذلك . لعله فى طريقه الى نوفوتشيركاسك .

— حسناً .

وقال الحارس شيئاً آخر عن المؤتمر ، ونقل له آخر أنباء الكتيبة ثم رحل . ولم يستطع غريغورى فى الأيام التى تلت أن يطفئ نيران الألم الذى تأجج فى دخيلته . وغشيته حالة من الذهول ، وعاودته ذكرى أكسينيا أكثر من ذى قبل فجلبت المرارة الى طعم فمه وأحالت قلبه كالصخر . وفكر فى ناتاليا والطفلين بيد أن ما كان يبعث فيه ذلك من فرح قد ذوى وعفى عليه الزمن . كان قلبه أسير أكسينيا وما برح يحس باللوعة العارمة الخانقة عليها .

حينما شن تشيرنتسوف هجومه ، كان على القوات الثورية أن تخلى كامينسكايا على عجل . وتحشدت سرايا القوزاق التى هجرها العديد من أفرادها فى القطار ، وقد اختلط حابلها بنابلها ، تاركة كل ما ثقل حمله . وبدا للعيان افتقار التنظيم ، والقيادة الحازمة التى من شأنها أن تحشد وتنظم قواتهم الكبيرة

حقاً . وأثناء تلك الأيام برز من بين الأمراء المنتخبين رئيس أول يدعى غولوبوف . فتسلم قيادة الكتيبة القوزاقية السابعة والعشرين الثورية واستعاد النظام من جديد بصرامة . وقد أطاعه القوزاق عن ثقة تامة ، معترفين بسجاياه التى افتقرت اليها الكتيبة : مقدرته على سبكها فى وحدة متماسكة ، وعلى تعيين الواجبات ، وعلى تسلم مهام القيادة . وأثناء الجلاء صاح هذا الضابط ذو الوجنتين الورديتين المكتنزتين ملوحاً بسيفه فى القوزاق الذين كانوا بطيئين فى شحن العربات :

— ماذا دهاكم ؟ هل تؤدون لعبة الاختفاء والطراد * ؟ اللعنة عليكم . هيا انهضوا بواجبكم ! انى آمركم باسم الثورة أن تطيعوا فى الحال . . . ماذا ؟ من هو ذلك الديماغوغى ؟ لسوف أطلق النار عليه ، ذلك السافل ! صه ! . . انك مخرب وجاسوس معاد للثورة ، ولست برفيق !

وقد استجاب له القوزاق بالفعل . حتى أن كثيرين منهم أحبوا أساليبه المتغطرسة ، فما برحوا يتوقون الى الماضى . وفى الأيام السالفة كان خير القادة فى نظر القوزاق هم أشدهم فظاظة .

انسحبت مفارز اللجنة الثورية العسكرية الى غلوبوكايا . وانتقلت القيادة الفعلية الى يد غولوبوف . وفى أقل من يومين أعاد تنظيم القوات المبعثرة واتخذ الخطوات اللازمة للدفاع عن غلوبوكايا . وكان غريغورى ميليخوف قد عين بناء على طلبه آمر مفرزة تشتمل على سريتين من كتيبة احتياط وسرية من الحرس .

وفى غسق العشرين من كانون الثانى خرج غريغورى ليستطلع

---

* لعلها تقابل الاستغماية المصرية . **المترجمون** .

المراكز الأمامية . وعلى أبواب القرية التقى ببودتيلكوف . فعرفه بودتيلكوف :

— أهذا أنت يا ميليخوف ؟

— نعم .

— أين ذاهب ؟

— أفتش المراكز الأمامية . هل مضى على رجوعك من تشيركاسك زمن طويل ؟ كيف سارت الأمور ؟

فقطب بودتيلكوف :

— لا تستطيع أن تكون مسالماً مع أناس هم أعداء ألداء للشعب . أرأيت الى الحيلة التى اتبعوها ؟ يتفاوضون . . . وأثناء ذلك كانوا يدفعون بتشيرنستوف الى الأمام . يا لكاليدين من خنزير ، ايه ؟ حسناً ، لقد أدركنى الوقت . يجب أن أعود الى مقر القيادة .

وترك غريغورى بعجالة وحث خطاه .

لقد طرأ على موقفه من غريغورى ومعارفه الآخرين من القوزاق تبدل واضح حتى قبل أن ينتخب رئيساً للجنة الثورية ، فشابت صوته نبرة من التعالى والغطرسة . لقد لعب التسلط برأس القوزاقى البسيط .

رفع غريغورى ياقة معطفه وسار مسرع الخطى . وكان الليل ينذر بصقيع ، وهب نسيم خفيف من الشرق . كانت السماء صافية . وخشخش الثلج تحت قدميه . وتعالى القمر وئيداً ، يعرج ، مثل كسيح يرتقى سلماً . وغشيت السهب خلف المنازل ضبابة بنفسجية قاتمة . كانت تلك ساعة المساء حين تنمحى كل الخطوط ، والألوان ، والأبعاد ، وحيث ما تزال بقايا النهار مشتبكة بأحابيل الليل وحيث يلوح كل شىء رجراجاً على غير

حقيقته . وحتى الروائح تكون لها فى مثل هذه الساعة أطياف خادعة .

عاد الى مقره بعد أن قام بالجولة . وأعدّ مضيفه ، وهو مستخدم فى السكك الحديد ، السماور وجلس أمام الطاولة .

— هل ستشنون هجوماً ؟

— لست أدرى .

— أم أنكم ستنتظرونهم هنا ؟

— سوف نرى .

— حسناً ما تفعلون . فلست أعتقد أن لكم من العدة ما تهاجمون بها ، ولذا يحسن الانتظار . لقد خضت غمار الحرب الألمانية كجندى استحكام ، لذلك فأنا أعرف الاستراتيجية التعبوية جيداً . ان قواتكم صغيرة ، أليس كذلك ؟

وحاول غريغورى أن يتجنب هذا الحديث الذى لا يرتاح اليه ، فقال :

— ستكفينا .

غير أن الرجل ظل يصب سيلاً دافقاً من الاسئلة ، محوماً حول الطاولة ، هارشاً بطنه النحيل من تحت صدريته .

— كثير من المدفعية ؟ مدافع شتى ؟

فأجابه غريغورى بغضب بارد :

— لقد كنت فى الجيش ، ألست تعرف واجب الجندى ؟

— ثم قلب عينيه بعنف فجفل الرجل الى الوراء ، وأردف :

— بأى حق تسأل عن عدد قطعاتنا ، وخططنا ؟ لسوف ألقى القبض عليك وأستجوبك . . .

فشحب وجه الرجل وكاد أن يغص من الارتباك :

— يا الهى . . . أيها الضابط ! عزيزى . . . كان ذلك

حماقة منى . . . حماقة . أغفر لى ! — دمدم صاحب البيت وهو يتوسل ويتضرع فاغراً فاه الأدرد .

وصادف أن تطلع غريغورى الى الرجل أثناء شرب الشاى ، فرآه يطرف بعينيه كمن يصادف بريقاً ، وعندما فتح عينيه ثانية بدت نظرتهما عطوفاً حتى الوله . لقد كانت زوجته وابنتاه اليافعتان يتكلمن همساً ، وأوى غريغورى الى غرفته دون أن يفرغ من قدحه الثانى .

وبعد فترة وجيزة عاد ستة قوزاق من كتيبة الاحتياط الثانية ، الذين كانوا هم الآخرون مقيمين فى المنزل ، وجلسوا يشربون الشاى ، ويتحدثون بصخب . كان غريغورى نصف نائم ، بيد أنه التقط نتفاً من حديثهم . كان واحد منهم وهو ضابط رعيل بخماتشوف من قرية لوغانسكايا يروى حادثاً وقع فى النهار :

— كنت هناك حينما حصل ذلك . لقد جاء ثلاثة عمال من غورلوفكا من المنجم رقم ١١ وذكروا أنهم قد جمعوا قوة ، ولكنهم لا يملكون أى سلاح . وهكذا فقد طلبوا منا أن نعطيهم ما كان بوسعنا أن نقتصده . فقال لهم أحد أعضاء اللجنة . . . لقد سمعته بنفسى .

ورفع المحدث صوته استجابة لسؤال خافت :

— «اذهبوا واطلبوا من سابلين يا رفاق ، فليس لدينا هنا أى شىء !» . ولكن كيف لا نملك أى شىء ؟ فأنا أدرى أن لدينا احتياطاً من البنادق . ليس ذلك بيت القصيد . لقد كان يغار من تدخّل الشعب البسيط فى . . .

فصاح آخر : — صحيح جداً ! تعطيهم سلاحاً وقد يحاربون أو لا يحاربون ، ولكنهم ما ان تثار مشكلة الأرض حتى يضعوا أيديهم عليها .

فزخر ثالث :

— اننا نعرف طباعهم !

ونقر المحدث الأول بملعقته على قدحه بترو ، وأجاب فى الحال متمهلاً فى كلماته :

— كلا ، ان مثل هذا الشىء لن يجدى . ان البلاشفة سيلاقوننا فى منتصف الطريق من أجل مجموع الشعب ، ولكننا لسنا بلاشفة حقيقيين . ان كل ما نبتغيه هو أن نطرد كاليدين ، ثم نشرع . . .

فعقّب على ذلك بيقين صوت عالى النبرة يكاد ان يكون صوت صبى :

— ولكن أنظر هنا يا ولدى ! ألا ترى أنه ليس لدينا ما نتنازل عنه ؟ لربما نحصل عند توزيع الأراضى على ديسياتين ونصف من الأرض الصالحة وأمّا البقية فلا تصلح لشىء . اذا فماذا سنمنحهم ؟

— لن يأخذوا أى شىء منك ، ولكن يوجد آخرون لديهم أرض أكثر مما ينبغى .

— وماذا عن أرض الجيش القوزاقى ؟

— كلا ، شكراً لك كثيراً ! هل علينا أن نستغنى عما نمتلكه ثم نشحذ من أراضى غيرنا ؟ يا لها من فكرة رائعة !

— سنحتاج أرض الجيش لأنفسنا .

— بالطبع .

— لقد أصابكم الجشع !

— اللعنة على الجشع !

— لعل بعضهم سيفكر فى ترحيل قوزاقنا من الدون الأعلى . فليس لديهم هناك غير الرمال .

— صحيح جداً .

— ولكن ليس من واجبنا أن نفعل ذلك .

— ان قطرة من الفودكا قد تنفع .

— قبل مدة ، أيها الأولاد ، هجموا على مخازن الشراب . وقد غرق أحدهم فى دن من الكحول .

— ان شيئاً من الشراب يسعفنى الآن ، شيئاً يبعث الدفء فى أوصالى .

وسمع غريغورى وهو يغفو القوزاق الذين افترشوا الأرض ليبيتوا ليلتهم يتجادلون حول الأرض وكيف ينبغى أن توزع . وأوقظهم قبل انبلاج الفجر صوت اطلاقة خارج النافذة تماماً : ووثب القوزاق واقفين . فارتدى غريغورى قمصلته ، وتناول معطفه وتخبطت ذراعه فى كمه ، وارتدى جزمته وهو يركض . ولعلعت الطلقات فى الشارع . ومرت عربة تقعقع . وهتف أحدهم بفزع خارج الباب :

— الى السلاح ! . . الى السلاح ! . .

لقد أجبرت قوات تشيرنتسوف النقاط الأمامية على التراجع وتدفقت الى المدينة . وانطلق الخيالة فى العتمة السهبية الرمادية . ومرق المشاة خلال الشوارع فراحت تضج بأصوات أحذيتهم . ونصب رشاش فى أحد الأركان . واصطف عبره زهاء ثلاثين قوزاقياً . وتوافد المزيد منهم وقعقعت الترباسات فيما هى يحشون الخراطيش فى مغاليق البنادق . وفى الشارع المجاور كان صوت مرنان يعطى الأوامر :

— السرية الثالثة ، انتبه ! من ذلك الذى خرج عن الصف ؟ استـ . . . عد ! رماة الرشاش الى اليمين در ! هل أنتم مستعدون ؟ سرية . . .

ومرت بهم عربة تهدر ، تجرها خيل مسرعة ، وكان السواق يلوحون بسياطهم . وشرعت الرشاشات تلعلع عن كثب . وفى الشارع التالى انقلب مطبخ الميدان أثناء فراره الهلوع وقد اشتبكت احدى عجلاته بأحد أعمدة سياج . فهدر صوت مرتعب موات :

— أنت أيها الشيطان الأعمى ! أما كان بوسعك أن تراه !

وبعد لأى استطاع غريغورى أن يلم شتات سريته ثم انطلقوا شطر المحطة . فوجدوا القوزاق يتراجعون كالموج المتلاطم .

أمسك غريغورى بيندقية أحد المتقدمين وقال :

— أين ذاهبون ؟

فانتزع القوزاقى بندقيته وقال :

— اليك عنى ! اليك عنى ! أيها الخنزير ! ماذا دهاك ؟ ألا ترى أننا نتراجع ؟

— انهم أقوى منا بكثير !

— لا شىء يقوى على ايقافهم .

وتعالى صياح أصوات أخرى :

— الى أين ؟ أين ينبغى ان نذهب ؟ القرية ملليرسكايا فى أية جهة ؟

وقرب مستودع البضائع فى أقصى المحطة حاول غريغورى أن يوزع جنود سريته فى تشكيلة انتشار ، غير أن موجة جديدة من القوزاق الهاربين اكتسحتهم جانباً . وما لبثت سرية غريغورى القوزاقية أن اختلطت بالحشد وهربت معه ناكصة الى الشوارع .

فزأر غريغورى وهو يختض من الغضب :

— قفوا ! توقفوا والّا فسأطلق النار !

ولكنهم لم يعيروه أذنا صاغية . وأمطر الشارع بوابل من

رصاص الرشاش . فانبطح القوزاق على الطريق لحظة ، وزحفوا مقتربين من الجدران ، ثم هربوا الى المنعطفات الجانبية .

وهتف ضابط رعيل فيما هو يمر ركضاً وينظر فى عينى غريغورى :

— لن نوقفهم الآن يا ميليخوف !

فتبعه غريغورى وهو يصر بأسنانه .

وانتهى الفزع الذى استبد بالقوزاق الى هزيمة تامة عشوائه من غلوبوكايا ، فتركوا معظم المعدات وراءهم . ولم يكن من الممكن لم شمل السرايا وزجها فى هجوم مضاد الّا عند انبلاج الفجر .

هرول غولوبوف مزرق الوجه يتصبب عرقاً وقد ارتدى سترة من الفرو ، أمام صفوف كتيبته السابعة والعشرين ، وهتف بصوت معدنى :

— تحركوا ! ليس هذا وقت الهجوع ! تقدموا ، تقدموا !

وصفت البطارية الرابعة عشرة فى موقعها وفصلت الخيل عن عدتها ، ووقف الآمر على صندوق ذخيرة وجعل يتطلع خلل منظارته .

بدأت المعركة فى السادسة ، فانطلقت قوات القوزاق والحرس الاحمر من فورونيج مجتمعة فى كتلة هائلة ، فبدت كأنها تطرز الارض الثلجية بالسواد . وهبت ريح زمهرير من الشرق . ومن تحت الغيوم التى ساقتها الرياح انحسر الفجر عن حمرة بلون النجيع . وأرسل غريغورى نصف سرية الأتمان لتحمى البطارية الرابعة عشرة ، وشن هجوماً بالبقية .

انفجرت القذيفة الأولى على مبعدة يسيرة من طلائع قوات تشيرنتسوف . وتطاير نثار الانفجار البرتقالى المزرق الى الأعلى .

وأطلقت قذيفة أخرى . ثم تلتها لحظة هدوء زادت من توترها نيران البنادق ، فدوى صدى بعيد اثر انفجار القذيفة . ثم بدأت القذائف تنفجر قرب خطوط العدو . فقال غريغورى فى دخيلته بشعور من الارتياح وهو يضيق عينيه أمام الريح : «لقد أحكمنا مدى الرمى !»

وفى الميمنة كانت سرايا الكتيبة الرابعة والاربعين . وكان غولوبوف يقود كتيبته فى الوسط . وغريغورى الى ميسرته . وفى المؤخرة كانت مفارز الحرس الأحمر تحمى الجناح الأيسر . وقد زودت سرية غريغورى بثلاثة رشاشات . وأشرف آمرهم ، وهو بدين من الحرس الأحمر ذو وجه كئيب ويدين مشعرتين عريضتين ، على اطلاق النار ببراعة ، شالاً محاولات العدو لشن الهجوم . ولهث طوال الوقت لصق الرشاشات وهو يتقدم مع قوزاق سرية الأتمان الزاحفين . وكانت الى جانبه امرأة مكتنزة ترتدى معطف جنود . وحينما مر غريغورى بصف القوزاق قال فى نفسه مغضباً : «يا له من زير نساء ! لا يستطيع التخلى عن امرأته حتى فى المعركة ! كان ينبغى أن يأتى بأطفاله وبفراشه الريش معه أيضاً !»

واقترب منه آمر مفرزة الرشاشات ، وهو يصلح وضع حزام المسدس على صدره .

— أنت آمر هذه المفرزة ؟

— نعم .

— سأوجه سداً من النار أمام نصف سرية الأتمان ، فالعدو يحول دون تقدمهم .

فاستحسن غريغورى الفكرة قائلاً : «حسناً !» — والتفت على اثر صرخة انطلقت من اتجاه الرشاش الذى هدأ لحظة وسمع رامى رشاش ملتحياً يزأر بضراوة :

— بونتشوك ! سوف ينصهر الرشاش ! لا نستطيع المضى على هذا المنوال !

وكانت المرأة بمعطف الجنود جاثية الى جانبه . وتألقت عيناها السوداوان تحت عصابتها ، فذكرت غريغورى بأكسينيا ، فتطلع اليها لحظة باشتياق ، مبهور النفس .

وفى الظهيرة جاء مراسل من لدن كولوبوف ومعه تعليمات لغريغورى تقضى بسحب سريتيه من موقعهما وتطويق ميمنة العدو ، على أن يقوم بذلك بصورة غير ملحوظة قدر المستطاع . كان عليه أن يغير على جناح العدو حالما تشن القوات الرئيسية الهجوم الحاسم . وسحب غريغورى فى الحال سريتيه ، وبعد أن أوعز لهم بامتطاء الخيل ، قادهم بطريق دائري قرابة عشرين فرسخاً فى وادٍ ضحل . كانت الخيل تتعثر وتغوص فى الثلج العميق ، الذى يصل أحياناً الى بطونها . وأنصت غريغورى الى صوت اطلاق النار وعاين ساعته بقلق ، وهى غنيمة استحوذ عليها من معصم ضابط ألمانى ميت فى رومانيا . وقد استعان بالبوصلة لمعرفة الطريق ، ولكنه رغم ذلك انحرف الى اليسار أكثر من اللازم . ثم ظهروا فى حقل مكشوف على كثيب فسيح . كان العرق يتبخر من أديم الجياد والبلل يسح من أوراكها . وأوعز غريغورى بالترجل ، وكان أول من تسلق الكثيب . وتركت الخيل فى الوادى . وتبعه القوزاق مخوضين صعد المرتفع الثلجى . والتفت الى الخلف ، فرأى ما ينوف على السرية من القوزاق منتشرين فوق المرتفع الثلجى فأحس بمزيد من القوة والثقة . فقد كانت غريزة الشعور بالجماعة تستبد به فى كل معركة ، شأن غيره من الرجال .

وألم بالموقف فى نظرة واحدة ، فأدرك أنه قد تأخر نصف

ساعة على الاقل لانه لم يأخذ بعين الاعتبار صعوبات الطريق . كان كولوبوف قد أوشك أن يقطع على قوات تشيرنتسوف خط الرجعة بمناورة استراتيجية جريئة ، مرسلاً مفارز تطويق من كلا الجانبين . وطفق الآن يسدد الضربات على مقدمتهم . وكانت اطلاقات البنادق تلعلع مثل الحب فى مقلاة ، ومزقت قذيفة صفوف العدو المرتبكة ، وتساقطت القنابل مدوارة .

هتف غريغورى :

— الى الأمام !

وهجم بمفرزته على الجناح . كان القوزاق يتقدمون كما لو كانوا فى استعراض بيد أن رامى رشاش بارعاً من جيش تشيرنتسوف أمطرهم بوابل من الرصاص بصورة متقنة جعلتهم يجدون فى الانبطاح على الأرض ملاذاً بعد أن خسروا ثلاثة منهم .

وفى الأصيل الباكر أصيب غريغورى بطلقة فوق ركبته تماماً . فجعل يصر بأسنانه وقد أحس بألم لاهب وغثيان مألوف ناجم عن التزيف . وزحف خارج الخط وقفز على قدميه ، وهز رأسه ، وجعل يهرف بعض الشىء بتأثير الصدمة وكان الألم على أشده لأن الرصاصة لم تخرج . اذ كانت ، حين أصابته قد فقدت زخمها وبعد أن اخترقت معطفه وسرواله وجلده استقرت هامدة ، فى عضلاته . وحال الألم المبرح دون حركته ، فرقد مرة أخرى . وفيما استلقى هناك عاودت ذهنه ذكرى هجوم الكتيبة الثانية عشرة فى جبال ترانسلفانيا فى رومانيا ، يوم جرح فى ذراعه : أوريوبين ووجه ميشا كوشيفوى المكفهر غضباً ويميليان غروشيف وهو يجر الرئيس الأول الجريح حدر التل .

وتولى مساعد غريغورى قيادة السرايا وأوعز لقوزاقيين بالعودة بغريغورى الى ماسكي الجياد . وحينما أجلساه على حصانه أشارا

اليه بحنو باد أن يضمد الجرح ولم يكد غريغورى يستوى على سرجه حتى ترجل ، ونزع سرواله وضمّد جرحه النازف المتهيج بعجالة وقد قطب اذ سرت رعدة فى جسمه العرق ثم مضى على صهوة جواد برفقة مراسله ، عائدين من نفس الطريق الدائرى فى الوادى ، الى الموقع الذى انطلق منه قبل بضع ساعات الهجوم المضاد وجعل يتطلع وهو وسنان نعس ، الى آثار حوافر الخيل على الثلج ، ومعالم الوادى المألوفة ، وسرعان ما بدت له الأحداث الجارية على سفح التل بعيدة وقليلة الأهمية .

واستمر اطلاق النيران من البنادق بجنون ، ونشطت بطارية العدو الثقيلة ؛ ومن حين لآخر كان يلوح على نيران الرشاشات أنها تكتب بخط منقوط غير منظور نتيجة المعركة .

قطع غريغورى حوالى ثلاثة فراسخ خلال الوادى . وبدأ التعب ينال من الجوادين جراء مسيرتهما الشاقة .

فهمهم غريغورى لمراسله : — اتجه شطر العراء ! — واستدار بحصانه وصعدا سفح الوادى الثلجى .

فرأيا فى البعيد جثث الموتى المبعثرة راقدة وكأنها غربان سوداء حاطة . وفى خط الأفق كان حصان يهرب بلا فارس . ورأى غريغورى ان قوات العدو الرئيسية التى قل عددها كثيراً انطلقت من ساحة المعركة وهى تتراجع متجهة الى غلوبوكويه . ورمّح غريغورى حصانه : كانت تلوح فى البعيد جماعات القوزاق الصغيرة المبعثرة . وعندما مضى غريغورى نحو أقرب جماعة منهم تبين غولوبوف . كان الآمر مستوياً على سرجه . وكانت سترته المصنوعة من جلد الخراف مفتوحة ، وقبعته الفرو منداحة الى أحد الجانبين ، وحاجباه مبللين بالعرق ، صاح بصوت أجش وهو يبرم عذاريه الشيبيهين بعذارى رئيس عرفاء :

— ميليخوف ، أحسنتَ ! ماذا ، هل جرحت ؟ اللعنة على الشيطان ! هل عظمك سالم ؟

وانفجر باسماً دون أن ينتظر جواباً ، وأردف :

— لقد مزقناهم شر ممزق ! لقد مزقنا مفرزة الضباط بحيث لن يكون بمقدورهم أن يلموا شعثهم من جديد .

وطلب غريغورى منه سيكارة . وكان القوزاق والحرس الأحمر يتدفقون على السهب وجاء قوزاقى مسرعاً على صهوة جواده بين جمع حاشد فى البعيد .

وصاح وهو لما يزل على مسافة ما :

— لقد أسرنا أربعين رجلاً ، يا غولوبوف ! أربعين ضابطاً ، وتشيرنتسوف أيضا !

— تكذب ؟ !

قال ذلك غولوبوف واستدار بلهفة على سرجه ، وانطلق نحو الأسرى ، وهو يعمل بسوطه بلا رحمة على جواده المحجل .

ولبث غريغورى برهة ، ثم انطلق فى أثره خبباً .

كان يقوم بحراسة رهط الضباط الأسرى ركب من ثلاثين قوزاقياً . وكان تشيرنتسوف يحث خطوه فى مقدمة الآخرين . وكان قد رمى بمعطفه الفرو حين حاول الهرب من المطاردين ، ولم يبق عليه سوى سترة جلدية خفيفة فقط . وكانت الشارة منتزعة من كتفه الأيسر ، وكان ثمة كدم حديث فوق عينه اليسرى ينزف . كان يسير حثيثاً وبثبات . وقد أضفت قبعته المصنوعة من جلد الحمل والمنداحة الى أحد الجانبين على مظهره اللاابالية والمرح . ولم يلح على وجهه المتورد الوجنتين أى ظل من الهلع . وكان جلياً أنه لم يحلق منذ أيام ، فلقد كسا وجنتيه وذقنه شعر أشقر نامٍ . وألقى بنظرة خاطفة قاسية على القوزاق الذين يركضون

نحوه ، وعلت حاجبيه تقطيبة مرة حقود . وأشعل عود ثقاب وأشعل السيكارة التى تدلت من احدى زاويتى شفتيه الرصينتين .

كان معظم الضباط شباناً ، خلا واحداً أو اثنين وخط شعرهما الشيب . وقد تأخر عنهم واحد مصاب بجرح فى ساقه ، وكان قوزاقى صغير مجدور ، كبير الرأس يسوقه بعقب البندقية . والى جانب تشيرنتسوف تقريباً كان ثمة رئيس أول طويل وسيم . وكان اثنان آخران يسيران يداً بيد ، مبتسمين ، وخلفهما كان تلميذ عسكرى بدين أجعد الشعر حاسر الرأس . وضابط آخر كان قد رمى بمعطف جنود على كتفيه دونما عناية . وكان هناك آخر حاسر الرأس ، ولكنه يرتدى قلنسوة ضباط حمراء أنزلت الى الأسفل فوق عينيه السوداوين الجميلتين جمال عيون النساء .

كان غولوبوف خلفهم . فتوقف وهتف للحارس القوزاقى :

— اسمعوا ! سوف تكونون مسؤولين عن حماية هؤلاء الأسرى وفق أقسى ما شهدته العهود الثورية العسكرية من أنظمة . واحرصوا على أن يصلوا مقر القيادة دون أن يصابوا بأذى .

واستدعى قوزاقياً خيالاً ، ودوّن ملاحظة وأمره أن يسلمها الى بودتيلكوف . ثم التفت الى غريغورى وسأله :

— هل أنت ذاهب الى هيئة الأركان ، يا ميليخوف ؟

وبعد أن تلقى رداً ايجابياً ، اقترب منه وقال :

— أخبر بودتيلكوف أننى سأكون مسؤولاً عن تشيرنتسوف . مفهوم ؟ حسناً ، اذهب اذاً .

وتخطى غريغورى جمع الأسرى ومضى شطر مقر اللجنة الثورية ، الذى كان قد نزل على مقربة من قرية صغيرة . فوجد بودتيلكوف يتخطى ذهاباً واياباً أمام عربة رشاشات بعجلات متجمدة ورشاش مغطى بجوخ أخضر ، محاطة بضباط أركان ،

ومرافقين ، ومراسلين . وكان ميناييف وبودتيلكوف قد عادا للتو من ساحة المعركة . كان ميناييف جالساً على مقعد السائق ، يلوك قطعة من خبز أبيض متجمد بشهيّة . وانتحى غريغورى ببودتيلكوف وقال له :

— سوف يكون الأسرى هنا بعد برهة . هل تسلمت رسالة غولوبوف ؟

فلوح بودتيلكوف بسوطه بقوة ، وخفض عينيه الغائرتين واحمر وجهه انفعالاً ، وقال :

— اللعنة على غولوبوف ! ان طلبه لطريف ! سوف يتعهد تشيرنتسوف ، أليس كذلك ؟ يتعهد ذلك المعادى للثورة وقاطع الطريق ! أبداً ! لن أسلمه ! ان أفضل شيء هو أن ترميهم جميعاً بالرصاص ، وخلاص !

— لقد قال غولوبوف انه سيكون مسؤولاً عنه .

— انني لن أتركه ! لقد قلت هذا ، وأنا أعنى ما أقول . هذا كل ما فى الأمر ! لسوف يحاكم أمام محكمة ثورية وسوف يتم تنفيذ الحكم فى الحال ، عبرة للآخرين ! هل تدرى . . . — وجعل يتكلم بنبرة أهدأ ، متفحصاً حشد الأسرى المتقدمين — هل تدرى كم سبب من اراقة الدماء ؟ بحاراً ! . . كم عامل منجم قتل ؟ — ومرة أخرى قلب عينيه وقال متهتها مغضباً : — لن أتركه حياً !

ورفع غريغورى هو الآخر صوته وقال :

— ليس هناك ما يدعو الى الصياح ! — كان يرتعش فى دخيلته كما لو كان بودتيلكوف قد عداه بسورته . وأضاف : — ان لديك العديد من القضاة هنا ! اذهب اليهم اذاً ! — وأشار الى الوراء اتجاه ساحة المعركة ومنخراه يرتعشان ، وأردف : —

هناك كثيرون من أمثالك يريدون تصفية الحساب مع الأسرى !

وابتعد بودتيلكوف ، وهو يشد قبضته على سوطه . وصاح من بعيد :

— لقد كنت هناك ! لا تحسب أننى أحتمى بهذه العربة لأنجو بجلدى . اغلق فمك أنت يا ميليخوف ! مفهوم ؟ مع من تتكلم ؟ دعك من أساليب الضباط التى تتمسك بها ! ان اللجنة الثورية هى التى ستحكم وليس أى . . .

واستدار غريغورى بحصانه نحوه ، وقفز من على سرجه ، ناسياً جرحه فى هذه اللحظة . ولكنه انثنى على نفسه من شدة الألم وسقط على رأسه . وتدفق الدم من ساقه مبقبقاً . ونهض لوحده ، وجر نفسه على نحو ما الى العربة ، وارتمى على النابض الخلفى .

وآنذاك قدم الأسرى . وانضم رجال الحرس الى المراسلين والقوزاق الذين كانوا يقومون بحراسة القيادة . ولم تك نار المعركة قد خفتت بعد بينهما ، وتلامعت عيونهم بغضب وحدة فيما كانوا يتبادلون الآراء حول المعركة الأخيرة .

ومضى بودتيلكوف نحو الأسرى وهو يطأ الثلج العميق بقوة . وراح تشيرنتسوف الذى كان ما يزال يتقدمهم بعض المسافة ، يحدق فيه بعينيه القانطتين الصافيتين ، لقد ضاقتا ازدراء ، وكان يستند الى الوراء على ساقه اليسرى دونما اكتراث ، وبعض شفته السفلى المتوردة بأسنان بيض قوية . وتقدم منه بودتيلكوف وجهاً لوجه وهو يختض بعنف ويحدق الى أسفل فى الثلج المحفر . ورفع عينيه ، فتلاحمت حملقته مع نظرة تشيرنتسوف المستخفة الجريئة ، فغمرتها بما تحمله من كراهية وحقد . وقال بصوت مختنق خفيض ، وهو يخطو خطوة الى الوراء :

— اذا فقد قبضنا عليك ، أيها الخنزير ! — وخددت وجنتيه ابتسامة قاتمة مصعرة كما لو اصابته ضربة سيف . فاندفعت الكلمات من بين أسنان تشيرنتسوف كالبصاق :

— يا خائن القوزاق ! يا كلب ! يا غدار !

فهز بودتيلكوف رأسه وكأنه يتحاشى صفعة ، واحتقن وجهه ، وفغر فاه ناشدا الهواء .

وما تلا ذلك حدث بسرعة مدهشة . اندفع تشيرنتسوف نحو بودتيلكوف ، مكشراً عن أسنانه ، شاحب الوجه ، وقبضتاه مشدودتان الى صدره ، وقد مال جسمه بكامله الى الأمام . وانهالت من شفتيه المرتعشتين كلمات مبهمة مصحوبة بالعنات . ولم يسمع سوى بودتيلكوف الذى جعل يتراجع الى الوراء على مهل .

ثم رفع تشيرنتسوف صوته فجأة بحيث تناهت الكلمات الى أسماع الأسرى والحراس وضباط الأركان :

— سيأتى دوركم . . . أنت تعرف ذلك !

فلهث بودتيلكوف بصوت مختنق ، متحسساً قبضة سيفه :

— أنت . . .

ثم خيم صوت فجائى . وخشخش الثلج بصوت مسموع تحت أقدام مينابيف وكريفوشليكوف وقوزاق آخرين ألقوا بأنفسهم صوب بودتيلكوف . بيد أنه كان أسرع من أن يدركوه . فلقد استل سيفه من غمده وهو يستدير بكامل جسمه الى اليمين مقرفصاً ، ثم ألقى بنفسه بقوة الى الامام وأنزل السيف بضربة هائلة على رأس تشيرنتسوف .

ورأى غريغورى الضابط يرتعد ويرفع يده اليسرى ليتقى الضربة ، ورأى السيف يبتر معصمه كما لو كان ورقة ، ويهوى على رأسه المرتمى الى الوراء . فسقطت قبعته المصنوعة من جلد

الحمل ، أولاً ، ثم هوى تشيرنتسوف ببطء مثل ساق ذرة بتر من أسفله ، وقد التوى فمه بصورة شوهاء ، وأزورت عيناه ألماً ، وعلت وجهه تقطيبة وكأنه يواجه بريقاً .

وعندما هوى الضابط ، انقض عليه بودتيلكوف ثانية ، ثم استدار وابتعد عنه بخطوات متثاقلة متعبة ، وهو يمسح سيفه الملطخ بالدم . والتفت الى الحراس وصاح بصوت مكدود وهو يتعثر بالعربة :

— اقتلوهم . . . اللعنة عليهم ! عن بكرة أبيهم ! نحن لا نأخذ أسرى ! فالعداء للشعب راسخ فى قلوبهم ، فى دمائهم !

ولعلع الرصاص بشكل محموم . فاستدار الضباط وحاولوا الهرب بحشد متخبط متدافع . وجرى الملازم ذو العينين النسويتين الجميلتين والقلنسوة الحمراء ، ويداه مشدودتان الى رأسه . وأصابته رصاصة فقفز عالياً وكأنه يروم طفر حاجز . ثم سقط ولم ينهض ثانية . وهوى قوزاقيان على الرئيس الطويل . فأمسك بحدى السيفين ، وتدفق الدم من يديه المجروحتين وسال على كمه . وجعل يصرخ مثل الطفل ، وسقط على ركبتيه ، ثم على ظهره ، ثم تدحرج رأسه على الثلج ، ولم يلح من وجهه سوى عينين ملتهبتين وفم أدكن مزقته صرخة . وبقى السيفان المتطايران يعيثان بوجهه ، بفمه ، ولكنه ظل يزعق بصوت أوهنه الألم والفزع . ثم ركله قوزاقى آخر وقضى عليه برصاصة . وكاد التلميذ العسكرى ذو الشعر الأجعد أن يفلت من الحلقة ، بيد أن واحداً من قوزاق الاثمان أدركه وهوى عليه . وسدد هذا الأخير اطلاقة الى ظهر ضابط يعدو وسترته تتطاير فى الهواء . فجثا الضابط وجعل يهرش صدره ، حتى قضى . وقتل فى الحال ضابط رئيس أشهب الشعر ، وحفر حفرة عميقة بقدميه فى الثلج وهو يودع الحياة ،

وكان بالامكان أن يستمر على رفسه كما يفعل حصان جامح مربوط ، لو لم يشفق عليه القوزاق ويضعوا حداً لألمه .

كان غريغورى قد جرجر نفسه من العربة ، حالما بدأت المجزرة ، وجعل يعرج بخفة نحو بودتيلكوف مسمراً عينيه الملتهبتين فيه . الّا أن مينايف طوقه من خلف ، ولوى ذراعيه ، واستل المسدس من يده ، وحملق فى عينيه بنظرة بليدة ، وقال لاهثاً :

— وماذا كنت تتوقع ؟

١٣

كانت الهضبة المتشحة بالثلج ، والمتألقة فى وهج الشمس وزرقة السماء الصاحية ، بيضاء تلتمع كالسكر . وعلى سفحها ترقد قرية متناثرة البيوت أشبه بلحاف مرقع . والى اليمين استقرت قرى صغيرة ومرابع زرقاء لجاليات ألمانية . والى الشرق نهض تل تمزقه الاخاديد . وفوق ناصيته سياج من أعمدة التلغراف . كان النهار صحواً زمهريراً على غير العادة . وأحاطت بالشمس سدائم قزحية الظلال . وكانت الريح تهب من الشمال ، وتثير غبار الثلج من السهب . ولكن المدى المكسو بالثلج كان واضحاً حتى الأفق ، خلا الشرق وحده ، حيث خيم ضباب بنفسجى فوق السهب عند التقاء التل بالسماء .

كان بانتلاي بروكوفتش قد شخص الى ميليروفو ليصطحب غريغورى الى القرية . لقد قرر أن لا يتوقف عند القرية ، بل يواصل مسيرته الى كاشارا ليقضى الليلة فيها . كان قد انطلق من تاتارسكى بعد استلامه برقية من غريغورى ، فوجد ابنه بانتظاره فى نزل . وكان غريغورى بعد أن جرح فى غلوبوكايا ، قد أمضى أسبوعاً فى عربة مستشفى ميدان مسافرة الى ميليروفو .

ثم قرر العودة الى أهله عندما التأم جرح ساقه بعض الشىء . وقد قاد قوزاق القرية حصانه اليه . ذهب تتوزعه أحاسيس هى مزيج من التبرم والسرور : تبرم لأنه ترك كتيبته فى أوج الكفاح من أجل السلطة فى الدون ، وسرور لأنه سوف يرى أهله وقريته ثانية . وكتم اللهفة لرؤية أكسينيا حتى عن نفسه ، بيد أنه لم يكن بوسعه الا أن يفكر بها .

وقد داخله شعور بالغربة عند التقائه بأبيه . وكان بانتلاي بروكوفيتش (بعد الذى أسره به بيوتر) ينظر الى غريغورى باكتئاب ، وقد تمت عيناه عن برم وقلق . وفى المساء ، وهما بالمحطة ، راح يستفهم بالتفصيل من غريغورى عن الاحداث الجارية فى منطقة الدون ، ويبدو أن اجابات ابنه لم تقع فى نفسه موقع الرضا . فجعل يلوك بلحيته التى دبّ فيها المشيب ، ويحدج فى جزمته اللبادية ويزنخر . وقد أحجم فى البداية عن الجدال ، غير أنه بدافع من حميته الغضبى فى الدفاع عن كاليدين ، طلب من ابنه أن يغلق فمه كعادته فى الأيام السالفة ، حتى أنه راح يضرب الأرض برجله العرجاء .

— لا تحاول أن تفرض على آراءك ! لقد جاء كاليدين الى تاتارسكى فى الخريف . وقد عقدنا اجتماعاً فى الساحة ، واعتلى هو طاولة وراح يتكلم مع الشيوخ ، وكالانجيل تنبأ أن الفلاحين سيأتون وسوف تندلع الحرب ، وما لم نقرر ما ينبغى أن نفعله فسيجردوننا من كل شىء ويشرعون بالاقامة فى أرضنا . وكان قد أدرك منذ ذلك الحين أن الحرب ستندلع . وماذا تقولون فى ذلك يا أبناء العاهرات ؟ هل يعلم هو أقل مما تعلمون ؟ جنرال مثقف مثله ، وهو الذى قاد الجيش ، أتحسبون أنه يعلم أقل منكم ؟ ولكن الرجال فى كامينسكايا لغاطون غير مثقفين

مثلك ، يبثون القلق بين الناس . وبودتيلكوفكم هذا ! من هو؟ رئيس عرفاء ؟ آها ! رجل بمثل رتبتي . ذلك ما آل اليه أمرنا !

وراح غريغورى يناقشه دونما حماس . فقد كان يدرك مسبقاً موقف أبيه . وها قد برز فى الأمر عنصر جديد : فلم يكن بوسعه أن ينسى موت تشيرنتسوف ومذبحة الضباط الأسرى دون محاكمة ، أو يغفر فعلة المتسببين .

كان الحصانان يجران الزحافة طوال الطريق بسهولة . وكان جواد غريغورى المسرج مربوطاً الى الخلف . وكانت القرى والمرابع المألوفة لديه تطالعه طوال الطريق . وكان غريغورى طوال طريقه الى قريته يفكر بلا ترابط ولا هدف فى الأحداث الراهنة ، ويحاول جهده أن يشخص بعض معالم المستقبل . بيد أن ذهنه لم يشخص الى ما هو أكثر من الاستجمام فى البيت . «سأنعم ببعض الراحة عندما أعود ، ويكون جرحى قد التأم ، ومن ثم . . .» وقال وكأنه يهز كتفيه . «سوف نرى . فالزمن كفيل باجلاء الأمور» .

كانت الهموم التى سببتها الحرب قد سحقته . وود لو يدير ظهره الى العالم الكريه الذى استعصى عليه فهمه . كان كل شىء مضى معقداً متناقضاً . وكان من العسير تبين السبيل السوى ، فقد مادت الأرض تحت قدميه وكأنه واقف فى مستنقع ، وتشعب الطريق أمامه مسالك شتى وزايله الاحساس بالثقة من أنه قد اختار السبيل السوى . وكان قد مال الى جانب البلاشفة ، وجر آخرين وراءه ، ثم ما لبثت رغبته أن فترت ، وسرت البرودة الى قلبه . «ترى هل كان أزفارين على صواب اذا ؟ ومن عسانا نثق به ؟» . ولكنه عندما فكر أنه سرعان ما سيحين الوقت لاستعمال المجاريف والعربات فى الربيع ، ونسج معالف

الصفصاف ، وحينما تكون الارض جرداء وجافة سيكون بوسعه أن ينطلق الى السهب ، وتمسك يداه الملهوفتان الى العمل بقبضة المحراث ، ويشعر به ينبض ويرتج كشىء حى ، عندما تذكر أنه سيتنسم عما قريب الشذى العبق للعشب النامى والتربة ذات الشميم الندى التى عزقتها سكة المحراث والتى ما تزال تفوح منها رائحة الثلج الذائب ، غمر قلبه الدفء . وتاق الى تنظيف زريبة الماشية ، وتجميع القش ، واستياف شميم نبات البرسيم الذابل ، وحشيش الأرائك ، ورائحة الروث الحريفة . وأحس برغبة الى السلام والدعة ، وهكذا أعربت عيناه القاسيتان عن سرور خفى عندما تطلع الى السهب ، والجياد ، والى ظهر أبيه . وذكره كل ذلك بحياته السابقة التى يكاد يلفها النسيان : الرائحة المنبعثة من فروة أبيه ، المظهر الأليف للحصانين غير المحسوسين ، وصياح ديك فى مزرعة . لقد بدت الحياة هنا ، فى هذا المنتجع ، حلوة وثرة تبعث فى النفس الخدر .

بلغا تاتارسكى وشيك المساء فى اليوم التالى . وراح غريغورى يتطلع الى الدون من التل : هناك كانت الغياض تلفها فروة قاتمة من القصب ، وهناك كانت أشجار الحور الذابلة ، غير أن المعبر على الدون لم يعد حيث كان بالأمس . القرية ، الحقول وبيوتها ، الكنيسة ، الساحة . . . وحينما ثبت عينيه على منزله اندفع الدم الى رأسه ، وغمره طوفان من الذكريات . ولاحت مغرفة البئر فى الفناء كأنها تومئ اليه بذراعها المرفوعة المصنوعة من الصفصاف :

وقال له بانتلاي مبتسماً وهو يلتفت اليه :

— ألا تتوجع عيناك لهذا المنظر ؟

فأجاب غريغورى دون أن يحاول اخفاء مشاعره :

— بلى . . . وأى توجع !

وتنهد العجوز يملؤه شعور الرضا وقال :

— ما أحب البيت فى عين صاحبه !

ويمم سيره الى وسط القرية . وجرى الحصانان بخفة حدر التل ، وانزلقت الزحافة على الطريق ، تتواثب من عثرة الى عثرة . وعلى الرغم من أن غريغورى قد فطن الى قصد أبيه ، الا أنه بادره بالسؤال :

— علام تسوق خلال القرية ؟ اتجه شطر شارعك .

فالتفت بانتلاي بعينه وقال مبتسماً خلل لحيته :

— شهدتُ ابنى الاثنين يذهبان الى الحرب كفوزاق أنفار ، ولكنهما شقا طريقهما الى مراتب الضباط . ألا تعتقد أن من حقى أن أفخر بالمرور بابنى خلال القرية ؟ فلينظروا وليملأهم الحسد ! انه بلسم لفؤادى يا ولدى .

وفى الشارع الرئيسى صاح بالحصانين ، ومال بجسمه الى خارج العربة وهوى بسوطه على خاصرتيهما ، واذ أدرك الحصانان أنهما صارا قريبين من البيت ، جريا بخفة وحيوية كأن المئة والأربعين فرسخاً التى قطعاها لم تنل منهما شيئاً . وانحنى لهما المارة من القوزاق ، وجعلت النسوة يحدقن من تحت راحات أيديهن من الأفنية والنوافذ ، وتفرق الدجاج يقوقى فى الطريق . وجرى كل شىء على ما يرام .

وشقا طريقهما خلل الساحة . وتطلع جواد غريغورى بنظرة جانبية الى حصان آخر مربوط الى سياج موخوف ، فزنخر ، وشمخ برأسه . ولاح لهما منظر أقصى القرية وسقف منزل أستاخوف . الا أن حادثاً ما قد وقع لهما فى أول ملتقى طريق . اذ ان خنزيراً صغيراً كان يجرى عبر الطريق ، فقد صوابه ووقع تحت حوافر الحصانين ، وتدحرج ، وجعل يقبع ويزحر محاولاً النهوض

بظهره الكسير . فصاح بانتلاي بروكوفيتش وهو يذيق الخنزير طعم سوطه :

— فليأخذك الشيطان !

وكان الخنزير لسوء الحظ ملك أنيوتكا أرملة افونكا أوزيرف ، وهى امرأة شكسة اللسان . فهرعت من حوشها وراحت تصب سيلاً من اللعنات جعلت بانتلاي بروكوفيتش يكبح بالحصانين ويستدير فى مقعده . ثم صاح :

— امسكي لسانك أيتها الحمقاء ! فيم زعيقك ؟ سوف نعوضك عن خنزيرك الأجرب .

فراحت تصرخ ملوحة بيديها :

— أنتَ يا روح الشر ! . . أيها الشيطان ! أنت نفسك الأجرب ، أنت أيها السلوقى الأعرج ! لسوف أشتكى عليك عند الأتمان فى الحال ! وسوف أعلمك كيف تسحق حيوان أرملة مسكينة !

واذ سمع بانتلاي بروكوفيتش ما فيه الكفاية ، نق وقد استحال لونه أزرق :

— يا لفمك القذر !

فردّت عليه المرأة بعنف :

— أيها التركى اللعين !

ورفع بانتلاي صوته : — أيتها العاهرة ، يا ابنة مئة شيطانة ! ولكن أنيوتكا أوزيروفا لم تكن أبداً لتعوزها سلاطة اللسان . فجعلت تغوق مثل العقعق :

— أجنبي ! قواد ! لصّ ! من سرق مجرفة ؟ من يسعى وراء المغيبات ؟ *

---

* الزوجات اللواتى يغيب أزواجهن . المترجمون .

ورد عليها العجوز :

— سألقنك درساً بهذا السوط ، أيتها المومس ! اغلقي فمك !

ولكن أنيوتكا نطقت بشيء بلغ من البذاءة درجة جعلت بانتلاي بروكوفيتش الذى رأى وسمع الكثير فى حياته ، يحمر من الحرج ، وراح العرق يتصبب منه .

— امضِ ! لماذا تكلمها ؟ — قال غريغورى ذلك مغضباً حين شرع حشد يتجمع وينصت باهتمام الى هذا التبادل العارض بالتحايا بين ميليخوف العجوز والأرملة الشريفة أوزيروفا .

فقال بانتلاي بروكوفيتش :

— يا له من لسان ! يطول بزوج من الأعنة ! — وبصق بانخذال ، ولفح الحصانين بالسوط وكأنه يسعى لدهس أنيوتكا أيضاً .

وعندما بلغا المنعطف التالى التفت حوله بحذر ، وقال بألم :

— ما أقذع شتائمها . . . أية شيطانة ! فلتنتفخى وتنفجرى ، أيتها القحبة السمينة ! كان ينبغى أن تسحق كما سحق خنزيرها ! ان هذه القحبة تستطيع أن تسلخ لحمك من عظمك بلسانها !

وأخذت صفاقات منزلهم الزرق تدنو منهما بسرعة . وفتح البوابة بيوتر حاسر الرأس مرتدياً ثوباً بلا حزام . ولاح وميض لعصابة بيضاء ، ثم هرعت دونيا تنزل الدرجات متألقة العينين :

وقبّل بيوتر أخاه وتطلع الى عينى غريغورى :

— هل أنت سالم غانم ؟

— أصبت بجرح .

— أين ؟

— قرب غلوبوكايا .

— أى حاجة لوجودك هناك ؟ كان ينبغى أن تعود الى البيت منذ زمن .

وصافح غريغورى بحرارة وود ، ثم سلّمه الى دونيا . فطوق غريغورى كتفى أخته المكتملين وقبلها من شفتيها وعينيها ، ثم خطا الى الوراء مندهشاً .

— عجباً ، دونيا ، الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يتعرف عليك ؟ ! أى فتاة غدوتِ ، كنت أحسب أنك ستكونين دميمة قبيحة .

وهم بأن يقرصها غير أن دونيا حالت دون ذلك بقولها :

— حذار ، حذار ، يا أخى ! — وجرت بعيداً وهى تبتسم مثل ابتسامة غريغورى التى تتكشف عن أسنان ناصعة .

وجاءت ايلينشنا بالطفلين تحملهما على ذراعيها ، وهرعت ناتاليا تجرى أمامها . كانت زوجة غريغورى قد تفتحت وحسنت بصورة مدهشة . وكان شعرها الأسود البراق الذى سواه المشط ناعماً ، والتأم فى عقصة كبيرة من الخلف ، قد زين وجهها المتورد الفرح . والتصقت بغريغورى وجعلت تتمسح بشفتيها على وجنتيه وعذاريه عدة مرات بارتباك ، ونتشت ابنها من ذراعى ايلينشنا ، ورفعته أمام زوجها . وقالت بزهو وسرور :

— أنظر أى ولد لطيف لديك !

ودفعتها ايلينشنا جانباً بانفعال :

— دعينى ألقى نظرة على ولدي أنا !

وأمسكت برأس غريغورى ، وقبلت جبينه ، ومسّدت وجهه بيدها الخشنة ، وهى تبكى من شدة الانفعال والفرح .

— وهذه بنتك يا غريشا ! هاك خذها !

ووضعت ناتاليا البنت المتدثرة بشال فى ذراع غريغورى

الأخرى ، ولم يدر من شدة انفعاله الى أيهم ينظر : ناتاليا ، أو أمه ، أم طفليه . وكان الطفل بعينيه الشكستين وحاجبيه الأجعدين ، قد صب فى قالب آل ميليخوف : نفس العينين المستطيلتين السوداوين ، بله الحزينتين ، والبياضين الجاحظين الأزرقين ، وخط الحاجبين العريض ، والبشرة السمراء . ودس بكفه الصغيرة المتسخة فى فمه وحدج أباه بعناد ونفور . ولم ير غريغورى سوى عينى ابنته الصغيرتين السوداوين اليقظتين ، فقد كانت بقية وجهها ملفعة بشال .

وخطا نحو الدرجات وهو يحملهما على ذراعيه ، بيد أن حرقة ألم سرت فى ساقه . وتبسم بزهو وخجل وقال :

— خذيهما يا ناتاليا ، والا عجزت عن ارتقاء الدرجات .

كانت داريا واقفة وسط المطبخ ، تصفف شعرها ، ثم تبسمت وتقدمت نحو غريغورى متبخترة ، وأغمضت عينيها الضاحكتين وضغطت شفتيها النديتين الدافئتين على شفتيه :

ورفعت قوسى حاجبيها النحيفين بمجون وقالت :

— ان فى مذاقك طعم التبغ !

— دعنى ألقى نظرة أخرى عليك ، يا حبيبى ، يا ولدى !

فتبسم غريغورى وجعل قلبه يخزه عندما وضع خده على كتف أمه .

وفى الفناء كان بانتلاي بروكوفيتش بقبعته المجللة بالأحمر وحزامه الأحمر يعرج حول الزحافة ، ويفك عدة الجوادين . وكان بيوتر قد قاد جواد غريغورى الى الاسطبل ، وحمل سرجه الى البيت ، وطفق يقول شيئاً لدونيا التى رفعت صفيحة برافين من الزحافة .

خلع غريغورى فروته ومعطفه وعلقهما على حافة السرير ، ثم مشط شعره وجلس على مصطبة ونادى ولده :

— تعال الىَّ يا ميشا ! ماذا ، ألست تعرفنى ؟

فراح الطفل يحجل اتجاهه وكفه ما تزال فى فمه ، ولكنه توقف عند المائدة . وتطلعت أمه اليه بزهو وولع وهى ازاء الموقد . وانحنت وهمست بشىء فى أذن ابنتها ، ودفعتها برفق الى الأمام :

— اذهبى !

ورفعهما غريغورى سوية ، وأجلسهما على ركبتيه وجعل يخاطبهما :

— ألا تعرفانني أيتها البندقتان ؟ بوليا ، ألا تعرفين أباك ؟

فقال الولد وقد شعر بمزيد من الثقة لوجود أخته معه :

— أنت لست أبانا .

— من أنا اذاً ؟

— واحد من القوزاق .

فأطلق غريغورى ضحكة عالية :

— هكذا اذاً ! فأين هو أبوكما ؟

فقالت البنت فى ثقة :

— انه فى الجيش .

كانت أنشط الاثنين . وتدخلت ايلينشنا متصنعة الغضب ، وهى تبتسم لغريغورى :

— هذا صحيح أيها الطفلان ، لقّناه درساً ، فقد كان بعيداً طوال هذه السنوات الثلاث ويظن الآن أن كل شخص ينبغى أن يعرفه بعد أن عاد آخر الأمر الى البيت ! حتى زوجتك سوف تهجرك عما قريب ! فلقد كنا نبحث عن رجل لها !

والتفت غريغورى الى زوجته وقال مازحاً :

— ما معنى هذا يا ناتاليا ؟

فاحمرت وجنتاها خجلاً ، ولكنها سيطرت على ارتباكها ، وتقدمت نحوه وجلست الى جانبه . وجعلت تتشربه بعينيهـا الطافحتين بالسعادة ، وتمسد ذراعه الجافة السمراء بيدها الخشنة الدافئة .

قالت ايلينشنا :

— داريا ، أعدى المائدة !

فضحكت داريا واستدارت على طريقتها الممراحة تجاه الموقد وقالت :

— ان له زوجة !

لقد كانت كعهدها رشيقة أنيقة . كان جورباها الصوفيان البنفسجيان ملتصقين بشدة على ساقيها الجميلتين ، وكان حذاؤها يلائم قدميها وكأنهما قد صنعا له . وكانت تنورتها ذات الكشكش ، الحمراء بلون توت العليق يشدها زنار ضيق ، وصدريتها مطرزة ناصعة البياض . وحول غريغورى عينيه الى زوجته ، ولاحظ أنها قد تغيرت بعض الشيء . لقد زينت نفسها بمناسبة عودته الى البيت : بلوزة من الساتان الازرق بكمين من الدانتيلا مشدودين عند المعصمين أبرزت جمال قوامها وارتفعت فوق ثدييها الكبيرين اللدنين ، وتنورة زرقاء ذات حاشية مطرزة مجعدة تشد على خصرها . وتطلع غريغورى الى ساقيها الجميلتين المكتنزتين ، وبطنها المشدود وعجيزتها الكبيرة ، وكأنها عجيزة فرس موفورة الغذاء ، وقال فى نفسه : «بوسع المرء أن يتبين القوزاقية من بين مئات النساء . فهى ترتدى الملابس لتظهر كل شيء ولسان حالها يقول : «انظر اذا شئت ، والا فلا !» ولكنك لا تستطيع أن تتبين الخلف من القدام للمرأة الفلاحة ، انها تبدو كما لو ارتدت كيساً . . .» .

فأحست ايلينشنا بنظرته ، وقالت مباهية :

— أنظر كيف ترتدى زوجات الضباط بيننا نحن القوزاق ! انهن يستطعن أن يضاهين نساء المدينة !

فقاطعتها داريا :

— كيف تستطيعين أن تقولى ذلك يا أمى ؟ أين نحن من بنات المدينة جمالاً ! أنا نادمة على ان أحد قرطى مكسور ، رغم أنهما لا قيمة لهما ، — قالت كلماتها الأخيرة بمرارة .

وضع غريغورى ذراعه على ظهر زوجته العريض وقال لنفسه لأول مرة : «انها لجميلة ، وبوسع كل انسان أن يرى ذلك . فكيف كانت تعيش بدونى ؟ أحسب أن القوزاق كانوا يجرون وراءها وربما جرت هى وراء واحد منهم . هب أنها فعلت ذلك !» . وعند هذه الفكرة غير المتوقعة وجب قلبه بعنف ، وأخذ يمعن النظر فى وجهها المتورد ، الذى يشع بدهان الخيار نضارة ، فتوردت وجنتا ناتاليا تحت نظرته المتفحصة ، وهمست وهى تكبت خجلها :

— فيم تنظر اليَّ هكذا ؟ أكنت مشتاقاً اليَّ ؟

— ماذا ، بالطبع !

وطرد عن ذهنه خاطرته المزعجة ، ولكنه أحس لحظة بعداء غامض لزوجته لا يكاد يعى معناه .

ودخل بانتلاي بروكوفيتش يتنحنح ، ورسم اشارة الصليب أمام الايقونة ، وقال وكأنه يقوقئ :

— حسناً ، أتمنى لكم مرة أخرى صحة طيبة !

فقالت ايلينشنا وهى تحدث جلبة بالملاعق :

— لله الحمد يا رجل ! هل تجمدت أوصالك ؟ لقد كنا بانتظارك . والحساء دافئ .

وفك المنديل الأحمر من رقبته وهو يدبدب بحزمتيه اللباديتين ، ثم نزع فروته ، ونفض قطرات الماء المتجمدة على لحيته وعذاريه ، وجلس جوار غريغورى وقال :

— لقد تجمدت بكليتى ، ولكننا كنا دافئين بما فيه الكفاية عند مرورنا بالقرية . فقد دهسنا خنزير أنيوتكا أوزيروفا . أمّا كيف جاءت تركض ، تلك العاهرة ! كيف راحت تعربد ! «سألقنك درساً» و«أنت كيت وكيت وكذا» و«أنت سرقت مجرفاً !» . الشيطان يعرف أى مجرف ؟ !

ذكر كل الصفات التى أطلقتها عليه أنيوتكا ، مغفلاً اشارتها الى كلمة «قواد» فقط . فضحك غريغورى وجلس أمام المائدة . وأنهى بانتلاي بروكوفيتش كلامه بحدة ليبرر موقفه فى نظر ابنه :

— لولا أن غريغورى كان معى لأذقتها طعم السوط ، فلم يكن ذلك بالظرف المناسب .

وفتح بيوتر الباب ودخلت دونيا تقود عجلاً لطيفاً بمقود . وهتف بيوتر وهو يدفع العجل برجله مغتبطاً :

— سوف نتناول فطائر بالقشطة فى عيد الباعوثة .

وبعد العشاء ، فتح غريغورى حقيبته العسكرية وراح يوزع .

— هذا لك يا أمى ، — قال ذلك وهو يقدم لها شالاً دافئاً .

فتناولت ايلينشنا الشال ونشرته على كتفيها منفعلة متوردة الوجنتين مثل الفتيات الشابات . وأمضت وقتاً طويلا تزهو بنفسها أمام المرآة حتى أن بانتلاي بروكوفيتش ثارت حفيظته فصاح :

— أيتها الحيزبون الشمطاء ، تختالين أمام المرآة ! باه !

— وهذه لك يا أبتى ، — قال غريغورى متعجلاً ، وهو

يزيح الغلاف عن قبعة فوزاقية جيدة ذات جبهة عالية وشريط أحمر متوهج .

فأجابه بلهجة متذمرة ناظراً حوله كأنه يخشى أن يأخذ أحدهم هدية ابنه :

— أطال الله عمرك ! لقد كنت بحاجة الى قبعة جديدة . ولم يوجد أى منها فى الحانوت طوال العام الفائت ، ولم يطب لى الذهاب الى الكنيسة بقبعتى القديمة . فهى لا تصلح الا فزاعة للغربان ، ولكننى واظبت على ارتدائها .

واستدار ليذهب أمام المرآة ليرى كيف تبدو عليه ، غير أنه لمح عينى ايلينشنا ، فدار فجأة على عقبيه وراح يعرج تجاه السماور . ووقف أمامه ليجرب قبعته ، حانياً قمتها بحبور الى أحد الجانبين . فالتفت اليه ايلينشنا :

— ماذا تفعل هناك أيها الأحمق العجوز ؟

فرد عليها بانتلاي :

— يا الهى ، أية امرأة حمقاء أنت ! ان هذا سماور ، وليس مرآة .

ثم قدم غريغورى لزوجته قطعة من القماش الصوفى تصلح تنورة ، وتلقى طفلاه أوقية من بسكويت العسل ، وداريا زوجاً من الأقراط الفضية ، ودونيا شيئاً يصلح كبلوز ، وبيوتر سكاير وتبغاً ، وفيما راحت النسوة يثرثرن حول هداياهن ، تخطر بانتلاي فى المطبخ كأنه أمير رافع صدره .

— هاك فوزاقياً رائعاً من كتيبة الحرس ! نال جوائز أيضاً ! نال الجائزة الأولى فى الاستعراض الأمبراطورى . سرجاً بجميع معداته ! هوذا أنا ! . .

ونظر بيوتر وهو يقضم شاربيه القمحيين الى أبيه باعجاب .

وتبسم غريغورى ، ثم أشعل الرجال السكاير ، وقال له بانتلاي وهو ينظر خلال النافذة بقلق :

— قص على بيوتر ماذا يحدث هناك ، قبل أن يشرع الاقارب والجيران بالمجيء .

فلوح غريغورى بيده :

— انهم يتقاتلون .

فسأله بيوتر فى الحال وهو يعتدل فى جلسته :

— أين هم البلاشفة الآن ؟

— قادمون من ثلاثة اتجاهات ، من تيخوريتسكايا ، ومن تاغانروغ ، ومن فورونيج .

— حسناً ، وما هو موقف لجنتك الثورية من ذلك ؟ لماذا يدعونهم يأتون الى ديارنا ؟ لقد عاد خريستونيا واليكسييفتش وقصّا لنا مختلف أفانين اللغو ، ولكننى لا أصدقهما . ان الأمر على غير ما يقولان .

— ان اللجنة الثورية لا حول لها . والقوزاق يفرون الى أهليهم .

— وهذا هو سبب جنوح الوضع الى جانب السوفييت ؟

— بلا شك .

ولاذ بيوتر بالصمت فيما نفخ على سيكارته ، ثم ألقى نظرة صريحة على أخيه :

— والى أى جانب تقف أنت ؟

— اننى أنشد حكومة سوفييتية .

فانفجر بانتلاي بروكوفيتش مثل البارود :

— الأحمق ! أفهمه أنت يا بيوتر !

فابتسم بيوتر وربت على كتف أخيه ، وقال :

— انه جامح مثل حصان غير مذلل . هن يستطيع أحد أن يفهمه ، يا أبتي ؟

فاستبد الغضب بغريغورى :

— ليس هناك من شيء يقال لى ! فأنا لست أعمى . ترى ماذا يقول رجال الجبهة فى القرية ؟

— ما شأن رجال الجبهة معنا ؟ ألم تدرك الى الآن مدى حماقة خريستونيا ؟ ماذا عساه يفهم ؟ ان الناس جميعهم تائهون ، ولا يدرون أى سبيل يسلكون . — وعض بيوتر شاربه وأردف : — انتظر لترى ماذا سيحدث فى الربيع ، أى حينما تبدأ المشاكل . . . فى الجبهة لعبنا دور البلاشفة ، أما الآن فقد حان الوقت للرجوع الى صوابنا . «اننا لا نبتغى الاستيلاء على ما يخص الآخرين ، ولكن عليكم ألا تمسّوا ما يخصنا» — ذلك ما يتعين على القوزاق أن يقولوه لكل من يأتى الى هنا للنهب . ان ما يحدث فى كامينسكايا لهو عمل شنيع . لقد فتحوا قلوبهم للبلاشفة وسوف يقتبسون نظامهم .

وقال أبوه :

— أعد النظر يا غريغورى . أنت لست أحمق ! ويجب أن تفهم هذا : القوزاقى هو قوزاقى دائماً . اننا لن نرضى بأن تحكمنا زمرة من الفلاحين الروس الحقيرين . وهل تدرى ماذا يقول الغرباء الآن ؟ يجب أن توزع الأرض كلها سواسية بين الجميع . فماذا تقول فى هذا ؟

— سنعطى أرضاً لأولئك الغرباء الذين كانوا يعيشون فى الدون منذ سنين .

ففرقع بانتلاي بروكوفيتش اصبعيه تحت أنف غريغورى المعقوف بصوت مرتفع وقال :

— ولا بوصة !

كان ثمة وقع خطوات على الدرجات فى الخارج ، ثم دخل أنيكوشكا ، وخريستونيا ، وايفان توميلين مرتدين قبعات من جلد الأرانب طويلة بصورة مضحكة . وهدر خريستونيا :

— مرحباً يا غريغورى ! ما رأيك يا بانتلاي بروكوفتش بشراب لنحتفل بقدومه ؟

فجفل العجل الوسنان عند الموقد على أثر صيحته ، وجعل يترنح على سيقانه التى ما زالت واهنة وينظر بعينين سوداوين مرتبكتين الى القادمين . وقذف لشدة فزعه شريطاً من البول على الأرض . فأوقفته دونيا بربتة على ظهره ، ومسحت البركة ووضعت اناء قذراً تحت الحيوان . وقالت ايلينشنا مغضبة :

— لقد أفزعت العجل ، أيها الطبل !

وصافح غريغورى القوزاق ودعاهم الى الجلوس . وسرعان ما وفد قوزاق آخرون من طرف القرية الآخر . كانوا يدخنون كثيراً أثناء حديثهم بحيث أن المصباح بدأ يخفق والعجل يختنق .

ولعنت ايلينشنا الضيوف وهى تطردهم فى منتصف الليل :

— لتصبكم الحمى ! اذهبوا الى الفناء ودخنوا يا مداخن ! انقشعوا ، انقشعوا ! فلم يذق ولدنا غريغورى طعم الراحة حتى الآن منذ سفرته . انقشعوا بحق الله !

١٤

كان غريغورى آخر من استيقظ فى الصباح التالى . لقد أيقظته زقزقة العصافير ، وكأنها فى عز الربيع على الأفاريز وخارج أطر النوافذ . وانسرب ضوء الشمس الذهبى خلل خصاص الصفاقات الخشبية . وكان ناقوس الكنيسة يدق لصلاة الصبح ،

فتذكر أنه يوم الأحد . ولم تكن ناتاليا بجانبه ، بيد أن الفراش الريش ما يزال يحتفظ بحرارة جسدها . فلا بد أنها استيقظت قبل قليل . فناداها :

— ناتاليا !

فدخلت دونيا :

— ماذا تريد يا أخى ؟

— افتحي النافذة ونادي ناتاليا . ماذا تفعل ؟

— انها تساعد أمى . سوف تأتى بعد قليل .

ودلفت ناتاليا وهى تضيق حدقتى عينيها جراء ضوء الغرفة . وفاحت من يديها رائحة العجين الطازج . فطوقها دون أن ينهض ، وضحك عندما تذكر الليلة .

— هل تأخرت فى النوم ؟

وتبسمت وتوردت وجنتاها وهى تخفى رأسها فى صدر غريغورى وقالت :

— آه — هه ! لقد استنزفت الليلة . . . قواى .

وساعدته فى تضميد جرحه ، ثم أخرجت خير بناطيله من الصندوق وقالت :

— هل سترتدى قمصلة الضباط مع الأوسمة ؟

فقال لها جزعاً :

— كلا ، لماذا ؟

ولكنها أصرّت :

— البسها بالله عليك ! ان الوالد سيسر بذلك . لماذا نلتها اذا كنت ستتركها فى الصندوق ؟

ورضخ الى توسّلاتها . ونهض ، واستعار موسى الحلاقة من أخيه ، وحلق ، ثم غسل وجهه ورقبته . سأله بيوتر :

— هل حلقت قفا رقبتك ؟

— أوه ، اللعنة على الشيطان ! لقد نسيت !

— حسناً ، اجلس وسوف أقوم بذلك .

وكوت رغوة الصابون البارد رقبته . ورأى فى المرآة أخاه يعمل بالموسى ولسانه متهدل من احدى زاويتى فمه كما هو الحال فى طفولته .

قال بيوتر مبتسماً :

— رقبتك هزلت ، مثل ثور بعد الحراثة .

— لن تتوقع أن يسمن المرء من زقوم الجيش .

ارتدى غريغورى قمصلته بشارات النائب الضابط وصف حاشد بالأوسمة ، وعندما تطلع فى المرآة المضببة لم يتبين نفسه الا بصعوبة : كان الذى يطالعه ضابط نحيل طويل ، أسمر كالغجرى .

فقال له بيوتر بانشراح دون أن يظهر أدنى أثر من الحسد فى صوته وهو يتأمل أخاه اعجاباً :

— لكأنك عقيد !

فأطربت الكلمات غريغورى بالرغم منه . ومضى شطر المطبخ . وتطلعت اليه داريا معجبة ، فيما هتفت دونيا :

— بفو ! كم تبدو عظيماً !

وهنا لم تقو ايلينشنا على حبس دموعها . فأجابت على مزاح دونيا وهى تمسح دموعها بستار متسخ :

— هل لديك أولاد مثله ، يا سفيهة ! ان لدىَّ ولدين وقد شقا طريقهما فى الحياة .

أما ناتاليا فلم تحول عينيها النديتين المولهتين عن زوجها اطلاقاً . ورمى غريغورى معطفه على كتفيه وخرج الى الفناء .

ولاقى صعوبة فى النزول على الدرجات بسبب ساقه الجريحة . «سأضطر الى استعمال العصا» . قال ذلك فى دخيلته وهو يتشبث بالحاجز . لقد أخرجت الرصاصة فى ميليروفو ، غير أن فتحة الجرح قد قلصت الجلد كثيراً فلم يكن بمقدوره أن يثنى ساقه بصورة طبيعية .

كانت القطة تتشمس على افريز جدار البيت . وكان الثلج يذوب فيتجمع ماؤه عند الدرجات . وأخذ غريغورى يجيل بصره حول الفناء بتمعن وحبور . فعند الدرجات تماماً يستوى عمود ثبت فى قمته عجلة . لقد كان هناك مذ كان طفلاً ، كانت النسوة يستعملنه . فى المساء كن يقفن فى أعلى الدرجات ويضعن أوانى الحليب عليه ، وأثناء النهار القدور والآنية المنزلية لتجف . ولفتت نظره بعض التغييرات فى الفناء : لقد طلى بـــاب مخزن الحبوب بالطين الأحمر بدلاً من الدهان ، وأعيـــد تسقيف السقيفة بقش الجويدار وهو لما يزل أصفر بعد ، وبدت كومة الأوتاد أصغر من عهده بها ، ولربما استعمل بعضها فى اصلاح السياج . وعلا قبو المؤونة الأرضى رماد أزرق ، وكان ثمة ديك أسخم كالزاغ تحيط به عدة دجاجات صغيرات واقفاً فوقه رافعاً احدى ساقيه وكأنه بردان . واستقرت أدوات الحقل تحت السقيفة بمنجى من جو الشتاء ، وقد برزت الأطر الجانبية للعربات مثل الأضلاع والتمعت بعض الأجزاء المعدنية للآلة الحاصدة فى أشعة الشمس التى انسلت خلل ثقب فى السقف . وكان ثمة أوز مقرفص على كومة من الروث حذاء الاسطبل ، وقد شزر ذكر أوز هولندى ذو عرف ، غريغورى بكبرياء عندما مر يعرج .

وبعد ان تفرّج على كل هذه الثروات عاد الى المنزل ،

وفاحت من المطبخ رائحة طيبة من الزبدة الساخنة والخبز الحار . كانت دونيا تنظف بعض التفاح المخلل على صفيحة مزخرفة فألقى نظرة عليه وسألها بلهفة مفاجئة :

— هل من بطيخ مملح ؟

فقالت ايلينشنا منادية :

— انزلي يا ناتاليا وأتى له بشيء منه .

وعاد بانتلاي بروكوفيتش من الكنيسة . وقسم الرقاقة تسعة أقسام (وقد ترك القسم الناقص فى الكنيسة) ، لكل فرد من أفراد العائلة ، ووزعها على المائدة . ثم جلسوا يفطرون . وكان بيوتر هو الآخر قد تأنق لهذه المناسبة ، وقد دهن شاربيه بشيء ما ، وجلس جوار غريغورى ، وقبالتهما جلست داريا توازن نفسها على حافة مقعد . وقد انسكبت على وجهها الوردى المتألق حزمة من أشعة الشمس ، فضيقت حدقتى عينيها وخفضت بامتعاض القوسين الأسودين لحاجبيها المشعين . وأطعمت ناتاليا الطفلين قرعاً مشوياً ، وهى تبتسم بين الحين والآخر كلما تطلعت الى غريغورى . وجلست دونيا الى جانب أبيها ، بينما اتخذت ايلينشنا مقعدها فى آخر المائدة قرب الموقد .

تناولوا وجبة شهية كعهدهم أيام الأعياد . وقد أعقبت حساء الكرنب مع لحم الضأن ، شعرية من صنع البيت ، ثم تلا ذلك لحم الضأن ، ودجاجة ، ومرق كراع الخروف ، وبطاطا مقلية ، وعصيدة ذرة بالزبدة ، وشعرية بالكرز المجفف ، وفطائر بالقشطة الخاثرة ، وبطيخ مملح . ولم ينهض غريغورى بعد هذه الوجبة الثقيلة الا بصعوبة . فاستلقى على السرير بعد ان رسم اشارة الصليب وهو يتنفس بمشقة . ولم يزل بانتلاي منكباً على عصيدته ، وقد عمل فيها حفرة بعد أن سطحها ، وكانوا

يسمونها «بالبئر» ، وصب الزبدة السائلة المضمخة بالعنبر فيها ، ثم طفق يتناول العصيدة الدسمة بملاعق متتالية . وجلس بيوتر الذى يحب الأطفال كثيراً ، يطعم ميشا ملاطفاً اياه ويلطخ وجنتى الطفل وأنفه باللبن الحامض .

— لا تكن سخيفاً يا عم !

— لم لا ؟

— لماذا تفعل ذلك ؟

— لم لا ؟

— سأخبر أمى .

— ولم ؟

والتمعت عينا ميشا الميليخوفيتان الشكستان بغضب وترقرق الدمع فيهما من الغيظ . ومسح أنفه بكفه وجعل يصرخ وقد يئس من اقناع بيوتر بالكلام اللطيف :

— لا تفعل ذلك ، يا غبى ! يا أحمق !

ولم يكن من بيوتر الا أن انفجر ضاحكاً ، ومضى يطعم ابن أخيه من جديد ، ويدس ملء ملعقة تارة فى فمه وأخرى فى أنفه . فاعترضته ايلينشنا قائلة :

— أنت أشبه بالطفل !

وجلست دونيا الى جانب غريغورى وقالت له :

— ان بيوتر ما هو الا أحمق كبير ليس الا ! انه يسعى دائماً وراء ألاعيب جديدة . قبل أيام خرج مع ميشا الى الفناء ، وكان الولد يلح على الخروج ، فسأله : «عمى ، هل بامكانى أن أتبول عند الدرجات ؟» ولكن بيوتر قال له : «كلا ، يجب ألا تفعل ذلك . اذهب أبعد منها بقليل» فجرى ميشا بعض المسافة وقال «هنا ؟» . «كلا ، كلا ، اجر الى مخزن الحبوب» .

ومن مخزن الحبوب أرسله الى الاسطبل ، ومن الاسطبل الى ساحة درس الحبوب . لقد ترك الولد المسكين يجرى ويجرى حتى فعلها فى سرواله . ولم يكن من ناتاليا الا أن تنقض عليه !

ورنّ صوت ميشا الناعم مثل الجرس :

— دعنى أطعم نفسى !

فرفض ذلك بيوتر بحركة مازحة من عذاريه :

— أوه كلا ، يا ولدى . سوف أطعمك أنا .

— سأطعم نفسى بيدى .

كان غريغورى يستمع الى بيوتر وميشا مبتسماً ، ولف لنفسه سيكارة . ثم تقدم نحوه أبوه . وأسر له :

— أفكر فى الذهاب الى فيشينسكايا اليوم .

— لماذا ؟

وتجشأ بانتلاي بروكوفيتش وقال وهو يمسد لحيته :

— لديَّ بعض الشغل مع السراج ، كنت قد تركت عنده نيرين ليصلحهما .

— هل ستعود اليوم ؟

— بالطبع . سأكون هنا فى المساء .

وبعد فترة استراحة ، أسرج العجوز الفرس ، التى عميت ذلك العام ، وشد اليها عريش الزحافة ، ثم انطلق بها . وبلغ فيشينسكايا فى غضون ساعتين أو نحوهما . ومضى الى دائرة البريد ، ثم الى السراج وأخذ النيرين . ثم مضى قاصداً أحد معارفه القدماء وهو عرّابه يعيش جوار الكنيسة الجديدة . فألح عليه الرجل ، وهو مضياف كريم ، بالبقاء حتى العشاء . وسأله وهو يصب شيئاً ما فى قدح :

— كنت فى دائرة البريد ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفيتش بالايجاب وهو يحدق بدهشة فى القنينة ويتشمم الهواء مثل سلوقى يسعى فى أثر حيوان .

— اذاً ، فقد سمعت بالخبر ؟

— الخبر ؟ كلا ، لم أسمع شيئاً . ما هو ؟

— كاليدين ، أليكسي ماكسيموفيتش كاليدين ، قد انتقل الى جوار ربه .

فاستحال وجه بانتلاي أخضر بشكل ملحوظ ، وقال وقد نسى القنينة المشتبه فيها ورائحتها : «ماذا تقول ؟» ، ورمى بنفسه الى الوراء فى كرسيه . فقال له مضيفه وهو يطرف مكتئباً :

— لقد وصلنا الخبر بواسطة التلغراف بأنه أطلق النار على نفسه قبل بضعة أيام فى نوفوتشيركاسك ، وهو الذى كان الجنرال الكفوء الوحيد فى كل الاقليم . يا لشهامة الرجل ! لم يكن ليسمح بأى عار يحل بالقوزاق !

فسأله بانتلاي بشرود ، وهو يبعد القدح الذى قدم اليه :

— مهلاً ! وما الذى سيحدث بعد الآن ؟

— الله أعلم . ان أياماً سوداً ستأتى . فالمرء لا يطلق الرصاص على نفسه فى الأوقات الطيبة .

— ما الذى دعاه الى ذلك ؟

فقال مضيفه ، وهو رجل متين البنية ، ملوحاً بيده فى غضب :

— لقد تخلى عنه رجال خط الجبهة ، وأفسحوا الطريق للبلاشفة بالمجيء الى الاقليم ، وهكذا انتهى أتماننا . انى أشك فى العثور على رجل مثله . من سيحمينا ؟ لقد شكلت لجنة ثورية أو ما اليها فى كامينسكايا ، مع قوزاق من خط الجبهة مشتركين فيها . وهنا . . . هل تناهى الى سمعك ؟ لقد

جاء أمر من كامينسكايا يقضى بالتخلص من الاتمانات وانتخاب اللجان الثورية بديلاً عنهم . وبدأ الفلاحون يرفعون رؤوسهم . وأولئك النجارون والحدادون والساعون وراء الوظائف كلهم . . . محتشدين فى فيشينسكايا مثل البرغش فى المرج .

لبث بانتلاي بروكوفيتش حانياً رأسه الأشيب وقتاً طويلاً . وعندما صعد نظره بدت عليه الصرامة والقسوة :

— ما هذا الذى عندك فى القنينة ؟

— كحول . جاء به قريب لى من القفقاز .

— حسناً ، صبه يا صديقى . فلنشرب نخب ذكرى أتماننا الراحل . عسى أن تفتح ملكوت السماوات أبوابها له !

وشربا . وأحضرت ابنة رب المنزل الطعام ، وهى فتاة طويلة نمشاء . وتطلع بانتلاي الى الفرس التى ملت الوقوف أمام الزحافة ، غير أن المضيف أكد له قائلاً : «لا تقلق على الفرس . سوف أرى فيما اذا أطعمت ورويت» .

وسرعان ما نسي بانتلاي بروكوفيتش فرسه وكل شىء فى الدنيا جراء الحديث المحتدم وبتأثير القنينة . وراح يتحدث بكلام لا رابط له عن غريغورى ، وخاض نقاشاً مع مضيفه الثمل ، وظل يناقشه ولكنه نسي بالضبط موضوع الحديث . وكان المساء قد حل عندما نهض على قدميه ، وعقد العزم على التوجه الى البيت متجاهلاً الدعوة لتمضية الليل هنا . فشد ابن صديقه الفرس الى الزحافة ، وساعده عرّابه فى الصعود اليها . ورأى صديقه أن يرافقه الى خارج القرية . فرقدا سوية فى قعر الزحافة وقد شبكا اذرعهما حول بعضهما البعض . وعلقت زحافتهما فى بادئ الأمر بمحور البوابة ، ثم راحت تعلق بكل شىء ناتئ حتى بلغا السهب . وهناك تفجرت الدموع من عينى عرابه وسقط

بلا عمد من الزحافة . ولبث راكعاً على الأربع وقتاً طويلاً ، وهو يلعن ، عاجزاً عن النهوض على قدميه . ولفح بانتلاي الفرس بالسوط ليحثها على الجرى ، ولم يعد يرى صديقه يزحف فى الطريق وأنفه منغرس فى الثلج ، ويتوسل قائلاً وهو يضحك بصوت أجش باد عليه الحبور :

— كف عن الدغدغة . . . أرجوك أن تكف عن الدغدغة !

وانطلقت الفرس فى جرى أعمى يحثها السوط على ذلك . وسرعان ما مال سيدها الى الوراء وارتمى رأسه على جدار العربة وقد غلبه خدر الشراب ، ولفه الصمت . وصادف أن سقط العنان تحته ، فمضت الفرس تسير سيراً وئيداً على غير هدى . وحادت فى أول مفرق عن الطريق السوى وسارت باتجاه قرية صغيرة . وبعد بضع دقائق ضلت هذا الطريق أيضاً . واتجهت شطر السهب الطلق ، وجنحت فى مسار ثلجى عميق عند غابة ، وانزلقت فى حفرة . وعثرت الزحافة بشجيرة ، فتوقفت . وأيقظت الهزة العجوز لحظة . فرفع رأسه وجعل يصيح بصوت أجش : «دى . . . أيتها الشيطانة . . .» ثم ما لبث أن رقد من جديد .

تحركت الفرس واجتازت الغابة دونما أذى ، وشقت طريقها بنجاح حذر ضفة الدون واتجهت صوب القرية التالية تجذبها رائحة الدخان الذى ساقته الريح الشرقية .

وعلى مبعدة نصف فرسخ من القرية أو نحوه ثمة فجوة بالقرب من ضفة النهر اليسرى . وحول الفجوة تنبع عيون من الضفة الرملية ، ولا يتجمد الماء هنا بتاتاً ، حتى فى عز الشتاء ، انما يركد فى بركة عريضة نصف دائرية . ويحيد الطريق المحاذى للنهر عن الفجوة بحذر ، مستديراً استدارة حادة الى أحد الجانبين . وفى أيام الربيع عندما تصب مياه الحقول فى طوفان هائل خلال

الفجوة الى الدون ، تنشأ فيها دوامة هادرة . ويرقد سمك الشبوط طوال الصيف فى الأعماق قرب أكوام الخشب الذى تجرفه المياه من الضفة .

وقادت الفرس العجوز خطواتها العمياء نحو حافة البركة اليسرى . وعندما كانت على بعد حوالى خمسين خطوة انقلب بانتلاي وفتح عينيه قليلاً . ومن عتمة السماء تطلعت اليه النجوم التى تحكى الكرز الفج الأخضر المائل الى الصفرة . «الليل . . .» همهم بذلك ساهماً وجرّ الأعنة بقوة . وصاح فى الفرس :

— الآن ! سوف ألقنك درساً ، أيتها الشيطانة العمياء !

وانطلقت الفرس تهذب . وبلغت منخريها رائحة الماء القريب . وجعلت ترهف أذنيها ، وتلتفت بعينها العمياء اتجاه سيدها فى ارتباك . وعلى حين غرة بلغ أذنيها صوت ارتطام الماء المدوم . فاستدارت الى أحد الجانبين وهى تزنخر بوحشية ، وحاولت التراجع . وخشخش الجليد نصف الذائب عند حافة البركة تحت حوافرها بصوت خافت ، وتكسرت حافة الثلج . فأطلقت زنخرة تنم عن هلع مميت . وقاومت برجليها الخلفيتين بكل قواها ، بيد أن قائمتيها كانتا قد انزلقتا فى الماء ، وراح الجليد الرقيق يتكسر تحت حافريها الخلفيين . وانزلق بها الجليد منشرخاً مقرقعاً . واذ ابتلعت البركة الفرس ، راحت ترفس باحدى ساقيها الخلفيتين وهى تعانى سكرات الموت ، فضربت عريش الزحافة . وفى تلك اللحظة بالضبط ، هجس بانتلاي أن الأمر ليس على ما يرام فقفز من الزحافة وكبا الى الوراء ورأى ظهر الزحافة يرتفع ، كاشفاً عن المزلاقين اللماعين فيما غطست المقدمة تحت ثقل الفرس ، ثم ما لبثت أن انزلقت بعيداً فى الأعماق الخضر القاتمة . وأطلق الماء المختلط بكسر الثلج ، خريراً

خافتاً وأرسل موجة كادت أن تبلغ قدميه . ولكنه انكفأ الى الوراء بخفة عجيبة ووثب على قدميه ، وجعل يزأر :

— النجدة أيها الناس الطيبون ! اننا غارقون !

وطار من رأسه الشراب وكأنه قد طرق بمطرقة ، وجرى نحو البركة . كان الجليد المتكسر حديثاً ذا لمعان شديد . وساقت الريح قطع الجليد فوق البركة الداكنة نصف الدائرية ، وهزت الأمواج أعرافها الخضر ودمدمت . وخيم حوله صمت القبور . وكانت أنوار القرية القصية تعكس ضوءاً أصفر خلل العتمة . وتوهجت النجوم تتراقص فى مخمل السماء مثل حبات قمح كبيرة خرجت لتوها من المذراة . وأثار النسيم الثلج من الحقل ، فتطاير هباباً ذا حفيف ، وتساقط فى أعماق البركة الداكنة . ثم تصاعد البخار من البركة بعض الشىء وما لبث أن عادت داكنة مفزعة خادعة .

أدرك بانتلاي أن الصياح بات الآن عقيماً لا يجدى فتيلاً . وتطلع حواليه ، فقطن الى أين أدى به ثمله الأخرق ، وجعل يرتعد مغضباً على نفسه وعلى ما حدث . وكان سوطه لما يزل بيده . فقد قفز به من الحافة . وأخذ يلفح ظهره بالسوط وهو يلعن ، ولكنه لم يشعر بأيما ألم ، لأن فروته السميكة خففت من وطأة الضربات ، وبدا من غير المعقول أن يخلع فروته لمجرد الاستمتاع بالضرب . ولكنه جز لحيته ملء قبضته من الشعر ، وجعل يحصى فى ذهنه خسارته : المشتريات التى فقدها ، ثمن الفرس ، والزحافة ، والنيرين ، وراح يلعن بجنون ثم تقدم أقرب فأقرب نحو البركة .

وقال بصوت منتحب مرتجف ، موجهاً كلامه الى الفرس الغارقة : «أيتها الشيطانة العمياء . . . أيتها القحبة ! أغرقت

نفسك وكدت أن تغرقيني معك ! أين مضت بك الروح الشريرة ؟ سوف يسرجك الشياطين ويسوقونك ، ولكن لن يكون لديهم ما يسوقونك به ! هاك ، خذى السوط أيضاً !» ولوح بالسوط ذى اللون الكرزى بيأس حول رأسه ورمى به وسط البركة .

فلطم السوط الماء وفتح فيه ثغرة ، ثم اختفى فى الأعماق .

١٥

بعد النصر الذى أحرزه كاليدين على القوات القوزاقية الثورية ، هرعت اللجنة الثورية العسكرية لمنطقة الدون التى أجبرت على الفرار الى ميليروفو ، الى ارسال البيان التالى الى قائد العمليات القائمة ضد كاليدين ورادا — المجلس الاوكرانى المعادى للثورة .

خاركوف ، ١٩ كانون الثانى ١٩١٨ . من لوغانسك ، رقم ٤٤٩ . الساعة ٢٠ : ١٨ .

تلتمس اللجنة الثورية لقوزاق الدون أن ترفعوا القرار التالى الى مجلس قوميسارية الشعب فى بتروغراد .

بناءً على قرار مؤتمر رجال خط الجبهة الذى انعقد فى كامينسكايا ، قررت اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية ما يلى :

١ — ان اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات مفوضى القوزاق والفلاحين والجنود والعمال ومجلس قوميسارية الشعب المنتخب من قبلها يجب الاعتراف بهما كسلطة حاكمة مركزية لجمهورية روسيا السوفييتية .

٢ — أن ينشئ مجلس سوفييتات مفوضى القوزاق والجنود والعمال فى اقليم الدون ، حكومة محلية .

ملاحظة : ان مسألة الأرض فى اقليم الدون ينبغى أن تحل من قبل هذا المجلس ذاته .

اثر تسلم هذا البيان ، أرسلت مفارز من الحرس الأحمر لمساعدة قوات اللجنة الثورية وكنتيجة لذلك قضى على قوات

العقيد تشيرنتسوف وأصبح وضع القوات الثورية فى منجى من الخطر . وانتقلت المبادأة الى أيدى اللجنة الثورية . وبعد احتلال زفيريفو وليخايا شنت مفارز الحرس الأحمر بقيادة سابلين وبتروف ، تدعمها رعائل قوزاقية تابعة للجنة الثورية ، هجوماً وأجبرت أعداءها على التراجع الى نوفوتشيركاسك .

على أنه حدث على مشارف تاغانروغ أن انهزمت قوات سيفرس أمام مفارز المتطوعين التى يقودها العقيد كوتيبوف ، فخسرت مدفعاً ، و٢٤ رشاشاً ، وسيارة مدرعة . وفى اليوم الذى انهزمت قوات سيفرس وأجبرت على التقهقر هب العمال فى معامل البلطيق فى تاغانروغ ، وطردوا طلبة الكلية العسكرية من المدينة .

ثم استجمع سيفرس قواته ، وشن هجوماً أجبر المتطوعين على التقهقر باتجاه تاغانروغ . وكان جلياً أن النجاح حليف الجيوش السوفييتية . فقد أحاطت بالبيض وبقية باقية من مفارز كاليدين من ثلاث جهات . وفى الثامن والعشرين من كانون الثانى أرسل كورنيلوف برقية الى كاليدين يخبره فيها أن جيش المتطوعين كان يخلى روستوف ويحرك صوب الكوبان .

وفى التاسعة قبل ظهر التاسع والعشرين عقدت جلسة استثنائية لحكومة الدون فى قصر الأتمان . كان كاليدين آخر من حضر . فغطس مغموماً فى كرسى وجر كومة من الوثائق اليه . كان وجهه شاحباً ذابلاً لطول سهاده ، وكانت ثمة ظلال زرق تحت عينيه القاتمتين الذاويتين ، وقد صبغت غشاوة من الذبول وجهه الكليل بالصفرة . تلا متمهلاً برقية كورنيلوف ، وتقارير أمراء الوحدات الذين كانوا يتلقون ضربات الجيش الأحمر شمالى نوفوتشيركاسك . وقال بكلال وهو يسوى رزمة من البرقيات باعتناء براحته العريضة البيضاء ، دون أن يرفع جفنيه الداكنين المنتفخين :

— ان جيش المتطوعين يتراجع ، وليس لدينا سوى ١٤٧ حربة ندافع بها عن الاقليم ونوفوتشيركاسك .

وطرف جفنه الأيسر ، وارتعشت زاويتا شفتيه المزمومتين بشدة . وأردف رافعاً صوته :

— ان وضعنا لا رجاء فيه . والأهالى لا يمكن أن نرتجى منهم العون ، فهم معادون لنا . وليست لدينا قوات ، ولم تعد المقاومة تجدى فتيلاً . فأنا لا أريد خسائر لا داعى لها ، ولا دماء تراق دونما جدوى . لذا أقترح أن نستقيل ونسلم السلطة الى غيرنا . ومن جهتى أنا ، فانى أقدم استقالتى كأتمان لجيش قوزاق الدون .

وعدل بوغايفسكى ، الذى كان ينظر خارج النافذة ، نظارتيه وقال دون أن يدير رأسه :

— وأنا أقدم استقالتى أيضاً .

— من البديهى أن تستقيل الحكومة بمجموعها . بيد أن المسألة هى : الى من نسلم السلطة ؟

فأجاب كاليدين بجفاف :

— الى مجلس دوما المدينة .

فقال كاريف عضو الحكومة متردداً :

— يجب أن نعلن ذلك بصورة رسمية .

وخيم صمت ثقيل بعض الوقت . وبدا صباح كانون الثانى الكئيب كليلاً وراء زجاج النوافذ المضببة . وغلف المدينة وشاح من الضباب والصقيع الأشيب ولاذت بصمت حالم . ولم يكن بوسع الاذن أن ترهف لنبض الحياة العادى . فقد طغى هزيم طلقات المدافع (صدى القتال قرب قرية سولين) على كل الأصوات وخيم فوق المدينة نذيراً غامضاً مبهماً .

وفى الخارج ، كانت الزيغان تنعب بحدة وغلظة . وقد حومت حول القبة البيضاء وكأنها تحوم حول فطيسة . وكسا ساحة الكاتدرائية ثلج جديد ليلاكى الظلال . وبين حين وآخر يمر عبرها شخص ما أو زلاجات وتخلف من آن لآخر آثاراً قاتمة خلفها . وهنا اقترح بوغايفسكى مبدداً الصمت المتـــوتر أن يصار الى اصدار وثيقة تقضى بتسليم السلطة الى مجلس دوما المدينة :

— يجب أن نجتمع سوية مع أعضاء مجلس الدوما حول هذه القضية .

— ما هو أنسب وقت للجميع ؟

— فيما بعد ، حوالى الرابعة .

وشرع أعضاء الحكومة يبحثون مسألة تسليم السلطة وموعد الاجتماع ، وكأنما سرهم أن يقطع حبل الصمت الثقيل . أمّا كاليدين فقد لاذ بالصمت ، وجعل ينقر الطاولة بأظفاره ببطء رتيب . ولاحت الكآبة والغشاوة على عينيه من تحت حاجبيه الأشعثين . وأحال القلق المطبق ، والنفور والاجهاد ، نظرته ، ثقيلة كريهة .

وكان أحد أعضاء الحكومة يتجادل مع زميل له بذلاقة لسان . فقاطعهما كاليدين بغيظ مكتوم :

— أوجزا أيها السيدان ، فالوقت قد أدركنا . فما كان لروسيا أن تهلك لولا اللغو الزائد . اننى أعلن عن استراحة أمدها نصف ساعة . فتدارسوا الأمر فيما بينكم و . . . دعونا نفرغ منه بالسرعة الممكنة .

ثم انسحب الى شقته ، وتجمع الآخرون جماعات صغيرة وراحوا يتناقشون بهدوء . وأشار أحدهم الى أن كاليدين كان يبدو

عليه المرض . فتناهت الى بوغايفسكى الذى كان واقفاً قرب النافذة ، الكلمات المهموسة التالية :

— ان الانتحار بالنسبة لرجل مثله هو المخرج الوحيد .

فانتفض بوغايفسكى وسار مسرع الخطى شطر شقة كاليدين . وعاد بعد قليل يصحبه الأتمان . لقد قررا أن يعقدا اجتماعاً مشتركاً مع مجلس دوما المدينة فى الساعة الرابعة بغية تسليم الوثيقة التى أقروها رسمياً والتى تقضى باعتزال الحكم . ثم نهض كاليدين . وتبعه الآخرون . وحينما كان كاليدين يودع أحد أعضاء الحكومة المسنين ، لاحظ يانوف يهمس لكاريـــــف ، فقال :

— ماذا هناك ؟

فارتبك يانوف ، وقال :

— ان أعضاء الحكومة — من غير القوزاق — يطالبون بتكاليف سفرهم . — فقطّب كاليدين وأجاب بخشونة :

— ليست لديَّ نقود . . . لقد سئمت كل شىء .

فأشار بوغايفسكى الذى كان يتسمع الى الحوار ، الى يانوف فيما كانا يتركان المحل :

— تعال الى غرفتى . وقل لسفيتوزاروف أن ينتظر فى الردهة .

وتركا المحل فى الحال بعد كاليدين الذى ابتعد مسرع الخطى مهدل الكتفين . وسلم بوغايفسكى فى غرفته يانوف صرة من النقود :

— هذه أربعة عشر ألفاً . أعطها لأولئك الناس .

وأخذ سفيتوزاروف الذى كان ينتظر يانوف فى الردهة ، النقود وشكره وبسم وجهه شطر الباب . وفى اللحظة التى كان يانوف يتناول معطفه من البواب ، تناهت الى سمعه جلبة على

السلم ، فتطلع الى الخلف . كان مولدافسكى مرافق كاليدين يجرى حدر السلم ويصيح :

— ايتوا بطبيب ! أسرعوا !

فرمى يانوف بمعطفه وهرع اليه . وأحاط المرافق القائم بالحراسة والمراسلون المتجمعون فى الردهة بمولدافسكى . وصاح يانوف شاحب الوجه :

— ماذا جرى ؟

— لقد أطلق كاليدين النار على نفسه ، — وسقط مولدافسكى ينشج على الدرابزين .

وهرع بوغايفسكى . كانت شفتاه ترتعدان كأن به قشعريرة :

— ماذا حدث ؟ ماذا ؟

وهجم الحشد على السلم وخيم عليه صوت خطـوات الناس الهاربين المرتب والعالى . كان بوغاييفسكى يزدرد ريقه بتشنج ، ويلهث ناشداً الهواء . وكان أول من بلغ الباب واقتحمه . وجرى عبر غرفة الانتظار الى المكتب . فألفى الباب بين المكتب والغرفة الصغيرة التى تلاصقه مشرعاً . كان ثمة دخان رمادى حريف تنبعث منه رائحة البارود ، عالق فى الهواء .

وتناهى صوت زوجة كاليدين متكسراً ، مريعاً ، غريباً :

— أواه ، أواه ! آ . . . آه ! أليوشا ! عزيزى !

وجرى بوغاييفسكى الى الغرفة وهو يفك ياقته وكأنها تشد على خناقه . كان كاريف محدودباً فوق النافذة ، وقد شدت أصابعه على أكرتها المذهبة . كان عظما اللوح يتشنجان تحت سترته ، وبين لحظة وأخرى تند عنه رعدة عنيفة . وهز بوغايفسكى نواح أجوف لرجل يافع أشبه بعويل الحيوان .

كان كاليدين راقداً على ظهره فوق سرير عسكرى ، وقد

طويت يداه على صدره . واتجه رأسه الى الجدار قليلاً . وكان ثمة تباين شديد بين غطاء الوسادة الأبيض والزرقة الرطبة لجبهته ووجنته المستقرة عليها . وكانت عيناه نصف مغمضتين كمن يحلم فى يقظته ، وزاويتا فمه الصارم مزمومتين بشكل ينم عن الألم . كانت زوجته تتضور عند قدميه . وكان صوتها ضارياً يصم الآذان . وعلى السرير استقر مسدس من طراز كولت . وكان ثمة خط رقيق أحمر قاتم يسيل تحت القميص ، الى جانب المسدس .

كانت هناك سترة معلقة بعناية على ظهر كرسى . وثمة ساعة يدوية موضوعة على الطاولة .

وركع بوغايفسكى على ركبتيه مترنحاً ، وشد أذنه على صدر كاليدين الناعم الحار . فشم رائحة العرق الرجالية شديدة الحموضة . كان قلب كاليدين ساكناً لا يريم . وراح بوغايفسكى الذى استحال كل كيانه فى تلك اللحظة حاسة سمع ، ينصت يائساً ، غير أن كل ما تناهى اليه هو التكتكة المتواصلة للساعة اليدوية الموضوعة على الطاولة ، والنشيج المختنق المبحوح لزوجة الأتمان المتوفى ، ونعيب الزيغان الحزين المشؤوم .

١٦

كانت عينا آنا السوداوان المتألقتان بالدموع والفرح أول ما طالع نظرة بونتشوك بعد أن استرد وعيه .

مضت عليه ثلاثة أسابيع وهو فى حالة هذيان . ثلاثة أسابيع وهو يجول فى عالم آخر ، عالم حالم غير منظور . ولكن وعيه عاد اليه وشيك المساء فى الرابع والعشرين من كانون الأول . وراح يتطلع الى آنا بعينين ضبابيتين جادتين محاولاً تذكر كل ما كان مقترناً بها ، ولكنه لم يفلح الا قليلاً . لقد كان الكثير

من ماضيه القريب ما يزال غائراً حروناً فى أعماق ذاكرته .

— أعطينى ماء . . . — تناهى صوته الى سمعه وكأنه قادم من بعيد ، فتبسم لذلك . وتقدمت آنا اليه مسرعة ، وكانت دخيلتها تنطق بابتسامة خفية . وقالت له :

— دعنى أسقيك من يدى .

ثم نحّت يده الكليلة التى مدها لتناول القدح . فشرب وهو يرتعش من الجهد الذى بذله عند رفع رأسه ، ثم هوى بكلال على الوسادة . . . ورقد يتطلع الى الجدار ، تحدوه الرغبة لأن يقول شيئاً ما . غير أن ضعفه تغلب عليه ، فأخذته سنة من النوم .

وعندما استيقظ كانت عينا آنا القلقتان هما اللتين التقتا بعينيه مرة أخرى ، ثم التفت الى ضوء المصباح الزعفرانى ، والدائرة البيضاء التى يعكسها على ألواح السقف العارية .

— آنا ، تعالىْ هنا !

اقتربت وتناولت يده . كانت مصافحته ضعيفة واهنة . قالت :

— كيف تشعر ؟

— كأن لسانى يعود الى شخص آخر ، ورأسى كذلك ، وكذلك ساقى ، وأشعر كأن عمرى مئتا عام .

كان يفوه بكل كلمة بعناية . ثم تساءل بعد برهة صمت :

— هل أصابنى التيفوس ؟

— نعم .

وجالت عيناه فى الغرفة ، ثم سألها بنبرة خافتة :

— أين نحن ؟

— فى تسارتسين .

— وأنت . . . كيف حصل ان جئت الى هنا ؟

— لقد بقيت معك . — وتعجلت لتضيف وكأنها تبرر ما فعلت أو تحاول أن تتحاشى ما قد يجول فى ذهنه من أفكار لم يفصح عنها .

— ما كان لنا أن نتركك بأيدى غرباء . وهكذا طلب منى أبرامسون ، ورفاق اللجنة أن أعتني بك . . . وها أنت ، ترانى أقوم بتمريضك على غير ما كان فى الحسبان .

فشكرها بنظرة وحركة واهنة من يده .

— وكروتوغوروف ؟

— ذهب الى لوغانسك .

— وغيفوركيانتس ؟

— انه . . . مات بداء التيفوس .

ولاذ كلاهما بالصمت ، وكأنهما يفعلان ذلك اجلالاً لذكرى الميت . ولكنها قالت بهدوء :

— كنت أخاف عليك . فقد كان مرضك شديد الوطأة .

— وبوغوفوى ؟

— لقد فقدت اتصالى بهم جميعاً . بعضهم ذهب الى كامينسكايا . ولكن ألا يضرك الكلام ؟ وهل لك فى تناول الحليب ؟

فهز بونتشوك رأسه . وواصل أسئلته وهو يحرك لسانه بصعوبة :

— أبرامسون ؟

— ذهب الى فورونيج منذ أسبوع .

وانقلب على جنبه بصعوبة ، ودار رأسه وهجم الدم بألم الى عينيه . وأحس براحة يدها الباردة على حاجبه ، ففتح عينيه . سؤال واحد كان يعذبه : لقد كان فاقد الوعى ، فمن الذى تولّى أمر حاجاته . أتراها هى التى قامت بذلك ؟ واصطبغت

وجنتاه بحمرة خفيفة ، ثم سألها :

— هل كان عليك أن تعنى بى وحدك ؟

— نعم .

ثم استدار الى الحائط وهمس :

— حرام عليهم ، على هؤلاء الجرذان أن يتركوا كل ذلك عليك . . .

لقد أصابه صمم طفيف من مضاعفات مرضه . بيد أن الطبيب الذى أرسلته لجنة الحزب فى تساريتسين قال لآنا انه لا يمكن علاج ذلك الا بعد أن يبل من المرض تماماً . وأخذت صحته تتحسن ببطء . وصارت له شهية تحاكي شهية الذئاب ، ولكن آنا كانت تقسط طعامه بصرامة . وتشاجرا أكثر من مرة حول هذا الموضوع . فقد كان يقول :

— اعطينى مزيداً من الحليب .

— لن أعطيك .

— أرجوك . . . اعطينى مزيداً . هل تريدين أن أموت جوعاً ؟

— ايليا ، أنت تدرى أنه لا ينبغى عليَّ أن أعطيك أكثر من الكمية المقررة .

ولن يكون منه الا أن يلوذ بصمت جريح ، ويدير وجهه الى الحائط ، ويتنهد ويضرب عن الكلام . وما كان لها أن تستسلم رغم معاناتها بسبب عطفها عليه . ثم يلتفت بعد برهة ، ويتوسل اليها ووجهه غائم وقد بدا أكثر شقاء :

— هل لي بشيء من الكرنب المخلل ؟ أرجوك ، يا عزيزتى آنا . . . اسمعى . . . انها ليست سوى خرافات الأطباء من أن ذلك يؤذينى .

واذ يجابه دائماً برفض قاطع ، يسعى أحياناً الى مسها بكلمات فظة جارحة :

ـــ ليس لديك حق فى أن تجعلى منى ألعوبة بهذا الشكل . أنت امرأة لا قلب لك ولا شعور . لقد بدأت أمقتك .

ولا يسعها ضبط عواطفها فتقول :

ـــ ذلك هو خير مكافأة أستطيع أن أنالها مقابل ما قمت به من السهر عليك .

ـــ لم أطلب منك البقاء معى . وليس من العدل أن تسيئى الىَّ بذلك . انّما أنت تستغلين مركزك . حسناً ! لا تعطينى أى شىء . دعينى أمت غير مأسوف علىَّ !

فترتعش شفتاها ، الا أنها تسيطر على نفسها ، تتحمل كل ذلك بأناة . ولكنها لاحظت مرة ، بعد أن تشاجرا حول زيادة كمية العشاء ، وقلبها يعصرها ، الدموع تترقرق فى مآقيه . فقالت :

ـــ ماذا ، انك لطفل بمعنى الكلمة !

وجرت الى المطبخ لتأتى بصحن ملىء بالفطائر . وقالت له وهى تدس بفطيرة فى يديه بأصابع مرتجفة :

ـــ كل ، كل ، يا عزيزى ايليا . ولا تغضب بعد الآن . هذه أخرى لذيذة .

وحاول بونتشوك أن يرفض وهو يعانى بشدة . ولكنه لم يستطع المقاومة ، فمسح دموعه ، واستوى فى جلسته ثم تناول الفطيرة . وانزلقت ابتسامة على وجهه الملتحى النحيل ، وقال لها وهو ينشد المغفرة بعينيه :

ـــ اننى أسوأ من الطفل . ألا ترين ، كنت على وشك أن أبكى . . .

وتطلعت الى رقبته الشديدة الهزال ، والى صدره الغائر الذى لا لحم عليه خلال ياقة قميصه المفتوحة ، والى ذراعيه الهزيلين . فقبلت جبينه الاصفر الجاف لأول مرة ببساطة وتحنان يهزها احساس عميق بالحب والشفقة .

لم يكن يقوى على الحركة فى الغرفة دونما مساعدة الا بعد أسبوعين . وكانت ساقاه العنكبوتيتان تتهاويان تحته ، فكأن عليه أن يتعلم المشى .

قال : «انظرى آنا ، أستطيع أن أمشى» . وجرب أن يتحرك بمزيد من السرعة . غير أن ساقيه لم تقويا على تحمل ثقل جسمه ، فانزلقت الأرض من تحت قدميه . واذ اضطر الى الاتكاء على أول شىء يصادفه ، تبسم مثل رجل عجوز ، فتجعدت بشرة وجنتيه الشفافتين . وأطلق ضحكة صغيرة ناعبة ، ثم عاد فارتمى على فراشه واهن القوى .

كانت حجرتاهما على مقربة من المرسى . وكان بوسعهما أن يشاهدا من النافذة مدى الفولغا الثلجى ، والغابات تنبسط من ورائه فى نصف دائرة قاتمة ، والمعالم المتماوجة للحقول البعيدة . وكانت آنا تقف عند النافذة فى كثير من الأحيان ، وتطيل التفكير فى التبدل الغريب الحاد الذى طرأ على حياتها . فلقد قارب مرض بونتشوك بينهما كثيراً على نحو غريب .

فى البدء ، بعد رحلة طويلة مضنية قطعاها حتى وصلا الى تساريتسين ، كانت حياتها شاقة مرة تستدر الدموع . ولم يسبق لها مطلقاً أن اضطرت الى الاطلاع عن كثب وبشكل مكشوف على الجانب الخفى من الحياة مع الانسان الذى تحبه . كانت تصك على أسنانها كلما غيرت ملابسه الداخلية ، وفلت رأسه المحموم من القمل ، وتنافح من أجل رفع جسمه الثقيل ،

وتسترق النظر برعدة ونفور الى جسده الرجالى العارى الموهون والى اهابه الذى كان يضم حياته الغالية التى تكاد أن تخبو تحته . وقد انتفض كل شىء فيها ونفر ، غير أن القذارة الخارجية لم تستطع أن تقضى على عواطفها الصادقة العميقة . فتحت تأثيرها القوى تعلمت كيف تتغلب على آلامها ونفورها . وهكذا لم يبق عندها سوى العطف وحب عميق كالبئر يموج ويطفح بالمشاعر .

حدث أن سألها بونتشوك ذات مرة :

— أحسب أننى أثير فيك الاشمئزاز بعد كل هذا . . . أليس كذلك ؟

— كان امتحاناً .

— لأى شىء ؟ لضبط النفس ؟

— كلا . لعواطفى .

فأشاح بوجهه ، ولوقت طويل ظل عاجزاً عن ايقاف شفتيه من الارتعاش . ولم يعودا ثانية الى الموضوع ، فما كان للكمات الا أن تبدو تافهة باهتة اللون .

وفى منتصف كانون الثانى سافرا الى فورونيج .

١٧

وصل بونتشوك وآنا فورونيج مساء السادس عشر من كانون الثانى . ولبثا يومين فيها ، ثم لما علما أن لجنة الدون الثورية وقواتها الوفية قد أزاحتها جيوش تشيرنتسوف من كامينسكايا تبعاها الى ميليروفو .

كانت ميليروفو تزخر بالحياة وتضج بالناس . ولم يبق فيها بونتشوك سوى بضع ساعات ، سافر بعدها الى غلوبوكايا بأول قطار . وفى اليوم التالى تولى من جديد أمرة مفرزة رماة الرشاشات ،

وفى الصباح الذى تلاه اشترك فى المعركة التى انتهت بهزيمة قوات تشيرنتسوف .

وبعد أن قُضي على تشيرنتسوف ، كان على بونتشوك أن يفارق آنا على نحو غير مرتقب . فذات صباح جاءت تجرى من مقر هيئة الأركان منفعلة حزينة بعض الشىء :

— هل تدرى أن أبرامسون موجود هنا ؟ انه يريد أن يراك بصورة ملحة . ولديَّ أخبار أخرى . . . سوف أرحل اليوم .

فسألها مذهولاً :

— الى أين ؟

— أنا وأبرامسون وعدد آخر من الرفاق سنذهب الى لوغانسك للدعاية .

فقال بفتور :

— اذا فأنت تهجرين مفرزتنا ؟

فضحكت ودست وجهها المتورد على صدره .

— اعترف ! فأنت لا تحزن لأننى سأرحل عن المفرزة ، بل لأنى سأرحل عنك ! ولكنها لن تدوم طويلاً . وأنا واثقة من أننى سأكون ذات شأن فى ذلك العمل أكبر من عملى معك . فأنا أصلح للدعاية أكثر منى للرشاشات ، — ورمقته بنظرة خبيثة وأضافت : — حتى وان كنتُ تحت أمرة قائد محنك مثل بونتشوك .

وجاء أبرامسون بعد ذلك بقليل . كان نشطاً كالعادة ، يتدفق حيوية ، ولا يعرف معنى للراحة . وكانت الخصلة البيضاء تلتمع كالعهن بين سواد شعره الذى يحاكى القطران . وقد سر كل السرور لرؤية بونتشوك .

— عدت ثانية ؟ حسناً . ستعود آنا معنا . — وضيق عينيه

بخبث ، وأردف : — لا اعتراض من جانبك ؟ أبداً ! حسناً . كنت أتساءل فقط لأننى اعتقدت أن المودة قد توثقت بينكما فى تساريتسين ، أليس كذلك ؟

فندت عن بونتشوك ابتسامة عابسة مجهدة :

— لا أستطيع أن أخفى أسفى لمفارقتها .

— أنت متأسف ؟ حسناً ، ذلك شىء . . . آنا ، هل سمعت ؟

وجعل يتخطى ذهاباً وإياباً فى الغرفة ، متناولاً رواية علاها الغبار من خلف صندوق ، ثم انتفض ويمم صوب الباب .

— هل ستكونين مستعدة بعد قليل يا آنا ؟

فأجابته من وراء الستارة حيث كانت تغير ملابسها :

— اذهب أنت ، وسوف آتى بعد دقيقة .

وعندما خرجت ظهرت بقمصلة الجنود الخاكية محزمة بنطاق جلدى ، وقد برز الجيبان قليلاً فوق ثدييها ، وكانت تنورتها القديمة السوداء مرقعة فى بعض المواضع ولكنها نظيفة . وكانت قد غسلت شعرها حديثاً ، فانتفش وأفلت من عقصته . وارتدت معطفها وشدت الحزام ، وتساءلت بلهجة فقدت حيويتها السابقة فبدت كئيبة كسيرة : — هل ستشترك فى الهجوم اليوم ؟

— ولِمَ لا ، بالطبع ! هل تتوقعيننى أن أقعد دونما عمل ؟

— اننى أتساءل فقط . . . اسمع ، لتكونن حذراً . ستفعل ذلك من أجلى ، أليس كذلك ؟ تركت لك زوجاً اضافياً من الجوارب الصوفية . احذر من البرد ، واجهد أن تحافظ على جفاف قدميك . سأكتب لك من لوغانسك .

وتلاشى الألق من عينيها فجأة . واعترفت وهى تودعه قائلة :

— ها أنت ترى كم يؤلمنى أن أرحل عنك . عندما اقترح أبرامسون على الذهاب الى لوغانسك سرنى ذلك ، ولكننى سأشعر بالوحدة بدونك . وهذا دليل آخر على أن العواطف تعترض سبيلنا فى الوقت الحالى ، انها تشد المرء شداً . . . حسناً ، وداعاً على أية حال .

كانت باردة عند الوداع ، مكرهة عليه ، ولكنه أدرك أنها كانت تخشى أن تتراجع عن قرارها .

ووقف عند الباب ليودعها . وابتعدت مسرعة الخطى ، تهز كتفيها فى ارتباك دون أن تتلفت حواليها . وأراد أن يناديها لتعود غير أنه كان قد لاحظ بريقاً ندياً فى عينيها حينما ودعته للمرة الأخيرة ، فكتم رغبته ، وهتف بحماس ظاهرى :

— آمل أن أراك فى روستوف . اعتنى بنفسك يا آنا !

فتطلعت عبر كتفها ، ثم أسرعت خطواتها .

أحس بونتشوك فجأة بوحدة قاتلة بعد رحيلها . فانثنى الى البيت ، ولكنه فر منه فى الحال ثانية ، وكأن قد شب بـه حريق . . . فكل شىء هناك كان يتحدث عنها . كل شىء يحتفظ بشذاها : المنديل المنسى ، حافظة الجنود ، الكوز النحاسى ، وكل ما لمسته يداها .

ظل يجول فى القصبة حتى المساء ، وهو يعانى قلقاً غريباً ، واحساساً بأن شيئاً ما قد انقطع عنه . ولم يستطع أن يألف وضعه الجديد . وصار يحدق شارداً فى وجوه الحرس الأحمر والقوزاق ، فيتبين البعض ويتبينه العديدون منهم . وأوقفه قوزاقى كان معه فى الجيش أثناء الحرب . فألح عليه الرجل بالذهاب الى بيته ودعاه لينضم الى حلقة لعب الورق مع عدد من الحرس الأحمر البحارة . كانوا يلطمون الورق على المنضدة ، ويخشخشون بروبلات

كيرنسكى الورقية ، ويتشاتمون ويتصايحون دونما انقطاع ، وقد لفعتهم غمامة من دخان التبغ . فتاق بونتشوك الى الهواء ، وخرج . وقد انتشله من حالته هذه اشتراكه فى هجوم شنّ بعد ساعة .

١٨

بعد موت كاليدين دُعى مجلس عسكرى فى التاسع والعشرين من كانون الثانى للاجتماع فى نوفوتشيركاسك حيث تقرر تعيين الجنرال نازاروف أتماناً للاقليم . ولم يحضر الاجتماع سوى بضعة مندوبين ، وجلهم من قصبات المناطق الجنوبية . واذ شعر نازاروف باسناد هذا المجلس الناقص ، دعا الى تجنيد جميع القوزاق من سن الثامنة عشرة حتى الخمسين . بيد أن استجابة القوزاق كانت فاترة ، رغم الوعيد وارسال المفارز المسلحة الى القرى لتنفيذ الأمر بالقوة .

ومنذ اليوم الذى مارس فيه المجلس الناقص عمله تحركت كتيبة قوزاق الدون السادسة تحت قيادة العقيد تاتسين الى نوفوتشيركاسك من الجبهة الرومانية بعد أن شقت طريقها خلل حلقة من القوات البلشفية . كانت قد عوملت معاملة قاسية فى مواضع مختلفة فى طريقها من يكاتيرينوسلاف ولكنها بالرغم من ذلك وصلت بكل قواها وجميع ضباطها تقريباً .

وقد أقيم للكتيبة استقبال رسمى . وبعد صلاة الشكر التى أقيمت فى ساحة الكاتدرائية ، شكر الجنرال نازاروف القوزاق لمحافظتهم على ضبطهم العسكرى الجيد ولجلبهم أسلحتهم للدفاع عن الدون .

ولم يمض وقت طويل حتى أرسلت الكتيبة الى الجبهة ،

ثم وصلت الأخبار المثيرة الى نوفوتشيركاسك أن الكتيبة قد انسحبت بصورة اعتباطية من مواقعها ورفضت حماية جيش الحكومة وذلك لوقوعها تحت تأثير الدعاية البلشفية .

وكانت الخطوات التى اتخذها المجلس ضعيفة . فقد شعر الجميع أن الصراع ضد البلاشفة أمر مقضى عليه بالفشل . وكان نازاروف ، وهو جنرال فعّال نشيط ، أثناء دورات المجلس يجلس ورأسه بين يديه وكأنه قد تاه فى تأملاته الحزينة .

كانت الآمال الأخيرة تتداعى مثل خشب نخره السوس . فقد صار هدير المدفعية يسمع حول تيخوريتسكايا . وأشيع أن قوات القوزاق الحمر تحت قيادة الملازم أفتونوموف كانت تتقدم نحو روستوف من تساريتسين .

وقد انسحبت مفرزة الحرس الأبيض بقيادة الرئيس تشيرنوف الى روستوف ، تحت النيران التى انصبت عليها من جهتين ، وقرر كورنيلوف التراجع فى التاسع من شباط ادراكاً منه أن البقاء فى المدينة يعرّضه الى الخطر .

وكان العمال فى منطقة تيميرنك طوال اليوم يقنصون دوريات الضباط المعادية فى المحطة .

ووشيك المساء شق طابور طويل طريقه خارج روستوف ، وسار متثاقلاً فوق الثلج نصف الذائب . وكانت ترى بين الحين والآخر معاطف طلاب ، غير أن معظمهم كانوا يرتدون بزات ضباط ، وكان يقود الفصائل رؤساء وعقداء . وبين المراتب كان طلاب الكلية العسكرية وضباط من مختلف الرتب من الملازمين حتى العقداء . وخلف العديد من عربات قافلة المتاع تأتى حشود من اللاجئين : كهول ، ورجال أنيقون يرتدون معاطف وأخفافاً ،

ونساء يرتدين أحذية عالية الكعوب وهى يتحركن فوق الثلج العميق بصعوبة .

ومع احدى سرايا الجنود سار الرئيس ليستتسكـــى . والى جانبه فى الطابور كان يسير ضابط نظامى انيق هو الرئيس الركن ستاروبيلسكى ، وبتشاغوف ملازم أول وحدة سوفوروف لرماة القنابل اليدوية ، والمقدم لوفيتشيف ، وهو هرم عديم الأسنان ملفع بشىء رمادى محمر مثل ثعلب عجوز .

تجمعت ظلال المساء . وكان الهواء قارساً بعض الشىء . وهبت ريح نسيم مالحة مبليلة من ثغر الدون . كان ليستتسكى يوسع خطاه بثبات بحكم العادة فوق الثلج المسحوق ، ويحدق فى وجوه الذين لحقوا بالسرية .

ومر بجانب الطريق الرئيس نيزينتسيف وعقيد الحرس كوتيبوف ، آمر كتيبة بريوبراجينسكى السابق ، وقد تطايرت سترته وانداحت قبعته الى الوراء . فنادى لوفيتشيف نيزينتسيف .

أدار كوتيبوف رأسه ، وهو صاحب وجه ضخم يشبه وجه الثور وعينين سوداوين متباعدتين ولحية قصّت قصاً عريضاً . والتفت نيزينتسيف هو الآخر وراح يرمق عبر كتفه باتجاه الصيحة .

— أوعز للسرية الأولى أن تحث خطاها ! والا فسوف نتجمد . ها قد تبللت أقدامنا ونحن نسير على هذا النحو البطىء .

فهدر ستاروبيلسكى :

— يا لها من شناعة !

فلم يحر نيزينتسيف جواباً بل واصل سيره ومضى يناقش كوتيبوف . وبعد قليل أدركهم الجنرال أليكسييف . ومضت العربة وسط هبة ثلج أثارته حوافر جوادين أدهمين لينى الاهاب . كان الكسييف جالساً بصورة جانبية على المقعد ممسكاً بياقته بيده

اليسرى اتقاء البرد وتتبع الضباط وجهه المألوف بنظراتهم وهم يبتسمون . وقد برز شارباه وحاجباه بلونها الأبيض من وجهه الأحمر الذى ألهبته الريح .

ولاحت برك صفر هنا وهناك على الطريق الذى ناء بثقل المارين . وكان المضى عسيراً ، فقد تسرب البلل داخل الجزمات . وأصغى ليستتسكى أثناء سيره الى حوار الرجال أمامه . كان ضابط يرتدى سترة فرو وقبعة قوزاقية اعتيادية مصنوعة من جلد الخراف يقول :

— هل شاهدته أيها الملازم ؟ رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة ، وهو رجل مسن ، مضطر الى السير على قدميه . . .

— ان روسيا تسير الى هاوية الجلجلة * .

فقال أحدهم هازئاً من خلال نحنحته :

— حقاً انها لجلجلة . . . مع فارق واحد ، هو أن أمامنا طريقاً ثلجياً بارداً الى حد اللعنة بدلاً من الطريق الصخرى .

— هل يعرف أحدكم أين سنقضى الليلة أيها السادة ؟

— فى يكاترينودار .

— نعم ، فقد قمنا بمسيرة كهذه فى بروسيا ، كما أذكر . . .

— كيف سيستقبلنا الكوبان ؟ . . ماذا ؟ . . أجل ، ان الأمور ستكون مغايرة هناك بلا شك .

وسأل الملازم غولوفاتشيوف ليستتسكى :

— هل لديك ما يمكن تدخينه ؟

ونزع الرجل قفازه الخشن وتناول السيكارة التى قدمها يفغينى ،

---

* الجلجلة : الجبل الذى صعد اليه المسيح حاملاً صليبه . المترجمون .

وشكره ، وتمخط بيده كما يفعل الجنود ، ثم مسح أصابعه بذيل معطفه . فقال له المقدم لوفيتشيف وهو يبتسم متهكماً :

— انك تكتسب عادات ديمقراطية أيها الملازم ، أليس كذلك ؟

— لا معدى للمرء من ذلك ، فليس هناك من سبيل آخر . ماذا تفعل أنت ؟ هل أفلحت فى الابقاء على دزينة من المناديل ؟

ولم يجبه المقدم . كان ثمة خيوط ثلجية خضر متعلقة بشاربيه الأشيبين المحمرين . وكان يزنخر بين الحين والآخر ، ويقطب من شدة البرد الذى نفذ الى داخل معطفه الخفيف .

«ورود روسيا !» — قال ليستنتسكى ذلك فى دخيلته وهو يتطلع بحنان شديد الى أفراد الطابور الذى يمضى متعرجاً على امتداد الطريق .

ومر فريق من الفرسان مسرعين يتوسطهم كورنيلوف على صهوة جواد طويل . كان بقبعته البيضاء المصنوعة من جلد الحمل ومعطفه الأخضر الفاقع القصير ذى الجيوب الجانبية المائلة يهتز بين المراتب . وتبعه هتاف جهير أطلقته حناجر أمراء السرايا .

— لولا عائلتى لما كنت أهتم بهذا . . . — قال المقدم لوفيتشيف ذلك ثم سعل سعلة متعبة ونظر الى ليستنتسكى من زاوية عينه وكأنه ينشد عطفه ، وأردف : — لقد خلفت عائلتى ورائى فى سمولنسك . زوجتى وابنتى . لقد بلغتْ السابعة عشرة فى عيد رأس السنة الماضى . ماذا تقول فى ذلك أيها الرئيس ؟

— هم . . . م . . . م . . .

— ألديك أنت أيضا عائلة ؟ هل أنت من نوفوتشيركاسك ؟

— كلا ، أنا من اقليم الدون . ان والدي هناك .

ومضى لوفيتشيف يقول :

— كيف ستدبران أمرهما بدونى ، لا أستطيع أن أتصور . . .

بيد أنه قوطع بصوت ستارويبلسكى المنفعل :

— كلنا خلفنا عوائلنا وراءنا . أنا لا أفهم لماذا تستمر على عويلك أيها المقدم . أى ناس أنتم ! ما ان غادرتم روستوف حتى . . .

وصاح أحدهم من المراتب الخلفية :

— أهذا أنت يا ستارويبلسكى ؟ ألم تكن فى المعركة فى تاغانروغ ؟

فاستدار ستارويبلسكى وافتر وجهه الغاضب عن ابتسامة كئيبة وقال :

— آه ، فلاديمير غيورغيفتش ، كيف حصل أن التحقت بفوجنا ؟ نقلت ، ايه ؟ حفيظة من أثرت ؟ لا بأس . . . كنت تسأل عن تاغانروغ . . . نعم ، لقد كنت . . . لماذا ؟ بالضبط . . . لقد قتل !

وعنّت على بال ليستنتسكى ، وهو ينصت الى الحوار ساهماً ، ذكرى رحيله عن ياغودنويه ، وأبيه ، وأكسينيا . واستبد به شعور بالحنين مباغت . ومضى يجر خطاه ، ويرنو الى ماسورات البنادق والحراب المتراقصة أمامه ، والى القبعات الفرو ، والقبعات المدببة والقلنسوات المتجاوبة فى حركتها مع ايقاع السير ، وراح يفكر فى ذات نفسه :

«ان كل واحد من هؤلاء الأحياء المنبوذين الذين يعدون خمسة آلاف هو مثلى ، ولشد ما يضمره كل منا فى قلبه من حقد وغضب لا حد لهما . لقد ألقى بنا الخنازير خارج روسيا ، ويحسبون أنهم سيقضون علينا هنا . ولكننا مع هذا سنرى كورنيلوف يقودنا الى موسكو» .

وفى تلك اللحظة تذكر وصول كورنيلوف الى موسكو وراح يفكر مسروراً فى ذلك اليوم .

وعلى مبعدة الى الوراء ، فى مؤخرة الطابور كانت ثمة بطارية . وكانت الخيل تزنخر وعربات المدافع تقعقع ، وقد بلغت منخرى ليستنتسكى رائحة عرقها فجعلته الرائحة المثيرة المألوفة يلتفت الى الوراء ، فراح السائق الأمامى ، وهو نائب عريف شاب ، ينظر اليه ويبتسم بلا تكلف .

* * *

فى الحادى عشر من آذار تجمع جيش المتطوعين فى منطقة أولغنسكايا على مبعدة بضعة فراسخ جنوبى-شرقى روستوف . وقد أرجأ كورنيلوف كل حركة أخرى ، لأنه كان ينتظر وصول الجنرال بوبوف الأتمان الجديد الذى عين لجيش قوزاق الدون ، والذى كان قد تراجع من نوفوتشيركاسك الى السهوب نحو الجهة الشرقية من الدون مع قوة قوامها ألف وستمائة رجل ، وخمسة مدافع ميدان وأربعون رشاشاً .

ذهب بوبوف يصحبه رئيس أركان حربه سيدورين ومرافق قوزاقى على ظهور الجياد الى أولغنسكايا فى صباح اليوم الثالث عشر . وأوقف حصانه فى الساحة مقابل البيت الذى يشغله كورنيلوف ، وأمسك بقربوس سرجه ، ثم رفع ساقه عن السرج بصعوبة . وساعده مراسل ، وهو قوزاقى شاب ذو خصلة سحماء ، ووجه أسمر وعينين حادّتين حدّة الزقزاق . ورمى بوبوف اليه العنان وسار بتؤدة ووقار نحو سقيفة الباب ، يتبعه سيدورين وضباط آخرون . وساق المراسلان الخيل خلل بوابة جانبية الى الفناء . وبينما وضع

أحدهما ، وهو خيال كهل أحنف الساقين ، مخالى • علف الدواب ، ذهب الشاب ذو الشعر الأسود والعينين اللتين تحاكيان الزقزاق ليتعرف على الطاهية . كان يعيرها ببعض الكلام ، بينما كانت الفتاة وهى صبية متوردة تشد عصابتها بغنج وترتدى خفين كبيرين فى قدميها العاريتين ، تأخذ طريقها مارة به ، وتواثبت ضاحكة فوق بركة الى مخزن الحبوب .

دلف بوبوف الكهل الوقور الى المنزل . وأعطى معطفه فى الصالة الى مراسل كفء نشيط ، وعلق سوطه وراح يتمخط مدة طويلة بصخب . وقاده المراسل مع سيدورين الى قاعة الاستقبال .

كان الجنرالات الذين استدعوا لحضور المؤتمر مجتمعين . كان كورنيلوف يجلس أمام طاولة ومرفقاه على خارطة نشرت فوقها ، والى يمينه كان اليكسييف ، منتصباً ، نحيفاً ، حسن الحلاقة ، وقد اشتعل شعره شيباً . وكان دينيكين وقد التمعت عيناه الثاقبتان يسرّ الى رومانوفسكى بشىء ما . ولوكومسكى ، الشبيه بدينيكين نوعاً ما ، يتخطى فى الغرفة وهو ينتف لحيته . ووقف ماركوف أمام النافذة يتطلع الى الفناء ، كان يراقب المراسلين وهما يعنيان بالخيل ويغازلان الطاهية .

حيا القادمان الجديدان الجنرالات المجتمعين وسارا الى الطاولة وسألهما أليكسييف بضعة أسئلة ثانوية حول رحلتهما والجلاء عن نوفوتشيركاسك . ودخل كوتيبوف يصحبه عدد من الضباط المحاربين الذين دعاهم كورنيلوف الى المؤتمر .

ثبت كورنيلوف بصره فى بوبوف الذى اتخذ لنفسه مقعداً أمام الطاولة بهدوء ، وسأله :

• جمع مخلاة وهى ما يوضع به من علف . المترجمون .

— أخبرنا أيها الجنرال بعدد قواتك .

— ألف وخمسمائة سيف ، وبطارية ، وأربعون رشاشاً بمعداتها .

— أنت ملم بالظروف التى أقسرت جيش المتطوعين على الجلاء عن روستوف . لقد عقدنا مؤتمراً البارحة ، واتخذنا قراراً بالسير نحو الكوبان ، باتجاه يكاترينودار ، حيث تنشط هناك بالفعل مفارز المتطوعين . سوف نسلك هذا الطريق ، — ومر برأس قلمه الثالم فوق الخارطة ، واستأنف يقول متعجلاً : — وسوف نستميل قوزاق الكوبان أثناء مسيرتنا ، ونقضى على مفارز الحرس الأحمر القليلة الواهنة غير المنظمة التى قد تحاول اعتراض سبيلنا . — وتابع عينى بوبوف فى نظرتهما الجانبية الضيقة وأضاف : — ونقترح عليك أن تلتحق وقواتك بجيش المتطوعين ونسير معنا شطر يكاترينودار . فليس من صالحنا أن نبعثر قواتنا .

فأعلن بوبوف باصرار وحدة :

— لا أستطيع فعل ذلك .

انحنى أليكسييف قليلاً باتجاهه وقال :

— لِمَ لا ، اذا جاز لى أن أسأل ؟

— لأننى لا أستطيع أن أهجر اقليم الدون وأرتدّ الى الكوبان . اننا فى حمى الدون من الشمال وسوف نترقب الحوادث فى السهب . ونحن لا نتوقع حركات فعالة من جانب العدو ، لأن الجليد سيذوب عما قريب ، وسوف يكون من المستحيل ارسال المدفعية وحتى الخيالة عبر الدون . ومن المنطقة التى اخترناها ، والوافرة بالكلأ والمؤونة ، نستطيع أن ننظم حركات أنصار فى أى لحظة وبأى اتجاه .

كان يرد على حجج كورنيلوف بصورة مؤثرة ، ثم توقف ليأخذ

نفساً ، غير أنه هز رأسه بعناد عندما رأى كورنيلوف على وشك أن يتكلم :

— دعنى أنتهى . بالاضافة الى ما سبق ، هناك عامل هام جداً ، وينبغى علينا نحن فى القيادة العليا أن نحسب له الحساب . انه موقف قوزاقنا . — وبسط يداً ناعمة بيضاء انغرست بعمق فى لحم سبابتها حلقة ذهبية ، وواصل حديثه رافعاً صوته بعض الشىء : — فاذا ما تراجعنا الى الكوبان فثمة خطر من تشتت مفارزنا . وقد يرفض القوزاق الذهاب . ويجب أن لا ننسى أن أثبت جنودى وأقواهم هم من القوزاق ، وهم لا يمكن الركون اليهم قطعاً كما . . . كما يركن الى رجالكم ، مثلاً . انهم لا يدركون . انهم ببساطة يرفضون الذهاب . وأنا لا أستطيع أن أجازف بخسارة جنودى كلهم . — شد على الكلمات ثم قاطع كورنيلوف مرة أخرى : — يجب أن تعذرنى . ها قد أخبرتك عن قرارنا وينبغى أن أؤكد لك أننا لسنا فى وضع يسمح لنا بتغييره . ولا ريب أنه ليس من صالحنا أن نجزئ قوانا ، بيد أنه يوجد مخرج واحد لهذه المشكلة . لذلك أقترح أنه لو أخذنا ما قلته بنظر الاعتبار ، فسوف يكون أكثر سداداً لجيش المتطوعين ألا يتراجعوا الى الكوبان ، انما ينضموا الى قطعات الدون فى السهب وراء الدون . وسوف يكون بوسعه أن يستريح هناك ويستجمع قواه وسوف يعزز فى الربيع بمتطوعين جدد من روسيا . . .

— كلا ! — هكذا هتف كورنيلوف الذى كان أمس يفضل التراجع الى السهوب فيما وراء الدون والذى وقف مع رأى أليكسييف على طرفى نقيض . وأضاف : — ليس هناك من معنى فى الذهاب الى السهب . ان لدينا ستة آلاف رجل تقريباً . . .

— اذا كانت المؤونة هى ما يشغل بالك ، فبوسعى أن

أؤكد لك ، يا صاحب المعالى ، أنه لا توجد هناك منطقة فيها من المؤونة أكثر مما فى السهب الذى يقع عبر الدون . هذا الى أنك تستطيع الحصول على الجياد من الاسطبلات الخاصة هناك لتضع بعضاً من جيشك على ظهور الخيل . . . ومن ثم ستتوفر لك فرصة أفضل لحرب الحركات . ينبغى أن تكون لك خيالة ، وجيش المتطوعين يفتقر اليها فى الوقت الحالى .

فنظر اليه كورنيلوف ، الذى كان ذلك اليوم مستجيباً الى أليكسييف أكثر من المعتاد ، وبدا عليه بوضوح أنه لا يدرى أى سبيل يسلك ، وأنه ينشد العون من غيره . ثم حظى اليكسييف بانتباه زائد من المسمعين . وقد عبّر الجنرال العجوز عن نفسه بايجاز الى جانب الشخوص الى يكاترينودار ، كعادته فى البت بالمسائل بسرعة ووضوح تام . وأنهى حديثه قائلاً :

— سيكون من السهل علينا أن نخترق حلقة البلاشفة فى ذلك الاتجاه ، وأن نضم قوانا الى الوحدات التى تعمل هناك .

وتساءل لوكومسكى بحذر :

— واذا أخفقنا ؟

فعض اليكسييف على شفتيه ومرر اصبعه فوق الخارطة وقال :

— حتى لو أخفقنا ، فسوف يبقى لدينا مجال التراجع الى جبال القفقاس حيث نفرق الجيش هناك .

وأيده رومانوفسكى . وتكلم ماركوف بضع كلمات مثيرة . وقد بدا أنه ليس هناك ما يقال ضد حجج اليكسييف الراجحة ، غير أن كلمات لوكومسكى وازنت بين كفتى الميزان .

قال وهو ينتقى كلماته بتريث وحذر :

— اننى أويد اقتراح الجنرال بوبوف . ذلك أن المسيرة الى الكوبان سترافقها صعوبات جمة لا يمكن تقديرها من هنا . فقبل

كل شىء ، سيلزمنا أن نجتاز خطوط السكك الحديد مرتين . . .

وتبعت العيون كلها اتجاه اصبعه وهو يتحرك عبر الخارطة .

ومضى لوكومسكى يقول بعناد :

— ولن يخفق البلاشفة فى الترحيب بنا بالشكل المناسب . فسوف يستخدمون قاطرات مدرعة . ولدينا قوافل شحن ثقيلة وعدد كبير من الجرحى الذين لا يمكن تركهم وراءنا . ان ذلك كله سيكون عبئاً عظيماً على الجيش ويعرقل تقدمه السريع . هذا الى أننى لا أستطيع أن أكون على استعداد للاعتقاد بأن قوزاق الكوبان يكنون لنا الود . لئن أخذنا ، على سبيل المثال ، قوزاق الدون الذين يفترض بهم انهم لا يرتاحون الى حكم البلاشفة فعلينا أن نضاعف يقظتنا وأن ننظر الى مثل هذه الشائعات بكثير من الشك . ان قوزاق الكوبان يعانون من التراخوما البلشفية ذاتها التى نشرها الجيش الروسى السابق . وربما قابلونا بالعداء . وأخيراً ، أرى لزاماً على أن أعيد القول ، ان رأيى هو أن علينا أن نيمم وجهنا شطر الشرق ، شطر السهوب ، ومتى ما استجمعنا قوانا ، فسوف نهدد البلاشفة من هناك .

الا أن كورنيلوف ، تدعمه أكثرية جنرالاته ، تمسك بقراره القاضى بالسير خلال طريق زائغة شطر الكوبان ، وجمع الخيل لوحدات الخيالة . ثم ارفضّ المؤتمر . وتبادل كورنيلوف بضع كلمات مع بوبوف ، وودعه ببرود ، وذهب الى غرفته ، يتبعه أليكسييف . وخرج العقيد سيدورين الى سقيفة الباب وصاح بحماس على مرافقه :

— الجياد !

وقدم اليه ملازم شاب وهو قوزاقى أشقر ، يمسك بسيفه وهو يطفر البرك . ووقف عند العتبة السفلى ، وتساءل بهمس :

— حسنا ، ما هو القرار أيها العقيد ؟

فأجابه سيدورين بصوت خفيض لا يخلو من فرح :

— قرار لا بأس به ! لقد رفضنا الذهاب الى الكوبان . وسنرحل فى الحال . هل أنت مستعد يا أزفارين ؟

— نعم . وسيأتون بالخيل .

وأحضر المراسلان الجياد . كان ذو الخصلة السوداء وعينى الزقزاق يغمز لصاحبه ويقول وهو يزنخر ضاحكاً :

— انها لطيفة ، أليس كذلك ؟

فكشر الأكبر سناً وقال بتحفظ :

— لطيفة كفرس مصابة بالقوباء * .

— وقد تستدعيك الى غرفتها مع ذلك ، هه ؟

— دعكما من ذلك ، يا ابنى آوى . فنحن فى الصوم الكبير.

امتطى أزفارين ، صديق غريغورى ميليخوف القديم ، صهوة جواده الأخرق ذى الخطم الأبيض وأصدر الأمر بالسير صوب الشارع .

وهبط بوبوف وسيدورين الدرجات الأمامية ، يصحبهما بعض الجنرالات . وأمسك أحد جنود الحرس حصان الجنرال بوبوف وساعده على ادخال قدمه فى الركاب . ثم لوح بوبوف بسوطه القوزاقى البسيط ، وخب بفرسه ، وكان الى ورائه سيدورين ، والضباط الآخرون والقوزاق ، واقفين على ركائبهم ومنحنين الى الأمام قليلاً .

وحينما وصل جيش المتطوعين ميتشيتينسكايا بعد مسيرة يومين ، تسلم كورنيلوف تقارير جديدة عن السهوب الشرقية . ولم تكن مشجعة . فاستدعى كورنيلوف أمراء وحدات القتال وأعلن عن عزمه على الشخوص شطر الكوبان .

---

* القوباء : داء فى الجسد يتقشر منه الجلد . المترجمون .

وأوفد رسول الى بوبوف يدعوه للمرة الثانية بتوحيد القوات . ولكن الجواب كان عينه . لقد رفض بوبوف بأدب وبرود ، مفيداً أن قراره لا يمكن أن يطرأ عليه تغيير وأنه سيبقى فى الوقت الراهن فى المنطقة الشرقية من الدون .

١٩

كانت مفرزة غولوبوف قد أرسلت بايعاز من اللجنة الثورية لاحتلال نوفوتشيركاسك بحركة التفاف واسعة ، وقد ذهب بونتشوك معها . وكان غولوبوف يقود المفرزة بخطى حثيثة ، ممتطياً صهوة جواده فى مقدمتها لافحاً كفل حصانه بالحاف . وفى المساء بلغوا احدى القصبات ، وبعد أن أراحوا خيلهم قليلاً ، واصلوا مسيرتهم ثانية فى الليل القاتم الخالى من النجوم ، والطريق المغطى بالجليد يتكسر تحت حوافر خيلهم ، وتبلج الفجر حينما كانوا يمرون بقصبة أخرى . وكانت الشوارع لما تزل خالية بعد ، ولكن قرب الساحة كان قوزاقى عجوز يكسر الجليد فى حوض ازاء بئر . فتقدم منه غولوبوف ، فيما توقفت المفرزة . وحيا الآمر القوزاقى :

— مرحباً يا أبتي .

فرفع الرجل يداً ترتدى قفازاً ببطء الى قبعته الفرو ، وأجاب بنبرة غير ودية :

— أسعدت صباحاً .

— حسناً ، أيها الجد ، هل ذهب قوزاقيوكم الى نوفوتشيركاسك ؟ وهل هناك تعبئة فى قريتكم ؟

التقط العجوز فأسه بعجالة واختفى وراء بوابة فنائه دونما جواب . فهتف غولوبوف «الى الأمام سر !» وامتطى جواده وهو يلعن .

وفى اليوم ذاته كان مجلس الجيش يتهيأ لاخلاء نوفوتشيركاسك . وقد سحب أتمان الميدان الذى عين حديثاً لجيش قوزاق الدون وهو الجنرال بوبوف ، القوات المسلحة للتو من المدينة ونقل كل المقدّرات العسكرية . فدخلت خيالة غولوبوف نوفوتشيركاسك دونما مقاومة على عكس ما توقعت . وجرى غولوبوف نفسه بصحبة مفرزة كبيرة من القوزاق الى مقر قيادة المجلس . كان هناك حشد من نظارة فاغرين أفواههم متجمعين عند البوابة ، وكان ثمة ساعٍ ينتظر مع حصان الجنرال نازاروف المسرج .

قفز بونتشوك عن حصانه ووضع يده على رشاشه . وهرول مع غولوبوف وقوزاق آخرين الى المنزل . وعند صوت اصطفاق الباب أثناء فتحه ، خطفت وجوه المندوبين المتجمعين فى القاعة الفسيحة وشحب لونها أمام القادمين .

أمر غولوبوف بنبرة متوترة وكأنه فى ساحة استعراض : «قفوا !» وأوسع خطاه نحو رأس الطاولة محاطاً بالقوزاق ، وقد تعثر لعجالته . ونهض أعضاء المجلس محدثين ضوضاء بكراسيهم اثر الصيحة الامرة ، خلا نازاروف فقد بقى جالساً .

قال الجنرال بصوت غضوب :

— كيف تجرؤون على مقاطعة جلسة مجلس الجيش ؟

— أنتم رهن التوقيف ! سكوتاً ! — وازرق وجه غولوبوف ، ثم جرى نحو نازاروف ، ونزع الشارات من بزة الجنرال العسكرية ، وزأر بغلظة :

— لقد قلت انهض ! خذوه ! مع من أتكلم ؟ يا كبير العسكاكر !

وكان بونتشوك قد وضع رشاشه عند الباب . فتكأكأ أعضاء المجلس على بعضهم البعض مثل الخراف . وجر القوزاق نازاروف ،

ورئيس المجلس فولوشينوف ذا الوجه الأخضر من الخوف ، وكثيرين آخرين ، أمام بونتشوك . وتبعهم غولوبوف قرمزى الوجه ، وسيفه يقعقع . فتشبث أحد أعضاء المجلس بكمه :

— أين تريدون الذهاب بنا ، أيها العقيد ، يا سيدى ؟

وحشر آخر رأسه فوق كتف غولوبوف :

— هل نحن أحرار ؟

فصاح بهما الآمر وهو يدفعهما عنه : «اذهبا الى الشيطان ! — ولما بلغ بونتشوك التفت اليهم وقال وهو يضرب الأرض بقدمه : — انقشعوا الى الجحيم ! ليس لي الوقت لانشغل بكم ! حسناً ، ماذا تنتظرون ؟» — ورجع صوته الملتاح * صداه فى القاعة بعض الوقت .

صرم بونتشوك الليلة فى بيت أمه . وفى اليوم التالى وردت أخبار تقول ان روستوف قد تم احتلالها بقوات سيفيرس . فاستحصل فى الحال اذناً من غولوبوف بالذهاب الى روستوف ، وشخص اليها بعد ان امتطى حصانه فى الصباح التالى .

وبعد وصوله الى روستوف ، عمل طوال يومين فى مقر هيئة الأركان ، وزار دوائر اللجنة الثورية . بيد أنه لم يجد أبرامسون ولا آنا . وكانت قد تشكلت محكمة ثورية فى مقر القيادة لتجرى محاكمة مستعجلة للأسرى من الحرس الأبيض . فعمل بونتشوك طوال يوم فى المحكمة ، واشترك فى الاغارات ، ثم ذهب فى اليوم التالى الى اللجنة الثورية مرة أخرى دون كبير رجاء . ولكنه ما ان هم بارتقاء السلم حتى تناهى اليه صوت آنا من غرفة فى الطابق الأعلى . فاندفع الدم الى قلبه عندما سمع ضحكتها . وتمهل فى خطاه ، ثم فتح الباب .

* الملتاح : المتغير من الشمس أو من السفر . المترجمون .

كانت الغرفة التى تعود الى القومندان فى السابق ، تعج بالدخان . وكان ثمة رجل يرتدى معطفاً عديم الأزرار يكتب على طاولة نسائية صغيرة ، وقد تجمع حوله جنود ومدنيون بفرواتهم ومعاطفهم وهم يدخنون ويتحادثون . ورأى آنا واقفة أمام النافذة وظهرها الى الباب . وكان أبرامسون قاعداً على عتبة النافذة ويداه معقودتان على ركبتيه ، وقد وقف الى جانبه واحد من رجال الحرس الأحمر طويل ذو أمارات لاتفية . كان الرجل يمسك سيكارة ويتكلم وخنصره منتصبة ، ولا بد أنه كان يروى حادثاً مضحكاً ، ذلك أن آنا كانت قد ألقت برأسها الى الوراء من شدة الضحك ، وتجعد وجه أبرامسون الضاحك ، والتمعت تقاطيع الجندى الأحمر البارزة عن ذكاء حاد وحانق قليلاً .

فتقدم بونتشوك ووضع يده على كتف آنا :

ـــ مرحباً يا آنا !

فالتفتت ، وهجم الدم على وجهها وطفا حتى ترقوتيها ، وترقرقت الدموع فى عينيها . وراحت تتلعثم دون أن ترفع عينيها :

ـــ من أين قدمت ؟ أنظر ، يا أبرامسون ! انه يبدو مثل عملة جديدة ، وقد كنتَ قلقاً عليه !

واستدارت ومشت صوب الباب غير قادرة على السيطرة على انفعالها .

وشد بونتشوك على يد أبرامسون الحارة ، وتبادل بضع كلمات معه ، ثم مضى نحو آنا ، وقد اكتسى وجهه بابتسامة حمقاء جذلة للغاية ، تاركاً سؤالاً سأله أبرامسون دون جواب (بل لم يدرك معناه) . واذ استعادت السيطرة على نفسها رحبت به بابتسامة ، ولكنها كانت متكدرة بعض الشيء من ارتباكها . وسألته :

ـــ حسناً ، وكيف أنت ؟ متى وصلت ؟ هل جئت من نوفوتشيركاسك ؟ وهل كنت فى مفرزة غولوبوف ؟ وما عندك من أخبار ؟

فأجاب على أسئلتها دون أن يحوّل نظرته الكئيبة المثبتة في وجهها .

واقترحت عليه قائلة :

ـــ فلنذهب دقيقة الى الخارج .

وعندما استدار ليخرجا قال لهما أبرامسون :

ـــ ستعودان قريباً ؟ لديَّ عمل لك ، أيها الرفيق بونتشوك .

فكرنا فى الاستفادة منك .

ـــ سأعود بعد ساعة .

وفى الشارع جعلت آنا تحدق فى عينى بونتشوك ، ولوحت بيدها مغضبة :

ـــ ايليا ، ايليا ، لكم فقدت السيطرة على نفسى ! تماماً مثل فتاة صغيرة ! كان ذلك بسبب من عدم توقعى رؤيتك ، وبسبب من علاقتنا غير الواضحة مع بعضنا أيضاً . والحق يا بونتشوك ، ما هى علاقتى بك ؟ أهى علاقة مخطوبين عابثين ؟ هل تدرى ، سألنى أبرامسون فى لوغانسك ذات مرة : «هل تعيشين مع بونتشوك ؟» فأنكرت ، ولكنه رجل كثير الملاحظة ويرى ما يحدث أمام عينيه . ولم يقل شيئاً ، ولكننى أستطيع أن أرى من نظراته أنه لم يصدقنى .

ـــ ولكن حدثينى بكل شيء عن نفسك .

ـــ آه ، شد ما كان عملنا رائعاً فى لوغانسك ! لقد جمعنا قوة من مائتين واحدى عشرة حربة . وقمنا بفعاليات تنظيمية وسياسية . . . ولكنى لا أستطيع أن أحدثك عن كل ذلك بكلمتين !

ولم أشف بعد من الصدمة التى سببها وصولك غير المنتظر . أين تراك . . . أين تراك تقضى الليلة ؟

— فى منزل . . . أحد الرفاق ، — قال ذلك كذباً وهو يتلعثم ، لأنه كان يقضى لياليه فى مقر هيئة الأركان .

— ستنتقل الى منزلنا هذا اليوم ! هل تذكر أين أقطن ؟ لقد أوصلتنى مرة الى البيت .

— سأجده . ولكن . . . ألا يزحمكم وجودي نوعاً ما ؟

— لا تكن أحمق ! انك لن تزحم أحداً ، وعلى أية حال فالأمر غير جدير بالنقاش .

وفى العشاء جمع حاجياته فى حقيبته العسكرية الواسعة ، وذهب الى الشارع فى الضاحية حيث تسكن آنا . وعلى عتبة بيت آجرى صغير التقى امرأة عجوزاً . كان لملامحها شبه قليل بآنا ، فلديها نفس البريق الأسود المزرق فى عينيها وأنف مقوس بعض الشىء ، انما بشرتها الترابية المخددة وفمها الغائر فضحا عمرها .

سألته :

— هل أنت بونتشوك ؟

— نعم .

— تفضل أدخل ، رجاء . ابنتى حدثتنى عنك .

قادته الى غرفة صغيرة ، وأرشدته أين يضع أشياءه ، وأشارت الى الغرفة باصبع قوسها الروماتيزم :

— هنا سيكون منامك . وذاك سريرك .

كانت تتكلم برطانة يهودية واضحة . وكانت تعيش معها فى المنزل صبية شديدة النحول لها عينان داكنتان مثل آنا .

وبعد برهة من الزمن جاءت آنا نفسها ، جالبة الحياة والنشاط معها :

— هل جاء أحد ؟ هل قدم بونتشوك ؟

أجابتها أمها باللغة اليديدية * ، فأسرعت آنا بخطوات راسخة الى باب غرفة بونتشوك :

— هل لى أن أدخل ؟

— أجل ، أجل ، — ونهض من على الكرسى وتقدم للقائها .

— حسناً ، هل كل شىء على ما يرام ؟

وجالت ببصرها فيه بنظرة رضية بشوش ، وسألته :

— هل تناولت شيئاً من الطعام ؟ تعال الى الغرفة الأخرى .

وقادته من كمه الى الغرفة الأكبر وقالت :

— أمى ، هذا رفيقى ، — وتبسمت . — كونى طيبة معه ، أرجوك .

وفى المساء فرقعت اطلاقات فوق روستوف مثل سنف ** نبات الأكاسيا الناضج . وبين حين وآخر يلعلع رشاش ، ثم يتلاشى الصوت ، ويغلف الليل ، ليل شباط المعتم الجميل ، الشوارع ويلفها فى صمته الجليل . وظل بونتشوك وآنا جالسين حتى وقت متأخر فى غرفته الصغيرة المعنى بترتيبها كثيراً . قالت له :

— كنت أعيش هنا مع أختى الصغيرة . أنت ترى أية حياة متواضعة نحياها . . . تماماً مثل الراهبات ، اذ لا توجد حتى الصور الرخيصة أو الصور الفوتوغرافية ، أو ما يفيد بأنى كنت تلميذة فى الثانوية .

سألها :

---

* اللغة التى يتكلمها اليهود فى بعض أقطار أوروبا ، وهى قريبة الى الألمانية . **المترجمون** .

** السنف : قشر وعاء النبات اذا أكل الحب الذى فيه ، كالبازلاء والباقلاء وما اليها . **المترجمون** .

— كيف كنتم تدبرون المعيشة ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :

— كنت أعمل فى مصنع وأعطى دروساً .

— والآن ؟

— أمى تخيط . هما الاثنتان لا تحتاجان الّا الى اليسير .

وحدثها عن تفاصيل احتلال نوفوتشيركاسك ، والمعارك التى اشترك فيها مذ غادرته . وأعطته هى نبذة عن عملها فى لوغانسك وتاغانروغ . وعندما أطفأت أمها الضوء فى غرفتها ، فى الساعة الحادية عشرة ، تمنت له ليلة سعيدة وتركته .

٢٠

نسب لبونتشوك عمل فى المحكمة الثورية الملحقة بلجنة الدون الثورية . ومضى رئيس المحكمة وهو طويل ذو وجنتين غائرتين ، وعينين مسهدتين من العمل والسهر المتواصلين ، مع بونتشوك الى نافذة غرفته . وقال له وهو يمسك بساعته اليدوية (فقد كان متأخراً عن موعد حضور مؤتمر) :

— متى انضممتَ الى الحزب ؟ آها . طيب ! حسناً ، سوف تكون قومنداننا . أرسلنا الليلة القائتة قومنداننا السابق الى جوار كاليدين ، لأنه كان يرتشى . لم يكن سوى رجل سادى ، كان خنزيراً بهيماً ، ونحن لا نريد مثل هذا النمط فى صفوفنا . ما كنا نقوم به عمل قذر ، ولكن يجب علينا أن نعى مسؤوليتنا كلها تجاه الحزب . هل تفهم جيداً ما أقول ؟ — قال ذلك بمزيد من التأكيد ، واستمر : — يجب أن نحافظ على انسانيتنا . اننا نقضى على أرواح المعادين للثورة لأسباب ضرورية ، ولكن يجب أن لا

نجعل من هذا العمل سركاً . هل تفهمنى ؟ طيب ، هذا شىء حسن . والآن اذهب ومارس عملك .

وفى الليلة ذاتها أطلق بونتشوك ، بصفته مسؤولاً عن فصيل من الحرس الأحمر ، النار على خمسة من معادى الثورة ، بعد أن مضى بهم على مبعدة ثلاثة فراسخ خارج المدينة . اثنان منهما قوزاقيان ، والبقية من أهالى روستوف . وبعد ذلك فى كل ليلة تقريباً كانوا يسوقون المحكومين بالاعدام خارج المدينة فى سيارة حمل ، وتعد قبور مستعجلة ، يحفرها بعض جنود الحرس الأحمر والمحكومين جنباً الى جنب . ثم يصف بونتشوك فصيله ، ويعطى الأمر برنّة معدنية فى صوته :

— على أعداء الثورة . . . — ثم يلوح بمسدسه : — أطلقوا النار !

ولم يمضِ أسبوع من هذا العمل حتى ذوى وازداد جهامة ، وكأنه ميت . وغارت عيناه ، وبات جفناه اللذان يطرفان بعصبية لا يقويان على اخفاء بريقهما البارد الحائر . وكانت آنا تراه فى المساء فقط ، لأنها كانت تعمل فى اللجنة الثورية وتعود الى البيت متأخرة . ولكنها كانت تنتظره دائماً حتى تنبئ الطرقة المألوفة على النافذة عن وصوله .

وذات أمسية عاد بعد منتصف الليل كالعادة . وفتحت الباب وقالت :

— هل تتناول بعض العشاء ؟

فلم يجب ، بل مضى الى غرفته ، يتعثر ثملاً . وألقى بنفسه ، كما هو ، بمعطفه ، وجزمته وقبعته ، على سريره . فذهبت اليه آنا وجعلت تحدق فى وجهه : كانت ثمة غشاوة لزجة على عينيه ، وتألق اللعاب على أسنانه ، وشعره الذى خف بعد التفوس

انبسط خصلات داكنة فوق جبينه .

جلست الى جانبه . وهمست وقد اعتصر الاشفاق والألم فؤادها :

— هل يرهقك ذلك ، يا ايليا ؟

فعصر يدها ، وصك أسنانه ، واستدار الى الحائط . وأخلد الى النوم دون أن ينبس بكلمة . وجعل يدمدم فى نومه بأشياء مبهمة بائسة ، وحاول الوثوب . وراقبته هلعة ، وهى ترتعد من الخوف ارتعاداً شديداً . نام وقد أغمض عينيه نصف اغماضة ، وكانت مقلتاهما الصفراوان الجاحظتان تلتمعان بشكل محموم تحت الأجفان .

قالت له فى الصباح :

— أترك هذا العمل ! اذهب الى الجبهة . انك لا تشبه أى شىء على الأرض يا ايليا . وسوف يهلكك هذا العمل .

فصرخ وعيناه تطرفان من الغيظ :

— اخرسي !

— لا تصرخ ، هل أسأت اليك ؟

فلزم الصمت فى الحال ، وكأن صرخته قد أطلقت هياجه المتجمع فى صدره . ثم نظر الى راحتيه بقلق ، وقال :

— القضاء على قذارة الانسانية عمل قذر هو الآخر . واطلاق النار على الناس يكرب الصحة والروح . اللعنة عليها جميعاً . . . — وجعل يلعن لأول مرة أمامها بما يصعب وصفه . — ان المخابيل والوحوش والمتعصبين وحدهم هم الذين يتطوعون لمثل هذا العمل القذر . أليس كذلك ؟ كلنا نريد الحياة فى جنينة . ولكن اللعنة عليها جميعاً ! فقبل أن تزرع الورود والأشجار يجب أن تزاح القذارة . ويجب أن تسمد الأرض ! ولا بد من أن تتسخ يداك ! — ورفع

صوته رغم أن آنا قد ابتعدت عنه ببطء . — يجب أن يقضى على القذارة ، ومع هذا فالناس يقرفون من هذا العمل ! — كان يصرخ ، ويرعد على الطاولة بقبضته ويطرف بعينيه المتأججتين .

فألقت أم آنا نظرة داخل الغرفة ، فثاب الى رشده وجعل يتكلم بهدوء :

— لن أترك هذا العمل ! أنا أدرك ، وعلى ثقة من أننى أقدم خدمة هنا . لسوف أجرف القذارة ، وسوف أسمد الأرض بالروث ، كيما تزداد خصوبة . . . أجل ، خصوبة . ولسوف يمشى ناس سعداء على هذه الأرض يوما ما . . . وربما سيمشى عليها ابنى الذى لم أنجبه بعد ! — وأطلق ضحكة صارة جوفاء . — لكم قتلت من هذه الأفاعى ، هذا القراد ! ان القرادة حشرة تنهش فى الجسد . قتلت حوالى عشر منها بهاتين اليدين . . . — ومد يديه الطويلتى الأصابع ، السوداويتى الشعر المعقوفتين كمخلبى نسر ثم أسقطهما على ركبتيه وقال بصوت مهموس : — الى الجحيم ! ان علينا أن نحترق ، نحترق كيلا يكون هناك دخان يفسد الهواء . . . سوى أننى تعب . . . حقاً . بعد قليل من هذا العمل ، سوف أذهب الى الجبهة . . . أنت على حق . . .

فقالت بهدوء :

— نعم ، اذهب الى الجبهة أو اتخذ لك عملاً آخر . افعل ذلك يا ايليا ، والا . . . فسوف تفقد صوابك .

أدار لها ظهره وجعل ينقر على النافذة .

— كلا . . . أنا قوى بما فيه الكفاية . ولكن لا تحسبي أن هناك رجالاً قدّوا من حديد . لقد جبلنا من طينة واحدة . ولا يوجد انسان فى واقع الحياة مجرد من الخوف فى المعارك ، ليس هناك انسان يستطيع أن يقتل أناساً دونما احساس . . . دون أن

يتألم معنوياً . أمّا أنا فلا أتوجع للضباط . فهم واعون طبقياً ، مثلك ومثلي . ولكن كان عليَّ البارحة أن أقتل ، من بين التسعة الذين قتلتهم ، ثلاثة قوزاق . . . ثلاثة كادحين . وعندما شرعت أفك وثاق أحدهم . . . — واستحال صوته أجوف غير واضح ، لكأنه كان يبتعد رويداً رويداً ، — لمست يده عفواً ، فالفيتها صلبة مثل كتاب مجلد مطلى بالصمغ . راحة سوداء ، كلها شقوق وكدمات . . . حسناً ، يجب أن أذهب . — وقطع حديثه بغلظة ، واستدار ليتحاشى عيني آنا ، وجعل يحك جوزة عنقه التي أحس وكأنها تشد بأنشوطة من ذيل الحصان .

ارتدى جزمته ، وشرب قدماً من الحليب وخرج . وفي المجاز لحقت به آنا . وقفت وأمسكت بيده الثقيلة ، ثم ضغطتها على خدها الملتهب وجرت الى الفناء .

* * *

ازداد الطقس دفئاً . وجاء الربيع يطرق أراضي الدون . وفي بواكير نيسان بدأت مفارز من الحرس الأحمر الأوكراني تتوافد على روستوف يطاردها الهيداماك * والألمان . ووقعت في المدينة حوادث اغتيال ونهب ، وتجاوزات غير مشروعة . وقد اضطرت اللجنة الثورية الى نزع السلاح عن بعض وحدات متفسخة كلياً . ولم يكن ذلك ليتم دونما مشاحنات وتبادل اطلاق النار . أمّا القوزاق المقيمون حول نوفوتشيركاسك فقد بدأوا يتململون . وكما تشب براعم الحور في آذار ، شبت الصدامات في القرى بين القوزاق والغرباء ، وقامت التمردات هنا وهناك ، ووضعت اليد على مؤامرات معادية للثورة .

---

* قوات أوكرانية قومية . المترجمون .

ولكن روستوف ظلت تحيا حياة ناشطة ينبض الدم في عروقها . كان الجنود والبحارة والعمال يتنزهون جيئةً وذهاباً في الشارع الرئيسي في الأماسي . وكانوا يعقدون الاجتماعات ، ويقشرون بذور عباد الشمس ، ويبصقون على الأرصفة الندية ، ويغازلون النساء . وكانوا كالسابق يعملون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويهجعون ، ويموتون ، وينسلون ، ويتعاطون الحب ، ويحقدون ، ويتنسمون نسيم البحر المالح ، ويعيشون في خضم من العواطف النبيلة والتافهة . ولكن أيام النحس كانت تقترب من روستوف . وكان الهواء مشحوناً بشميم الأرض السوداء بعد ذوبان الجليد ودماء المعارك الوشيكة .

ذات يوم مشمس لطيف عاد بونتشوك الى البيت مبكراً على غير عادته ، وقد أدهشه وجود آنا قبله .

— ولكنك تتأخرين دائماً فلماذا بكّرت اليوم ؟

— ليست صحتي على ما يرام .

تبعته الى غرفته . وخلع ملابسه الخارجية ، وقال بابتسامة شابها السرور :

— آنا ، لن أعمل في المحكمة بعد اليوم .

— ماذا ؟ أين ستذهب ؟

— الى اللجنة الثورية . لقد تحدثت اليوم مع كريفوشليكوف . وقد وعد بايفادي الى مكان ما في المنطقة .

ثم تناولا عشاءهما سوية ، وبعد ذلك استلقى لينام . ولكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع النوم من شدة اضطرابه ، وظل راقداً يدخّن ، ويتقلب على الفراش الخشن ، ويتأوه بسرور . لقد تنفس الصعداء لتركه المحكمة ، فقد شعر أنه لن يمضي طويل وقت حتى تنهد أعصابه . وكان قد انتهى من سيكارته الرابعة عندما تناهى الى سمعه صرير الباب الخفيض . ولما رفع رأسه ، رأى آنا .

فمرقت عبر عتبة الباب حافية القدمين لا يسترها سوى قميصها الداخلى ، واقتربت من فراشه بهدوء ، ومن خصاص صفاقة النافذة سقط ضوء القمر الأخضر الضبابى على كتفها العارى . انحنت فوقه ووضعت يداً دافئة على شفتيه .

— تزحزح . . . بهدوء . . .

واستلقت بجانبه .

ودفعت الى الوراء بنفاد صبر خصلة من شعرها بثقل العنقود ، كانت قد تدلت على جبينها . وتوهجت عيناها بنار زرقاء ، وهمست بصوت قاس معذب :

— سوف أحرم منك ان عاجلاً أم آجلاً . . . أريد أن أحبك بكل جوارحى ، — وارتعدت بشدة من كلامها : — حسناً ، عجل !

فقبلها بونتشوك ، ولكن بهلع ، واستبد به حياء شديد طغى على شعوره الواعى ، فقد أدرك أنه عاجز . وجعل رأسه يهتز ووجنتاه تصطليان عذاباً . وبعد ذلك فكت آنا نفسها وأبعدته عنها مغضبة . وبنفور واشمئزاز فى صوتها تساءلت بهمس بادى الازدراء :

— ألا . . . ألا تستطيع ؟ أم أنك . . . عليل ؟ آه ، يا للشناعة ! . . أتركنى لوحدى !

فعصر أصابعها بقوة ترضرضت بعض الشىء من شدتها ، وحدق فى العتمة الضبابية لعينيها المتسعتين العدائيتين ، وتساءل متلعثماً ، ورأسه يهتز بحركة مفلوجة :

— لماذا ؟ بماذا تدينيننى ؟ أجل ، أحرقت نفسى حتى صرت رماداً ! . . أنا لا أقوى حتى على هذا الشىء فى الوقت الحاضر . أنا لست عليلاً . . . هل تفهمين . . . جربّي أن تفهمى ! لقد استنزفت حتى القعر . . .

وأطلق أنيناً خفيضاً ، وقفز من السرير ثم أشعل سيكارة . ووقف أمام النافذة وقتاً طويلاً مهدّل الكتفين . . .

نهضت آنا وطوقته بهدوء ، ثم قبلته على حاجبه برفق كما تفعل الأمهات .

وبعد أسبوع ، اعترفت آنا وهى تخفى وجهها الملتهب تحت ابطه :

— ظننت . . . أنك كنت . . . مع غيرى . . . ولم أدرك أن العمل قد استنزفك الى هذا الحد .

منذ ذلك الحين ما عاد بونتشوك يشعر بتدليل امرأة محبة فحسب ، بل بعناية دافئة دفاقة توليها اياه أم رؤوم .

ولم يوفد الى الريف . فقد أصر بودتيلكوف على بقائه فى روستوف . وكانت لجنة الدون الثورية تفور نشاطاً ، واستعداداً لعقد مؤتمر سوفييتات اقليمى وفى كفاحها ضد ثورة الردة التى ذر قرنها فى منطقة الدون .

٢١

كانت الضفادع ترسل نقيقها وراء الصفصاف النابت على شاطئ النهر . والشمس تغرب خلف تلة وطيئة ، وكانت قرية سيبتراكوف تتلفع ببرودة المساء . وعلى الطريق الترابى امتدت الظلال المائلة للبيوت . وكانت ماشية القرية تتهادى قادمة من السهب ، تستحثها النساء القوزاقيات بالعصى ، ويتبادلن القيل والقال أثناء سيرهن . وكان الأطفال الحفاة وقد لفحتهم الشمس ، يلعبون لعبة الدباخ *

---

* وهى لعبة (السنيلة) كما تسمى فى بغداد ، حيث يطأطئ اللاعب فيها رأسه ليقفز من فوقه الآخرون . **المترجمون** .

فى الأزقة . وجلس الشيوخ من الرجال بوقارهم على الدكات أمام البيوت .

كانت القرية قد فرغت من بذار الربيع ، خلا أماكن هنا وهناك كانوا يبذرونها ذرة وعباد الشمس .

كان فريق من القوزاق جالسين على كومة من جذوع البلوط قرب أحد المنازل فى ضاحية القرية . وكان رب البيت ، وهو جندى مدفعى مجدور ، يروى حادثة عن الحرب الألمانية . وكان مستمعاه ، وهما جار عجوز وصهره ، قوزاقى شاب متجعد الشعر ، ينصتان اليه بصمت . وقدمت زوجة المدفعى ، وهى امرأة حسناء طويلة القامة ، مكتنزة ، هابطة الدرجات . كان كمّا قميصها الوردى المحشور فى تنورتها ، قد طويا حتى المرفقين وكشفا عن ذراعيها السمراوين الجميلتين . ومضت وهى تحمل وعاء الى الحظيرة بخطوات طليقة جريئة رشيقة تتميز بها القوزاقيات . وكان شعرها قد أفلت من عصابتها البيضاء الضاربة الى الزرقة (لقد فرغت لتوها من اعداد الموقد لتشعله فى الصباح) وكان صندلها الذى انتعلته قدماها العاريتان يصطفق ، أثناء وطئها الرقيق على الحشيش الفتى الذى يغطى الفناء .

وتناهى الى مسامع القوزاق صوت الحليب الرنّان يشخب فى الوعاء . واذ فرغت المرأة من الحلب ، انحنت الى الأمام قليلاً ويدها اليسرى مقوسة الى الأعلى مثل عنق أوزة ، وحملت الوعاء الملىء بالحليب وعادت به الى المنزل . ونادت من على الدرجات :

— يحسن بك ياسيميون أن تذهب وتبحث عن العجل .

فأجابها زوجها :

— وأين هو ميتكا ؟

— الشيطان يدرى ، لقد انسل الى مكان ما .

ونهض القوزاقى متباطئاً وذهب الى منعطف الشارع . ونهض العجوز وصهره أيضاً ليذهبا الى بيتهما . بيد أن القوزاقى ناداهما من المنعطف :

— أنظر يا دوروفى غافريليتش ! تعال الى هنا !

فذهب الرجلان شطر القوزاقى ، الذى أشار بصمت الى السهب . كان ثمة طابور من المشاة ، وخيالة ، وعربات تتقدم وسط مثار من النقع الاحمر طوال الطريق .

فضيق العجوز حدقتى عينيه منذهلاً ووضع كفه فوق حاجبيه الابيضين وقال :

— يبدو أنهم جنود .

فقال القوزاقى وفى صوته نبرة خيفة :

— من عساهم يكونون ؟

وقدمت زوجته من بوابة الفناء ، وقد ألقت سترتها على كتفيها . وتطلعت الى السهب فشهقت بقلق :

— من هم ؟ رحماك يا رب ، ما أكثرهم !

— مجيئهم لا يبشر بخير ، هذا أكيد . . .

ومضى العجوز الى الفناء ونادى صهره بصوت غاضب :

— أدخل الى الفناء ، لا حاجة للوقوف والتطلع !

وهرعت النسوة والأطفال الى المنعطف ، تتبعهم جماعات من القوزاق . وانعطف طابور الجند فى الطريق عبر السهب على بعد حوالى الفرسخ من القرية . وحملت الريح أصواتهم وزنخرة خيلهم ، وجلبة العربات .

قالت زوجة المدفعى لزوجها :

— انهم ليسوا قوزاقاً ، ليسوا منا .

فهزّ كتفيه :

— بالطبع ليسوا قوزاقاً . وربما كانوا ألماناً ؟ كلا ، انهم روس ، أنظرى ، بوسعك أن ترى عَلَمهم الأحمر . . . هكـــذا اذا . . .

واقترب قوزاقى طويل . كان يبدو عليه أنه مصاب بالملاريا ، فقد كان أصفر بلون الرمل وقد تلفع بفروة وارتدى جزمة من اللباد . رفع قبعته الفرو الشعثاء وقال :

— هل ترون ذلك العَلَم ؟ انهم بلاشفة .

— أجل انهم لكذلك .

وانطلق عدة فرسان من الطابور ، يذهبون باتجاه القرية . وتبادل القوزاق النظرات وأخذوا ينحسرون بهدوء ، وتفرق الأطفال والصبايا كل الى حال سبيله . ولم تمضِ بضع دقائق حتى خلا الشارع . وجرى الفرسان الى القرية وصاروا عند البلوط حيث كان يجلس القوزاق الثلاثة قبل بضع دقائق . كان المدفعى واقفاً عند بوابة فنائه . فتقدم نحوه قائد الفرسان مرتدياً قبعة كوبانية ومتخصراً بوشاح قرمزى كبير من الحرير حول قمصلته الخاكية المحزمة وهو يمتطى فرساً فحماء :

— مرحباً أيها القوزاقى ! افتح البوابة !

فشحب القوزاقى ورفع قبعته :

— ومن عساك تكون ؟

فصاح الجندى :

— افتح البوابة ! . .

وجعلت الفرس ترفس فى السياج المصنوع من الأغصان بقادميتها ، وهى تعضعض اللجام وقد نمت عيناها عن نظرة خبيثة . وفتح القوزاقى فتحة البوابة ، فدخل الفرسان واحداً فى اثر واحد على صهوات جيادهم . وقفز قائدهم هو الذى كانت قبعة كوبانية على

رأسه من على سرجه بخفة وخطا نحو الدرجات . وجلس عليها قبل أن يترجل الآخرون ، ثم أشعل سيكارة وقدم علبته للقوزاقى فرفض الرجل .

— ألا تدخن ؟

— كلا ، شكراً .

— أنتم لستم من طائفة المؤمنين القدامى ؟

— كلا ، نحن أرثذوكس . وما عساكم تكونون ؟

— من نحن ؟ الحرس الأحمر التابع للجيش الاشتراكى الثانى .

وتقدم بقية الفرسان نحو الدرجات وهم يقودون جيادهم . ويربطوها الى الحظار* . ومضى أحدهم الى زريبة الخراف ، وهو رجل طويل تدلى شعره المتسخ مثل عرف الحصان على حاجبه . وفتح البوابة كأنه رب الدار ، وانحنى الى الأسفل ، وجعل يبحث فى أرجاء الزريبة ، فجر خروفاً كبيراً من قرنيه . وصاح بصوت عال مصطنع :

— تعال يا بيوتر وساعدنى .

وهرع الى مساعدته جندى يرتدى معطفاً نمساوياً . فجفل رب الدار القوزاقى يمسد لحيته ويتطلع حواليه وكأنه ليس فى بيته . ولم ينبس ببنت شفة ، انما راح يحمحم ودخل المنزل صاعداً الدرجات ، فيما طوى الخروف ساقيه الرفيعتين بعد أن نحرت رقبته بسيف .

ومضى فى أثره الجندى ذو القبعة الكوبانية وآخران ، أحدهما صينى والآخر روسى ، الى المطبخ . وصاح القائد بلا مبالاة وهو يجتاز العتبة :

* سياج الحظيرة . المترجمون .

— لا تغضب يا مالك ، فسوف ندفع لك نقـــوداً كثيرة .

وصفق يده على جيب بنطاله وقهقه عالياً . ولكن قهقهتـــه جمدت فى الحال عندما وقع بصره على زوجة القوزاقى . كانت واقفة أمام الموقد ، ترمقه بعينين مرتعبتين ، وقد زمت على أسنانها .

فالتفت الى الصينى وقال له وعيناه تحومان حول المطبخ بقلق :

— اذهب أنت مع هذا الرجل ، — وأشار الى القوزاقى . — اذهب معه ، فسوف يعطيك تبناً للجياد . اعطنا بعض التبن ، — والتفت الى القوزاقى وقال : — سوف ندفع نقوداً كثيرة مقابل ذلك . ان الحرس الأحمر لا يستلب أحداً البتة . اذهب ، أيها القوزاقى ، اذهب ! — قال ذلك بصوت ذى رنة فولاذية .

وخرج القوزاقى من المنزل وهو يسترق النظر من فوق كتفه ، وبصحبته الصينى والجندى الآخر . وعندما شرع يهبط الدرجات سمع زوجته تناديه بصوت ناشج . فجرى عائداً نحو المجاز وارتمى على الباب ، وانفتح المزلاج بيسر . كان الجندى قد أمسك بذراع المرأة فوق مرفقها العارى وجعل يجرها الى الغرفة الأمامية التى هبط عليها نور الغسق . وكانت تقاومه وتدفع صدره بيديها . وكان على وشك أن يضع ذراعيه حول خصرها ويحملها ، غير أن الباب فتح فى تلك اللحظة . فهرع القوزاقى عبر المطبخ ووضع نفسه أمام زوجته . وقال بصوت جاف وخفيض :

— جئتَ الى بيتى زائراً . . . فعلام تتعرض لزوجتى ؟ أتركها . أنا لا أخاف بنادقكم . خذوا أى شىء تبتغون ، اسرقوا كل شىء ، ولكن لا تمسوا زوجتى . لن تفسق مع زوجتي وأنا على قيد الحياة . وأنت ، يا نيورا . . . — والتفت الى زوجته ومنخراه

يرتعشان : — اذهبي الى بيت العم دوروفى . فلا معنى لبقائك هنا .

فابتسم الجندى ابتسامة شوهاء وهو يصلح وضع السير على قميصه :

— انك تتزعج بسرعة أيها القوزاقى ، الى حد أنك لا تدع امراءاً يمزح قليلاً . فأنا أحب المزاح ، وسريتي كلها تعرف مزاجي . . . وقد فعلت ذلك عمداً . فقد قلت فى نفسى : «لأجالس المرأة» ، ولكنها شرعت بالعياط . ألا تدعنا نأخذ بعض التبن ؟ لا يوجد ؟ حسناً ، هل لدى جارك شىء منه ؟

وخرج يصفر ويلوح بسوطه بشدة . وبعد ذلك بقليل دخلت الوحدة بكاملها القرية . كان تعدادها حوالى ثمانمائة حربة وسيف . وقد أعد الحرس الأحمر العدة ليبيت الليلة خارج القرية . فقد كان جلياً أن الآمر لم يكن ليأتمن جنوده الشذاذ والمتسيبين اذا قضوا الليلة فى القرية .

كانت وحدة تيراسبول التابعة للجيش الاشتراكى الثانى قد هزتها المعارك التى خاضتها ضد الهيداماك وضد جيش الاحتلال الألمانى الذى كان يتحرك عبر اوكرانيا ، فشقت طريقها القهقرى الى الدون ، واذ تخلت عن طريق السكك الحديد ، حاولت أن تأخذ طريقها المنعطف الى فورونيج فى الشمال سيراً على الأقدام لأن الألمان قد استقروا هناك قبلهم ، وقد ازداد تهور الحرس الأحمر أثناء ذلك ، تشجعهم العناصر الاجرامية التى تكاثرت فى صفوفهم . وفى تلك الليلة ، تدفقوا زرافات على القرية ، رغم أوامر ووعيد قيادتهم ، وذبحوا الخراف ، واغتصبوا امرأتين قوزاقيتين فـــى الضواحى ، وراحوا يطلقون النار فى الساحة دونما مبرر ، فجرح أحد من جنودهم . وفى الليل شربوا من الكحول الذى كانوا يحملونه معهم ، على كل عربة .

وأثناء ذلك أرسل ثلاثة قوزاق على الخيل من أهل القرية ليستنفروا القرى المجاورة .

فأسرج القوزاق جيادهم فى عتمة الليل ، وحملوا سلاحهم ، وجمعوا بسرعة مفارز من قوزاقى خط الجبهة دون أن يستثنوا الكهول . وهرعوا الى سيتراكوف تحت قيادة ضباط وحتى رؤساء عرفاء من أهالى القرى ، وأحاطوا بالحرس الأحمر مختبئين فى الوهاد أو خلف المرتفعات . كما توافدت خلال الليل جماعات من الرجال من سائر انحاء القرى المتاخمة .

وتلاشت نجوم الثريا فى السماء . وفى الفجر انهدت سيول من فرسان القوزاق بزئيرها على الحرس الأحمر من كل جانب . ولعلع رشاش ، ثم تلاشى صوته ، ثم انطلق ينفث ناراً وحشية على غير ما اتفاق من جديد ، ثم ما لبث أن عاد الى هدأته ، وجرى بعد ذلك طعان عن قرب .

ولم تمض ساعة من الزمن حتى قضى الأمر ، فقد هزمت الوحدة شر هزيمة ، وقتل أكثر من مائتين ، وأسر حوالى خمسمائة . ووقعت فى أيدى القوزاق بطاريتان تتألف كل منهما من أربعة مدافع ، وستة وعشرين رشاشاً ، وآلاف البنادق وكميات كبيرة من المعدات العسكرية .

وفى اليوم التالى انطلق الرسل على خيلهم يحملون الرايات الحمر فى كل مكان . وراحت القرى تمور بالحركة . وطردت مجالس السوفييتات شر طردة ، وسرعان ما انتخب الأتمانات . ولم يحل شهر أيار حتى انفصلت المناطق العليا من اقليم الدون كلياً عن اللجنة الثورية . واختيرت فيشينسكايا الآهلة بالسكان مركزاً للمنطقة الجديدة التى سميت «بالدون الأعلى» . وشرعت منطقة الدون الأعلى التى تضم اثنتى عشرة منطقة قوزاقية ومنطقة أوكرانية ، تحيا حياتها

المستقلة ، بمعزل عن المركز الرئيسى لاقليم الدون . وانتخب فى الحال قوزاقى من منطقة يلانسكايا ، وهو جنرال يدعى زاخار أكيموفيتش ألفيوروف ، أتماناً للمنطقة . وقد قيل انه كان قد شق طريقه من ضابط قوزاقى عسير الحال الى مرتبة الجنرالية بفضل زوجته ليس الاّ ، وهى امرأة ذكية نشطة . كما قيل انها كانت تجر بعلها غير الموهوب من أذنيه ولم تكن تدعه يحيا فى سلام الا عندما دخل الأكاديمية العسكرية اثر ثلاث محاولات فاشلة .

ولئن كان ألفيوروف مثار حديث ما فى تلك الأيام ، فلم يجر ذلك على نطاق واسع . ذلك أن أذهان القوزاق كانت منشغلة بأشياء أخرى .

٢٢

كانت مياه الفيضان آخذة بالانحسار من الحقول . وبدت الأرض السمراء عند أسيجة الحدائق جرداء تحف بها أعواد القصب اليابس ، والأغصان ، والأوراق الميتة التى خلفها الفيضان . وأخذ الصفصاف المنفوش عند أجمات شاطئ الدون التى اكتسحها الفيضان يخضوضر ، وتتدلى الأزهار على شكل اقراط فى أطراف الغصون . وأوشكت براعم أشجار الحور أن تتفتق . وفى أفنية حقول القرية تدلّت عساليج الصفصاف الأرجوانى خفيضة فوق الغدران ، وبراعمها الصفر تغتسل فى الماء الذى تعابثه الريح ، كالزغب الذى يعلو فراخ البط . وعند الفجر تقترب أسراب الأوز فى سباحتها من الأسيجة بحثاً عن الطعام ، يبطبط الغطاس * ذو الصوت النحاسى فى المياه المتخلفة . وعند الظهيرة تعابث أمواج الدون التى تدفعها الريح البط البرى الأبيض .

* طائر كالبط . **المترجمون** .

وشهدت تلك السنة مرور أعداد غثيرة من الطيور . وكان الصيادون القوزاق يشاهدون على غير ما ألفوه طائر البجع البرى مستريحاً فى غياض الغابات ، وهم يمضون بزوارقهم الى شباكهم فى الفجر ساعة تصبغ حمرة الغسق الخمرية الماء بنجيعها . بيد أن الأخبار التى عاد بها خريستونيا وماتفى كاشولين الى القرية كانت تفوق كل الغرائب . فقد ذهبا الى غابة الحكومة بالعربة لينتقيا زوجاً من شتل البلوط لأغراض الزراعة ، وحينما كانا يشقان طريقهما خلل أجمة أفزعا معزى برية وجديها الصغير . فقفزت المعزى العجفاء البنية الحائلة الى صفار من وهدة غطاها نبات الشوك والحسك * ووقفت تحدّق فيهما بضع لحظات ، وأرجلها الرشيقة ترقص بارتباك ، وجديها ملتحق بها . واذ تناهت اليها شهقة خريستونيا المستغربة ، مرقت خلل شتلات البلوط بسرعة ووجد القوزاقيان صعوبة ان لمح حوافرها الرمادية الزرقاء وذنبها البنى بلون وبر الجمال .

فتساءل ماتفي كاشولين وقد ترك الفأس تسقط منه من شدة دهشته :

— ماذا كان ذلك ؟

فأطلق خريستونيا صوته فى الغابة التى يلفها سكون ساحر ، وقد تملكه سرور لا يوصف :

— لا بد أنها معزى . معزى برية ! شاهدت أمثالها فى جبال الكربات .

— اذاً لا بد أن الحرب قد ساقتها الى سهوبنا .

ولم يكن من خريستونيا الا أن يوافقه قائلاً :

— لا بد أن هذا هو السبب . ثم ألَمْ تر الجدى معها ؟ مشهد جميل ، اللعنة عليه ! كأنه طفل مع أمه !

* الحسك : هو نبات شائك . المترجمون .

وظلا طوال طريقهما الى القرية يتحدثان عن هذا الزائر العجيب الذى طرأ على المنطقة . وأخذت الوساوس تساور ذهن ماتفى العجوز :

— ولكن أين قرونها لو كانت معزى ؟

— وما حاجتك الى القرون ؟

— لا حاجة الى القرون ! للسؤال فقط : ان كانت معزى فلماذا لم تبد كالمعزى ؟ هل شاهدت فى حياتك معزى دونما قرون ؟ تلك هى الحكاية . لعلها كانت ضرباً من النعـــاج البرية .

فتصدى له خريستونيا قائلاً :

— تخطيت زمانك أيها العجوز ! اذهب الى آل ميليخوف . لفتاهم غريغورى سوط مصنوع من ساق معزى . وحينذاك ستصدق ما أقول ؟

وعمد ماتفى العجوز بالفعل الى زيارة آل ميليخوف فى اليوم نفسه . لقد كانت عصا سوط غريغورى حقاً مغطاة بجلد ساق معزى برية ، وقد بقى حتى الحافر الدقيق فى طرفها ، منعلاً بشكل حاذق بنعل نحاسى .

وفى يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير لعيد الصيام الكبير ، خرج ميشا كوشيفوى باكراً فى الصباح ليتفحص الشباك التى وضعها فى النهر قرب الغابة . وقد غادر المنزل قبل الفجر . وكان زمهرير الصباح قد لسع الأرض فغطاها بقشرة رقيقة من الجمد ، راح يخشخش تحت قدميه . سار ميشا وعلى كتفه مجذاف كبير ، وقد انزاحت قبعته الى مؤخرة رأسه ، ودس سرواله فى جوربيه الصوفيين الأبيضين ، وهو يتنشق هواء الصباح المسكر وشذى الرطوبة الثقيلة . ودفع زورقه وجعل يجذّف بسرعة ، ووقف يشد على المجذاف بقوة .

فنقب فى شباكه ، والتقط السمك من الشبكة الأخيرة ، ثم ألقى بها الى الماء ثانية ، وطاب له أن يدخن وهو يجذف على مهل فى طريق عودته . كانت السماء تتشرب بحمرة الغسق ، فيما لاحت من ناحية الشرق بزرقتها الضبابية وكأن أسفلها قد رش بالنجيع . وطفحت الحمرة فوق الأفق واستحالت لوناً عسجدياً صدئاً . وراقب ميشا وهو يشعل سيكارته ، طيراناً بطيئاً لطائر غطاس . وانضفر الدخان وانعقد حول أغصان الشجر ، ثم ما لبث أن انساب كتلاً كالغمام . وتفحص صيده — ثلاث سمكات صغيرة ، وشبوطاً يزن حوالى ثمانية باونات ، وكومة من أحراش السمك — وقال فى دخيلته :

«يجب أن أبيع بعضاً منه . ستبادله لوكشكا الحولاء بشىء من الكمثرى المجففة . وأمى ستطهيه» .

وجذف وهو يدخن حتى بلغ المرسى . فألفى رجلاً جالساً عند سور البستان الذى ترك القارب أمامه . وتساءل من عساه يكون حينما كان يجذف بالقارب جذفاً قوياً متساوقاً . وحينما اقترب قليلاً ألفى أنه الولد ، جالساً القرفصاء على عجيزته ويدخن سيكارة هائلة لفت من ورق الجرائد . والتمعت عيناه الصغيرتان الماكرتان وسناً ، ونما على وجنتيه دغل مربد من الشعر .

ناداه ميشا صائحاً : — ماذا تريد ؟ — وتواثب صوته فوق الماء مثل الكرة .

— اقترب .

— هل تريد بعض السمك ؟

— ما حاجتى بالسمك ؟

واهتز الولد بنوبة من السعال ، وراح يبصق بعنف ، ثم استوى واقفاً على مضض . فتهدل معطفه الذى لا يناسبه مثل سترة على

فزاعة * . وكانت أذناه الغضروفيتان الحادتان تغطيهما طيتا قبعته العاليتان . ولم يكن قد عاد الى القرية الا حديثاً ، تصحبه شائعة تفيد أنه كان فى الحرس الأحمر . فقد سأله القوزاق أين كان مذ سرح ، غير أن الولد كان يراوغ فى اجابته ، متحاشياً الاسئلة الخطيرة . وقد اعترف لايفان اليكسييفتش وميشا كوشيفوى أنه قضى أربعة أشهر فى مفرزة من الحرس الأحمر فى أوكرانيا ، وقد أسرته القوات الأوكرانية القومية ، وهرب ثم التحق بالجيش الأحمر قرب روستوف ، أمّا الآن فقد منح نفسه اجازة ليستريح ويستعيد قواه .

رفع الولد قبعته ، ومسد شعره الخشن ، وتلفت حواليه ، ثم تقدم من الزورق ودمدم قائلاً :

— هناك أمور سيئة تجرى فى البلد . . . سيئة جداً ! أترك صيد السمك ! والا فسوف نظل نصيد ونصيد وننسى كل شىء آخر .

— ماذا عندك من أخبار ؟ قل لى ! — تساءل ميشا وهو يشد على يد الولد بقبضته الزفرة ويبتسم ابتسامة حارة ، فقد كانا صديقين حميمين منذ زمن طويل .

— يوم أمس حُطم الحرس الأحمر قرب ميكولنسكايا . بدأ القتال شديداً ، أيها الأخ ! الريش يتطاير ! . .

— أى حرس أحمر ؟ كيف بلغوا ميكولنسكايا ؟

— كانوا مارين بالمنطقة ، فانقضّ عليهم القوزاق وساقوا الأسرى الكثيرين الى كارغين . وسرعان ما أقاموا محكمة عسكرية هناك . واليوم سيجندون كل شخص فى تاتارسكى . لا بدّ انهم سيقرعون الناقوس هذا الصباح .

---

* الفزاعة أو الخراعة باللهجة العراقية ، أى الدمية التى توضع فى الحقل لصد الطيور . **المترجمون** .

وربط كوشيفوى قاربه ، وأفرغ السمك فى سلة ، ثم مضى يسير بخطوات واسعة . ودرج الولد يهبع أمامه مثل مهر صغير ، وأذيال سترته تتطاير ، وذراعاه يتأرجحان .

— أخبرنى بذلك ايفان اليكسييفيتش . أعفانى من العمل لتوه ، فقد كانت الطاحونة تعمل طوال الليل . لقد التقط الخبر من فم الرسول . جاء ضابط من فيشنسكايا وحل عند آل موخوف .

فلاحت على وجه ميشا الذى أنضجته وأذبلته سنوات الحرب ، ملامح القلق . ورمق الولد مخاوصاً عينيه :

— والآن ماذا سيحدث ؟

— يجب أن نهجر القرية .

— الى أين ؟

— الى كامنسكايا .

— ولكن القوزاق البيض هناك .

— اذن نمضى أبعد منها يساراً .

— وكيف نصل الى هناك ؟

— يمكن تدبير ذلك اذا أردت . والا ، فابق حيث سيتشمّمك الشيطان في كل مكان تأدي اليه ! — ثم زمجر الولد فجأة وأردف : — «الى أين» و«الى أين» ! كيف لي أن أعرف ؟ تلفت حواليك قليلاً وسوف تجد جحراً يأويك .

— لا تصرخ ! هل تعرف ما هو قدر العصبيين مثلك ؟ ماذا يقول ايفان ؟

— لا تستطيع ان تزحزح صاحبك إيفان . . .

— لا تصرخ ! فهناك امرأة تعاين .

وتطلعا بحذر الى امرأة شابة تسوق بقرات خارج فناء أحد الدور . ثم استدار ميشا على عقبيه فى أول ملتقى طريق . فسأله الولد مستغرباً :

— أين تراك ذاهباً ؟

فدمدم ميشا دون أن يلتفت الى الوراء :

— انى ذاهب لأخرج شباكى .

— لماذا ؟

— لا أريد أن أفقدها .

فقال الولد بسرور :

— اذن فسوف نذهب ؟

ولوح ميشا بمجذافه وقال وهو يبتعد :

— اذهب الى ايفان اليكسييفتش ، أمّا أنا فسوف آخذ شباكى الى البيت ثم ألتحق بكم .

كان ايفان اليكسييفتش قد استطاع بالفعل أن يبلغ القوزاق الميالين الى جانبه بالخبر . وأرسل ابنه الصغير الى آل ميليخوف ، فعاد معه غريغورى ، وحضر خريستونيا دون أن يبلغ ، كأنما كان لديه هاجس لتكهن الأمور . والتحق بهم كوشيفوى بعد قليل ، وشرعوا يتدارسون الموقف . كانوا يتكلمون جميعاً فى وقت واحد ، وبعجالة ، متوقعين كل لحظة أن يطرق سمعهم ناقوس الخطر .

فحثهم الولد قائلاً بانفعال :

— يجب أن نرحل فى الحال . نحزم حاجياتنا ونذهب .

فحاججه خريستونيا قائلاً :

— قدّم لي الاسباب .

— أي أسباب ؟ واذا قاموا بالتجنيد ؟ لماذا تعتقد أنك ستنجو منه ؟

— لن أذهب ، وهذا كل ما فى الأمر . . .

— سوف يأخذونك !

— فليجربوا ! أنا لست ثور حراثة .

فأرسل ايفان اليكسييفتش زوجته الحولاء خارج الدار ، ثم زنخر مغضباً :

ـــ سوف يأخذونك . الولد على صواب . لكن الى أين تذهب ؟ تلك هى المسألة .

فقال ميشا متحسراً :

ـــ ذلك هو ما سبق وأن قلته له .

فنبّ الولد قائلاً :

ـــ حسناً ، افعل حسبما تشاء . هل تعتقد أن لى حاجة بكم ؟ سوف أرحل بمفردى . فأنا لا أريد جبناء معى . «نعم ، ولكن لماذا ؟ !» و«نعم ، ولكن الى أين !» . سيلقنونكم درساً حامياً ويلقون بكم فى السجن بتهمة البلشفية . كيف يمكنكم أن تقضوا الوقت مازحين ، وفى مثل هذه الأوقات ؟ سيذهب كل شىء الى الشيطان !

فقاطعه غريغورى ميليخوف قائلاً ببرودة وهو يقلب فى يديه بتأمل وغضب مكتوم مسماراً صدئاً انتزعه من الحائط :

ـــ على مهلك ! ان وضعك مختلف ، إذ ليس لديك هنا ما يشدك ، وتستطيع أن تذهب أنى تشاء ! أمّا نحن فعلينا أن نتبصر فى الموضوع بتروّ . ان لديّ زوجة وطفلين صغيرين . وقد شممت من البارود أكثر مما تشم أنت طوال حياتك ! ـــ وضيق عينيه السوداوين الغضوبين ، وكشر عن أسنانه القوية ، وصاح :

ـــ تستطيع أن تلجم لسانك يا تافه ! ذاك هو أنت كشأنك دائماً . فلست تملك الا ما عليك من أسمال . . .

فصرخ الولد :

ـــ على من تزمجر ؟ وتتباهى بخلق الضباط ! لا تصرخ ! أنت لا تساوى عندى قلامة ظفر !

واستحال وجهه البارز الصغير أبيض من شدة الغضب ، والتمعت عيناه الصغيرتان الصارمتان بحزن ، وبدا وكأن شعر خدّيه الأبلق يتحرك .

لقد صب عليه غريغورى الغضب الذى استبد به لدى سماعه نبأ الاصطدامات بين القوزاق والحرس الأحمر فى المنطقة وأغضبته صرخة الولد الى أقصى حد . وقفز كمن أصيب بضربة ، ووثب الى حيث كان الولد يتململ على مقعده ، وهتف وهو يكبح رغبته فى ضربه :

ـــ اخرس ، أيها الثعبان الصغير ! يا سافل يا حقير ! يا جذمة الانسان ، على من تتأمر ؟ اذهب حيث تسير بك عجيرتك . انقشع كيلا تبقى جيفتك هنا ! واخرس والا فسوف ألقنك درساً تتذكرنى به . . .

فتدخل كوشيفوى وقال وهو يدفع قبضة غريغورى عن أنف الولد :

ـــ دعك من هذا يا غريغورى ! فما هكذا يعالج الأمر !

ـــ ينبغى أن تقلع عن هذه العادات القوزاقية ! ألا تخجل ؟ عار عليك يا ميليخوف ! عار عليك !

ونهض الولد ومضى صوب الباب وهو يسعل فى ارتباك . ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه عند العتبة ، فالتفت الى الوراء ، وسلط لسانه على غريغورى الذى كان يبتسم بشراسة :

ـــ وكان فى الحرس الأحمر ! أنت أيها الجندرمة ! نحن أعدمنا رجالاً مثلك .

وعند ذاك لم يستطع غريغورى السيطرة على نفسه هو الآخر . فقذف بالولد حتى سقيفة الباب وهو يسير على عقبى جزمته التالفة وصاح متوعداً :

— انقشع والا خلعت عنك ساقيك !

فهز ايفان اليكسيفتش رأسه استهجاناً وصوب نظرة عداء على غريغورى وقال :

— لا حاجة الى كل هذا . أنتما تتصرفان كطفلين .

وظل ميشا صامتاً يعض شفتيه ، وهو ، كما يبدو ، يجاهد ليكتم الكلمات الغضوب التى كانت على طرف لسانه .

وحاول غريغورى أن يبرر تصرفه دون أن يخلو كلامه من الارتباك :

— لا يتكلف بما لا يعنيه . . . لماذا انجرف هـــذا الانجراف ؟ — فألقى خريستونيا عليه نظرة ودّية ، فاستجاب غريغورى لنظرته بابتسامة طفولية ساذجة وأضاف :

— كدت أن أضربه ! ولكن من عسانى أضرب ؟ ضربة واحدة ، ثم لا يبقى منه شىء !

— حسناً ، ماذا ترى ؟ يجب أن نتوصل الى قرار .

فتململ ايفان اليكسيفتش ازاء النظرة الثابتة لميشا كوشيفوى الذى طرح السؤال ، ثم أجاب متمهلاً :

— حسناً ، يا ميخائيل ، ان غريغورى مصيب الى حد ما . كيف نستطيع أن نأخذ حوائجنا ونهرب ؟ فإن لنا عوائلنا ويجب أن نفكر بها . ولكن انتظروا لحظة ، — وراح يتكلم بسرعة عندما لمح ميشا يتململ : — من المحتمل ألا يقع شىء . . . من يدرى ؟ فقد شتتوا الوحدة فى سيتراكوف ، ولن تقدم أخريات . بوسعنا الانتظار قليلاً . لديَّ زوجة وطفل ، وملابسنا خلقة وليست لدينا ذرة طحين . فكيف أستطيع أن أذهب ؟ من سيعنى بهما ؟

فرفع ميشا حاجبيه وسمر عينيه على الأرضية الترابية وقد استبد به الحنق :

— اذا ، فأنت لا تفكر فى الذهاب ؟

— الأفضل أن ننتظر . فلم يفت أوان الرحيل أبداً . ماذا ترى يا غريغورى ، وأنت يا خريستونيا ؟

فراح غريغورى يتحدث بمزيد من الهمة ، بعد أن لمس تأييداً غير منتظر من ايفان وخريستونيا :

— لماذا ، طبعاً ، ذاك هو ما قلته بالضبط . وذاك هو ما تخاصمت مع الولد من أجله . فالأمر ليس بمثل هذه السهولة . واحد ، اثنان ، ثم نذهب ؟ علينا أن نتبصر بالموضوع . . . أجل ، نتبصر . . .

وما ان فرغ من كلامه حتى انطلقت رنة مفاجئة من ناقوس برج الكنيسة ، وطفح الصوت فوق الساحة ، والشوارع ، والأزقة . وتدحرج الرنين فوق سطح مياه الفيضان البنى ، وفوق منحدرات التلال الكلسية الرطبة ، متناثراً شبه حبات البازلاء ليتلاشى فى الغابة . ثم ما لبث ان انبعث ثانية ، كنذير مستديم هذه المرة :

— دان ، دان ، دان ، دان . . .

فطرفت عين خريستونيا وقال :

— تلكم هى ! أنا ذاهب الى زورقى . لأمضى الى الجانب الآخر ثم الى الغابة . وليعثروا عليَّ هناك !

ونهض كوشيفوى متثاقلاً مثل رجل عجوز :

— حسناً ، وماذا الآن ؟

فأجاب غريغورى عن الآخرين :

— لن نذهب الآن .

ورفع ميشا حاجبيه مرة أخرى ، وأزاح خصلة شعره الذهبية عن ناصيته ، وقال :

— حسناً ، وداعاً . . . يبدو وكأن سبلنا مختلفة الاتجاهات .

فندت عن ايفان اليكسيفتش ابتسامة اعتذار :

ـــ أنت شاب يا ميشا ، حاد الطبع ، أو تحسب أنهم لن يفروا سوية بعدئذ ؟ انهم سيفعلون ذلك ! كن واثقاً من ذلك !

ثم ودع كوشيفوى الآخرين وخرج . ويمم وجهه عبر الباحة الى ساحة درس الحبوب . فألفى الولد مقرفصاً فى الساقية ، كأنه قدر أن ميشا سيتخذ ذلك الطريق . فنهض ليقابله ، وسأله :

ـــ حسناً ؟

ـــ لقد رفضوا .

ـــ كنت أدرى أنهم سيفعلون ذلك . انهم ضعفاء . . . أمّا غريشا ، صديقك ذاك ، فهو كلب نتن ! شيطان سليط ان كان هناك شياطين . لقد أهانني ، الخنزير ! لا لشيء الا لأنه أقوى منى . لم يكن معى سلاح ، والا لقتلته ، ـــ قال ذلك بصوت مدندن .

فنظر ميشا الى شعره الدغلى الخشن وقال فى نفسه وهو يحث خطوه الى جانبه : «وكان يمكن أن يفعل ذلك هو الآخر ، ابن العرس !» .

وسارا بسرعة ، تلفحهما كل ضربة من ضربات الناقوس .

اقترح كوشيفوى :

ـــ لنتعرج على بيتي ولنأخذ شيئاً من الطعام . سنذهب مشياً على الاقدام ، سوف أترك حصانى حيث هو . أليس لديك شيء تأخذه ؟

فقال الولد ساخراً :

ـــ لا أملك شيئاً . فلم أوفر ما يكفى لشراء قصر أو عقار . بل لم أتسلم أية أجور عن الأسبوعين الماضيين . فليسمن بها موخوف العجوز البطين ! كم سيرقص جذلاً لعدم اضطراره الى دفعها !

كان الناقوس قد توقف عن الرنين . ولم يعكر السكون الهامد شيء . كان الدجاج يبحث فى الرماد على قارعة الطريق ، والعجول السمينة تسعى وراء العشب تحت الأسيجة . فالتفت ميشا الى الخلف : كان القوزاق يهرعون الى الاجتماع فى الساحة ، وبعضهم يزرر قمصلاتهم الرسمية أثناء سيرهم . وانطلق خيال صوب الساحة وتجمع حشد عند المدرسة : النساء بتنوراتهن وعصاباتهن البيض ، والرجال كتلة من سواد .

اعترضت سبيلهما امرأة تحمل دلوين ، وأبت العبور أمامهما تطيراً . وقالت مغضبة :

ـــ هيا ، هيا ! لا أريد أن أمر أمامكما .

فحياها ميشا ، تساءلت وقد ندت عنها ابتسامة مشرقة :

ـــ كل القوزاق ذاهبون الى الاجتماع . فالى أين تمضيان أنتما ؟ انكما تسيران فى الطريق المغاير يا ميشا .

ـــ لديَّ بعض الشغل فى البيت .

وعرجا الى زقاق جانبى . وصار بوسعهما أن يريا سقف منزل ميشا : قفص الزرزور وغصن الكرز المشدود اليه يهتز فى الريح . وكانت أذرع الطاحونة على المرتفع تدور ببطء ، ويرفرف قماش قلوعها الخرق ، وتبعث صفيحة السقف المائل قعقعة خفيفة .

لم تكن الشمس قوية ، ولكنها دافئة . وكان نسيم فاتر يهب من الدون . وفى فناء بوغاتيريوف كانت ثمة نسوة يطلين منزلاً مستديراً كبيراً بالطين ويبيضنه استعداداً لعيد الفصح . كانت احداهن تعجن الطين بالروث ، تدور فى حلقة وقد رفعت تنورتها عالياً ، وتجرجر ساقيها المكتنزتين البيضاوين من الخليط اللزج . وقد أمسكت تنورتها بأطراف أصابعها كاشفة عن ربطتي ساقيها وقد حزتا على لحمها فوق ركبتيها . كانت تباهة بمظهرها ، فلفعت وجهها بعصابتها ، رغم أن

الشمس كانت ما تزال خفيضة فى الأفق . وكانت المرأتان الأخريان الشابتان ، وهما كنّتا بوغاتيريوف ، قد صعدتا على السلم تحت السقف المغطى بالقصب ، تبيضان وقد لفعت كل منهما وجهها بعصابة حتى العينين . كانتا تستعملان الفرشاتين جيئةً وذهاباً وقد شمرتا أكمامهما الى ما فوق المرفقين ، ورشاش الطلاء الأبيض يتناثر عليهما . وكن يغنين أثناء عملهن . كانت ماريا ، كبراهن ، وهى أرملة أحد أبناء بوغاتيريوف ، حاطة عينها على ميشا على المكشوف . إنها نمشاء ولكنها امرأة جميلة . انطلقت تغنى بصوت خفيض ، قريب من الصوت الرجالى فى قوته ، وقد ذاع صيته فى القرية :

آه ، ليس هناك من يقاسى أكثر . . .

ورافقتها المرأتان الأخريان ، وتواشجت الأصوات الثلاثة سوية تؤدى الأغنية الساذجة الحزينة المتظلمة باتقان :

مِنْ حبيبى فى الحرب .
مدفعى هو ،
ويفكر فيَّ على الدوام .

ومر ميشا والولد على مقربة من السياج ، ينصتان الى الأنية التى اختلطت بصهيل الخيل القادم من المرج :

ثم وصل خطاب يقول :
ان حبيبى قد قتل .
أوه ، لقد قتل ، حبيبى قتل
وهو يرقد الآن تحت شجيرة .

وتطلعت ماريا الى الأسفل ورنت الى ميشا ، وقد التمعت عيناها الرماديتان الدافئتان تحت عصابتها . وجعلت تغنى بصوت متيم عميق ، وقد أشرق وجهها المرشوش بالطلاء بابتسامة :

وخصلاته ، خصلاته الذهبية
كانت تذروها الرياح .
وعيناه ، عيناه البنيتان الغامقتان . . .
نقرهما زاغ أسحم .

فابتسم ميشا لها على طريقته الرقيقة التى يستعملها مع النساء ، وقال لبيلاغيا التى كانت تعجن الطين :

— ارفعي تنورتك الى الأعلى قليلاً . فلسنا نرى جيداً عبر السياج !

فضيقت عينيها له وقالت :

— تستطيع ذلك ان شئت .

ووقفت ماريا على السلم ويداها على خاصرتها ، وسألته بنبره مغناجة ، وهى تتلفت حواليها :

— أين كنت يا عزيزى ؟

— أصطاد السمك .

— لا تبتعد ، فسوف نذهب الى مخزن الحبوب ونمتع نفسينا .

— يا سفيهة يا قليلة الحياء ! انظري ، فهناك حموك !

فطقت ماريا بلسانها ، وهزت الفرشاة المنقوعة على ميشا وهى تضحك . فتناثرت قطرات الطلاء الأبيض على سترته وقبعته .

وصاحت فى أثرهما المرأة الأخرى وهى تبتسم وتكشف عن أسنان بيضاء بلون الحليب :

— ألا تعيرنا الولد على الأقل ؟ فهو يستطيع أن يساعدنا فى تنظيف البيت ، — وأسرت لها ماريا بشيء فانفجرتا ضاحكتين .

فقطب الولد وقال وهو يحث خطواته :

— أيتها القحبة الداعرة !

بيد أن ميشا صحح كلامه بابتسامة واهنة رقيقة :

— ليست داعرة ، بل مرحة ، — وأضاف بكلمات الأغنية وهو يمر خلال بوابة فنائه : «سأذهب ، بيد أنني سأخلف حبيبتي ورائي ، وداعاً ، وداعاً ، يا حبيبتي ، يا روح قلبي !»

٢٣

بعد رحيل كوشيفوى ظل الآخرون جالسين بعض الوقت دونما كلام . وظل ناقوس الخطر يتأرجح فوق القرية ويهز زجاج نوافذ المنزل . وتطلع ايفان أليكسييفتش الى الخارج خلل النافذة . ولاح على الأرض ظل الصباح الباهت تلقيه السقيفة . واستقر الندى أشهب على الحشيش الناعم . وبدت السماء لازوردية حتى من خلال الزجاج . ونظر ايفان الى رأس خريستونيا المطأطأ وقال :

— لعل هذه ستكون خاتمة الأمر ؟ فقد شتت أهالى ميكولنسكايا شمل الحمر ، ولن يتقدموا أبعد من ذلك . . .

فاختلج جسد غريغورى بكامله :

— كلا ! ما هذه الا البداية ، وسوف يستمرون . حسناً ، هل نذهب الى الساحة ؟

وتناول ايفان اليكسييفتش قبعته ، وقال ليبدد ظنونه :

— حسناً ، لعل الصدأ قد علانا . ميخائيل حامى الرأس ، ولكنه فتى نشيط . انه يحرجنا .

فلم يحر أحد بجواب . ولاذوا جميعاً بالصمت ، ثم عطفوا الى الساحة .

سار ايفان اليكسييفتش ساهماً ، يحدق فى الأرض . لقد أمضّه ظنه بأنه قد اختار الطريق الخاطئ ولم يستجب لنداء ضميره . كان الولد وميشا مصيبين ، كان ينبغى أن يذهبوا جميعهم دونما

تردد . ان محاولاته فى تبرير سلوكه لم تكن ذات جدوى ، فقد بددها نداء سافر لجوج فى دخيلته ، كما يسحق حافر فرس الجليد الرقيق فى المرج . لقد كان الشىء الوحيد الذى استقر عليه رأيه بثبات هو أن يفر الى البلاشفة فى أول سانحة . توصل الى هذا الرأى عندما كان يسير شطر الساحة ، ولكنه لم يخبر غريغورى ولا خريستونيا ، ظناً منه بأن نوازع مغايرة تصطرع فى نفسيهما ، وبات يخشاهما فى أعماق قلبه . لقد خذلوا ثلاثتهم معاً اقتراح الولد ، متذرعين بعوائلهم . بيد أن كلا منهم كان يدرى أن المسوغ لم يكن مقنعا ولم يبرر موقفهم . وقد أحس الآن كل منهم بالحرج أمام الآخرين ، كمن قام بعمل وضيع مخز . ظلوا لاثذين بالصمت ، ولكن ايفان اليكسييفتش لم يعد يقوى على تحمل الصمت القاتل عندما اجتازوا منزل موخوف ، فقال مؤنباً نفسه والآخرين :

— لا معنى من اخفاء الأمر . لقد عدنا من الجبهة بلاشفة ، وها نحن الآن نلوذ بأنفسنا بين الادغال . فليقاتل الآخرون من أجلنا ، ونبق نحن مع نسائنا !

فنب غريغورى قائلاً وهو يشيح بوجهه :

— لقد أديت نصيبى من القتال ، فليقم الآخرون بدورهم .

فأضاف خريستونيا :

— ولكن كيف يمكن أن يكونوا هكذا ؟ شرذمة من اللصوص ! أينبغى أن ننضم الى رجال مثلهم ؟ أى ضرب من الحرس الأحمر يتصورون أنفسهم ؟ يغتصبون النساء ، ويسلبون القوزاق ! ينبغى لنا أن نتبصر فيما نفعل . فالأعمى يتعثر بما يصادفه .

وتساءل ايفان بحدة :

كان رئيس اللجنة الثورية يتحدث معه بخجل ، وقد انحنى الضابط قليلاً لينصت وأذنه الكبيرة الناتئة قريبة من لحية الرئيس . كان الجمع يطن كخلية نحل . وكان القوزاق يتحدثون ويمزحون مع بعضهم ، غير أن أمارات القلق علت جميع الوجوه . فصاح أحدهم بصوت فتى دون أن يحتمل المزيد :

— فلنبدأ ! فيم انتظاركم ؟ لقد حضر كل الناس تقريباً !

فانتصب الضابط ، ورفع قبعته ، وقال ببساطة كما لو كان بين عائلته :

— ياسادة شيوخ القرية ، واخواني قوزاق خط الجبهة ! سمعتم جميعاً بما حدث فى قرية سيتراكوف ، أليس كذلك ؟

فهدر خريستونيا :

— من هو ؟ من أى الديار ؟

— من فيشنسكايا . أظن أنه يدعى سولداتوف .

واستمر الملازم :

— قبل يوم أو يومين وصلت وحدة من الحرس الأحمر القرية . واحتل الألمان أوكرانيا ، وعند تقدمهم شطر اقليم الدون قذفوا بالحرس الأحمر وراء السكك الحديد . فدخل الحمر سيتراكوف وشرعوا فى سلب ممتلكات القوزاق ، واغتصاب نسائهم ، وقاموا باعتقالات غير شرعية ، وما الى ذلك . وعندما تناهى الى القرى المجاورة ما حدث انهال القوزاق عليهم والسلاح بأيديهم . فقضى على نصف الوحدة ، وأسر الباقون . وحظى القوزاق بغنائم طيبة . وقد قذفت منطقتا ميكولنسكايا وكازانسكايا بالحكومة البلشفية من ديارهما . لقد هب القوزاق شباناً وشيباً فى الدفاع عن الدون الهادئ . وقذفت باللجنة الثورية فى فيشنسكايا بكاملها ، وقد ابتخب أتمان للمنطقة ، وحصل الشىء ذاته فى معظم القرى .

— وهل رأيت كل ذلك بأم عينيك يا خريستونيا ؟

— ان الناس يتحدثون عن . . .

— آه . . . الناس . . .

— حسناً ، حسبنا ذلك . . . لا نريد أن يسمعنا الآخرون .

زخرت الساحة بسراويل القوزاق ، وقبعاتهم ، وانتشرت هنا وهناك قبعات من جلد الخراف سود شعث . كان جميع رجال القرية مجتمعين . ولم تحضر امرأة ما ، انّما الشيوخ ، والقوزاق الذين شهدوا الحرب ، وحتى الشبان الذين يصغرونهم سناً . وقف الأكبر سناً فى المقدمة ، متكئين على عصيهم : القضاة المحترمون ، وأعضاء مجلس الكنيسة ، ومعلمو المدارس ، وقيّم الكنيسة ، وبحثت عينا غريغورى عن لحية أبيه السوداء المشوبة بالفضة ، فوجده واقفاً الى جانب ميرون غريغوريفتش . وأمامهما كان غريشا العجوز متكئاً على عصاه ذات العقدة ، بقمصلته الرمادية الكاملة ونياشينه . وكان مع بانتيلى وميرون جميع شيوخ القرية . ووقف خلفهم الرجال الأصغر سناً ، وجلهم من رفاق غريغورى فى السلاح . ولاحظ أخاه بيوتر فى الطرف الآخر من الحلقة ، وقد تحلى قميصه بأشرطة وسام غيورغى المقدس البرتقالية والسوداء . والى يساره كان ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين يشعل سيكارته من سيكارة بروخور زيكوف . كان بروخور يجر نفساً بقوة ليساعده ، مهدلاً شفتيه وجائلاً بعينيه الشبيهتين بعيني العجل . والى الوراء تجمع أصغر القوزاق سناً . وفى وسط الحلقة جلس رئيس اللجنة الثورية للقرية أمام طاولة كسيحة انغرست أرجلها الأربع فى التربة التى لما تزل رطبة ناعمة . والى جانبه وقف ملازم لم يعرفه غريغورى ، يرتدى قبعة خاكية عليها شارة ، وسترة جلدية على كتفيها شارات ، وبنطال فرسان خاكياً .

وعند هذه النقطة من الخطاب نفس الشيوخ عن صدورهم بدمدمة مكتومة .

— ويجرى الآن تشكيل المفارز فى كل مكان . وعليكم أنتم أيضاً أن تشكلوا مفرزة من قوزاق خط الجبهة ، للدفاع عن المنطقة ضد وصول قطعات جديدة من اللصوص المتوحشين . يجب أن نقيم ادارة خاصة بنا . نحن لا نريد حكومة حمراء ، انها لا تجلب لنا الحرية ، انما الدعارة ! ولن نسمح للفلاحين بانتهاك حرمة زوجاتنا وأخواتنا ، والاستخفاف بعقيدتنا الأرثدوكسية ، وتدنيس كنائسنا المقدسة ، واستلاب أرزاقنا وممتلكاتنا . . . ألا توافقوننى أيها الشيوخ ؟

فهدر الاجتماع بغتة بـ«نعم !» . وشرع الضابط يتلو بلاغاً . وانسل الرئيس من أمام الطاولة ناسياً أوراقه . وأصاخ حشد الشيوخ دون أن ينبسوا بكلمة . وتبادل رجال خط الجبهة وراءهم الهمهمة مع بعضهم .

وحالما شرع الضابط بالقراءة ، انسل غريغورى من الحشد وانثنى ليعود الى البيت . فلاحظ ذلك ميرون غريغوريفتش ، ولكز بانتلاي بروكوفتش بمرفقه :

— ابنك الأصغر ينسل !

فخرج بانتلاي بروكوفتش من الحلقة يعرج وصاح بنبرة آمرة :

— غريغورى !

فالتفت ابنه نصف التفاتة وتوقف دون أن ينظر الى الوراء .

— عد يا ولدي !

وجاء هدير الأصوات من الحشد :

— فيم تراك ذاهباً ؟ عد الى الاجتماع ! — والتفت صوب غريغورى جدار من الوجوه :

— وقد كان ضابطاً !

— لا داعى الى الشموخ بأنفك !

— كان مع البلاشفة .

— وأراق دم القوزاق ! . .

— الشيطان الأحمر !

تناهى الصياح الى أذنى غريغورى . كان يصغى ويصر بأسنانه ، تتصارعه الخواطر دونما ريب . وبدا وكأنه سيذهب بعد دقيقة دونما التفاتة الى الوراء . ولكن بانتلاي بروكوفيتش وبيوتر تنفسا الصعداء عندما تردد ثم عاد الى الحشد مسبل العينين .

وبرز الشيوخ في كل مكان . فانتُخب ميرون غريغوريفتش أتمانا بسرعة عجيبة . وسار الى وسط الحلقة ووجهه الأنمش يلوح عليه الشيب ، وتسلم من سلفه مرتبكاً رمز سلطته ، عصا الأتمان ذات الرأس النحاسى . لم يكن أتماناً من قبل ، ولذلك تردد ورفض المنصب عندما استدعوه ، قائلاً انه لا يستحق مثل هذا الشرف ، لأنه غير مثقف . ولكن الشيوخ أصروا قائلين :

— خذ العصا ، يا غريغوريفتش ، ولا ترفض .

— انك خير مزارع فى القرية .

— لن تبدد خيراتنا .

— حاذر من أن تبددها فى الشراب مثل سيميون !

— لن يفعل ذلك !

— وان فعل فبمستطاعنا أن نسترده من ماله ، فان لديه الشىء الكثير .

— سنسلخه مثل الخروف .

كانت ظروف الانتخاب والحالة الشبيهة بالحرب فى المنطقة غير اعتيادية الى درجة جعلت ميرون يوافق دونما الحاح شديد . ولم

تجر الانتخابات كما كانت فى الأيام السابقة ، حيث كان يأتى أتمان المنطقة الى القرية ، ويستدعى وجوه القوزاق الى الاجتماع ، وتوزع أوراق الانتخاب . أمّا الآن فقد جرت بهذه البساطة : «من كان الى جانب كورشونوف يقف الى اليمين» وماج الحشد بكامله الى ذلك الجانب ، خلا الاسكافى الذى يضمر حقداً لكورشونوف ، فقد لبث واقفاً فى مكانه كبلوطة فى مهب الريح .

وقبل أن يطرف ميرون المتصبب عرقاً بعينه دست العصا فى يده ، وعلا هدير من الأصوات :

— والآن ما رأيك أن تنفحنا نخباً على حسابك ؟

— ارفعوا الأتمان الجديد عالياً !

فتدخل الضابط ، ووجه الاجتماع لحل المسائل المتبقية بجد . وأثار مسألة انتخاب آمر لمفرزة القرية ، ولا بد أنه كان قد سمع عن غريغورى فى فيشنسكايا ، فلقد شرع يمتدحه ويمتدح القرية عن طريقه .

— يحسن أن يكون لدينا آمر ممن شغل رتبة ضابط . فاذا تحتم علينا أن نقاتل فسوف نقوم بدورنا بشكل أفضل وتكون خسائرنا أقل . ان فى قريتكم الكثير من الأبطال . أنا لا أستطيع أن أفرض ارادتى عليكم ، ولكنى من جهتى أوصى بأن تنتخبوا نائب الضابط ميليخوف .

— أى منهما ؟

— فلدينا اثنان .

فجال الضابط ببصره فوق الحشد ، ولمح رأس غريغورى المحنى ، وهتف مبتسماً :

— غريغورى ميليخوف ! ماذا تقولون أيها القوزاق ؟

— رجل طيب !

— ليكن الحظ حليفه !

— غريغورى ميليخوف ! انه جوزة صلدة !

— تعال وسط الحلقة ، فالشيوخ يريدون أن يلقوا عليك نظرة .

فدفع غريغورى الى الأمام وظهر وسط الحلقة ، وقد حال وجهه قرمزياً ، وجعل ينظر حواليه مثل حيوان مطارد .

فقرع ماتفى كاشولين الأرض بعصاه ورسم اشارة الصليب بحركة مزهوة من يده وقال :

— قُدْ أولادنا ! قدهم وأرشدهم كيما يكونوا معك مثل الأوز مع الفحل . وكما يدافع فحل الاوز عن عائلته ويحميها من الناس والوحوش ، عليك أن تحافظ عليهم ! ستحصل بعون الله على أربعة أوسمة أخرى !

— يا بانتلاي بروكوفيفتش ، ولدك نعم الولد !

— فى رأسه عقل ناصح ! والله ، انه شاطر !

— أنت أيها الشيطان الأعرج ، ماذا لو تبرعت علينا بالشراب ؟

— أيها الشيوخ ! صمتاً ! ربما نضع قائمتين أو ثلاثاً بلا تطوع ؟ قد يأتى متطوعون أو لا يأتون . . .

— لثلاث سنوات ! . .

— لخمس . . .

— سنجمع متطوعين !

— اذهب أنت بنفسك ، ما الذى يمنعك ؟

وفى هذه الأثناء تقدم من الضابط أربعة شيوخ من طرف القرية الأعلى كانوا يتشاورون مع الأتمان الذى عين حديثاً . كان أحدهم وهو عجوز ضئيل الجسم لا أسنان له يلقب بالـ «جعدة» ، قد عرف بأنه صرم حياته بتتبع المسائل القضائية التافهة . كان يزور

المحكمة مراراً حتى أن مهرته الوحيدة البيضاء كانت تعرف الطريق جيداً بمجرد أن يقوى سيدها السكران على التكوّم فى العربة ويصيح بصوته الناعم الصادح : «الى المحكمة !» فتنطلق دائبة فى الاتجاه الصحيح . ورفع الجعدة قبعته العتيقة عن رأسه ومضى صوب الملازم . ووقف على مقربة منهما الشيوخ الآخرون ، يدعى أحدهم غيراسيم بولديريف وهو مزارع صالح يحظى باحترام زائد فى القـــرية . كان الجعدة أول المتكلمين ، وهو مهذار اضافة الى صفـــاته الأخرى :

— يا صاحب السعادة ، يبدو وكأنك لا تعرف الكثير عن قريتنا ، والا لما وقع اختيارك على غريغورى ميليخوف آمراً . نحن معشر الشيوخ لدينا تحفظ على هذا الاختيار . ومن حقنا أن نحتج كما تدرى . ان لدينا اعتراضاً ضده .

— أى اعتراض ؟ ما الخبر ؟

— حسناً ؟ كيف نستطيع أن نثق به وهو نفسه كان في الحرس الأحمر وواحداً من أمرائه ، ولم يمض سوى شهرين على عودته من صفوفهم مصاباً بجرح .

فاحتقن وجه الضابط ، وبدت أذناه قد انتفختا من تدفق الدم .

— مستحيل ! لم أسمع بذلك . . . فلم يخبرنى أحد عنه أبداً .

فأكد بولديريف قائلاً بتجهم :

— انه لصحيح ، لقد كان مع البلاشفة . ولهذا لا نستطيع أن نثق به !

— ابدله ! ما قول قوزاقنا الشباب ؟ يقولون انه سيخونهم فى المعركة الأولى !

فجعل الضابط يصيح رافعاً نفسه على طرف أصابعه مخاطباً الشيوخ ، متجاهلاً رجال خط الجبهة بلباقة :

— أيها الشيوخ ! أيها الشيوخ ! لقد انتخبنا لتونا غريغورى ميليخوف آمراً ، ولكن ألا يوجد خطر فى ذلك ؟ لقد علمت الآن أنه كان خلال الشتاء مع الحرس الأحمر . فهل تستطيعون أن تطمئنوا على حياة أبنائكم وأحفادكم معه ؟ وأنتم يا اخوتى ، يارجال خط الجبهة ، هل تستطيعون أن تنضووا تحت امرته بقلوب مطمئنة ؟

ومرت على القوزاق لحظة صمت وذهول ، ثم تعالى ضجيج وصياح متضارب ، وبات من العسير أن تفهم كلمة . وعندما تلاشى ذلك خطا بوغاتيريوف العجوز الكث اللحية الى الوسط ، ونزع قبعته امام الاجتماع ، وتطلع حواليه :

— يحدثنى ذهنى البليد بما يلى : نحن لا نستطيع أن نمنح غريغورى بانتيليفتش هذا المنصب . فقد سلك السبيل الخاطئ ، وقد سمعنا كلنا بذلك . فليحظ أولاً بثقتنا ، ويكفر عما فعله ، ومن ثم فسوف نرى . اننا ندرى أنه مقاتل جيد . . . ولكننا لا نستطيع أن نرى الشمس خلل الضباب ، لا نستطيع أن نرى خدماته السابقة ، ان عمله من أجل البلاشفة قذى فى عيوننا .

فصاح أندريه كاشولين الشاب بقسوة :

— فليكن نفراً .

— اجعلوا بيوتر ميليخوف آمراً .

— ليخدم غريشا مع الآخرين !

— كدنا ننصب علينا آمراً رائعاً !

فصاح غريغورى وقد احتقن وجهه من شدة الانفعال :

— نعم ، ولست بحاجة الى هذا المنصب ولا اليكم جميعاً ! لماذا رشحتمونى للقيادة بحق الشيطان ؟ — وأعاد القول ملوحاً

بيده : — لن أتسلم المنصب اذا أردتم لي ذلك ! — ودس بيديه في أعماق جيبي بنطاله ، وابتعد محنى الرأس متجهاً الى بيته .

فتعقبته الصيحات :

— على مهلك !

— الجيفة التتة ! هوذا دمه التركي يبين !

— انك تشمخ بأنفك المقوس عالياً جداً !

— انه لا يمسك لسانه ! ولا يغلق فمه حتى أمام ضباطه في الخنادق .

— عد !

— الحقوه ! هوه ! بووه !

— لماذا تركتموه ينصرف لحاله ؟ فلنحاكمه بأنفسنا !

ولم يمض وقت طويل حتى هدأ الاجتماع ثانية . وفي حميا النقاش لطم أحدهم شخصاً آخر ، وراح أنف آخر ينزف ، وتزين أحد الصبية على حين غفلة بانتفاخ تحت عينيه . وحين أعيد النظام آخر الأمر انتخبوا بيوتر ميليخوف آمراً ، فاستبد به الزهو والخيلاء . وهنا كبا الضابط مثل حصان شديد البأس جُويه بسياج مرتفع جداً . وطلب ممن يريد التطوع أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد . لقد تردد رجال خط الجبهة ، الذين كانوا متحفظين في موقفهم أثناء الاجتماع ، ولم يرغبوا في تسجيل أنفسهم ، مصطنعين المزاح :

— لماذا لا تذهب يا أنيكوشكا ؟

بيد أن أنيكوشكا دمدم :

— أنا صغير جداً . . . ولم ينبت عذارای بعد .

فزعق كاشولين العجوز في أذنه :

— دعك من المزاح : تريد أن تجعل منا أضحوكة ؟

فرد أنيكوشكا وهو يبتعد عنه كمن يبتعد عن دندنة البعوض :

— سجل ابنك !

وتعالت صيحة من الطاولة :

— بروخور زيكوف ! هل نسجل اسمك ؟

فأجاب :

— لست أدري . . .

— سنسجل اسمك .

وتقدم ميتكا كورشونوف من الطاولة بوجه جدي ، وقال باقتضاب :

— سجلوني .

— حسناً ، ومن أيضاً ؟ ماذا عنك يا فيدوت بودوفسكوف ؟

فدمدم فيدوت مسبلاً عينيه الكالميكيتين :

— عندي فتق .

فهدر رجال خط الجبهة ضاحكين ، وراحوا يسخرون منه دونما رأفة :

— خذ زوجتك معك . فاذا أقلقك فتقك ، فسوف تتدبر أمره !

ورفرفت فوق الحشد نكتة أخرى من الجانب الآخر للحلقة :

— سنجعلك طباخاً ، واذا كان الحساء فاسداً فسوف نملؤك به حتى يخرج فتقك من الطرف الآخر !

— سوف يكون وضعك حسناً أثناء التراجع ، فلن تركض سريعاً جداً .

الا أن الشيوخ بدا عليهم الانزعاج فشرعوا يلعنون :

— كفى ، كفى ، علام مزاحكم هذا ؟

— وقت مناسب لاظهار حماقاتكم !

وصاح أحدهم :

— عار عليكم أيها الأولاد ! فكروا بالربّ . ان الرب لن يغفر هذه ! الناس يموتون ، وأنتم . . . والرب ؟ ! .

وجال الضابط ببصره وصاح :

— ايفان توميلين !

فأجاب توميلين :

— أنا مدفعى .

— هل نسجل اسمك ؟ اننا بحاجة الى مدفعيين ايضاً .

— أوه ، لا بأس ، سجل اسمى اذاً .

وشرع أنيكوشكا وعدد من الآخرين يمازحون توميلين :

— سنمنحت لك مدفعاً من جذع صفصافة . وسوف تطلق من فوهتك قرعاً وبطاطاً بدلاً من القنبلة العنقودية .

ووسط الدعابة والضحك سجل حوالى ستين رجلاً . وكان خريستونيا آخرهم . تقدم من الطاولة وقال متأنياً :

— سجل اسمى . ولكنى أنذركم بأنى لن أقاتل .

فسأله الضابط مغتاظاً :

— اذا لماذا تسجل اسمك ؟

— سوف أرى أيها الضابط . أريد أن ألقى نظرة !

فهز الضابط كتفيه وقال :

— سجله .

ولم ينته الاجتماع الا عند الظهيرة تقريباً . وفى اليوم التالى تقرر ارسال المفرزة لاسناد قرويي ميكولنسكايا .

وفى الصباح التالى ، لم يحضر فى الساحة سوى حوالى أربعين من بين الستين متطوعاً . فاستعرض بيوتر القوزاق مرتدياً بدلة أنيقة ومعطفاً وجزمة طويلة . كان لمعظمهم شارات كتف عليها أرقام كتائبهم القديمة . وقد حملت أسرجتهم بحقائب فيها طعام ،

وبياضات ، وخراطيش جىء بها من الجبهة . ولم يكن لدى جميعهم بنادق ، ولكن لدى الأكثرية سلاح أبيض .

وتجمع حشد من النساء والفتيات والأطفال والشيوخ فى الساحة ليودعوهم . وصف بيوتر وهو ممتط صهوة جواده المختال ، جماعته الذين يشكلون نصف سرية ، وتفحص مجموعة الخيل الصغيرة ، والخيالة بمعاطفهم ، وقمصلاتهم ، ومشمعاتهم * ، وأعطى ايعازاً بالرحيل . وسار بالمفرزة صعد التل . وتطلع القوزاق بوجوم ملتفتين الى القرية ، وأطلق واحد من الصف الأخير اطلاقة . وفى القمة لبس بيوتر قفازيه ، ومد عذاريه الشقراوين ، واستدار بحصانه فأخذ يسير به مجانبة ، وأمسك قبعته بيده اليسرى ، وهتف :

— سرية ، خبباً سر !

فحث القوزاق جيادهم على الخبب ، وهم واقفون على ركائبهم يلوحون بسياطهم . وهبت الريح فى وجوههم ، وعبثت بأذيال الخيل وأعرافها ، ونثرت رذاذاً خفيفاً من المطر . وشرعوا يتحدثون ويمزحون . وكبا جواد خريستونيا الأدهم ، فلعنه وأمطره بلفحات السوط . فقوس الحصان رقبته ، وانطلق يعدو وجنح عن الصف .

ولم يفارق القوزاق مزاجهم المرح حتى بلغوا كارغين . ساروا وكلهم ثقة بأن حرباً لن تقع ، وأن حادثة ميكولنسكايا لم تكن سوى غارة عرضية شنها البلاشفة فى أرض القوزاق .

٢٤

وصلوا كارغين فى الأصيل . ولم يجدوا أحداً من رجال خط الجبهة فى المنطقة : فقد ذهبوا جميعاً الى ميكولنسكايا . وأوعز

* ما يرتدى اتقاء للمطر . المترجمون .

بيوتر لمفرزته بالترجل فى الساحة ، وشخص الى منزل اتمان المقاطعة . فالتقى به ضابط أسمر طويل قوى البنية ، كان يرتدى قميصاً فضفاضاً خالياً من سير الكتف ، متمنطقاً بحزام قوزاقى ، وقد دس سرواله المخطط فى جوربيه الصوفيين الأبيضين . وتدلى غليون من زاوية شفتيه الرفيعتين . ولاحت على عينيه البنتين المتألقتين نظرة يشوبها التجهم والخبث . كان واقفاً على الدرجات يدخن ويراقب بيوتر يتقدم نحوه . وكان جرم الرجل الجسيم وصدره المنتفخ القوى كالفولاذ وعضلات ذراعه التى تظهر تحت قميصه تشهد على قوته الخارقة .

— هل أنت أتمان المقاطعة ؟

فنفث الضابط سحابة من الدخان من تحت عذاريه المتهدلين ، وأجاب بصوت جهير عميق :

— نعم ، اننى أتمان المقاطعة . مع من أتشرف بالكلام ؟

ذكر بيوتر اسمه . فأحنى الاتمان رأسه قليلاً وهو يشد على يده :

— اسمى فيودور دمتريفتش ليخوفيدوف .

كان فيودور دمتريفتش ليخوفيدوف ، وهو قوزاقى من قرية غوسينو-ليخوفيدوف ، إمرءاً أبعد من أن يكون اعتيادياً . فبعد أن أنهى تحصيله فى كلية عسكرية ، ظل مختفياً عن الأنظار كلياً لوقت طويل . وبعد عدة سنوات ظهر فجأة فى قريته من جديد وشرع يجند وحدة من المتطوعين من بين القوزاق الذين أنهوا خدمتهم الفعلية ، يحمل أذناً من السلطات العليا . وجمع من المنطقة التى تدعى الآن قصبة كارغين سرية من القوزاق المغاوير وقادهم الى ايران ، حيث لبثوا هناك سنة بمثابة الحرس الخاص للشاه . وأثناء الثورة الايرانية هرب ليخوفيدوف مع الشاه ، وظهر فجأة فى كارغين

من جديد بعد أن انقطعت صلته بمعظم رجاله . وأتى ببقية مفرزته ، وثلاثة جياد عربية أصيلة من اسطبل الشاه ، وغنائم كثيرة ، وسجّاد نفيس ، وحلى ثمين ، وحرير فاخر . وظل طوال شهر يمتع نفسه وينعم بالملذات ، وأفرغ جيوب سرواله من كميات وافرة من الذهب الايرانى ، وراح يجوب القرية على صهوة جواده الجميل الأبيض كالثلج ذى القوائم الرشيقة ، الذى كان يرفع رأسه بمثل رشاقة البجعة ، ويمضى به صاعداً درجات حانوت ليوفوتشكين ، ويختار ما يريد ويدفع ثمن مشترياته دون أن يترجل ، ثم يمضى من الباب الآخر . ثم اختفى فيودور ليخوفيدوف ثانية بمثل السرعة التى جاء بها . واختفى معه صاحبه الذى لا يفارقه ، مراسله الراقص القوزاقى بانتيلوشكا ، وكذلك الجياد وكل ما جىء به من ايران .

وبعد ستة أشهر ظهر ليخوفيدوف فى ألبانيا وصار معارفه فى كارغين يتلقون بطاقات بريدية تحمل صورة جبالها الزرق ، وبأختام غريبة . ثم انتقل الى ايطاليا ، وساح البلقان ، ورومانيا ، وأوروبا الغربية ، ونأت به أسفاره حتى اسبانيا . وصار اسم فيودور ليخوفيدوف محاطاً بهالة من الغموض . ودارت فى القرية كل ضروب التكهنات حوله . وغاية ما عرفه الناس صدقاً عنه هو أنه كان مقرباً من الأوساط الملكية ، وأن لديه معارف بين علية القوم فى سانت بطرسبرغ ، وأنه كان عضواً دائماً فى «تحالف الشعب الروسى» * ، أمّا طبيعة رحلاته الخارجية فلم تكن لدى أى امرئ معلومات عنها البتة .

ولدى عودة ليخوفيدوف من الخارج ، استقر فى بنزا فى منزل

---

* منظمة ملكية فى روسيا القيصرية ينطوى نشاطها على دعاية ضد السامية وتنظيم المجازر واغتيال العناصر السياسية المناوئة . وقد بات معروفاً الآن أن التحالف كان ينال مساعدة مالية كبيرة من الحكومة القيصرية .

الحاكم العام فهز معارفه فى كارغين رؤوسهم وطقوا ألسنتهم مندهشين لدى رؤيتهم صورته فى الصحف . «لكم تقدم فيودور دمتريفتش ! أنظر مَنْ مِنْ الناس يصاحب !» . ذلك هو ليخوفيدوف ، يتناول يد زوجة الحاكم العام ليساعدها فى ارتقاء عربتها ، والابتسامة تملأ وجهه الصربى ذا الأنف المقوس . ويهش له الحاكم نفسه بحنان كواحد من أفراد العائلة . ويمسك سائق العربة البدين الأعنة بطرف أصابعه ، والجوادان يشدان على اللجام ويعضعضانه ، متأهبين للوثوب . ويقف ليخوفيدوف وقد رفع يداً الى قبعته الفرو المنفوشة ، وقور الأخرى تحت مرفق عقيلة الحاكم .

وفى نهاية ١٩١٧ ، بعد غياب عدة سنوات ، ظهر ليخوفيدوف فى كارغين وحط رحله هناك لوقت طويل كما يبدو . وجاء معه بقرينة ربما كانت أوكرانية أو بولندية ، وطفل ، واتخذ له منزلاً صغيراً فى الساحة مؤلفاً من أربع غرف ، وقضى الشتاء فى وضع خطط مجهولة . كانت نوافذ بيته مفتوحة على مصاريعها طوال الشتاء (وقد كان شتاء قاسياً لم يألفه الدون) . وكان ليخوفيدوف يتشدد مع نفسه وعائلته بشكل يثير استغراباً شديداً بين القوزاق .

وفى ربيع ١٩١٨ ، بعد حادثة سيتراكوف ، انتخب أتماناً . ومن جديد ظهرت للعيان قابلية فيودور ليخوفيدوف الخارقة . لقد وقعت القصبة فى يدين بلغتا من القسوة بحيث أن الشيوخ جعلوا يهزون رؤوسهم بعد مضى أسبوع واحد . وروض القوزاق الى درجة أن الشيوخ ، بعد أن يتكلم فى أى اجتماع (وكان له لسان ذرب ، وقد أسبغت عليه الطبيعة ذكاء الى جانب القوة) كانوا يخورون مثل قطيع ثيران : «حالفك الحظ ، يا صاحب السعادة ! نرجوك ونتوسّل اليك من صميم قلوبنا ! انك على تمام الصواب !» .

وقد قام الاتمان الجديد بواجباته بصرامة . وكانت أولى خطواته

أن أرسل كل رجل من رجال خط الجبهة فى المقاطعة الى سيتراكوف فى اليوم التالى للمذبحة التى تعرض لها الحرس الأحمر . وفي بادئ الأمر لم يرغب الغرباء الذين يؤلفون ثلث سكان المقاطعة فى الذهاب ، كما عارض الجنود . الا أن ليخوفيدوف أصرّ على تنفيذ ما أراد ، فوقع الشيوخ على مرسومه الذى يقضى بطرد جميع الفلاحين الذين لا يشتركون فى الدفاع عن الدون ، من المقاطعة . ولم يحل اليوم التالى حتى تقاطرت عشرات العربات ملأى بالجنود يغنون ويعزفون على الأكورديونات شطر ميكولنسكايا . ولم يهرب من الغرباء سوى بضعة جنود التحقوا بالحرس الأحمر .

عندما اقترب بيوتر ، خمّن ليخوفيدوف من مشيته أنه ضابط تدرج من نفر بسيط فى الجيش . فلم يدعه الى منزله ، وخاطبه بلهجة متعالية دونما تكلف :

ـــ كلا ، يا بنى ، ليس هناك ما تفعلونه فى ميكولنسكايا . فقد دبروا أمرهم بدونكم ، هذا ما تفيد به البرقية التى تسلمناها مساء أمس . انكص على أعقابك وانتظر أوامر أخرى . استنفر القوزاق جيداً ! قرية كبيرة مثل تتارسكى ، ولا يزيد عددكم عن أربعين مقاتلاً ؟ هز كواهلهم ، أولئك الحثالة ! ان أرواحهم هى التى فى خطر . وداعاً ، ورحلة سعيدة .

ودلف الى منزله ، يحمل جسمه الثقيل بسهولة غير منتظرة ، وصندلاه القوزاقيان البسيطان يخطان على الدرجات الخشبية . وعاد بيوتر الى قوزاقه فى الساحة . فأمطروه بالأسئلة . فابتسم وأجاب ، دون أن يسعى الى اخفاء ارتياحه :

ـــ الى ديارنا ! لقد دبروا أمرهم بدوننا !

فكشر القوزاق عن أسنانهم ومضوا متزاحمين شطر جيادهم . أمّا خريستونيا فقد تنفس الصعداء وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن

كاهله ، وربت على كتفى توميلين :

— اذا فنحن ذاهبون الى البيت ، أيها المدفعى !

— قد اشتقن زوجاتنا الينا !

— سنرحل لتونا !

وبعد أن تدارسوا الوضع قرروا أن لا يقضوا الليلة فى كارغين . بل يعودوا فى الحال . وخرجوا من القرية زمراً مبعثرة تفتقر الى النظام . كانوا قد أتوا الى كارغين على مضض منهم ، لا يغيرون الا لماماً ، أمّا فى عودتهم فقد ألحفوا على جيادهم . وأرعدت الارض المتصدعة من قلة المطر ، تحت سنابك خيلهم . وخلف الدون وسلسلة التلال القصية أومض بريق أزرق فى الأفق .

وبلغوا تاتارسكى فى منتصف الليل ، فأطلق أنيكوشكا اطلاقة من بندقيته النمساوية وهم يخبون بجيادهم حدر التل ، ورنت دفقة من الاطلاقات لتعلن عن عودتهم . فاستجابت الكلاب فى القرية بنباحها ، وزنخر أحد الجياد وصهل اذ شم رائحة موطنه . وتفرقوا فى القرية باتجاهات شتى .

زعق مارتن شامل متنفساً الصعداء وهو يودع بيوتر :

— لقد انتهى القتال ! ذلك أمر حسن !

فتبسم بيوتر فى الظلام ومضى راكباً الى منزله . فخرج بانتلاي بروكوفتش وأخذ حصانه ، ورفع عنه السرج وقاده الى الاسطبل ، ودخل هو وبيوتر البيت سوية .

— انتهت ؟

— آ . . . ها !

— حسناً ، حمداً لله ! عسى ألا نسمع المزيد عنها !

ونهضت داريا دافئة من النوم . ومضت لتعد بعض العشاء لزوجها . وجاء غريغورى بملابسه الداخلية من غرفة النوم ، يحك صدره المشعر ، ويغمز لبيوتر هازلاً :

— اذاً فقد قهرتموهم لتوكم ؟

— ها أنا الآن أقهر بقايا الحساء .

— تستطيع أن تقهر الحساء جيداً ، لا سيما اذا أسديت اليك يد العون !

* * *

لم تكن هناك نأمة ولا رائحة للحرب حتى عيد الفصح . وفى سبت الفصح قدم رسول يهذب الى القرية من فيشنسكايا ، وترك حصانه الذى علاه الزبد أمام بوابة كورشونوف ، وجرى شطر سقيفة الباب . فحياه ميرون غريغوريفتش :

— ما الخبر ؟

— أريد الأتمان . أهو أنت ؟

— نعم .

— جند القوزاق فى الحال ، بودتيولكوف يقود الحرس الأحمر الى مقاطعة ناغولنسكايا . اليك الأوامر . — وقلب بطانة قبعته العرقة ليخرج المظروف .

وعلى صوت الحديث خرج غريشاكا العجوز مسرجاً زوجاً من النظارات على أنفه . وجاء ميشكا راكضاً وقرأوا الأمر الصادر من أتمان الاقليم سوية . وراح الرسول يمسح الغبار بكمه عن وجهه الملفوح ، وهو يتكئ على الدرابزين المزخرف .

وفى أحد عيد الفصح بعد الافطار ، ترك القوزاق المجندون قريتهم ممتطين جيادهم ، فقد كان أمر الجنرال ألفيورف حازماً : اذ هدد كل من يرفض الذهاب بحرمانه من لقب القوزاق . ومن ثم لم تعد المفرزة تتألف من أربعين رجلاً ، كما فى بادئ الأمر . بل من مائة وثمانية ، يضمنهم عدد من رجال كهلة استبدت بهم

الرغبة فى ضرب البلاشفة . أمّا الشباب فقد ذهبوا مكرهين ، لأن شيوخهم كانوا يستحثونهم بحمية .

وكان غريغورى فى الصف الأخير وقد جر قلنسوة مشمعة فوق قبعته . وكان المطر ينث من السماء الضبابية . وتتدحرج الغيوم فوق السهب المكسو بالخضرة . ويحلق نسر عالياً عند أعتاب الغيوم . ويطير أمام الرياح الى الشرق وهو يخفق بجناحيه خفقاناً متأنياً ، ثم ما يلبث أن يتلاشى فى الأبعاد هباءة بنية لامعة .

كان السهب يتألق ألقاً ندياً ، وترامت هنا وهناك أعشاب الذئب والأدغال من بقايا شيح السنة المنصرمة . وانتصبت قبور رمادية كالحرس فوق المرتفع .

حينما هبطوا على كارغين التقوا صبياً يسوق ثيراناً الى المرعى . كان ماضياً فى طريقه يخط بقدمين حافيتين ، ويلوح بسوطه . ولما رأى الركب توقف وجعل يتفحصهم باهتمام هم وجيادهم الموحلة .

سأله توميلين :

— من أين جئت ؟

فأجابه الصبى بشجاعة ، وهو يضحك من تحت السترة الملقاة على رأسه :

— من كارغين .

— هل رحل قوزاقكم ؟

— رحلوا . رحلوا ليقضوا على الحرس الأحمر . هل لديك تبغ لسيكارة أيها العم ؟

فشد غريغورى على عنان حصانه :

— تبغ لك ؟

فتقدم اليه الصبى . كان ساقا سرواله المشمّران مبللين ،

والشرائط حمراء زاهية . وتطلع الى وجه غريغورى بشجاعة حينما كان القوزاقى يخرج كيس تبغه من جيبه ، وقال :

— سوف ترون بعض الجثث بعد دقيقة ، حالما تذهبون حدر التل . فقد ساق قوزاقنا الحرس الأحمر أمس وقتلوهم . كنت أرعى الماشية هناك عند ذاك الدغل ، ورأيتهم يحصدونهم . أوه ، كان شيئاً رهيباً ! فعندما بدأت السيوف تصلّ جعلوا يصرخـــون ويتراكضون . . . ثم ذهبت لأرى . كان واحد منهم قد ضرب فى كتفه ، واستطعت أن أرى قلبه ينبض فى صدره ، وكبده الزرقاء . . . رهيب ! — أعاد ذلك وقد أدهشه أن القوزاق لم ترعبهم حكايته ، — هكذا ، على الأقلّ ، فكر الصبى فى دخيلة نفسه عندما رأى الى وجوه غريغورى وخريستونيا وتوميلين الباردة الساكنة .

وأشعل سيكارته ، ومسد على رقبة حصان غريغورى الندية ، وقال : «أشكرك» وجرى نحو ثيرانه .

كانت جثث الحرس الأحمر ترقد على قارعة الطريق فى حفرة ضحلة غسلتها مياه الأمطار ، لم يهل عليها سوى قليل من التراب . وقد لاح وجه رصاصى أزرق ، وعلى شفتيه غشاوة من الدم . وبرزت من الحفر قدم حافية وساق سروال أزرق مبطن .

فدمدم خريستونيا :

— لم يتريثوا ليواروهم التراب ، يا للخنازير ! — ولفح حصانه ، ولحق بغريغورى وذهب حدر التل .

فقال توميلين مبتسماً ، غير أن وجنته كانت ترمع :

— حسناً ، أريق الدم على تربة الدون أيضاً !

٢٥

كان ماكسيم غريازنوف مدفعى مفرزة بونتشوك ، وهو قوزاقى من قرية ناتارسكى . كان قد فقد حصانه فى مناوشة مع مفرزة متطوعى

كوتيبوف ، ومنذ ذلك الحين راح يسرف فى الشراب ويلعب القمار . وعندما قتل حصانه تحته (حصانه الذى يشبه الثور ، وذو الخط الفضى على امتداد ظهره) حل السرج وحمله ثلاثة فراسخ أو نحوها . ثم لما رأى أنه لن يستطيع على هذا المعدل أن ينجو بجلده من البيض ، نزع عنه الرمانة المعدنية الثمينة ، وفك الشكائم وترك رجال وحدته ينهضون بأعباء القتال ومضى . وظهر فى روستوف ، وقامر فى الحال بسيفه ذى المقبض الفضى الذى استحوذ عليه من ضابط برتبة رئيس قتله فى المعركة ، ثم قامر بعدة الحصـــان التى حملها معه ، وحتى سرواله وجزمته المصنوعة من جلد الماعز . وعندما التحق برماة الرشاش التابعين لبونتشوك كان عارياً تقريباً . وربما كان قد لم شتات نفسه مرة أخرى ، لولا أن طلقة أصابته فى وجهه فى أول معركة يخوضها ، فاندلقت عينه الزرقاء على صدره ، وتدفق الدم من قفا رأسه ، الذى تهشم مثل عيدان الكبريت . وهذا غاب عن الوجود ماكسيم غريازنوف ، من قوزاق تاتاركسى ، سارق الخيل سابقاً والسكير مؤخراً .

فنظر بونتشوك اليه وهو يعالج سكرات الموت . ومسح الدم بعناية من سبطانة الرشاش الدم الذى طفر من رأس ماكسيم المثقوب . وبات التراجع ضرورياً فى أعقاب ذلك . فسحب بونتشوك الرشاش الى الوراء تاركاً ماكسيم يموت على الأرض الحامية . كان جسده الأسمر معرضاً للشمس ، ذلك أن ماكسيم قد سحب قميصه فوق رأسه وهو يصارع الموت .

وتوقف فى أول مفترق طرق فى الضاحية فيلق من الحرس الأحمر كان قد عاد أفراده جميعاً من الجبهة التركية . وساعد جندى يرتدى قبعة فرو مهترئة بونتشوك فى نصب الرشاش ، وبنى الآخرون متاريس مستعجلة عرض الشارع ، وهم يمزحون ويطلقون شتائمهم

باتجاه العدو . واستلقت آنا الى جانب بونتشوك . واستلقى جنود الحرس الأحمر صفوفاً مرصوصة وراء المتراس المؤقت .

وعلى حين غفلة تناهى اليهم وقع أقدام فى الشارع من اليمين ، فهرع تسعة أو عشرة من الحرس الأحمر الى المنعطف . وصاح أحدهم :

— انهم قادمون ! اهربوا !

ولم تمضِ لحظة حتى أمسى مفترق الطرق مهجوراً بلقعاً . ثم علا مثار من النقع ، واندفع الى المنعطف قوزاقى خيال على قبعته شريط أبيض ، وقد شد الى جانبه بندقية فرسان . وكبح حصانه بقوة جعلت الحيوان يقعى على ساقيه الخلفيتين . فأطلق بونتشوك اطلاقة من مسدسه . فجرى القوزاقى ناكصاً الى الوراء وقد مال بشدة على رقبة حصانه . وانتابت الجنود خلف المتراس البلبلـــة والتردد ، وركض اثنان منهم تحت الجدار واستلقيا عند بوابة . كان واضحاً أن الرجال سيتزعزعون ويتراجعون بعد دقيقة . فلم يكن الصمت المشحون ونظراتهم المتوجسة لينم عن الصمود . . .

لم يعلق في ذاكرة بونتشوك من كل ما أعقب ذلك سوى مشهد واضح لا تنمحى ذكراه . لقد اندفعت آنا وهى تجرجر بندقيتها وراءها ، شعثاء الشعر منفعلة الى درجة لا تصدق ، وقد انداحت عصابتها الى قفا رأسها ، وتلفتت حولها وأشارت الى المنزل الذى اختفى القوزاق خلفه ، وصرخت بصوت أرعش يصعب تمييزه : «اتبعونى !» . ثم ركضت شطر المنعطف بخطوات متعثرة مترددة .

فرفع بونتشوك نفسه من الأرض . وندت من فمه صيحة مبهمة ثم اختطف بندقية من أقرب جندى وجرى خلف آنا ، وهو يلهث ويحس برعشة فى ساقيه لا تكبح ، وقد قتم وجهه وجرى وهو يحاول دونما طائل أن يصيح ، أن يناديها ويعود بها القهقرى .

وسمع لهاث بضعة من الرجال يتراكضون خلفه . وأحس بكل جوارحه أن شيئاً مريعاً لا يعوض على وشك الوقوع . وأدرك حتى منذ تلك اللحظة أن الآخرين لن يتبعوها ، وأن اندفاعها كان غير ذى معنى ، وطائشاً ، وانتحارياً .

وقرب المنعطف اصطدم بكل طاقته بالقوزاق الذين انطلقوا بجيادهم نحوهم . فأطلقوا رشقة من الطلقات المتبعثرة . . . أزيز الرصاص . صرخة بائسة واهنة ندت عن آنا . ثم رآها تتهاوى على الطريق بيد منبسطة وعينين متوحشتين . ولم يعد يرى القوزاق ينكصون الى الوراء ، ولا الجنود الحمر يطاردونهم ، وقد ألهبهم حماس متأخر بعد اندفاع آنا الذى يستحث الهمم . لم تعد عيناه تريان سواها فيما راحت تنازع تحت قدميه . فقلبها ليرفعها ويحملها بعيداً . بيد أنه رأى الدم يتدفق من جنبها الأيسر ، والأذيال الخلقة لبلوزتها الزرقاء تتهدل باسترخاء حول الجرح ، فأدرك أنها أصيبت برصاصة دم — دم وأيقن أنها كانت تحتضر : فقد أحس بالموت يحوم حول عينيها الغائمتين .

فنحّاه أحدهم جانباً وحملوها الى باحة أحد البيوت وأرقدوها فى فىء سقيفة مائلة .

ودس جندى لبّادات من القطن الطبى فى الجرح ما لبث أن رماها بعد أن تشربت بالدم . وضبط بونتشوك عواطفه ، ففك أزرار ياقة بلوزتها ، ومزق خرقة من قميصه ، وطواها على شكل اضمامة وضغطها على الجرح . غير أن الدم نز خلالها ، ورأى وجهها يستحيل أزرق وشفتيها ترتعشان من شدة الألم وقد حالتا داكنتين . وانفغر فمها ناشداً الهواء ، غير أن رئتيها لم تقويا على التنفس ، اذ جعل الهواء يخرج من فمها وجرحها . فخرق مزق ثوبها ، دون أن يستشعر خجلاً وسدّوا الجرح بقطعة من القطن كيفما

اتفق ، فعادت الى وعيها بعد بضع دقائق . وحدقت عيناها الغائرتان لحظة فى بونتشوك من محجريهما الداكنين ، ثم ما لبث جفناها المرتعشان أن انطبقا عليهما .

وجعلت تئن وتتضور : «ماء ! يا للحر الفظيع !» وانفجرت تجهش : «أريد أن أعيش ! ايليا ! حبيبي ! . . آ . . . آه !» .

وضع بونتشوك شفتيه المنتفختين على وجنتها الملتهبة . وصب ماء على صدرها . فملأ التجويفين تحت ترقوتها ، ولكنه ما لبث أن جف بعد هنيهة . كانت تصطلى بنار موات . وجعلت تنازع ، ثم أفلتت بنفسها من يديه .

— حارة . . . نار ! . .

ولما خارت قواها فترت حرارتها بعض الشىء ، وقالت بوضوح :

— «ولكن لماذا يا ايليا ؟ حسناً ، ها أنت ترى كم الأمر بسيط . . . أنت شخص غريب . . . انه بسيط الى حد الفظاعة . . . ايليا ، حبيبى ، سوف تـ . . . هناك أمى» . وفتحت عينيها قليلاً ، وكأنما تغضتا من الضحك ، وشرعت تتكلم بصورة مبهمة ، وهى تجهد أن تتغلب على الألم والرعب ، وكأن شيئاً ما كان يخيفها : «كان احساسى بادئ الأمر . . . ضربة لافحة . . . أمّا الآن فكل شىء يشتعل . . . أحس . . . انى أموت» . وقطبت لما لاحظت ايماءة الانكار المرة عليه : «لا ! . . عسير . . . آه ، ما أشق التنفس !» .

كان كلامها دفقات متشنجة ، وكأنها تحاول أن تخبره بكل ما كانت تعانى منه . ولاحظ بهلع أن وجهها أخذ يشحب ويستحيل أصفر عند الصدغين . فحوّل عينيه الى يديها الممدودتين بلا حياة الى جنبيها ، ورأى أظفارها تكتسى زرقة وردية مثل اجاص أسود ناضج .

— ماء ! صدرى . . . يا للحر الفظيع !

وهرع الى المنزل ليأتى بالماء . وعند رجوعه لم يسمع لهاث آنا المتحشرج فى فىء السقيفة . كانت الشمس الغاربة تلقى أشعتها على فمها وهو يرسم أمارة النزع الأخير ، وعلى يدها الشمعية الدافئة الجامدة المشدودة الى الجرح . فأحاط كتفيها بذراعيه مترفقاً ، ثم رفعها ، ونظر هنيهة الى أنفها الأقنى الأنمش بعض الشىء ، والغضون الدقيقة المعتمة بين عينيها ، وحاول أن يتلمس ألق بؤبؤيها الذاوى تحت حاجبيها السوداوين . وتهدل رأسها الواهن العاجز الى أسفل ، ونبض العرق فى جيدها الأهيف الفتى نبضته الأخيرة .

وطبع شفتيه الباردتين على جفنيها الداكنين نصف المغمضين ، وجعل يناديها : «صديقتى ! عزيزتى ! آنا !» .

ثم استوى ، ودار بحدة على عقبه ، ومضى يسير منتصب القامة بصورة غير اعتيادية ، دون أن يحرك ذراعيه المشدودتين الى جنبيه .

٢٦

مرت الايام التى تلت على بونتشوك كتلك التى عاشها حين أصيب بالتيفوس . كان على عهده يتجوّل ، وينجز أعماله ، ويتناول طعامه ، ويخلد الى النوم . انما كان على الدوام أشبه بمن تناول جرعة مخدر مبلدة . كان يحدق فى العالم المحيط به شارداً ، بعينين منتفختين مهووستين ، ولم يعد يميز أصدقاءه ، وبدا كمن أصيب بخدر شديد الوطأة أو كمن شرع يبل من مرض عضال . فمنذ مصرع آنا كانت تمر عليه لحظات يتبلد فيها احساسه : لم يكن يريد شيئاً ، أو يفكر فى شىء «كل يا بونتشوك !» كان رفاقه يلحفون عليه ، فيأكل ، ويتحرك فكاه ببطء وتكاسل . وظل رفاقه

يراقبونه ، وتشاوروا حول ارساله الى المستشفى .

سأله أحد رماة الرشاشات فى اليوم التالى :

— هل أنت مريض ؟

— كلا .

— ما الأمر ؟ أتراك حزيناً ؟

— كلا .

— حسناً ، فلندخن . ليس بوسعك أن تستعيدها الآن ، يا صاح . ان ذلك لن يجدى فتيلاً .

وعندما يحين وقت النوم كانوا يقولون له : «حان وقت النوم !» فيرقد .

أمضى أربعة أيام فى حالة انطوائه عن دنيا الواقع هذه . وفى اليوم الخامس التقى به كريفوشليكوف فى الشارع ، وأمسك بذراعه . وقال له :

— أها ، هوذا أنت ! كنت أبحث عنك . — ونفح بونتشوك بضربة ودود على كتف وهو لا يدرى ما حدث له ، وابتسم قلقاً وأضاف : — ماذا دهاك ؟ لست سكران ، أليس كذلك ، ألم يبلغك أننا سنرسل حملة الى منطقة الدون الشمالية ، لتعبئة القوزاق هناك ؟ وسوف يقودها بودتيلكوف ؟ . . ان رجاءنا الوحيد هو فى قوزاقى الشمال . والا فسوف نقع فى الفخ هنا . هل ستذهب ؟ نحن بحاجة الى محرضين . ستذهب ، أليس كذلك ؟»

فأجاب بونتشوك باقتضاب : — أجل .

— طيب ، ذلك حسن . سنرحل غداً .

وأعد بونتشوك عدته للرحيل ، وهو على حاله تلك من الاعياء العقلى ، ومضى مع الحملة فى اليوم الأول من أيار .

فى هذه المرحلة كان وضع حكومة الدون السوفييتية عصيباً

جداً . فقد كان جيش الاحتلال الألمانى يتقدم شرقاً من أوكرانيا ، وكانت مناطق الدون الأسفل تمور بتمردات معادية للثورة . وكمن بوبوف فى السهوب وراء الدون ، يهدد بالاغارة على نوفوتشيركاسك فى أية لحظة . وكان مؤتمر السوفييت المحلى الذى انعقد فى أواسط نيسان قد قوطع أكثر من مرة لصد المتمردين القوزاق الذين كانوا يقتربون من روستوف ويحتلّون ضواحيها . وفى الشمال فقط كانت نيران الثورة البلشفية ما تزال فى أوارها ، والى هذه النيران كان بودتيلكوف والآخرون قد انسحبوا اضطراراً بعد أن فقدوا أمل الحصول على مساندة من الدون الأسفل . فقد باءت التعبئة بالفشل . ومن ثم قرر بودتيلكوف الذى انتخب حديثاً رئيس مجلس قوميسارية الشعب فى الدون ، بمبادرة من لاغوتين ، الشخوص الى الشمال لتعبئة ثلاث أو أربع كتائب من رجال خط الجبهة ، وتوجيههم ضد الألمان والثورة المعادية فى المناطق السفلى .

فعينت لجنة تعبئة استثنائية مؤلفة من خمسة أعضاء ، برئاسة بودتيلكوف ، وسحب عشرة ملايين روبل من الذهب والعملة القيصرية من خزينة الدولة لسد نفقات التعبئة ، وجمعت بعجالة وحدة مؤلفة بصورة رئيسية من قوزاق من منطقة كامينسكايا لتقوم بحراسة النقود ، وفى الأول من أيار توجهت الحملة صوب الشمال ، وقد أن تعرّضت لنيران السلاح الجوى الألمانى .

كانت السكك تمور بالحرس الأحمر المتراجعين من أوكرانيا . وكان القوزاق المتمردون ينسفون الجسور ويخربون القطارات . وكانت الطائرات الألمانية تحلّق صبيحة كل يوم فوق السكك الحديد من نوفوتشيركاسك الى كامينسكايا ، وتنقض مثل أسراب من النسور وتفتح نيران رشاشاتها على مفارز الحرس الأحمر . فيتفرق الجنود من الشاحنات ، وتدوى الاطلاقات بأزيز حاد ، وتختلط فى المحطات

رائحة الخبث بدخان الحرب والدمار . ثم تمضى الطائرات بعيداً فى الفضاء ويفرغ رماة البنادق مشطاً اثر مشط من العتاد ، فارشين الأرض حول القطارات بالخراطيش الفارغة حتى لتبدو أشبه بأجمة بلوط فى الخريف تناثرت فوقها أوراق ذهبية . وعمّت أمارات الخراب كل مكان . وتناثرت شاحنات القطارات المحطمة المحترقة ، والأسلاك المقطوعة المدلاة من أعمدة التلغراف ، والمنازل المخربة ، والأسيجة المقامة لاتقاء الثلج ، تناثرت أشلاء وكأن عاصفة اجتاحتها .

ظلت الحملة تشق طريقها بطيئة طوال خمسة أيام على امتداد الخط الحديد باتجاه ميليروفو . وفى اليوم السادس دعا بودتيلكوف لجنة التعبئة للاجتماع فى عربته .

— لا نستطيع المضى على هذه الشاكلة . أرى أن نترك العربات وكل حاجياتنا ونقطع بقية الطريق سيراً .

فتساءل لاغوتين :

— لماذا ؟ سوف يطبق البيض علينا فيما نسرح نحن على أقدامنا .

وقال مريخين غير واثق :

— انها مسيرة بعيدة بعض الشىء .

كان كريفوشليكوف جالساً لا يرين ، وقد تدثر بمعطفه ، وبدا أصفر بفعل الملاريا والكنين . كان متكوماً على كيس سكر ، لا يسهم فى النقاش . وكانت على عينيه غشاوة من أثر الحُمى .

ناداه بودتيلكوف دون أن يرفع عينيه :

— كريفوشليكوف !

— ما الأمر ؟

— ألست تسمع ؟ يجب أن نذهب على أقدامنا ، والا فسيدركوننا ، ماذا تقول ؟ فأنت أكثرنا ثقافة .

فقال كريفوشليكوف بتؤدة وجلاء : «بوسعنا أن نسير» ، بيد أن أسنانه اصطكت على حين غفلة مثل الذئب وجعل يرتجف فى نوبة من الحمى . واستطرد : «بوسعنا أن نفعل ذلك لو لم يكن لدينا الكثير مما نحمله» .

فنشر بودتيلكوف خارطة ازاء الباب ، وأمسك بها مريخين عالياً من طرفيها . فاندفعت اليها الريح التى كانت تهب من ناحية الغرب المدلهمة ، وكأنها تهم بنتشها .

— سنتخذ هذا الطريق ، — ومر بودتيلكوف بأصابعه الملطخة بالنيكوتين على الخارطة ، وأردف : — نقطع مائة وخمسين أو مائتى فرسخ ، بالكثير ، ها !

فوافقه لاغوتين :

— بلى ، يحسن بنا أن نقطعها سيراً . ولينزل العمى بأعينهم !

— ماذا تقول أنت ، يا ميخائيل ؟

فاهتز كريفوشليكوف مغتاظاً ، وقال :

— لا مانع لديَّ .

— سأخبر القوزاق بالنزول من القطار فى الحال . فلا داعى لضياع الوقت . — قال مريخين ذلك وجال ببصره حوله يترقب ، واذ لم يصادف معارضة ما ، قفز من الشاحنة .

وفى صباح ذلك اليوم الماطر القاتم لم يكن القطار الذى يقل حملة بودتيلكوف بعيداً من بيلايا كالیتفا . كان بونتشوك مستلقياً فى شاحنته وقد غطى رأسه بمعطفه . وفى الشاحنة ذاتها كان القوزاق يعدون شاياً ، ويتضاحكون وبعضهم يجرجر سياق البعض الآخر .

أبقى بونتشوك عينيه مغمضتين . كان يستعيد ذكرى حوادث الماضى ، مستشعراً آلامها . وقد مثل أمام عينيه المغشوتين السهب المغطى بالثلج تطرزه هامات الغابات البنية فى الأفق . وخيل اليه أنه يستطيع أن يتحسس الريح الباردة ، وقد بدت آنا واقفة الى جانبه . كان بوسعه أن يرى عينيها السوداوين ، وتقاطيع فمها الصارمة الرقيقة فى الوقت ذاته ، والنمش الخفيف فوق أنفها ، وتغضن حاجبها الذى يوحى بالاستغراق والتأمل . على أنه لم يكن بوسعه أن يميز الكلمات التى ندت عن شفتيها ، كانت غير واضحة تقاطعها أصوات غريبة وقهقهات ، ومن التماع عينيها ورفيف أهدابها حدس ما كانت تقوله .

ثم هذه آنا أخرى ، بوجه أصفر مُزرق ، وعلى خديها آثار الدموع ، وأنفها معصور وشفتاها تتضوران ألما . انحنى ليقبل محجرى عينيها القاتمين . وجعل يئن ويضغط على بلعومه ليحبس نشيجه . ولم تبارح آنا ذهنه أبداً . وظلت ملامحها ماثلة أمام عينيه دون أن تذوى أو تضطرب . لقد التأم وجهها وقوامها ، ومشيتها ، وحركاتها ، وقوس حاجبيها ، ليؤلف منها كلا حياً . واستعاد كلماتها وأحاديثها الشاعرية الرقيقة ، وكل الأشياء التى عاشاها معاً . فزادته هذه الذكرى الحية عذاباً على عذاب .

وأيقظوه عندما صدر الأمر بالنزول ، وجمع حاجياته دونما اكتراث ، وخرج . واشترك فى تفريغ الأمتعة . وبنفس الشعور من اللامبالاة تسلق عربة خيل ومضى فيها .

كان المطر يرذّ ، وكان العشب القمىء على امتداد الطريق نديا . وهناك السهب الطلق ، حيث تهيم الريح جوابة فوق الحزون والوهاد . وترامى وراءهم دخان القاطرات ، وأبنية المحطات بلونها الأحمر . كانت العربات الأربعون التى استؤجرت من أقرب قرية

تدب متثاقلة . وكانت الخيل تسير وئيدة ، اذ كانت تعيق حركتها التربة الطينية السوداء المنقوعة بالمطر . والتصق الوحل بالعجلات كتلاً سوداً أشبه بجعد الصوف . وسارت أمامهم ووراءهم جموع من عمال المناجم لاثذين بالفرار مع زوجاتهم وأهليهم وحاجياتهم البائسة ، ميممين وجوههم صوب الشرق اتقاء شر القوزاق .

وعند مفرق الخط الحديد لحقت بهم فلول مفرزتين أخريين من مفارز الحرس الأحمر المبعثرة . كانت وجوههم ترابية كالأرض من أثر القتال ، وافتقادهم النوم ، والجوع . تقدم آمرهم شادينكو نحو بودتيلكوف ، وقد لاح الاعياء الشديد على وجهه الوسيم ذى الشاربين المقصوصين على الطريقة الانكليزية والأنف الدقيق القاسى . واذ مرّ بونتشوك بهما سمع شادينكو يتكلم بصوت متعب غضوب ، وقد عقد حاجبيه :

— أتظن أنى لا أعرف جماعتى ؟ كانت الأمور بالأمس سيئة بما فيه الكفاية ، والآن علينا أن نحسب حساب الألمان أيضاً ، سلخ الله وجوههم . لعمرى متى أستطيع أن ألم شعث قواتى ثانية ؟

بعد هذا الحديث حث بودتيلكوف خطاه ليلحق بعربته ، بادى العبوس والارتباك . فتقدم منه كريفوشليكوف وجعل يخاطبه بانفعال . ولاحظه بونتشوك يلوح بذراعه الى الأسفل ويهدر ببضع عبارات . فدب الحماس فى ذهن بودتيلكوف وقفز الى العربة فصرت من ثقله . ولم يكد السائق يلفح ظهور الخيل حتى تطاير الوحل من العجلات .

وصاح بودتيلكوف والريح تنفخ سترته الجلدية :

— أسرعوا !

ظلت الحملة تواصل مسيرتها عدة أيام متوغلة فى قلب اقليم الدون . وقد رحب بهم سكان القرى الأوكرانية وأكرموا وفادتهم ، وباعوهم المؤن عن طيبة خاطر وآووهم . ولكن ما ان أثير موضوع اكتراء خيل للرحلة الى كراسنوكوتسك حتى شرع الأوكرانيون يحكون رؤوسهم ، وأعلنوا بعد تردد يسير رفضهم البات فقال بودتيلكوف لواحد منهم :

— ستحصل على كمية وافرة من النقود ، فلماذا تشيح بوجهك عنا ؟

— هل تعتقد أننى أفضل النقود على حياتى ؟

— نحن لا نريد حياتك ، انما نطلب منك أن تؤجرنا بعض الخيل ، عربة واحدة ليس غير .

— لا أستطيع .

— لم لا ؟

— أنتم ذاهبون الى القوزاق ، أليس كذلك ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— هب أن شيئاً سيقع وأفقد خيلى . ماذا ترانى سأفعل آنذاك ؟ كيف سيتسنى لى أن أعيش دونما خيل ؟ كلا ، يا رجل ، دعنى وشأنى . لن أفعل ذلك .

وعندما أخذوا يقتربون من أراضى القوزاق ، ازداد توجس بودتيلكوف وبقية القادة . فقد لاحظوا تغيراً فى موقف الناس الذين طفقوا الآن يظهرون لهم الضغينة والتهيب علانية ، ويبيعونهم الطعام على مضض ، ويتملصون فى الاجابة . ولم تعد العربات يتكأكأ حولها حشد فرح من صبية القرى . بل أخذت تسترق النظر اليهم

وجوه عدائية من النوافذ ، ويتوارى القرويون عن الانظار حالما يقع نظرهم عليهم .

فراح قوزاق الحملة يصرخون فى وجوههم :

— ماذا أنتم ، ثلة كفار ؟ فيم تحملقون فينا كالبوم ؟

وألقى فانكا بولديريف بقبعته على الأرض فى ساحة القرية ، وقد بعث فى نفسه اليأس مما لاقوه من استقبال فاتر ، وأرعد وهو يجول ببصره خشية أن يراه أحد القواد :

— أأنتم أنس أم جن ؟ فيم وقوفكم صامتين ؟ ألا لعنة الله عليكم ! نحن نريق دماءنا من أجل حقوقكم وأنتم لا تفعلون سوى أن تلتهمونا بنظراتكم ! لقد حلت المساواة الآن أيها الرفاق ، فلم يعد هناك لا قوزاقى ولا اوكرانى ، ولن يمسكم أحد بسوء من الآن فصاعداً . ايتوا لنا ببيض ودجاج فى الحال ، ندفع لقاء ذلك روبلات قيصرية .

كان ستة أوكرانيين يستمعون اليه ، وقد انحنت رؤوسهم بقنوط ، وكأنهم جياد وضع عليها نير الحراثة . ولم يبد أى منهم تجاوباً مع خطابه النارى .

— لا زلتم اولئك الاوكرانيين العفنين كعهدنا بكم ! ألا فلتنبعج بطونكم ، أنتم أيها البرجوازيون أصحاب الكروش المنتفخة ! — ورمى بولديريف ثانية بقبعته البالية واستحال وجهه أرجوانياً من شدة الغيظ ، وأردف : — أنتم لا تجودون بحفنة من الثلج فى عز الشتاء !

فلم يزد الأوكرانيون على أن يقولوا له :

— لا داعى لزعيقك ! — ثم تفرقوا كل الى سبيله .

وفى القرية نفسها سألت عجوز أوكرانية أحد القوزاق :

— أصحيح أنكم ستسلبون كل شىء وتمزقوننا إرباً إرباً ؟

فأجابها القوزاقى دون أن يطرف جفناً :

— أجل ، صحيح . ولعلنا لن نفعل ذلك مع كل انسان ، ولكننا سنمزق كل الشيوخ .

— أوه ، يا الهى ! ولماذا تمزقونهم ؟

— لنأكلهم مع الثريد . لقد سئمنا طعم الضأن منذ زمن .

ولم يعد شهى المذاق ، ولهذا نضع الشيوخ فى قدورنا ونطهو مرقاً نفيسا منهم . . .

— لا أخالك تمزح ، أليس كذلك ؟

فتدخل مريخين :

— انه يكذب أيتها الجدة ! — والتفت الى القوزاقى الهازل وقال :

— تعلّم كيف تمزح ومع من تمزح ! سيقطع بودتيلكوف لك رأسك على أكاذيبك هذه . فيم تنشر هذه الحكايات ؟ سوف تذهب وتخبر كل انسان بأننا نمزق الشيوخ !

واذ استبد ببودتيلكوف القلق ، جعل يختصر من طول الوقفات والاستراحات الليلية ، وراح يعجل فى تقدم الحملة . وفى اليوم السابق لوصولهم منطقة الدون الأعلى جرى بينه وبين لاغوتين حديث طويل .

— ليس هناك من جدوى فى ذهابنا بعيداً جداً ، يا ايفان . سنشرع بالتجنيد حالما يتسنى لنا ذلك . سوف نعلن عن موعد التسجيل ونعرض أجوراً طيبة . انما يتأتى عليهم أن يأتوا جميعاً بجيادهم وعددهم ، فليس لنا أن نرمى بنقود الشعب فى البالوعة . سنجمع رجالاً كلما تقدمنا . وعندما نكون قد بلغنا ميخائيلوفكا يجب أن تتكون لدينا فرقة تحت امرتنا . ما رأيك ، أتظن أننا سنحقق ذلك ؟

— سنحقق ذلك ، شريطة أن يكون كل شىء ما يزال هادئاً هناك .

— اذاً فأنت تعتقد أن البيض ربما بدأوا عملهم فعلاً ؟

— من يدرى ، — ثم مسد لاغوتين لحيته القصيرة وأضاف بقنوط :

لقد تأخرنا . . . وأخشى أننا لن نوفق . فقد باشر الضباط عملهم هناك . علينا أن نسرع . . .

فأجابه بودتيلكوف وقد تألقت عيناه بقسوة :

— نحن مسرعون بالفعل ! واياك أن تجزع ! علينا ألا نجزع ، فمن ورائنا رجال ، فلا داعى للخوف . سوف نشق طريقنا ! وفى غضون أسبوعين سنكون قد اكتسحنا الألمان والبيض من الدون . — ثم قال فى سريرته معرباً عن شعوره الداخلى ، وهو ينفخ سيكارته بقوة : — لئن كنا قد تأخرنا كثيراً ، فسوف يقضى علينا وعلى النظام السوفييتى فى الدون . يجب علينا أن لا نتأخر كثيراً . أمّا اذا كان الضباط قد دبروا عصياناً قبل أن نصل الى هناك ، فتلك هى النهاية ! — ووشيك غروب اليوم التالى وطأوا أرض القوزاق . وحينما اقتربوا من أول قرية رأى بودتيلكوف ، وهو فى احدى العربات الأمامية مع لاغوتين وكريفوشليكوف ، قطيعاً من الماشية فى السهب . فاقترح قائلاً للاغوتين : «لنذهب ونسأل ذلك الراعى» . فأيد كريفوشليكوف الفكرة .

فترجل لاغوتين وبودتيلكوف ومضيا شطر القطيع ، كان العشب المشاع الذى لفحته الشمس يومئ بلون بنى . كان العشب قميئاً قد هرسته الأقدام ، ونما على حافة الطريق شىء من اللفت والشوفان البرى تخشخش ذؤاباته الشعث . ومضى بودتيلكوف وهو يفرك بيده عسلوجاً من شيح متيبس ويتنشق رائحته الحادة المريرة :

— لك العافية ، أيها الراعى .

— العافية من عند الله .

— تسرح بقطيعك ؟

— أى .

وأرخى العجوز نظره من تحت حاجبيه الأشيبين الكثين .

— حسناً ، كيف تسير معكم الأمور هنا ؟

— نقضيها بمعونة الله .

— ما عندك من أخبار ؟

— لا شىء يذكر . ومن عساكم تكونون ؟

— نحن جنود عائدون الى أهلينا .

— من أية قرية أنتم ؟

— أوست–خوبرسكايا .

— عسى ألا يكون بودتيلكوف ذاك بينكم ، أم تراه معكم ؟

— نعم .

فلاح الجزع على الراعى اثر الجواب ، وشحب لونه . فسأله بودتيلكوف :

— ما الخبر أيها الشيخ ؟

— يقال انكم ستقتلون كل الأرثودوكس .

— هراء ! من ينشر هذه الأكاذيب ؟

— الأتمان قال ذلك فى اجتماع عقد قبل يومين . لعله سمع شائعات أو تسلم رسالة من الحكومة تقول ان بودتيلكوف والكالميكيين فى طريقهم الينا ليذبحونا جميعاً .

فسأله لاغوتين وهو ينظر الى بودتيلكوف الذى كان يعض نصلاً من الحشيش بأسنانه القوية الصفر : — اذا فقد أصبح لديكم أتمانات من جديد ؟

— انتخبنا أتماناً قبل بضعة أيام . وقد ألغى مجلس السوفييتات .

وكان بود لاغوتين أن يلحف عليه بمزيد من الاسئلة ، غير أنه حصل فى هذه اللحظة أن ثوراً هائجاً شب على احدى البقرات على مبعدة يسيرة منهما فطرحها أرضاً . فشهق الراعى قائلاً :

— سيقصم ظهرها ، ذلك الشيطان !

واندفع الى قطيعه بسرعة لا تتناسب مع سنه وراح يصيح وهو يركض :

— انها بقرة ناستينكا . . . سوف يقصم ظهرها . . . ماذا دهاك يا أقرع !

فنشر بودتيلكوف ذراعيه وعاد الى العربة . وراح لاغوتين ، وقد كان فلاحاً جيداً ، يحدق قلقاً فى البقرة الصغيرة الواهنة التى طرحها الثور أرضاً وهو يقول فى ذهنه : — أجل ، كاد أن يقصم ظهرها ، ذلك الشيطان !

ولم يعد الى القافلة الا بعد أن تأكد أن البقرة قد نجت بظهرها من سطوة الثور . وراح يسائل نفسه : «ماذا سنفعل ؟ عسى ألا يكون أهل الجانب الآخر من الدون قد أقاموا أتمانات جديدة ؟» بيد أن ثوراً أصيلاً كان يقف على جانب الطريق ما لبث أن صرف ذهنه من جديد . كان يشتم بقرة جسيمة كبيرة الضرع دهماء ويهز برأسه الهائل ذى العظام الناتئة . كان صدره الكبير يتدلى حتى ركبتيه وجسمه القوى الطويل مشدوداً مثل وتر الكمان . وقد انغرزت سيقانه القصيرة فى الأرض كالركائز ، واذ حطت عينا لاغوتين بحنو على اهاب الثور البنى المرقط ، متملياً أصالته بغبطة ، شغل ذهنه بهذه الخاطرة : «ان ثوراً كهذا يصلح لقريتنا حقاً . أمّا ثيراننا فبائسة تعيسة» . لقد استأثرت الخاطرة باهتمامه هنيهة ، ثم ما لبث أن تلاشت . وراح يقلب فى ذهنه الرأى حول الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فيما هو يمضى صوب العربة ويرى الى وجوه القوزاق الكئيبة .

• • •

كان كريفوشليكوف الحالم الشاعر ، الذى نالت منه الحمى ، يقول لبودتيلكوف :

— اننا نبذل جهدنا لنتحاشى موج الثورة المعادية ، ولكنها فى سبيلها لاكتساحنا . انها لاشبه بالمد يعلو شاطئاً مستوياً . وليس بوسع المرء أن يسابقه .

وكان بودتيلكوف وحده يبدو عليه أنه يدرك خطورة الموقف ادراكاً تاماً . كان جالساً فى العربة وقد انحنى جسمه الى الأمام ، يهتف للسائق بين دقيقة وأخرى :

— أسرع !

وانطلق أحدهم ينشد أغنية من مؤخرة الطابور بيد أنها ما لبثت أن تلاشت على حين فجأة . فتعالى الضحك والصخب وطغى على قرقعة العجلات .

واتضح أن المعلومات التى استقوها من الراعى كانت صحيحة . وصادفوا قوزاقياً من رجال خط الجبهة فى طريقه الى قرية سفيتشنيكوف مع زوجته . كان الرجل يرتدى شريط الكتف وشارة على قبعته . ولما سأله بودتيلكوف بضعة أسئلة ازداد وجهه اكفهراراً .

عندما تجاوزوا القرية اليكسييفسكايا ، شرع المطر يتساقط . كانت السماء غائمة . ومن الشرق فقط بدت السماء زرقاء قاتمة خلل فجوة فى الغيوم . وفيما كانوا يهبطون منحدراً يؤدى الى مضرب صغير شاهدوا أناساً يهرولون ، وبضع عربات تجرى منطلقة من الجانب الآخر .

فقال لاغوتين شارد البال وهو يعاين الآخرين :

— انهم يهربون ، انهم يخافوننا . . .

فهتف بودتيلكوف :

— أرجعوهم . صيحوا عليهم ، الشياطين !

فوقف الجنود فى عرباتهم وطفقوا يلوحون بقبعاتهم . وراح أحدهم يصيح بقوة :

— الى اين أنتم متجهون ؟ قفوا ! . .

ومضت عربات الحملة تقعقع صوب المضرب . كانت الريح تدوم خلل الشارع الفسيح المهجور . وفى أحد الافنية كانت عجوز أوكرانية تتذمر وترمى وسائد فى عربة فيما أمسك زوجها بلجام الفرس وهو حافى القدمين حاسر الرأس .

وعلموا هنا أن الرجل الذى أرسله بودتيلكوف ليدبر لهم مأوى قد أسرته دورية قوزاقية وقادته وراء المرتفع . ولا بد أن القوزاق كانوا غير بعيدين . فقرروا بعد اجتماع قصير أن يعودوا أدراجهم . على أن بودتيلكوف الذى كان فى بادئ الأمر يصر على مواصلة سيرهم ، ظل متردداً .

أمّا كريفوشليكوف فقد لزم الصمت . كان ما يزال يرتعش من الحمى .

فسأل بودتيلكوف بونتشوك الذى كان حاضراً الاجتماع :

— ربما نستطيع المضى قدماً ؟

فهز بونتشوك كتفيه بلا اكتراث . لم يكن ليهمه سواء مضوا فى مسيرتهم الى الأمام أو الى الخلف ، ما داموا يواصلون السير ، ليناًى عن أحزانه التى ظلت ترافقه . وظل بودتيلكوف يتخطى جيئة وذهاباً ، ويتكلم عن مزايا ذهابهم الى أوست–مدفيديتسا . بيد أن أحد المحرضين القوزاق قاطعه بعنف :

— يبدو أنك فقدت صوابك ! الى أين تريد أن تقودنا ؟ الى أعداء الثورة ؟ اننا سنعود أدراجنا ! فلسنا نريد أن نموت ! ما ذاك ؟ ألا ترى تلك ؟ — وأشار الى المرتفع فى أعلى القرية .

فالتفتوا جميعاً وراحوا يحدقون صعد التل . كانت على قمته صورة لثلاثة خيالة ترتسم على صفحة السماء .

فهتف لاغوتين :

— تلك احدى دورياتهم !

— أنظروا ! هناك أيضاً !

وظهرت جماعات أخرى من الخيالة ، وتوارت وراء التل ، ثم ظهرت من جديد .

فأصدر بودتيلكوف أمراً بالعودة . ومضوا الى أليكسييفسكايا ، بيد أن سكان القرية شرعوا بالاختفاء والهرب بعد أن أنذرهم القوزاق سلفاً .

وبدأ الغسق يدركهم . وبللهم المطر البارد الخفيف حتى الجلد . كان الرجال يسيرون حذاء العربات حاملين بنادقهم على هيئة استعداد . وتعرج الطريق الى وادٍ ، وتخلله ، وارتقى المرتفع خلفه . وكانت دوريات القوزاق تظهر وتختفى بين الحين والآخر على قمم التلال . فزاد وجودها المتربص توتر أعصابهم .

وقرب احدى الوهاد التى تعترض الوادى قفز بودتيلكوف من عربته ودعا الرجال باقتضاب :

— استعدوا ! — ورفع صمام الأمان فى غدارته التى يستعملها الخيالة وجعل يمشى قدماً بجانب العربة . كان ماء الفيضان الربيعى يلوح أزرق فى الوهدة . كان يجرى الى بركة يحدها سد وكان الوحل المحيط بالبركة قد عجنته حوافر الماشية التى قصدتها لترتوى . وكان السد المتهاوى مهدباً بنبات الحلفاء التى راح المطر ينيمها ويعبث بها . وقد توجس بودتيلكوف وجود كمين فى هذا الموضع ، بيد أن الدورية الأمامية لم تفلح فى العثور على أحد .

وهمس كريفوشليكوف فى أذنه :

— ليس هناك ما يدعوك الى أن تتوقع وجودهم هنا . فهم لا يشنون الهجوم الآن . ايما ينتظرون حلول الليل .

— وهذا ما أحسبه أنا أيضاً .

٢٨

تجمعت سحب مدلهمة فى الغرب ، وخيم الظلام ، وبعيداً ، صوب الدون ، كانت السماء تومض ، وتهتز صفحة البريق البرتقالية مثل طير مهيض الجناح . وتوهج الغروب بشحوب تحت بساط غيمة . وبدا السهب وكأن الصمت قد لفه ، وتوارى البصيص الكابى لضوء النهار المنحصر ، فى أغوار الوادى . كان ذلك المساء من أيار خريفياً بأنفاسه . فحتى الأعشاب التى لما تزهو بعد كانت تنبعث منها رائحة تحلّل يصعب وصفها . وكان بودتيلكوف يتنسم الشميم الثر للأعشاب المخضلة وهو ماضٍ فى سيره . وكان يتوقف بين الفينة والأخرى وينحنى ليزيح الوحل من جزمته ، ثم ما يلبث أن يستوى من جديد ويحث خطوه ساهماً ، وسترته الجلد مفتوحة تصر بفعل الرطوبة .

بلغوا القرية التالية فى الليل . فترك قوزاق الحملة عرباتهم وذهبوا ليقضوا الليل فى دور القرية . وأصدر بودتيلكوف أمراً يقضى بتعيين خفراء عسكريين ، بيد أنهم وجدوا مشقة فى الحصول على رجال لتلك المهمة . فقد رفض ثلاثة الامتثال للأوامر رفضاً باتاً .

فقال كريفوشليكوف مستشاط الغضب :

— أحيلوهم الى محكمة عسكرية حزبية فى الحال ! واعدموهم لرفضهم اطاعة الأوامر !

بيد أن بودتيلكوف أتى بحركة تعبة يائسة وقال :

— المسيرة زعزعت معنوياتهم ، ولن ينبروا للدفاع عن أنفسهم . لقد قضى علينا يا ميشا !

على أن لاغوتين أفلح على نحو ما بجمع بضعة قوزاق ، وأقام مراكز حراسة خارج القرية . ودار بودتيلكوف فى البيوت وتحدث الى القوزاق الذين يستطيع الاعتماد عليهم أكثر من غيرهم ، قائلاً :

— لا تناموا أيها الشباب ! والا فسوف يطبقون علينا !

وأمضى الليلة بكاملها جالساً الى طاولة وقد أسند رأسه بيده ، يجرجر أنفاساً ثقيلة مكدودة أشبه بحيوان جريح . وقبيل الفجر بقليل أخذته سنة من النوم ، وألقى برأسه الكبيرة على الطاولة . ولكنه ما لبث أن أوقظ فى الحال استعداداً لمواصلة تراجعهم . كان ضوء النهار ينبلج . فخرج الى الفناء فلقيته ربة المنزل فى سقيفة الدار وهى عائدة من الحلب .

قالت له دونما اهتمام :

— هناك بعض الفرسان يتحركون على التل .

فهرع الى الفناء . فتراءت خلف لفاع من الضباب المخيم على القرية وعلى صفصاف المروج ، قوات كبيرة من القوزاق على التل . كانوا يقتربون من القرية فى خبب سريع ويطوّقونها .

وجعل القوزاق يتدفقون من الدور الأخرى الى الفناء . وتقدم أحدهم من بودتيلكوف وانتحى به جانباً وقال :

— أيها الرفيق بودتيلكوف . . . لقد جاء رسل منهم لتوهم ، — ولوح بيده صوب التل وأردف : — وأخبرونا أن نبلغك بأن علينا أن نسلّم سلاحنا ونستسلم فى الحال . والا فسوف يهجمون علينا .

فأمسك بودتيلكوف بتلابيب الرجل وقال له :

— أنت . . . يا ابن القحبة ! كيف تجرؤ ان تقول لى مثل هذا الكلام ؟ . .

ودفعه جانباً ثم هرع الى العربة . والتقط بندقيته من ماسورتها ، والتفت وراح يهتف الى القوزاق بصوت خشن أبح :

— نستسلم ؟ أى جامع يجمعنا بأعداء الثورة ؟ سنقاتلهم ! اتبعونى ! الى السلاح !

فاندفع عدد من القوزاق من القناء فى أثره ، وهرولوا لمة واحدة الى طرف القرية . وعندما بلغوا آخر بيوتها أدرك مريخين بودتيلكوف . وراح يقول له :

— ويحك يا بودتيلكوف ! أهناك داع لاراقة دماء اخوتنا ؟ تعال معى ! فلا بد أن نتوصل الى اتفاق ما .

ولما وجد بودتيلكوف أنه لم يتبعه سوى شطر صغير من رجال الحملة ، واذ أدرك عن سداد أن الهزيمة أمر لا محيد عنه اذا ما نشب القتال ، انتزع الترباس من بندقيته ولوّح بقبعته بلا مبالاة قائلاً :

— لا جدوى من ذلك يا أولاد ! لنعد الى القرية !

وعادوا أدراجهم . وتجمع رجال الحملة كلهم فى ثلاثة أفنية متلاصقة . وبعد بضع دقائق دخلت القرية ثلة من أربعين فارساً قوزاقياً . أمّا قوة العدو الرئيسية فقد بقيت فى مواضعها على التلال الواطئة المحيطة بالقرية . وبدعوة من الشيوخ ذهب بودتيلكوف الى طرف القرية ليبحث شروط الاستسلام . وفيما كان ماضياً فى طريقه لحق به بونتشوك الذى كان يركض وراءه وأوقفه :

— هل قر رأيك على الاستسلام ؟

— ان المقاومة لا تجدى فتيلاً . فما عسانا نفعل غير الاستسلام ؟

فقال بونتشوك وهو يختض من رأسه حتى أخمص قدميه :

— أتريد أن تموت ؟ — وراح يصرخ بصوت عالى النبرة لا

جرس له ، متجاهلاً الشيوخ الذين ما لبثوا أن رافقوا بودتيلكوف : — قل لهم اننا لن نسلم أسلحتنا !

ثم استدار على عقبيه وعاد يحث الخطى ويلوح بمسدسه . وجرّب اقناع الحرس الأحمر ليحاولوا ايجاد منفذ لهم ويشقوا طريقهم الى السكك . بيد أن الاكثرية كانت الى جانب الاستسلام . فقد أشاح البعض بوجوههم ، أمّا الآخرون فقد هتفوا مغضبين :

— اذهب أنت وقاتل . أمّا نحن فلن نطلق النار على اخواننا !

— سنضع أنفسنا تحت رحمتهم دونما حاجة الى السلاح . السلاح .

— اليوم عيد الفصح وتريد منا أن نريق الدماء ؟

فاستدار بونتشوك وعاد الى عربته ، ورمى معطفه تحتها ، ثم انبطح شاداً كفه على عقب مسدسه بقوة . وفى البدء فكر فى محاولة للهرب . بيد أنه لم يسغ فكرة الهرب والفرار ، فلبث ينتظر عودة بودتيلكوف .

وعاد بودتيلكوف بعد نحو ثلاث ساعات ، مصطحباً معه حشداً كبيراً من القوزاق الى القرية . كان يسير ثابت الخطى مرفوع الرأس . والى جانبه كان آمر قوات القوزاق البيض الرئيس سبيريدونوف ، الذى صادف أنه كان رفيقه فى المدفعية . كان سبيريدونوف يتحدث اليه ويبتسم بدهاء . وخلفه كان قوزاقى على صهوة جواد يشد الى صدره صارية خشبية خشنة لعلم أبيض .

كانت الشوارع والأفنية حيث تجمعت عربات الحملة قد سدت بالقوزاق القادمين . وضج هدير من الأصوات على حين غرة . كان الكثير منهم رفاق سلاح لقوزاق بودتيلكوف فيما مضى ، وعندما عرف بعضهم البعض تعالى الضحك وهتافات الفرح :

— مرحباً ، أهذا أنت يا بروخور ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟

فأجاب بروخور :

— كنا على وشك أن نقاتلكم . أتذكر كيف طاردنا النمساويين قرب لفوف ؟

— وهذا ابن العم دانيلو ! لقد قام المسيح ، يا ابن العمّ !

فأجاب دانيلو على تحية عيد الفصح :

— لقد قام حقاً !

وتعالى صوت التقبيل . ثم وقف القوزاقيان يمسدان بعواذرهما ويتمليان النظر ببعضهما البعض ، يضحكان ويضربان على ظهر بعضهما الآخر .

وقال أحد القوزاق الحمر :

— لم ننته من صيامنا بعد . . .

— ولكنكم بلاشفة ، ما شأنكم والافطار ؟

— هم . . . م ! قد نكون بلاشفة ، ولكننا نؤمن بالله مع ذلك .

— هوه ! أنت تكذب !

— الله يشهد على ما أقول !

— وهل تحمل صليباً ؟

— بالطبع . هذا هو . — وفتح الجندى الأحمر ياقة قمصلته وأخرج الصليب النحاسى المحضوضر الذى كان معلقاً على صدره الأسمر المشعر .

وراح الشيوخ الذين خرجوا بمذاريهم وفؤوسهم ليظفروا بـ«بودتيلكوف المتمرد» ينظرون الى بعضهم البعض مذهولين وقال أحدهم :

— ماذا ؟ لقد أخبرونا أنكم قد تخليتم عن ديانتكم المسيحية ! وسمعنا أنكم كنتم تسرقون الكنائس وتقتلون القسس .

— وانكم تؤمنون بالشيطان ! . .

فراح الجندى الاحمر ذو الوجه العريض يؤكد لهم بصدق :

— كلها أكاذيب ! انهم يروون لكم الأكاذيب . ولعلمكم ، أقول اننى قبل أن أبارح روستوف ذهبت الى الكنيسة وتقرّبت .

— أوه ، انك تعقد الأمور عليَّ !

وانبرى عجوز قمىء مسلح برمح مبتور حتى النصف يصفق بيديه فرحاً .

وضجّ الشارع والأفنية بطنين صاخب . ولم تمضِ نصف ساعة حتى خف عدد من القوزاق الى الشارع ينحون كتلة الرجال المتراصة ويهتفون :

— على أولئك الذين ينتمون الى مفرزة بودتيلكوف أن يصطفوا استعداداً لتلاوة الأسماء !

وجاء خلفهم الرئيس سبيريدونوف . ونزع قبعته وصاح :

— على كل من ينتمى الى مفرزة بودتيلكوف أن يخطو الى اليسار صوب الأسيجة . أمّا الآخرون فالى اليمين . أيها الاخوة ، يا رجال خط الجبهة ! لقد توصلنا الى قرار بالاتفاق مع قادتكم يقضى بأن تسلموا كامل أسلحتكم ، لأن الناس يخافونكم ما دمتم مسلحين . ضعوا بنادقكم وبقية أسلحتكم فى عرباتكم . وسنحرسها سوية . وسوف نرسلكم الى كراسنوكوتسكايا ، وهناك ستتسلمون أسلحتكم من جديد .

فتعالت همهمة تذمر عالية من قوزاق الحرس الأحمر ، وهتف أحدهم :

— لن نسلم أسلحتنا !

وسرت بين الحشد دمدمة ملأت الشارع والأفنية الغاصة بالناس .

وماج القوزاق التابعون لسبيريدونوف الى اليمين ، تاركين الحرس الأحمر فى هرج ومرج وسط الشارع . وراح كريفوشليكوف ينظر حوله كحيوان طريد . وزم لاغوتين شفتيه . أمّا بونتشوك الذى كان قد أصر ألا يسلم سلاحه ، فقد خطا بسرعة نحو بودتيلكوف ، وبندقيته فى يده تخط فى أثره .

— يجب ألا نسلم أسلحتنا ! هل تسمع ؟

فهمس بودتيلكوف وهو يخبط بأصابعه بعصبية قائمة تعداد المفرزة :

— لقد فات الأوان .

فوقعت قائمة التعداد بيد سبيريدونوف ، الذى ألقى عليها نظرة وقال متسائلاً :

— يجب أن يكون تعداد المفرزة مئة وثمانية وعشرين . فأين البقية ؟

— انسلوا عن المفرزة فى الطريق .

— هكذا اذاً . حسناً ، قل لهم أن يسلموا سلاحهم .

فكان بودتيلكوف أول من بادر الى نزع مسدسه من قرابه . ثم قال بصوت أبح وهو يسلمه :

— ان سيفى وبندقيتى فى العربة .

وبدأ تجريدهم من السلاح . وراح القوزاق يسلمون أسلحتهم بتثاقل ، وحاول بعضهم اخفاء مسدساتهم فى الأسيجة والأفنية . فهتف سبيريدونوف مبتسماً بجذل :

— سوف يفتش كل من لا يسلم سلاحه !

ورفض عدد منهم بتحريض من بونتشوك تسليم بنادقهم ،

فانتزعوا منهم السلاح بالقوة . وذهب حامل رشاش بحصانه الى خارج القرية حاملاً معه متراس رشاشة ، فأحدث جلبة وراءه . وفى غمرة الفوضى أفلح بضعة آخرون فى اخفاء أنفسهم . فوضع سبيريدونوف فى الحال حراسة على بودتيلكوف والبقية ، وفتشهم وحاول أن يقرأ تعدادهم . غير أن الأسرى أحجموا قائلين :

— فيم لجؤوك الى قائمة التعداد ؟ اننا هنا جميعاً !

— اذهب بنا الى كراسنوكوتسكايا !

— ضع حداً لهذه اللعبة !

وختم صندوق المال وأرسل الى كارغنسكايا تحت الحراسة المشددة . ثم جمع سبيريدونوف الأسرى ، وأصدر أمره مغيراً فى الحال لهجة صوته وتعابير وجهه :

— اصطفوا صفين ! يساراً استدر ! عادة سر ! الكلام ممنوع !

فسرت بين صفوف الحرس الأحمر همهمة من التذمر . ومضوا فى مسيرتهم مكرهين ، وسرعان ما خرجوا عن الصف وواصلوا سيرهم دونما انتظام .

كان بودتيلكوف حينما طلب من رجاله تسليم أسلحتهم ، لا يزال يأمل فى حل أفضل للقضية . الا أنه ما ان اقتيد الأسرى خارج القرية حتى شرع القوزاق الذين كانوا فى حراستهم يضايقون الرجال الذين هم فى أطراف المسيرة بخيولهم . وكان بونتشوك يحث خطوه فى اليسار ، ولغير ما سبب ضربه بالسوط قوزاقى شيخ ذو لحية حمراء متوهجة يتدلى من أذنه قرط اسودّ لونه بفعل القدم . فلفح طرف السوط وجنة بونتشوك . فالتفت وضم قبضته ، بيد أن ضربة ثانية أوجع من سابقتها أجبرته على أن يشق طريقه بين حشد الأسرى . لقد فعل ذلك بلا ارادة ، تدفعه غريزة بدائية فى الدفاع

عن النفس ، وللمرة الأولى منذ موت آنا ارتسمت على شفتيه ابتسامة شوهاء عندما أدرك والدهشة تتملكه مدى قوة وعناد الرغبة فى الحياة عند الانسان .

وشرع الحرس القوزاق يضربون الأسرى . واندفع الشيوخ اليهم ، يستثيرهم منظر أعدائهم المستضعفين ، بخيلهم ، يميلون من فوق سروجهم ، ويضربونهم بسياطهم وبنصل سيوفهم . فراح من أصابتهم الضربات يحاولون بلا ارادة أن يشقوا طريقهم الى الوسط وهم يتدافعون ويطلقون الصرخات وهتف أحد رجال الحرس الأحمر وهو يهز بقبضتيه فوق رأسه :

— اذا كنتم تريدون قتلنا ، فاقتلونا فى الحال ، عليكم اللعنة ! والا ففيم تعذبوننا ؟

وهتف كريفوشليكوف :

— أين هى وعودكم ؟

فخفف الشيوخ من غلواء قساوتهم . ودمدم أحد الحراس الذى حنا ، كما يبدو ، على البلاشفة جواباً على سؤال أحد الأسرى : «الى اين تسوقوننا ؟»

— الأوامر التى تسلمناها تقضى بالذهاب بكم الى بونوماريوف . لا تجزعوا أيها الاخوة ، فلن يصيبكم ما هو أسوأ من هذا .

وعندما وصلوا قرية بونوماريوف ، وقف سبيريدونوف عند باب حانوت صغير ، وأخذ يسأل الأسرى فيما هم يدخلون الواحد بعد الآخر :

— لقبك ؟ اسمك ؟ أين ولدت ؟

وكان يسجل أجوبتهم فى مفكرته البالية المتسخة .

ولما جاء دور بونتشوك ، سأله سبيريدونوف وقلمه الرصاص حاط على الورقة استعداداً للكتابة : «لقبك ؟» . وألقى نظرة على

وجه الجندى الأحمر الكئيب العريض الجبين فزاغ عنه بسرعة لما رأى شفتى الرجل قد زمتا استعداداً للبصاق وقال :

— تحرك أيها الخنزير ! ستموت بلا اسم .

واستلهم اثنان آخران موقف بونتشوك ، فرفضا الادلاء باسميهما ، مؤثرين أن يموتا مجهولين . وحينما دخل آخر رجل فى الحانوت أقفله سبيريدونوف بنفسه ووضع حوله الحرس .

وفيما كانت الغنائم المستلبة من عربات الحملة توزع على مقربة من الحانوت ، عقدت فى بيت قريب جلسة لمحكمة عسكرية تم تشكيلها على عجل من ممثلين لكافة القرى التى أسهمت فى عملية الأسر . كان رئيسها رئيساً أول فى الجيش مكتنزاً أشقر الشعر يدعى فاسيلى بوبوف . جلس تحت مرآة معلقة مع المناشف المطرزة ، ومرفقاه حاطان على الطاولة ، وقد انداحت قبعته الى الوراء . وكانت عيناه النفاذتان الرضيتان الدبقتان تتنقلان بين أعضاء المحكمة متسائلتين ، ثم طرح السؤال :

— ماذا نفعل بهم أيها الشيوخ ؟

ومال الى رئيس يجلس بجانبه وأسرّ له بشىء . فهز الضابط رأسه فى الحال موافقاً . فضاقت عينا بوبوف ، وتلاشى الحماس فيهما وحل محلهما بصيص بارد كالحديد لم تفلح أهدابه السفلى كثيراً فى اخفائه .

— ما الذى نفعله بهؤلاء الذين خانوا وطنهم ، وجاءوا لنهب بيوتنا والقضاء على القوزاق ؟

فوثب عجوز على قدميه كما تنطلق دمية مشدودة الى نابض ، وقال :

— أعدموهم ! جميعاً !

وهز رأسه كالمأخوذ وراح يجول حوله بعينين مهووستين ، ثم

هتف وهو يغص بالبصاق الذى أرغى من بين شفتيه :

— لا رحمة بأشباه يهوذا أولاء ! اقتلوهم ! اصلبوهم ! احرقوهم ! اقتلوا اليهود منهم !

واقترح أحد الأعضاء بتردد :

— هل ننفيهم ؟

— اقتلوهم !

— عقوبة الموت !

— الاعدام علناً !

— ينبغى استئصال الاعشاب الضارة !

— الموت لهم !

فأعلن سبيريدونوف بادى الغيظ :

— من البديهى أن يرموا بالرصاص . فيم نشغل أنفسنا بالنقاش ؟

كان الصياح قد أزال آخر أثر من آثار الطيبة والرقة من وجه الرئيس . فزم شفتيه بقسوة ، وأمر الكاتب :

— الاعدام رمياً بالرصاص ! دوّن هذا القرار !

فانبرى قوزاقى كهل بدين يجلس بمحاذاة النافذة وهتف بحدة :

— وماذا عن بودتيلكوف وكريفوشليكوف ؟ هل سيعدمان رمياً بالرصاص أيضا ؟ ان هذا تساهل معهما !

فأجاب الرئيس باقتضاب :

— أمّا هما فيجب أن يشنقا بصفتهما رئيسي العصابة .

والتفت الى الكاتب وأمره قائلاً :

— اكتب هذا : «قرار . نحن الموقعين أدناه . . .»

فصدع الكاتب ، كانت تربطه بالرئيس قرابة بعيدة ، وأحنى رأسه المصفف شعره بعناية ، فوق المنضدة ، وراح يخط بقلمه .

وقال أحدهم متأسياً :

— يبدو المصباح قد نفد زيته .

وجعل المصباح ينازع ، والفتيلة تدخن . وخلل الصمت كان طنين ذبابة وقعت فى شراك نسيج عنكبوت على السقف ، وخربشة القلم على الورقة ، والتنفس الثقيل لرجل من أعضاء المحكمة العسكرية يعانى من الربو ، يسمع بوضوح .

قرار

٢٧ نيسان (١٠ أيار) ، ١٩١٨

نحن الموقعين أدناه ، ممثلى القرى

التابعة لنواحى كارغينوفسكايا ، وبوكوفسكايا

وكراسنوكوتسكايا :

ستيبان ماكساييف	يمثل	قرية فاسيليفسكى
نيكولاى كروجيلين	يمثل	قرية بوكوفسكى
فيودور كوموف	يمثل	قرية فومين
الكسندر كوختين	يمثل	فرخنى-يابلونوفسكى
ليف سنيف	يمثل	قرية نجنى-دولينسكى
سمبون فولوتسكوف	يمثل	قرية ايلينسكى
ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية كونكوفسكى
ياكوف رودين	يمثل	قرية فرخنى-دولنسكى
ألكسندر فرولوف	يمثل	قرية سافوستيانوف
مكسيم فيفرالبوف	يمثل	قرية ناحية ميليوتنسكايا
ميخائيل غروشيف	يمثل	قرية نيكولاييف
ايليا يلانكين	يمثل	ناحية كراسنوكوتسكايا
ايفان دياتشنكو	يمثل	قرية بونوماريوف
نيكولاى كريفوف	يمثل	قرية يفلانتييف
لوقا يميليانوف	يمثل	قرية مالاخوف
ماتفى كونوفالوف	يمثل	قرية نوفو-زمتزيفو

ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية بوبوف
فاسيلى شيفولكوف	يمثل	قرية أستاخوف
فيودور تشيكونوف	يمثل	قرية أورلوف
فيودور تشوكارين	يمثل	قرية كليمو-فيودورفسكى

اجتمعنا هنا فى السابع والعشرين من نيسان (١٠ أيار) ١٩١٨ برئاسة ف . بوبوف

قرار

١ — الحكم بالموت رمياً بالرصاص على خونة الشعب الكادح وسارقى قوته ، المدرجة أسماؤهم أدناه ، والذين يبلغ مجموعهم ثمانين ، باستثناء اثنين — هما بودتيلكوف وكريفوشليكوف — حيث تقرر اعدامهما شنقاً باعتبارهما رئيسين لهذه المجموعة .

٢ — تبرئة ساحة القوزاقى أنطون كاليفتسوف من أهالى قرية ميخائيلوفسكى لعدم توفر الأدلة .

٣ — وتقرر اعدام قسطنطين ميلنكوف ، وغافريلا ميلنكوف ، وفاسيلى ميلنكوف ، وأكسيونوف ، وفرشنين الذين هربوا من مفرزة بودتيلكوف وألقى القبض عليهم فى ناحية كراسنوكوتسكايا ، بموجب الفقرة الأولى من هذا القرار (الموت رمياً بالرصاص) .

٤ — ينفذ هذا الحكم غدا الثامن والعشرين من نيسان (١١ أيار) فى السادسة صباحاً .

٥ — يكون الملازم سيتين مسؤولاً عن حراسة الأسرى ، وعند الحادية عشرة بعد الظهر ينسب للحراسة تحت امرته قوزاقيان من كل قرية ، مسلحان ببندقيتيهما . وسيكون أعضاء المحكمة مسؤولين عن تنفيذ هذه الفقرة . وأن ينفذ الحكم خمسة قوزاق من كل قرية ، يرسلون الى ساحة الاعدام .

التوقيع

ف . ن . بوبوف
رئيس القطاع العسكرى ،
أ . ف . بوبوف ، الكاتب

وحين انتهى الكاتب من كتابة قائمة المحكومين ، دسّ القلم بيد الرجل الجالس الى جانبه وقال :

— وقّع !

فأمسك الرجل القلم الملطخ بالحبر بأصابعه القصيرة السمر وقال وقد ندت عن شفتيه ابتسامة بلهاء :

— لا أحسن الخط . . .

ووقع الآخر مرتبكاً هو أيضاً ، مقطب الجبين ، وهو يتصبب عرقاً من الاجهاد . وقام آخر بعدة محاولات فاشلة قبل التوقيع ، ثم سحب بعدها لسانه الذى ظل مدلى أثناء هذه العملية . أمّا بوبوف فقد ثبت توقيعه وذيّله بخط محدود ، ثم نهض وهو يمسح وجهه العرقان بمنديله .

وقال متثائباً :

— أرفق به القائمة .

فقال أحدهم مبتسماً وهو يراقب الكاتب يلصق الورقة على الجدار :

— لسوف يشكرنا كاليدين من الآخرة على صنيعنا هذا .

ولم يستجب أحد للمزحة . ثم بارحوا الدار صامتين .

وفى عتمة سقيفة الباب تنهد أحدهم قائلاً : «يا عيسى المسيح . . .» .

٢٩

لم تغمض جفون الأسرى المحتجزين فى الحانوت الا لماماً ، أثناء تلك الليلة المتلألئة بالنجوم . وسرعان ما انقطع الحديث بينهم . فقد ضاقت أنفاسهم بالهواء الخانق وبما تجيش صدورهم من قلق . وظل واحد منهم يسأل الحارس طوال المساء :

— افتح الباب أيها الرفيق ، أريد أن أخرج . . .

ويقف مضطرب الهندام ، حافى القدمين ، وصديريه مدلى على سرواله ، ويعيد الكلام وهو يشد وجهه على ثقب المفتاح .

— افتح أيها الرفيق !

وأجابه أخيراً أحد الحراس :

— الغول لك رفيق !

فغيّر الأسير لهجته فى المخاطبة :

— افتح أيها الأخ !

فأنزل الحارس بندقيته ، وجر آخر نفس من سيكارته . وأعار سمعه لخفق أجنحة سرب من البط البرى فى طيرانه بحثا وراء طعام الليل ، ثم وضع فمه أمام خصاص الباب وقال :

— بوسعك التبول على نفسك ، أيها الشيطان البائس ! فلن تحتاج الى سروالك فى الليل ، ولن يحل الفجر حتى يرسلوك الى الآخرة سواء كنت مبللاً أو ناشفاً . . .

فصاح الجندى الأحمر قانطاً : «اننا هالكون» ، ثم ابتعد عن الباب .

كانوا جالسين كتفاً لكتف . وفى احدى الزوايا كان بودتيلكوف يسب مع نفسه ويمزق النقود التى كان يحتفظ بها فى جيبه . وبعد أن فرغ من ذلك ، خلع جزمته وربّت على كتف كريفوشليكوف :

— لقد بات واضحاً الآن . . . انهم خدعونا . أجل خدعونا ، أولئك الأنذال عليهم اللعنة ! — قال ذلك لصديقه الذى كان مستلقياً الى جانبه وأردف : — انه لشىء مقرف يا ميخائيل . حينما كنت صبياً كنت أذهب للصيد فى الغابة حاملاً غدارة أبى . كنت أسير والأشجار تبدو أشبه بسقف أخضر فوق رأسى . وكنت اذا رميت البط وأخطأته ينتابنى الحنق ، حتى لأكاد أبكى لولا الخجل .

أمّا هنا فقد خبطت خبط عشواء . فلو أننا تركنا روستوف قبل ذلك بثلاثة أيام لما كتب لنا أن نواجه الموت هنا ، ولكنا قد قلبنا عليهم ثورتهم المعادية رأساً على عقب .

واذ حاول كريفوشليكوف أن يبتسم له التوت شفتاه ألماً . وهمس قائلاً :

— اللعنة عليهم ، فليقتلونا ! فأنا لم أعد أخشى الموت . وكل ما أخشاه هو أننا قد لا نعرف بعضنا البعض فى الآخرة ، كما تقول الأغنية . سنكون هناك ، أنا وأنت يا فيودور ، ولكننا سنلتقى مثل الغرباء . . . وهذا ما أخشاه !

فهز بودتيلكوف بغضب واضعاً يديه الكبيرتين الحارتين على كتفى صديقه :

— دعك من هذا ! ليست المشكلة هنا !

أمّا لاغوتين فقد كان يحدث آخر عن قريته ، وكيف كان جده يسخر منه لطول رأسه ، وكيف أنه نال جلداً بالسوط على يد جده ذاك حين أمسك به الجيران فى مزرعة البطيخ العائدة لهم .

ودارت نتف الحديث حول مواضيع شتى فى تلك الليلة .

وكان يونتشوك قد وجد مكاناً قرب الباب ، حيث راح يتنشق بلهفة الهواء الداخل خلل الخصاص . وعندما عاد بذاكرته الى الماضى ، جعل يفكر فى أمه . واذ أحس بوخزة حادة من الألم ، راح يجبر نفسه على تغيير مجرى أفكاره ، فعرج على ذكرى آنا والحوادث الأخيرة . توجد فى هذا عزاء وراحة بال كبيرين . ولم يعد يشعر بالرعشة التى كانت تعاوده فى عموده الفقرى أو بالألم الداخلى الذى يحس به عندما يتملكه شعور بأنه على وشك أن تنتزع منه الحياة . بل راح يرقب الموت ليخلد الى راحة هامدة بعد مسيرة شاقة مريرة ، حتى أعياه الكلال ، وناء جسده بآلام مبرحة ، فلما

دنت خاتمة المطاف كانت أحاسيسه ناضبة متحجرة .

وكان قربه جماعة من الأسرى يتحدثون بمرح وأسى ، عن النساء والحب ، وعن المسرات ، كبيرها وصغيرها ، التى عاشها كل منهم . تحدثوا عن عوائلهم ، وأقاربهم ، وأصدقائهم . وتطرقوا فى الحديث الى جودة القمح اليانع ، فقد كانت سيقان الحنطة عامذاك عالية الى درجة لا يستطيع المرء أن يرى الغربان السحم فيها . وتاقوا الى الفودكا والى الحرية ، ولعنوا بودتيلكوف . ولكن النعاس خيم على الكثير منهم بجناحه الأسود . واذ هدّهم التعب والاعياء ، خلدوا الى النوم رقوداً وجلوساً وحتى وقوفاً .

وما ان انبلج ضوء النهار حتى انفجر أحدهم باكياً فى يقظته أو منامه . ولشد ما هو فظيع أن يشرع بالبكاء رجال كبار أشداء نسوا مذاق الدموع المالحة منذ الطفولة . وفى الحال مزقت السكون الوسنان عدة أصوات :

— اخرس ، عليك اللعنة !

— اخرس والاّ مزقت حنجرتك .

— ما أشبهك بالنساء !

— فَقَدَ كل شعور بالحياء ، فى حين ينام الرجال الى جانبه !

وخن الرجل بأنفه ، وتمخط ، ثم خلد الى الصمت . وشعت هنا وهناك رؤوس السكاير الحمر المتلامعة ، ولكن أحداً لم يحر بكلام . كان الهواء خانقاً مفعماً برائحة العرق الذى يتصبب من أجساد الرجال القوية وقد تلاصقت مع بعضها ، وبدخان السكاير والندى الذى تجمع فى الليل .

وفى القرية أنبأ ديك بشروق الشمس . وتناهى من خارج الحانوت وقع أقدام وقعقعة الحديد .

وصاح أحد الحراس :

— من هناك ؟

فأجاب صوت فتى متحمس :

— أصدقاء ! اننا ذاهبون لنحفر قبراً لرجال بودتيلكوف .

وفى الحانوت سرت ململة بين الأسرى .

٣٠

وصلت مفرزة قوزاق تاتارسكى بقيادة بيوتر ميليخوف قرية بونوماريوف فى فجر اليوم الحادى عشر من أيار فألفوا القرية تضج بقعقعة أحذية القوزاق ، وصهيل الخيل فى طريقها لورد الماء . كانت الحشود تتدفق صوب الطرف الأقصى للقرية . فأوقف بيوتر رجاله وسط القرية ، وأصدر أمره بالترجل . فشخص اليهم عدد من القوزاق . وسأل أحدهم :

— من أين أنتم ؟

— من تاتارسكى .

— تأخرتم بعض الشىء . فقد أسرنا بودتيلكوف بدون مساعدتكم . وقد احتجزوا هناك مثل الدجاج فى القن . — وضحك ولوح بيده صوب الحانوت .

فاقترب خريستونيا وغريغورى وبضعة رجال آخرين منه ، وتساءل خريستونيا :

— الى أين سيرسلونهم ؟

— ليلتحقوا بالموتى .

فأمسك غريغورى بمعطف الرجل وقال :

— ماذا ؟ أنت تكذب !

فرد عليه الرجل بعطف ، وخلص نفسه بحذر من أصابع غريغورى القوية :

— حسناً ، اخترع أنت أكذوبة أفضل منها ، يا صاحب السعادة ! أنظر هناك ، ها قد أعدوا المشنقتين لهما . — وأشار الى حبلين مدليين من عارضة وضعت بين صفصافتين قميئتين :

فأصدر بيوتر أمره قائلاً :

— خذوا الجياد الى الاسطبل .

* * *

كانت السماء غائمة . وكان مطر خفيف يتساقط . وتجمع حشد كبير من القوزاق والنساء خارج القرية . لقد خرج أهالى بونوماريوف بلهفة وكأنهم ذاهبون للفرجة على مشهد نادر مسلّ ، بعد أن أحيطوا علماً بأن الاعدام سينفذ فى الساعة السادسة . كانت النسوة ترتدى ملابس العيد ، وقد اصطحبت الكثيرات منهن أطفالهن . وغصت أرض المرعى بالجمهور المتجمع حول المشنقتين والحفرة التى يبلغ عمقها ست أقدام . وتسلق الأطفال تلة التراب الطرى المرمى الى جانب الحفرة ، فى حين راح الرجال يتحدثون بحماس عن الاعدام المقبل ، والنساء يتهامسن بأسى فيما بينهن .

ووصل رئيس المحكمة العسكرية وآثار النوم ما زالت بادية على وجهه الذى ارتدى سيماء الجد . ولاحت أسنانه القوية فيما كان يدخن ويعضعض بسيكارته . وبصوت أبح أمر الحرس القوزاق قائلاً :

— ابعدوا الناس عن الحفرة . واخبروا سبيريدونوف أن يرسل الوجبة الأولى .

وألقى نظرة الى ساعته ووقف جانباً يرقب الحشد يدفعه الحراس وقد بدا فى هيئة نصف دائرة زاخرة بالألوان .

وقاد سبيريدونوف ثلة من القوزاق بسرعة الى الحانوت . فالتقى فى طريقه بيوتر ميليخوف :

— هل من متطوعين من قريتكم ؟

— متطوعون لأى شىء ؟

— ليقوموا بمهمة الرمى .

فأجابه بيوتر بخشونة ، وهو يجتاز سبيريدونوف الذى سد الطريق :

— كلا ، لا يوجد لدينا ، ولن يكون البتة !

ومع هذا فقد تطوع بعض من رجال تاتارسكى . فلقد اندفع ميتكا كورشونوف الى بيوتر وقال محاوصاً عينيه الخضراوين وهو يمسد شعره الظاهر من تحت رفرف قبعته :

— أريد أن أتطوع . ففيم تقول «كلا ؟» سأكون واحداً منهم . اعطنى بعض الخراطيش ، فلديَّ ما يكفى لمشبك واحد فقط .

وانضم اليه أندريه كاشولين وعلى وجهه الشاحب أمارات شر مستطير ، وفيدوت بودوفسكوف .

وسرى الهمس والهمهمة بين الحشد المتراص عندما خرجت أول مجموعة من الأسرى المحكومين ، قوامها عشرة ، يحيط بهم حراس من القوزاق .

كان بودتيلكوف يسير فى المقدمة ، حافى القدمين يرتدى بنطلون خيالة أسود فضفاضاً ، وكانت سترته الجلد مشرعة . كانت قدماه الكبيرتان تطآن الأرض الموحلة بثبات ، وحين حدث أن تزحلق رفع ذراعه اليسرى قليلاً ليحافظ على توازنه . والى جانبه كان كريفوشليكوف شاحباً شحوب الموتى ، يجر خطاه بمشقة . كانت عيناه تنبضان بوميض محموم ، وفمه يختلج من الألم . وفيما كان يلملم معطفه على كتفيه ، سرت فى جسمه رعشة كمن يهلك من البرد . ولسبب ما أبقى على ملابس هذين الاثنين ، أمّا الآخرون فقد عروا الاّ من ملابسهم الداخلية . وسار لاغوتين الى

جانب بونتشوك . كان كل منهما حافى القدمين ، وقد كشف سروال لاغوتين الداخلى الممزق عن جلده المصفرّ المشعر ، فجعل يلمه على بعضه حياء . أمّا بونتشوك فراح يتطلع عبر رؤوس الحرس فى بساط الغيم المترامى فى الأبعاد . كانت عيناه الباردتان الحزينتان تطرفان من شدة الترقب والانفعال ، وكان يمسد براحته العريضة صدره المشعر من تحت ياقة قميصه المفتوحة . كان يوحى للرائى أنه يتطلع الى شىء بعيد المنال ، ولكن التأمل فيه شىء يسر النفس مع ذلك . أمّا الآخرون ، فقد تمت أمارات بعضهم عن عدم اكتراث وتحجر ، ولوّح بلشفى أشيب الشعر بيده بازدراء وبصق عند قدم الحراس القوزاق . بيد أن اثنين أو ثلاثة لاح فى عيونهم حنين أبكم ، وعلى وجوههم الممسوخة رعب لا حد له ، حتى أن الحرس كانوا يشيحون بوجوههم كلما التقت بهم نظراتهم .

كانوا يسيرون بسرعة . وأعطى بودتيلكوف ذراعه لكريفوشليكوف الذى كان يتعثر فى سيره . واقتربوا من الحشد الذى كان يمـــور بعصابات الرأس البيض والقبعات الحمر . وعندما رنا اليهم بودتيلكوف راح يلعنهم بصوت عال . ثم لما ألفى لاغوتين قد سمر عينيه فيه ، سأله فجأة :

— ما الأمر ؟

— لقد شاب رأسك فى الأيام الأخيرة . . .

— هذا ليس بالغريب ! — وجر بودتيلكوف نفسه بمشقة ، ومسح العرق من حاجبه الضيق ، وأعاد القول : — هذا ليس بالغريب ! حتى الذئب يشيب فى القفص ، فكيف بى وأنا رجل .

ولم ينبسا بكلمة أخرى . وماج الحشد الى أمام بكتلة متراصة . وامتد القبر الى اليمين أشبه بندبة طويلة سوداء .

وأصدر سبيريدونوف أمره :

— قف !

فخطا بودتيلكوف فى الحال خطوة الى الأمام ، وجال ببصره بقلق فى الصفوف المتقدمة من الناس . كان معظمهم شيباً . وكان رجال خط الجبهة الى الوراء بعض الشىء تعذبهم ضمائرهم . واهتز شاربا بودتيلكوف المتهدلان حين راح يقول بتباطؤ وبجلاء فى الوقت ذاته :

— أيها الشيوخ ! اسمحوا لى ولكريفوشليكوف أن نرى كيف سيواجه رفاقنا الموت . اشنقونا بعدئذ ، فنحن الآن نود أن نرى أصدقاءنا ورفاقنا ، وأن نقوى عزائم الضعفاء منهم .

وخيم على الحشد سكون مطبق ، حتى أن قطرات المطر صارت تسمع وهى تتساقط على قبعاتهم .

ووقف الرئيس بوبوف فى المؤخرة يبتسم ، ويكشف عن أسنانه التى صبغها التبغ ، ولكنه لم يرفض الطلب . وأعلن الشيوخ عن موافقتهم بجلبة وضجيج . فخطا كريفوشليكوف وبودتيلكوف نحو الحشد الذى انشطر وفتح فسحة ضيقة أمامهما . وتوقفا على مسافة يسيرة من الحفرة ، يحف بهما الحشد من جميع الجوانب ، ترقبهما مئات العيون . وراحا يحدقان النظر فيما جعل القوزاق يصفون الحرس الأحمر صفاً مضطرباً وظهورهم الى الحفرة . كان بودتيلكوف يستطيع الرؤية جيداً ، بيد أن كريفوشليكوف كان عليه أن يشرئب برقبته ويقف على أطراف أصابعه .

كان بونتشوك الأخير فى أقصى اليسار ، واقفاً وقد انحنى قليلاً ، يتنفس بمشقة دون أن يرفع عينيه عن الأرض . والى جانبه وقف لاغوتين ، وهو لما يزل يغطى سرواله الداخلى الممزق بذيل قميصه . أمّا الرجل التالى فى الصف فقد تغيرت ملامحه حتى لا يكاد المرء يميزه بسهولة . فلقد بدا عليه أنه شاخ عشرين عاماً

على الأقل . واقترب آخران من الحفرة واستداراً ، كان واحد منهما يبتسم بتحد وجسارة ، ويصب سيلاً حامياً من اللعنات على الحشد الصامت ويتوعدهم ملوحاً بقبضته القذرة . أمّا آخر الثمانية فقد تعين عليهم أن يحملوه ، اذ رمى بنفسه الى الوراء ، وراح يجرجر قدميه بوهن على الأرض ، ويتشبث بالحرس القوزاق ، ثم شخص بنظرة الى الأعلى وهو يهز وجهه الذى علته الدموع :

— اتركونى ، أيها الاخوة ! اتركونى بحق الربّ ! أيها الاخوة ! أيها الاخوة ! ماذا أنتم فاعلون ! لقد نلت أربعة أوسمة فى الحرب الألمانية . ولديَّ أطفال . رباه ، اننى برئ ، آه ، فيم تفعلون هذا ؟ . .

فركله قوزاقى مديد القامة برجله على صدره وجره صوب الحفرة . وهنا تميزه بودتيلكوف ، فجمد قلبه : كان واحداً من أشجع رجال الحرس الأحمر ، رجلاً نال الدرجات الأربع كلها لوسام القديس غيورغى ، فتى وسيماً أشقر الشعر . ثم رفعه القوزاق وأوقفوه على قدميه ، ولكنه ما لبث أن تهاوى أيضاً وراح يتشبث بأقدامهم ، ضاغطاً شفتيه على جزماتهم — على الجزمات التى كانت تركله على وجهه — ويجأر بصوت مختنق كسير :

— لا تقتلونى ! ارحموا حالى ! فلديَّ ثلاثة أطفال صغار ، بينهم بنت . . . يا اخوتى ، يا أصدقائى !

واحتضن ركبتى القوزاقى الطويل ، غير أن الرجل تخلص منه ، ووثب الى الخلف ، وسدد له ركلة حامية على أذنه بكعبه المنعل بالحديد . فسال الدم من أذنه الأخرى وجرى حدر ياقته البيضاء .

فصرخ سيبريدونوف بغضب :

— أوقفوه !

ورفعوه بصورة ما ، وأوقفوه وهرولوا الى الخلف . وفى الصف المقابل رفعت ثلة المتطوعين بنادقها استعداداً . وصدر عن الحشد أنين ، ثم ران عليهم صمت لا يرين . وأعولت امرأة بصورة هستيرية .

أمّا بونتشوك فقد تاق مرة أخرى وأخرى الى النظر الى بساط السماء الرمادى ، والى الأرض الحزينة التى ظل يجوبها ويعانى فيها تسعة وعشرين عاماً . ورفع عينيه ، فرأى صف القوزاق المتراص على بعد نحو خمس عشرة خطوة . رأى رَجلاً طويلاً ، ذا عينين خضراوين محاوصتين ، وعلى حاجبه الأبيض الضيق خصلة الصبابة * ، وشفتاه مزمومتان ، وقد مال بجسده الى الأمام ، يهدف الى صدر بونتشوك تماماً . وقبل أن يدوى الرصاص مباشرة أصمّت أذنى بونتشوك صرخة مستطيلة . فالتفت ، فاذا بامرأة شابة نمشاء تندفع من الحشد وتولى الأدبار شطر القرية ، واحدى ذراعيها تشد رضيعاً الى صدرها ، والأخرى على عينيه .

وبعد أن أطلقت ثلة الرمى رشقتها غير المنتظمة ، على الرجال الثمانية الذين كانوا واقفين عند الحفرة وسقطوا فى خط مضطرب ، هرولت الثلة الى الحفرة ، وعندما رأى ميتكا كورشونوف الجندى الأحمر الذى هدف نحوه ما زال يتضور وينهش كتفه ، سدد اليه طلقة أخرى وهمس لاندريه كاشولين :

— أنظر الى الشيطان ! لقد عض كتفه حتى نزف دماً ، ومات ميتة الذئب ، دونما أنة .

واقترب عشرة محكومين آخرين من الحفرة يستحثهم الحرس بأعقاب البنادق .

---

* خصلة شعر يتزين بها شباب القوزاق الذين يسعون وراء النساء . المترجمون .

وبعد الرشقة الثانية عاطت النسوة وسط الحشد وولين الأدبار ، متدافعات مجرجرات أطفالهن وراءهن . وشرع الرجال كذلك يبتعدون عن المكان . لقد كان مشهد الاعدام الكريه ، وصراخ وأنين المحتضرين ، وصياح الذين ينتظرون دورهم ، مؤثراً للغاية ، كان ذلك المشهد الفظيع أكثر مما يحتمله المتجمهرون ، ولم يبق غير رجال خط الجبهة الذين ألفوا منظر الموت ، ومن الشيوخ أشدهم صلابة .

وجيء بوجبات جديدة من الحرس الأحمر الحفاة العراة ، فواجهتهم صفوف جديدة من المتطوعين ، وانطلقت الرشقات تتبعها اطلاقات فرادى تشق الهواء لتجهز على الجرحى . وأهيل التراب فى الحال على الوجبة الأولى من الجثث فى الحفرة . ومضى بودتيلكوف وكريفوشليكوف صوب الآخرين الذين ينتظرون دورهم وحاولا أن يبثا فيهم الصلابة . غير أن كلماتهما قد فقدت كل معنى : فلقد هيمنت قوة أخرى على هؤلاء الرجال الذين سيتساقطون بعد دقيقة أو اثنتين كما تتساقط الأوراق الذاوية من الأغصان .

وشق غريغورى ميليخوف طريقه بين الحشد ليعود الى القرية ، فصار وجهاً لوجه أمام بودتيلكوف . فخطا قائده السابق خطوة الى الوراء وجعل يحدق فيه :

— حتى أنت هنا يا ميليخوف ؟

فاكتست وجنتا غريغورى شحوباً أزرق ، وتوقف وقال :

— أنا هنا ، كما ترى . . .

فابتسم بودتيلكوف ابتسامة مزدرية وقال : — أجـــل ، أرى . . . — وحدق فى وجه غريغورى بحقد مفاجئ وأردف : — حسناً ، فأنت تقتل اخوانك اذا ؟ هل قلبت بطانة سترتك ؟ يا لك من . . . — وتقدم من غريغورى وهمس : — اذاً فأنت حاضر

لخدمتنا ، ولخدمتهم أيضاً ، أى أنك تخدم من يدفع أكثر ؟ يا لك من ! . .

فأمسك غريغورى بكمه وسأله مبهور النفس :

— هل تذكر المعركة فى غلوبوكايا ؟ هل تذكر كيف أعدموا الضباط ؟ أعدموهم حسب أوامرك ، ها ؟ والآن جاء دورك . لا تحزن ! فلست الوحيد الذى يمتلك صلاحية سلخ جلود الرجال ! لقد انتهى أمرك يا رئيس قوميسارى الدون ! أيها الخنزير القذر ، لقد بعتَ القوزاق لليهود ! أتفهم ؛ أم تريد سماع المزيد ؟

واحتوى خريستونيا غريغورى الهائج بذراعه ومضى به . وقال له :

— لنعد الى الخيل . فليس لدينا ما نفعله هنا . يا الهى ، ماذا دهى الناس ؟ . .

ولكنهما توقفا لما سمعا صوت بودتيلكوف قد ارتفع بحماس . وراح يصيح ، بين شيوخ ورجال خط الجبهة :

— أنتم عمى . . . جهلة ! وهل ستعتقدون أنها ستنتهى بموتنا ؟ كلا ! فاليوم أنتم الأعلون ، أمّا غداً فسيأتى دوركم وتعدمون . ان حكم السوفييتات سيقام فى كل أنحاء روسيا . تذكروا كلماتى ! انكم تريقون دماء الآخرين دونما طائل ! ولستم سوى شرذمة من الحمقى .

فردّ عليه رجل عجوز :

— سنعالج أمر كل من يأتى الينا !

فقال بودتيلكوف باسماً :

— لن تقدر على قتلهم جميعاً ، أيها الجد ! لن تقدر على وضع كل روسيا على المشانق ! بل حافظ على رأسك أنت . وسوف تعيد النظر فى الموضوع يوماً ما ، ولكن بعد فوات الأوان .

— لا تهددنا !

— لست مهدداً ! انما أريد أن أريكم السبيل السوى .

— انك لأعمى يا بودتيلكوف . لقد أعمت موسكو بصيرتك .

ولم يلبث غريغورى ليصغى أكثر من ذلك ، فمضى مسرعاً يكاد يركض ، صوب الفناء حيث ربط حصانه . وأحكم شد حزام سرجه ومضى هو وخريستونيا هذباً خارج القرية وجرى على التلال دون أن يلقى نظرة الى الخلف .

ولكن القوزاقى ظل يقتل أخاه القوزاقى فى بونوماريوف . وامتلأت الحفرة بالجثث بعد أن أعدم جميع أفراد الحرس الأحمر . وأهيل عليهم التراب وديس بالأقدام . وقاد ضابطان يرتديان قناعين أسودين بودتيلكوف وكريفوشليكوف ، الى المشنقة . واعتلى بودتيلكوف الكرسى تحت الأنشوطة ، جريئاً ، أبياً مرفوع الرأس ، وفك ياقته من حول عنقه الأسمر المتين ، ووضع بنفسه الحبل حول رقبته دون أن تند عنه اختلاجة . وساعد أحد الضابطين كريفوشليكوف على ارتقاء الكرسى ، ووضع الحبل حول رقبته .

فطلب بودتيلكوف قائلاً :

— اسمحوا لنا أن نقول كلمة أخيرة قبل موتنا .

فهتف رجال خط الجبهة :

— تكلم ! هيا !

فبسط يديه نحو الجمع الصغير المتبقى . وشرع يقول :

— أنظروا كيف لم يبق سوى القليل ليتفرجوا على موتنا ! ان ضميرهم يعذبهم . اننا باسم الشعب الكادح ، ولمصلحته ناضلنا ضد حثالة الجنرالات ، مضحين بأرواحنا . وها نحن نموت على أيديكم ! ولكننا لا نصب اللعنات عليكم ! فقد غرر بكم أيما تغرير . وسوف تأتى الحكومة الثورية وستعرفون مع من كان الحق .

لقد ألقيتم بخيرة أبناء الدون الهادئ فى تلك الحفرة . . .

فعلا هدير الأصوات ، وضاعت كلماته فى الجلبة ، فاستغل أحد الضابطين هذه الفرصة ، وركل الكرسى من تحت قدميه . فهوى جسم بودتيلكوف الضخم وراح يتأرجح ، غير أن قدميه لامستا الأرض وخنقته العقدة المشدودة الى عنقه واضطرته الى أن يشرئب بنفسه الى الأعلى . واستوى على أطراف أصابعه ، وراح ينشد الهواء ، وأصابع قدميه الحافيتين تحفر فى الأرض الرطبة . وقال بهدوء وهو يجيل بين الحشد بعينيه الجاحظتين :

— حتى شنق الرجال لم تتعلموه كما ينبغى . . . ولو كنت أنا القائم بالمهمة ، لما جعلتك تلمس الأرض يا سبيريدونوف ! . .

وسال اللعاب من فمه ، فرفع الضابطان المقنعان وأقرب الرجال اليهما الجسد الثقيل الذى لا حول له ووضعوه بصعوبة على الكرسى .

أمّا كريفوشليكوف فلم يسمح له بانهاء خطابه . فقد قذف بالكرسى من تحت قدميه فارتطم بمسحاة مهجورة . وظل جسده مشدود العضل يتأرجح الى الأمام والوراء وقتاً طويلاً ، ويتقلص الى كتلة متكومة حتى لاصقت ركبتاه الذقن ، ثم ما لبث أن انبسط ثانية وهو ينتفض فى اختلاجة النزع . كان ما يزال ينازع ، ولسانه الأسود الناتئ يتصور ، عندما ركل الكرسى ثانية من تحت بودتيلكوف . ومن جديد هوى جسمه بقوة ، وانقصم سلك سترته الجلد من الكتف ، لكن أطراف أصابعه بلغت الأرض ثانية . فسرى فى حشد القوزاق أنة متوجعة ، ورسم بعضهم اشارة الصليب وابتعدوا مسرعين . لقد بلغ بهم الفزع والارتباك حداً عظيماً ، حتى أنهم وقفوا جميعهم برهة وكأنهم مشدودون الى الأرض ، يحدقون برعب فى وجه بودتيلكوف الذى احتقن بالسواد .

ولكنه لم يقو على الكلام ، فقد شدت العقدة عليه الخناق ،

وراح يجبل بعينيه اللتين كانت تسيل منهما الدموع ، ويلوى فمه . وأخذ يجاهد للتخفيف من ألمه ، فشد جسمه بكامله الى الأعلى بصورة موجعة فظيعة .

وأخيراً فكر أحدهم فى حل ، فأخذ يحفر الأرض من تحته بمسحاة . ومع كل ضربة مسحاة كان جسده يزداد توتراً ، وتستطيل رقبته أكثر فأكثر ، ويتدلى رأسه على كتفيه . ولم يتحمله الحبل الاّ بصعوبة ، فقد كان يتأرجح ببطء ، ويصر عند العارضة . وراح بودتيلكوف يتأرجح أيضاً متجاوباً مع حركته الايقاعية ، ويستدير الى جميع الجهات كأنه يعرض أمام قاتليه وجهه الأزرق المسود ، وصدره الذى يفيض بسيل حام من اللعاب والدموع .

٣١

ترك ميشا كوشيفوى والولد كارغين فى الليلة الثانية بعد هروبهما من تاتارسكى . كان ضباب يلف السهب ، متجمعاً فى الحفر ويزحف صعد سفوح الوهاد العميقة . وكانت طيور السلوى تتنادى فى العشب الغض . وفى أعالى السماء طفا القمر أشبه بالزنبق المائى المتفتح فى بحيرة علاها القصب والحلفاء .

ظلا يسيران حتى الغبش ، وأخذت المجرة تتلاشى فى السماء ، وكان الندى يتساقط . واقتربا من احدى القرى . ولكن ستة فرسان من القوزاق أدركوهما قبل القرية ببضعة فراسخ . وحاول ميشا والولد أن يغيرا طريقهما ، غير أن الحشيش كان قصيراً ، والقمر طالعاً . فألقى القوزاق عليهما القبض وعادوا بهما نحو كارغين . وقطعوا نحو ثلاثمئة يارد دون أن ينبس أحد ببنت شفة ، ثم علا أزيز اطلاقة . فتعثر الولد بقدميه وراح يمشى مترنحاً ، أشبه بحصان

يخاف من ظله . لم يهو ، ولكنه انثنى على الارض بصورة مرتبكة ، وشد وجهه الى نبات الشيح الرمادى .

وواصل ميشا السير خمس دقائق ، وهو يتعثر ، دون أن يشعر بشىء سوى رنين فى أذنيه . ثم تساءل :

— لم لا ترمون أيها الخنازير ؟ فيم تعذبوننى ؟

فقال أحد القوزاق بنبرة عطوف :

— امشِ ، امشِ ! وأمسك لسانك ! لقد قتلنا الفلاح ، ولكننا رأفنا بحالك . لقد كنت فى الكتيبة الثانية أثناء الحرب الألمانية ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— حسناً ، ستؤدى الخدمة مرة أخرى فى الثانية عشرة . فأنت ما تزال شاباً ، لقد شططت بعض الشىء ، ولكن ذلك ليس بالاثم الكبير . لسوف نشفيك من علتك .

وبعد ثلاثة أيام «أشفت» ميشا محكمة عسكرية عقدت فى كارغين . وفى تلك الأيام كانت المحكمة توجه نوعين من العقوبة : الرمى بالرصاص ، والفلقة . وكان المحكومون بالاعدام يساقون الى السهب فى الليل . أمّا أولئك الذين كان ثمة أمل فى صلاحهم فيجلدون علناً فى الساحة .

وفى صباح الأحد بدأ الناس يتجمهرون ، مالئين الساحة ومتسلقين على المصاطب ، والسقائف ، وسقوف البيوت والحوانيت .

كان أول من نال العقاب ابن قسيس . كان الرجل بلشفياً صلباً ، وكادوا أن يعدموه ، بيد أن أباه كان قساً صالحاً ، يحترمه الجميع ، ولذا قرروا أن ينفحوا ابنه عشرين جلدة . فشلحوه سرواله وطرحوه عارياً على مصطبة وأوثقوا يديه سوية تحتها ، وقعد قوزاقى فوق ساقيه ، ووقف الى جانبه اثنان آخران يحملان حزماً من أغصان

الصفصاف المبللة . وشرعا بالضرب . وعندما انتهيا نهض الرجل ، وخض نفسه ، وسحب سرواله ، ثم انحنى باحترام لجميع الحاضرين فى كل الاتجاهات الأربعة . كان فى منتهى السعادة لأنه تخلص من الاعدام ، ولهذا انحنى معرباً عن امتنانه :

— شكراً لكم ، أيها الشيوخ !

فأجابه أحدهم :

— كان ذلك مبعث سرور لنا !

وهكذا غصت الساحة بهدير من الضحك حتى أن الأسرى الجالسين على مقربة يسيرة منهم داخل سقيفة علت وجوههم البسمة .

وعلى هذا المنوال ، أتحفوا ميشا عشرين من أجود الجلدات . بيد أن عاره كان أعظم . فكل المنطقة ، بشيوخها وشبابها ، تجمعت لتتفرج عليه . وشد ميشا سرواله وقال للقوزاقى الذى جلده وهو يكاد ينتحب :

— هذا اخلال !

— بأى شىء ؟

— عقلي هو الذي فكر ، وكان على عجيزتي أن تدفع الثمن . سأظل بقية حياتى أحس بالعار .

فقال له القوزاقى معزياً :

— «لا تقلق ، فالعار ليس كالنار ، انه لن يلتهم عينيك ، — وأضاف ليشجع ضحية سوطه : — أنت قوى يا ولدى ! لقد كانت ضربتان مما نفحتك قويتين حقاً . أردت أن أرى فيما اذا كنت ستبكى ، ولكنى لم أستطع أن أنتزع منك الدموع . وقبل بضعة أيام جلدوا رجلاً فلم يستطع ضبط بطنه . لا بد أن أمعاءه ضعيفة .

وفى اليوم التالى أرسل ميشا الى الجبهة .

ولم يدفن الولد الاّ بعد يومين . لقد أرسل الأتمان قوزاقيين من

أقرب قرية فحفرا له قبراً غير عميق . وجلسا يدخنان وسيقانهما مدلاة فى الحفرة . قال أحدهما :

— ان الأرض قوية هنا .

— مثل الحديد . فلم يسبق لها أن حرثت طيلة حياتى ، وهكذا تصلبت على مر السنين .

— أجل ، ان الفتى سيرقد فى أرض طيبة ، على رابية . وتأتيها هنا الريح والشمس ، انها جافة . ولن يتفسخ بسرعة .

وألقيا نظرة على جثة الولد المضغوطة فى العشب ، ونهضا .

— هل نخلع جزمته ؟

— بالطبع . انها جزمة جيدة .

وأرقداه فى القبر على الطريقة المسيحية ، حيث جعلا رأسه الى الغرب ، وأهالا بالمسحاة التراب الأسود الثر فوقه .

وسأل أصغرهما سناً حين بلغ التراب مستوى الحواف :

— هل نسويه بأقدامنا ؟

فتنهد الآخر وقال :

— لا حاجة ، أتركه ! فحينما تنفخ الملائكة بالصور الأخير سيكون من الأيسر له النهوض على قدميه .

وفى غضون أسبوعين نما على الرابية نبات الشيح والأرقطيون ، وراحت سيقان الشوفان البرى تتراقص فوقه ، وأزهر اللفت على جانبيه بصفرة بهيجة ، وارتفعت سيقان البرسيم ، وفاح الهواء بالسعتر والشبرم والندوة العسلية .

وبعد ذلك بأيام ذهب رجل عجوز الى خارج القرية ، واحتفر حفرة صغيرة عند رأس القبر ، وأقام هيكلاً صغيراً على عمود نحت من بلوطة خضراء . فراحت معالم العذراء الحزينة تشع برقة تحت الجملون الصغير ، وفى القاعدة تحتها نقشت كتابة باللغة السلافية القديمة :

أيها الناس ، لا تدينوا أخا لكم
فى أيام الحرب والمصائب .

وعاد العجوز على صهوة جواده وبقى الهيكل الصغير فى السهب ليبعث الأسى فى عيون عابرى السبيل بمنظره الأليم أبداً ، وليثر فى قلوبهم حنيناً غريباً حزيناً .

وبعد ذلك ، فى أيار ، راح اثنان من طيور الحبارى يتصارعان حول الهيكل . وأحدثا فسحة صغيرة جرداء فى الشيح الأزرق ، وسحقا الجزء الأخضر النامى لعشب الأرانك ، وهما يتنازعان على الأنثى ، ليجددا الحياة ، والحب والخصب . وبعد ذلك بقليل وضعت أنثى الحبارى تسع بيضات زرق مضببة مرقشة ، تحت راية تقع تحت الهيكل تماماً ، فى الظل المهلهل لنبات الشيح الشائخ ، ورقدت فوقها ، لتبعث الدفء فيها ، وتحميها بجناحيها الزاهيين .

محتويات

الجزء الرابع
٣
الجزء الخامس
٢٥٠